

القسم الثاني

المغرب الأقصى

Obaikandi.com

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية^(١)

المغرب الأقصى أبعد أجزاء المغرب عن بلدان المشرق ، فهو نهايته الواقعة على المحيط الأطلسي غربا والبحر المتوسط شمالا ، وتحده الجزائر شرقا والصحراء الكبرى جنوبا ، وسطحه فى الجملة جبلى إذ تمتد فيه سلسلتان من الجبال متصلان جيولوجيا بجبال الألب الأوربية ، وهما تمتدان فيه من الغرب إلى الشرق ، وأولاهما شمالية ، ويتفرغ منها فى الشمال الغربى فرع جبال الريف الذى يتخذ شكل قوس يحتضن الساحل الشمالى من مدينة سبتة جنوبى جبل طارق إلى مدينة مليلة غربى مصب نهر الملوية . ويمتد فرع محاذ له يسمى أطلس التل ، بينه وبين سلسلة جبال الأطلس الصحراوى هضبة وتكثر فى هذا السطح الجبلى أنهار ونهيرات وسهول . وسلسلة الجبال فى الأطلس الصحراوى شديدة الارتفاع وتتميز بكثرة المنحدرات الوعرة ، وتنتشر منها سلسلة جبال صغيرة يسميها ابن خلدون جبال درن ، وكثير من جبال الأطلس الصحراوى تكسوه الغابات وتتوجه الثلوج .

ولكى نتصور المغرب الأقصى جغرافيا ينبغى أن نعرض مناطق ، وأول ما يلقانا منها فى الشمال الغربى منطقة الهبط ، وتنتهى شمالا على مضيق جبل طارق وشرقا على البحر المتوسط وغربا على المحيط الأطلسي ، ومن أهم مدنها سبتة وطنجة شمالا وتطوان على البحر المتوسط شرقا وأصيلا على المحيط الأطلسي غربا ومنطقة أزغار جنوبا ، ويبلغ طول الهبط نحو مائة ميل وعرضها نحو ثمانين ميلا ، وتكثر فيها المجارى والنهيرات المائية وأرضها خصبة جدا ووافرة الإنتاج ، وسهولها وجبالها مأهولة بالسكان . ولعب سكانها دورا مهما فى الدفاع عن غرناطة وإقليمها حين ظلت قرنين ونصفا تقاوم نصارى الإسبان الشماليين ، وخاصة سكان جبل ودراس البواصل ، وقد ظلوا يتداولون قصصا كثيرة فى عبارات نثرية وقصائد شعرية عن

محمد عبد المنعم الشرقاوى ومحمد محمود الصياد وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

(١) انظر فى جغرافية المغرب الأقصى كتابات أبى عبيد البكرى والإدريسى (انظر جغرافية الجزائر) وجغرافية الوطن العربى للدكتور محمد محمود الصياد وصورة الأرض لابن حوقل وملاحم المغرب العربى للدكتورين

بطولات بطل شعبي من أبطالهم يسمى « هُلولا » وبطولته في المغرب الأقصى تماثل البطولات التي تحكى في فرنسا عن بطلم رولان في ملحمة المشهورة ، وحرى بنا أن تكون لنا ملحمة مماثلة عن « هُلولا » . وجنوبى هذه المنطقة على المحيط منطقة أزغار ، وهى سهل خصب وتكثر بها المدن والقرى والسكان ، وتمتد على المحيط نحو ثمانين ميلا ومن مدنها القصر الكبير وميناء العرايش ، ولكثرة زروعها تمون مدينة فاس ، ويؤلف شبابها زهرة الجيش الفاسى . وإلى الجنوب منها منطقة فاس ، وهى مدينة متحضرة من قديم أو بعبارة أدق منذ بناها إدريس مؤسس الدولة الإدريسية سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٧ م وخطت فى الحضارة خطوات واسعة منذ الدولة المرينية ، وهى تتوسط سهلا خصبا أتاح لسكان منطقتها معيشة طيبة لكثرة حقولها وبساتينها ومن مدنها مكناس وتنتج أرضها مختلف الفواكه والثمار ، ومن مدنها أيضا سلا وهى ميناء على المحيط ونشأت بجانبها مدينة الرباط ، ومدن كل هذه المنطقة تتميز بحضارة رفيعة . وجنوبى هذه المنطقة منطقة تامسنة وهى منطقة غنية وبها كثير من المدن والقرى ، تُعدُّ بالعشرات . وتنتهى فى الجنوب بجلال أطلس التل ، ومن أهم مدنها أنفة وخلقتها حديثا الدار البيضاء ، وكانت أنفة مزدانة بجوامع وفنادق جميلة ، وهى ميناء على المحيط فى وسط سهل كثير الزروع والحبوب . وإلى الجنوب منها منطقة دكالة ، وكان أهلها فى العصور الوسطى متأخرين لا يعرفون طرق الزراعة وغرس البساتين ومن أهم مدنها آسفى . وتليها على المحيط منطقة حاحة وتعد امتدادا لمنطقة مراكش الداخلية ، وهى منطقة وعرة مليئة بالغابات والجبال والأودية المائية الصغيرة وتزدحم بالسكان ، وأكثر مدنها القديمة أصبحت أطلالا ، وتنتهى هذه المنطقة عند الأطلس الصحراوى . وتليها إلى الجنوب على المحيط منطقة السوس آخر المناطق الغربية للمغرب الأقصى ، وتقع وراء الأطلس الصحراوى جنوبا ، ويكثر فيها النخيل ، ومن أهم مدنها أغادير عند نهاية جبال الأطلس وقرب مصب نهر السوس ، ومنها أيضا ماسة على المحيط وتيوت فى الشمال ، وأرض هذه المنطقة خصبة وتنتج كمية وافرة من الحبوب والفاكهة وخاصة من التين والعنب .

ونعود إلى أقصى الشمال على البحر المتوسط ، فنلتقى بمنطقة الريف متاخمة لمنطقة الهبط ، وتمتد شرقا نحو مائة وأربعين ميلا حتى نهر النكور وجنوبا نحو أربعين ميلا حتى الجبال التى تحاذى نهر الورغة الواقع فى منطقة فاس ، وهى منطقة مليئة بالجبال والغابات شديدة البرودة ، وبها كثير من أشجار البرتقال والتين ، ولكن القمح قليل . وليس فى الجبال سوى مدن قليلة ، وأكثر السكان فى مدن الساحل صيادون وملاحون ، وتنتج الجبال أو كثير منها الأعناب والزيتون والتين والكتان والسفرجل والليمون . وإلى الشرق على البحر المتوسط من هذه المنطقة منطقة غارت ، وتبدأ من نهر النيكور وتنتهى عند مصب نهر الملوية ، وتمتد جنوبا حتى محاذة جبال منطقة الحوز شرقى فاس وطولها نحو خمسين ميلا فى أربعين ميلا عرضا ، وهى منطقة

شديدة الجفاف قليلة السكان وأهم مدنها مليلة على البحر المتوسط . وإلى الجنوب من إقليم غارت إقليم الحوز وهو يمتد شرقى منطقة فاس فى نحو مائة وتسعين ميلا طولا ومائة وأربعين ميلا عرضا ويشتمل على كثير من السهول والجبال الصحراوية أو جبال أطلس ، ومن أهم مدنها تازة وهى تعد ثالثة المدن فى ولاية فاس من حيث الحضارة والثقافة ، ولها أراض خصبة شديدة الاتساع ، والحياة مزدهرة فى كثير من مدن وجبال هذه المنطقة . وجنوبى الحوز منطقة تادلة ، وتشمل الإقليم من جنوبى نهر العبيد إلى نهر أم الربيع فى الشمال ، ولأهلها مهارة فى ديبج الجلود ونسج الصوف ، وأكثر السكان بالمدن والجبال فى رخاء ومن مدنها تفرزة وأفرزة . وغربى هذه المنطقة منطقة هسكورة وتبدأ من التلال الغربية فى دكالة وتمتد شرقى منطقة مراكش وتتجه إلى الجنوب ، ويعنى سكانها بصناعة الجلود لكثرة المعز بديارهم وأيضا محصول الزيت ، ومن مدنها المدينة وتاغوداست وتغطى بعض جبالها الثلوج على مدار السنة . وإلى الجنوب منها منطقة جزولة شرقى السوس وغربى منطقة الدرعة ، وتوجد بهاعدة مناجم للنحاس والحديد ، أهلت السكان لصناعة كثير من الأوعية ويزرعون الشعير وعندهم الكثير من الماشية . وإلى الشرق من هذه المنطقة منطقة الدرعة وتمتد جنوبا إلى مسافة مائتين وخمسين ميلا . أما السكان فيقيمون فى حوض نهرها وتمتد فيه حدائق النخيل . وفى الجنوب الشرقى من منطقة هسكورة منطقة سجلماسة ، وتمتد على طول نهر زيز ، وتتغلغل جنوبا إلى مسافة مائة وعشرين ميلا حتى حدود الصحراء ، وأهل مدينة سجلماسة أغنياء لتبادلهم التجارة مع بلاد السودان ، وتكثر بمنطقتها التمور .

ولعل فى كل ما قدمت ما يصور من بعض الوجوه أن جغرافية المغرب الأقصى معقدة لكثرة مناطقه واتساع أقاليمه التى تبلغ نحو خمسمائة ألف كيلو متر مربع ، وجباله فى الشمال وفى أطلس التل والأطلس عالية علوا شاهقا ، وهو علو هيا من جهة لتكوّن الثلج على قممها وذراعاها الشامخة ، كما هيا من جهة ثانية لكثرة نزول الأمطار بها ، وهى تنزل بها منذ شهر أكتوبر وتغزر فى الشتاء . وكثرة الجبال على سطحها هياها لأن تكثر فيها الأنهار والنهيرات والمجارى المائية، ومعظمها تجرى طوال العام ، ومن أهمها نهر الملوية ، وينبع من منطقة فاس ويجرى إلى الشمال الشرقى ويصب فى البحر المتوسط شرقى مليلة ، ونهر سبو ويجرى من الشرق إلى الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى مخترقا منطقة فاس وحوضه يعد أغنى أحواض المغرب الأقصى وأكثرها سكانا ، ويبلغ إنتاجه أربعين فى المائة من إنتاج المغرب الأقصى ، ونهر أم الربيع وينبع من منطقة الحوز، ويتجه جنوبا ثم غربا حتى المحيط ويغذى مناطق تادلة وتامسنة ودكالة، ونهر تنسيفت ويتجه من الشرق إلى الغرب ويخترق منطقتى مراكش وحاحة، ونهر السوس ويتجه إلى الغرب مخترقا شمالى جزولة والسوس ويصب فى المحيط بقرب أغادير .

والمغرب الأقصى كما يعتمد على الأنهار يعتمد على الأمطار ، وعلى الرغم من كثرة الجبال

على سطحه الأجزاء المهيأة للزراعة كثيرة ، وهى أولا سهول ساحلية على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، والأولى محدودة المساحة وكأنها فى بعض الأنحاء أشربة ضيقة ، والثانية أكثر اتساعا ، ويتراوح عرضها بين ثلاثين وتسعين كيلومترا . وتبعد الموانئ على المحيط عن مصبات الأنهار لكثرة ما تحمل من الرواسب . وثانيا سهول نهريّة وهى سهول كونتها الأنهار بكثرة ما حملت من الرواسب ، مثل سهول الأنهار المذكورة آنفا . وهى تصلح لإنتاج جميع الغلات الزراعية وغرس الأشجار وإقامة الحدائق والبساتين . وثالثا سفوح منحدرات الجبال . ورابعا تربة الأطلس التلى وبه سهول واسعة لزراعة الحبوب وغرس الأشجار . ولاختلاف الطقس بين الوديان والسهول والجبال ومنحدراتها تلتك فى المغرب مختلف أشجار الفواكه والنقل ، ويكثر النخيل فى المناطق الجنوبية . والمناخ فى جملته معتدل على السواحل وأحواض الأنهار إلا ما قد يميز بعض الجبال من البرودة الشديدة حتى لتتوجها الثلوج طول العام .

٢

التاريخ^(١) القديم

تاريخ المغرب الأقصى موغل فى العصور السحيقة ، وأخذ يتراءى على صفحات التاريخ مع ارتياد الفينيقيين لسواحل إفريقيا الشمالية أو بعبارة أخرى لسواحل البلاد المغربية منذ القرن التاسع قبل الميلاد وقبله وبعده للبحث عن مواقع غنية بطيبات الخيرات والسلع يؤسسون بها سفنهم ليتبادلوا مع أهلها وجوه التبادل التجارى المختلفة . وكانوا شعبا ملاحيا متحضرا يحترف التجارة ، وظلوا طويلا يحاولون التعرف على المواقع الملائمة لهم فى الساحل الإفريقى الشمالى : وبمرور الزمن ومع كثرة البحث أعجبهم موقع بالقرب من مدينة تونس الحالية أقاموا فيه مدينة قرطاجنة ، وسكنتها منهم جالية فينيقية كبيرة ، أقامت بها دولة ظلت قرونا طويلة ، وأخذوا يبحثون لتجارته عن أماكن أخرى صالحة لتبادل السلع ، واختاروا فى الجزائر بونة وجيجل وإسكيكدة وبجاية وشرشال ، ونشروا فيها جميعا حضارتهم الفينيقية ، وعلموهم غرس الأشجار وبعض شئون الزراعة والرى ، ونقلوا إليهم من موطئهم القديم فى الشام حول صور فى لبنان بعض أشجار الفاكهة والنقل . واتسبعوا فى إتخاذ المواقع على سواحل البحر المتوسط الغربية لتكون مراكز لتجارتهم الواسعة ، فاتخذوا موقعا على الساحل الجنوبى الشرقى لإسبانيا سموه « قرطاجنة » واتخذوا موقعا مماثلا فى الجنوب الغربى لإسبانيا سموه « قانس » ونما الموقعان وأصبحا مدينتين فينيقيتين كبيرتين ، وكان طبيعيا أن يبحثوا عن مواقع مماثلة فى سواحل

(١) انظر فى التاريخ القديم للمغرب الأقصى كتاب
تاريخ المغرب الكبير - الجزء الأول لمحمد على ديبوز -
(طبع القاهرة) وكتاب مدينة المغرب العربى للأستاذ
أحمد صقر .

المغرب الأقصى ، وأعجبههم موقع غربي مصب نهر الملوية سموه « روسادير » وهو نفس موقع مليلة الحالية وهو في صدر خليج يساعد على رسو السفن فيه ، وكأثما اختاروه للاتصال عن طريقه بسلع منطقة فاس الغنية . واختاروا في آخر ساحل المغرب الأقصى الشمالى موقعا مطلا على المحيط الأطلسى ويطل من الشمال الشرقى على مضيق جبل طارق ، سموه « طنجة » والسهل من ورائها خصب ومتسع ووافر الغلات . وكما مدوا ذراعهم شمالا فى إسبانيا إلى « قانس » مدوه جنوبا فى المغرب الأقصى إلى أصيلا نحو سبعين ميلا من طنجة ، وهى فى نفس إقليمها الخصب . وفى كل المواقع التى أقام الفينيقيون لهم فيها مدنا بالساحل المغربى جميعه استقرت حضارتهم الفينيقية قرونا وأجيالا متعاقبة منذ القرن الثامن قبل الميلاد على الأقل وفى القرون التالية . وكانوا شعبا عريقا فى الحضارة لا فى شئون الملاحة البحرية وبناء السفن فحسب ، بل أيضا فى كثير من شئون الزراعة والصناعة : صناعة الزجاج الملون وغيره ، وبثوا ذلك كله بين كثيرين من سكان المغرب ، ولابد أن بثوا بينهم أبجديتهم التى وضعوها على هدى الأبجدية الهيروغليفية المصرية ، بعد أن أدخلوا فيها غير قليل من التعديل بحيث صارت أساس الأبجديات العالمية ، وتعلم بعض المغاربة أبجديتهم ولغتهم ، ومعروف أنها لغة سامية . والتقى دين الفينيقيين الوثنى بدين المغاربة الوثنى فى كل مكان ، وكان سكان المغرب الأقصى - مثل بقية سكان المغرب والفينيقيين - يعبدون الشمس والقمر ، ويعتقدون بوجود أرواح مقدسة فى بعض الأشجار والأحجار والطير والحيوان .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الفينيقيين فى عصرهم الممتد قرونا نقلوا المغرب الأقصى وغيره من البلدان المغربية من حياة البداوة إلى حياة جديدة من التحضر، فقد تعلم المغاربة على أيديهم كثيرا من شئون التجارة وزراعة الحبوب والبقول والخضر وغرس بساتين الفواكه وأشجار الزيتون وتربية المواشى وصناعة السفن واستخراج المعادن من الحديد والنحاس وغيرهما وصنع الأواني وحلى الزينة وحياسة الملابس والدباغة، وعرفوا منهم - فيما يظن - صناعة العطور والعقاقير .

ومن المراكز التى أسسها الفينيقيون لتجارتهم مراكز فى شمالى صقلية من أهمها بالرم ، وتبعهم اليونان - فيما بعد - وأسسوا لهم مراكز فى شرقى صقلية بمرسينا وسرقوسة وقطانية ، وكان ذلك فى نشوب الحرب بالقرن السادس قبل الميلاد بين الشعين أو الفثتين ، وظلت طويلا بينهما دون أن ترجح كفة إحداها رجحانا نهائيا ومنذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد تتدخل روما وتحاول إزالة القرطاجيين الفينيقيين من صقلية ومن الساحل الإفريقى ونشبت الحرب بين الفثتين لمدة نحو مائة وعشرين عاما (٢٦٤ - ١٤٦ ق م) ويكتب النصر أخيرا لروما وجيشها ، فيقضى على قرطاجة قضاء مبرما ، ويهدم مبانيها الشاهقة ، وينى بجوارها قرطاجة جديدة ، وتستولى روما على كل ما كان بيد القرطاجيين الفينيقيين من بلدان وأقاليم فى إفريقية

التونسية والبلاد المغربية ، وبذلك تبعتهم نوميديا بما تشمله من الصحارى فى غربى الجزائر وشرقى المغرب الأقصى حتى نهر الملوية وإلى الجنوب حتى سجلماسة ويقال إن قائدا رومانيا بناها وسمّاها سيجيللوم ماسة ، وحُرّف الاسم مع الزمن إلى سجلماسة ، وبنى قواد آخرون مدنا فى نوميديا الجزائرية على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عن تاريخها القديم .

وكما مدت روما ولاءها على المدن الجزائرية الفينيقية مدته أيضا على مدن الفينيقيين فى المغرب الأقصى : مليلة وطنجة وأصيلا ، وكان حكامها من البربر سكانها يتخذون عاصمة لهم طنجة . وكان المغرب الأقصى شرقى نهر الملوية يسمى موريتانيا الغربية ، أما موريتانيا الشرقية فكانت تتداخل مع نوميديا . وربما كان أهم حاكم قديم لموريتانيا الغربية هو بوكوس الأول ، وإليه أصهر يوغورطة حاكم نوميديا ، ودخل يوغورطة فى حروب مع الرومان فأعانتهم فى القبض عليه سنة ١٠٦ قبل الميلاد صهره بوكوس ، وخلفه ابنه بوغيد سنة ٨٠ قبل الميلاد وظل قائما عليها حتى سنة ٤٤ قبل الميلاد فخلفه ابنه بوكوس الثانى حتى سنة ٣٣ قبل الميلاد . واستولى عليها الرومان بعده ، وفى سنة ١٧ قبل الميلاد جعلوا عليها بوبا الثانى صاحب نوميديا ، وخلفه عليها ابنه بطليموس حتى سنة ٤٠ للميلاد ، ثم جثم الرومان على المغرب جميعه . ونرى الرومان ينشئون فى المغرب الأقصى مدنا على ساحل البحر المتوسط مثل سبتة القرية من جبل طارق وكانوا يسمونها «سيفيتاس» واتخذوها مقرا لحكومتهم الرومانية فى المغرب الأقصى ، فهى متحضرة من قديم ، وعملها مهرة فى صناعة النحاس والشمعدانات ، وخارجها بساتين وحدائق بديعة . ولم يكف الرومان بما كان على المحيط للفينيقيين من مدن مثل طنجة وأصيلا ، فقد توغّلوا على ساحله إلى موقع سلا وبنوا فيه مدينتها قرب نهر أى الرقراق على مسافة ميلين من المحيط ، بل توغّلوا أكثر من ذلك إلى إقليم تامسنة، وبنوا على ساحل المحيط مدينة أنفة مدينة الدار البيضاء الآن، وهى فى سهل خصب صالح لزراعة كل أنواع الحبوب. وجاس الرومان خلال ديار المغرب الأقصى، بدليل أننا نجدهم يتفرجون على منطقة فاس وما بها من زروع مزدهرة ، وأعجبهم بجوارها جبل زرهون الذى يمتد نحو الغرب ثلاثين ميلا ويمتد عرضه إلى عشرة أميال، وهو منطى بأشجار الزيتون ، وقد بنوا فوق قمته مدينة وكيلى ، والأرض حولها مزدانة بمزارع وبساتين بديعة ، وكان الوالى الرومانى يقيم إما فى هذه المدينة وإما فى مدينة سبتة. وأرهق الرومان سكان المغرب الأقصى بكثير من العسف والضرائب الباهظة، وكانوا ينهبون خيرات الأرض من الحبوب والزيتون وعصيره . ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية واتخذتها دينها الرسمى حاولت نشرها فى أرجاء إمبراطوريتها والبلاد المغربية، غير أن من اعتنقوها من المغرب الأقصى كانوا قلة شديدة فى المدن الساحلية، وأكثرهم كان من الجاليات الرومانية والأجنبية. وظل البربر يقومون بفتن وثورات كثيرة فى أيام الرومان لكثرة مظالمهم وفداحة ما كانوا يفرضونه من الضرائب على الشعب البربرى وأبنائه ، وأخذت دولتهم تضعف منذ القرن الثالث

الميلادى وأخذت تسود الفوضى وتعم الثورات فى الإمبراطورية الرومانية والبلاد المغربية ، وتفاقم ذلك فى القرن الرابع الميلادى . وطمعت شعوب أوروبا الشمالية فى اقتسام أراضي الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وأخذت تكتسح أجزاء أوربية منها حتى إذا كانت سنة ٤٣٤ للميلاد اكسح الوندال كل ما تملكه روما فى إفريقيا التونسية والجزائر ونوميديا ورحب بهم المغاربة وأعانوهم ضد الرومان ومكنوهم من الانتصار عليهم ، لما ظنوا فيهم من وقف الظلم الرومانى ورفعهم عن كواهلهم غير أنهم لم يلبثوا أن ذاقوا الأمرين فى عهدهم الذى امتد نحو مائة عام إلى أن قضى على جموعهم القائد البيزنطى : « بليزير » سنة ٥٣٩ للميلاد . وكانوا شعباً حربياً فلم يخلفوا فى المغرب علما ولا فنا ولا صناعة ولا أخلاقا ولا نظاما . وخلفتهم فيه بيزنطة لنحو مائة عام أخرى ، واتسم عهدهم بالعسف والظلم كعهد الوندال والرومان . على أن الرومان حاولوا نشر المسيحية فى البلاد المغربية ونجحوا فى بعض المدن الساحلية كما مر بنا فى الجزائر وتونس ، كما نجحوا فى نشر لغتهم اللاتينية وخاصة فى المدن الساحلية ، أما بيزنطة فلم تحاول نشر لغتها ولا شىء من ثقافتها فى البلاد المغربية . وكانت تمد ذراعها على بعض المدن مثل سبتة على ساحل البحر المتوسط وربما مدته أيضا على بعض المدن على ساحل الأطلسى . وأكبر الظن أن الوندال لم يستطيعوا وضع أيديهم على المغرب الأقصى لبعده الشديد عن مراكز انتشارهم فى تونس والجزائر، ونظن ظنا أن قوط إسبانيا انتهزوا الفرصة فى أيامهم وأيام بيزنطة فاستولوا على أجزاء من ساحل البحر المتوسط ، وبنوا عليها مدينتى باديس وترغة بجانب مليلة الفينيقية التى كانت خاضعة لهم قبل الفتح العربى ، وبجانب سبتة وطنجة فى الشمال ومدن الساحل الغربى الفينيقية والرومانية مثل أصيلا - سلا - أنفة بنوا مدينة كوتنى جنوبى مدينة آسفى فى منطقة دكالة كما بنوا مدينة مرامر فى الداخل على مسافة نحو عشرين ميلا من كوتنى . والقوط مثل الوندال لم يكونوا أصحاب حضارة ينشرونها فى البلاد التى نزلوها أو بنوا لهم فيها بعض المدن .

٣

الفتح والولادة - ثورة الصفرية - بنو مدرار - الإدارة - بعد الإدارة والمداريرين

(أ) فتح^(١) المغرب الأقصى وعصر الولاة

بدأت أولى محاولات فتح البلاد المغربية فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، إذ رأى عمرو بن العاص واليه على مصر فى أواخر سنة ٢١ للهجرة تأميننا لحدود مصر الغربية أن يتعقب الروم

(١) انظر فى فتح المغرب الأقصى : فتوح البلدان
للبلادى ومصر والمغرب لابن عبد الحكم
والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى والكامل لابن
الأثير وتاريخ ابن خلدون والبيان المغرب لابن عذارى .

فى برقة وديار المغرب ، واستولى سريعا على برقة وزويلة عاصمة فزان سنة ٢٢ هـ/٦٤٢ م ودار العام ففتحت له طرابلس أبوابها سنة ٢٣ هـ/٦٤٣ م . وتوفى الخليفة عمر بن الخطاب وخلفه عثمان بن عفان فعزل عن مصر عمرو بن العاص ، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فاستأذنه فى معاودة فتح ديار المغرب ، وأمدّه بجيش كبير كان به عدد من الصحابة ، فاقحم به ديار المغرب سنة ٢٧ هـ/٦٤٧ م ونازل والى بيزنطة جريجوريوس فى حصن داخل الإقليم التونسى يسمى « سبلة » وسحق جيشه سحقا ، وقُتل جريجوريوس فى ساحة المعركة ، وفتحت جميع البلاد التونسية أبوابها لابن أبي سرح ما عدا قرطاجة إذ ظلت بها حامية رومية . وتبع إفريقية التونسية الخلافة الأموية ويتعاقب عليها الولاة ، حتى إذا وليها عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ/٦٧١ م أنشأ مدينة القيروان أى المعسكر وأتمها سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ م واتخذها قاعدة للجيش العربية الفاتحة للمغرب ودارا لحكومته وتدير شئونها ، وبعبارة أخرى اتخذها عاصمة للمغرب وبنى فيها جامعا كبيرا ودارا للحكومة وسرعان ما أصبحت مدينة كبرى ، وعُزل وخلفه أبو المهاجر سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ م فصمم على فتح نوميديا فى المغرب الأوسط وما وراءها من الصحارى وظل يفتح البلدان حتى انتهى إلى موريتانيا الشرقية وتلمسان ، ولقيته قبيلة أوربة ورئيسها كسيلة ، فهزمها وأسر كسيلة واعتنق الإسلام واعتنقه معه كثيرون من قبيلته . وعُزل أبو المهاجرين سنة ٦٢ هـ/٦٨١ م وولى مكانه عقبة بن نافع ثانية ، وهو يعد الفاتح الحقيقى لديار المغرب الأقصى ونشر الإسلام فيه ، إذ قام بعمليات عسكرية واسعة النطاق ، وبدأ بالمغرب الأوسط فانتزع ما كان لا يزال بأيدي البيزنطيين من الحصون فى إقليم الزاب ، وأوغل غربا ، وأعلنت له قبيلة غمارة فى شمالى المغرب الأقصى بالريف والهبط ولأها وهادنته وسانته ، وأخضع ولىلى فى منطقة فاس ، وسار إلى قبيلة مصمودة فى مناطق مراكش وحاحة وجزولة ونازلا واستسلمت . ثم سار إلى السوس آخر معاقل البربر فى المغرب الأقصى ، والنصر يواكبه حتى بلغ ماسة على المحيط ، وأدخل فرسه فيه حتى بلغ الماء تلايب (طوق) الفرس وهتف قائلا : « اللهم إني أشهدك أنى وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعبد رب سواك » . وكان قد أوغر صدر كسيلة فرصه فى طريق عودته ، حتى إذا سبقه الجيش فى الزاب بالجزائر وكان فى فئة قليلة حاصره ، واستشهد البطل العظيم هو ومن كانوا معه سنة ٦٤ هـ/٦٨٣ م واستولى كسيلة بجموعه على القيروان ، وتراجع زهير بن قيس خليفة عقبة عليها إلى برقة انتظارا لمُدد يأتيه ، وأتاه المدد مع توليته على المغرب سنة ٦٩ هـ/٦٨٨ م ونازل كسيلة ويهزمه ويقتل فى المعركة . ويتولى القيروان والبلاد المغربية بعده حسان بن النعمان سنة ٧١ هـ/٦٩٠ م وكان سياسيا قديرا يحسن تدبير الحكم فدوّن دواوين للجند وللخراج وللرسائل ، وافتتح قرطاجة وطرد منها جالية الروم التى كانت تتجسس لحساب بيزنطة وبذلك أصبحت إفريقية التونسية خالصة للعرب ، وأنشأ مدينة تونس لتكون قاعدة لأسطولها ، وبنى بها دار صناعة تمد الأسطول

بما يلزمه من السفن ، ونشبت في أيامه ثورة عنيفة لقبيلة جراوة الزناتية بجبال أوراس ، وكانت تقودها كاهنة ، فنازلها ولم يكتب له النصر ، واضطر إلى الانسحاب إلى « سرت » انتظاراً لمُدَد ، وجاءه جيش جرار فهزمها وقتلت في أثناء فرارها ، وصالحهم على أن يكون ابنها الأكبر الوالي عليهم وأن يجندوا منهم اثني عشر ألفاً ليكونوا جزءاً لا يتجزأ من جيشه ، وكانت سياسة حكيمة فقد أصبح أهل المغرب رفقاء سلاح وأصبح منهم ولاية لا فرق بينهم وبين العرب في شيء . وبذلك ملك قلوب المغاربة ، وأخذ انتشار الإسلام يتسع في المغرب الأقصى وفي كل مكان بالديار المغربية . وخلفه على القيروان وبلاد المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م فوضع نصب عينيه استكمال نشر الإسلام في ربوع المغرب الأوسط والأقصى وأرسل حملات إلى أنحاء كثيرة ومعها فقهاء يعلمون الناس قواعد الإسلام وشريعته ثم نهض على رأس حملة كبرى اكتسحت البلاد المغربية حتى أقصى الغرب شمالاً في طنجة وجنوباً في إقليم السوس ، وخلف في التواحي التي لم يتم إسلامها فقهاء يعلمونهم شئون دينهم وفروضة ويحفظونهم القرآن الكريم ، وأسلم في أيامه كثيرون من البربر وأتم التنظيم الإداري للديار المغربية ، فولاية لبرقة هي عاصمتها ، وولاية ثانية لإفريقية التونسية وشرقي المغرب الأوسط عاصمتها القيروان ، وولاية لغربي المغرب الأوسط عاصمتها تلمسان ، وولاية لبلاد السوس في المغرب الأقصى عاصمتها سجلماسة ، وولاية لبقية المغرب الأقصى حتى شماليه عاصمتها طنجة، ولكل ولاية حاكمها من العرب أو البربر ، وجعل حاكم طنجة بربرياً هو طارق بن زياد، وأكثر من ذلك جعله قائداً لفتح الأندلس ، وكان أكثر جيشه من البربر ، ومعنى ذلك أنه ألغيت كل تفرقة بين العرب والبربر بحيث أصبحوا سواسية في حكم المدن وفي قيادة الجيوش وفي الجهاد نصرة لدين الله وابتغاء نشره في أطباق الأرض طلباً لما عند الله من الثواب. وبذلك لم يعد هناك أي فارق بين العربي والبربري ، فهما أخوان مسلمان يعملان على إعلاء كلمة الله . ونستطيع أن نقول إن فتح العرب للمغرب الأقصى والديار المغربية تم في القرن الأول الهجري وكان تمامه على يد موسى بن نصير والفاطحين العظميين اللذين سبقاه حسان بن النعمان وعقبة بن نافع ولم يجعلوه فتحاً حريباً بل جعلوه فتحاً عقائدياً أخوياً لأمة وثنية أصبحت تدين بوحداية الله ، وأصبحت تستشعر أخوة للعرب أصحاب هذا الدين، فهي تشاركهم في العمل تحت لوائه جهاداً في سبيله ونصرة لعقيدته وتعاليمه.

وتوفي الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ / ٧١٤ م وخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك وكان قصير النظر فعزل البطلين العظميين : موسى بن نصير وطارق بن زياد عن عملهما في الأندلس وغير الأندلس ، وتوقف الفتح العربي في شمال إسبانيا وجنوبي فرنسا ، وخلفه عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح ، فحاول أن يصلح أداة الحكم في الدولة ، وولّى على القيروان وديار المغرب فقيهاً هو إسماعيل بن عبيد الله حفيد أبي المهاجر الوالي في فترتي عقبة

وأرسل معه تسعة من الفقهاء ، وكلفهم بالعمل جميعا على نشر الدين الخفيف ، ودخله مغاربة كثيرون من كل أنحاء المغرب . وتوفى الخليفة عمر بن عبد العزيز سريعا ، وتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، فأرسل إلى القيروان يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م . وبدأ عهد جديد في المغرب لولاة بنى أمية ، عهد يقوم على الخسف والظلم للبربر في جمع الضرائب والأموال ، ولم يطق البربر الصبر على سياسة هذا الوالى الجائرة فقتلوه فى السنة التالية ، وكان ذلك عبرة وعظة ليزيد بن عبد الملك فولّى عليهم بشر بن صفوان وخلفه سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، ولا تؤثر لأحدهما أعمال جليلة يؤلف بها قلوب الرعية المغربية . ويتولى عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م ويذكر له إعادة بناء جامع الزيتونة الذى بناه قبله حسان بن النعمان ، وقد ساس الرعية هو وعماله سياسة متعسفة ظالمة أشد الظلم ، إذ أرهقوا البربر بضرائب فادحة ، وأبوا أن يسووا بينهم وبين العرب فى الخراج وجميع الشئون المالية ، كما تقضى بذلك شريعة الإسلام ، متعامين عن أنهم أصبحوا للعرب رفقاء سلاح وجهاد فى الأندلس وفى المغرب نفسها ، وبلغ من سفه عامل طنجة القائم على شئونها المالية أن أعلن للمغاربة هناك أنه عازم على تخميس أراضي البربر زاعما زعما كله إثم وكذب وبهتان أنهم قتلوا للعرب وغنائم حرب لهم .

(ب) ثورة الصفرية

لم يتنبه حكام بنى أمية وعمالهم فى القرن الثانى الهجرى إلى أن من الخطأ بل من أكبر الخطأ هذه المعاملة الظالمة للمغاربة بعدم التسوية بينهم وبين العرب فى الشئون المالية ، مع أنهم أصبحوا رفقاء سلاح وجهاد وأسهموا معهم فى فتح الأندلس ونشر دين الله ، بل كان لهم فى ذلك النصيب الأوفر ، وكان الإسلام قد استقر فى ديارهم وأصبح لهم فيه شيوخ كثيرون يفقهون تعاليمه وما يفرضه من العدل والتسوية بين أتباعه ، لذلك انطوت نفوس كثيرين منهم على سخط شديد لحكام بنى أمية وعمالهم . وانضاف إلى ذلك أن كثيرين من أتباع فرقتى الصفرية والإباضية نزلوا المغرب فرارا من اضطهاد الأمويين ، واختار الأولون المغرب الأقصى واختار الثانون جبل نفوسة بجوار طرابلس ، ووجدت كل فئة منهما الجو مهيئا لترويج دعوتها الفائلة برفع الظلم عن أبناء الأمة الإسلامية والتسوية بينهم جميعا فى الشئون المالية ، وكأنما وجد مغاربة جبل نفوسة فى الدعوة الإباضية مخلصا لهم من ظلم حكام بنى أمية وبغى عمالهم ، وأحس مغاربة المغرب الأقصى فى دعوة الصفرية نفس الإحساس . وملأ نفوسهما جميعا إيمانا بدعوتيهما ما تقرران من التسوية حتى فى تولى الخلافة فلا يصح أن تقصر على قريش ، بل هى حق للمسلمين جميعا عربا وغير عرب يتولاها أكفؤهم . ولم يعد فى المغرب الأقصى شخص يسمع بدعوة الصفرية إلا ويستجيب إليها ضد من يسومونهم العذاب فى سلب أموالهم

باسم الخراج سوى ما يكلفونهم من المغارم والجبايات مما كثر معه - كما يقول ابن خلدون - عيَّثهم في أموال البربر وجورهم عليهم ، بحيث أصبح لا مفر من ثورتهم على هؤلاء الحكام الباغين الظالمين المعطلين لتعاليم الإسلام . لذلك كان طبيعياً أن ينتشر في المغرب الأقصى مذهب الصفرية وأن تعتنقه القبائل هناك ، تعتنقه قبيلة مضغرة وشيخها ميسرة وقبيلة مكناسة وشيخها سمكون بن واسول وقبيلة برغواطة وبعض قبائل زنانة وتغلغل في بعض المدن في جماعات السودان القاطنين جنوبي الصحراء وجميع أرجاء المغرب الأقصى . وأجمع دعاة الصفرية فيه على زعامة ميسرة شيخ قبيلة مضغرة ، وبويع بالإمامة ، وزحف بجموع الصفرية إلى طنجة ، فاستولى عليها وقتل عاملها عمر بن عبيد الله المرادي ، وعين عليها والياً من قبله ، واتجه بجموعه إلى السوس فقتل واليها إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ودانت له ، وتمت له بذلك السيطرة على جميع المغرب الأقصى .

وعرف ذلك عبيد الله بن الحبحاب ، فبادر بإرسال جيش بقيادة خالد بن حبيب الفهري فالتقى بميسرة وجيشه قرب طنجة ، ودارت بينهما معركة حامية الوطيس ، رجحت فيها كفة خالد ، فانسحب ميسرة إلى طنجة ، ولم يعجب ذلك أتباعه من الصفرية ، فنحّوه عن قيادتهم ولولوها خالد بن حميد الزناتى كما ولوه الإمامة سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م وأخذ يعد جيشاً للقاء خالد الفهري ، ونصب له ولجيشه كميناً على نهر شلف شمالى تاهرت ، ودارت معركة حامية انتهت بالقضاء على جيش خالد الفهري قضاء مبرماً وكان فيه كثير من أشراف العرب فسميت معركة الأشراف لكثرة من مات فيها من حماة العرب وفرسانهم وكثافتهم وأبطالهم . وغضب هشام بن عبد الملك لهذه الخزيمة الساحقة ونحى عبيد الله بن الحبحاب عن ولاية المغرب ، وولّى عليه كلثوم بن عياض القشيري ، وأعانه بآين أخيه بلج بن بشر ، وبعث معه جيشاً ضخماً عداده ثلاثون ألفاً ، وزحف بآين أخيه وهذا الجيش إلى خالد بن حميد الصفرى بطنجة ، والتقى جنوبيها ، ودارت معركة ضارية انهزم فيها كلثوم وتوفى ، فلجأ بلج إلى سبتة بعشرة آلاف من جنده ، وحاصره خالد بن حميد والصفرية ، واضطر إلى العبور بجيشه إلى الأندلس .

ونشبت ثورات للبربر في جميع الديار المغربية ، وولّى هشام بن عبد الملك عليه حنظلة بن صفوان سنة ١٢٤ هـ / ٧٤١ م ، وتطايّر شرر كثير من دعوة الصفرية إلى المغربين الأوسط والأدنى ، وأخذ يعتنقها كثيرون في المغرب الأوسط بين قبائل نفزة وزنانة ، ويفاجأ حنظلة بقائدين صفرين كبيرين هما عكاشة بن محصن الفزاري وعبد الواحد بن يزيد الهواري يحشدان جموع الصفرية في الزاب بالجزائر لحربه ، واتفقا على أن يتخذا طريقين لمهاجمة القيروان : عكاشة من الجنوب ، وعبد الواحد من الشمال ، وعلم حنظلة بخطتهما فأسرع بلقاء عكاشة وسحق جيشه ، وعاد إلى القيروان وأخذ يستعد للقاء عبد الواحد ، ونجح في استمالة أهل القيروان وفي مقدمتهم الفقهاء ، ووزع عليهم جميعاً السلاح ، وبث القصاص والقراء يحرضون

على الجهاد ، وبرز نساء القيروان فعقدن الألوية وأخذن معهن السلاح ، وعزمن على القتال واستبسلن للموت مع الرجال ، وحلفن لأزواجهن لئن انهزم أحد منكم إلينا موليا عن العدو لنتقتله ، فامتلاً الجيش حماسة وحمية ، ودارت المعركة وهزمت الصفرية هزيمة ساحقة قتل منهم فيها مائة وثمانون ألفا .

وكان المغرب الأقصى حينئذ هادئاً بإمامة خالد بن حميد الزناتى ، وخلفه على إمامة الصفرية وزعامتهم أبو قرّة المغيل ، ويقال إنه حضر مع عبد الواحد الحوارى معركة القيروان وفر حين تراءت له الهزيمة . ونفاجأ سنة ١٣٩ هـ/ ٧٥٦ م بقبيلة ورّفجومة الصفرية أشد قبائل نفزة بأساً بأوراس تستولى على القيروان وتستحل المحارم وترتكب العظائم كما يقول الرقيق القيروانى إذ ربطوا دوابهم فى المسجد وهتكوا عرض بعض النساء . وكل ذلك غريب على دعوة الصفرية فهى فقط تكفر مرتكب الكبيرة وتستحل قتال المسلمين ولكنها لا تستحل ارتكاب العظائم ، ولعل ذلك ما جعل أهل المغرب الأقصى فيما بعد ينصرفون عنها وعن دعائها بينهم كما جعل أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافى زعيم الإباضية فى طرابلس وجبل نفوسة حين علم بمايرتكبون من المآثم فى القيروان ينازلهم ويقاثلهم حتى يقضى عليهم سنة ١٤١ هـ/ ٧٥٨ م وولّى عليها عبدالرحمن بن رستم أحد قواده . وسرعان ما يهزم والى القيروان العباسى الجديد محمد بن الأشعث أبا الخطاب المعافى فى موقعة فاصلة، وينسحب عبدالرحمن بن رستم من القيروان إلى الزاب ويؤسس به دولته الرستمية الإباضية فى تاهرت. وعلى أثر ماحدث من هزيمة الصفرية فى القيروان نجد أبا قرّة الصفرى يكون له إمارة مستقلة بنواحي تلمسان. وفى الوقت نفسه نجد أحد زعماء الصفرية منذ التفافهم حول ميسرة، وهو أبو القاسم سمكو بن واسول ينشئ للصفرية دولة فى سجلماسة، ولم ينشئها فى طنجة ولا فى المناطق الساحلية والداخلية للمغرب الأقصى مايدل على انصراف الناس فيهما عن تلك الدعوة ، وخاصة بعد ماشاع عنهم فى احتلالهم للقيروان من استحلال المحارم وارتكاب العظائم وربط دوابهم فى المساجد.

وعلم ابن الأشعث أن أبا قرّة يعدّ العدة فى تلمسان لمهاجمة الزاب والقيروان ، فأرسل فى سنة ١٤٨ هـ/ ٧٦٥ م الأغلب بن سالم التميمى على رأس جيش لمواجهة قواته ، والتقى به وجموعه فى الزاب ، واضطر أبو قرّة إلى الإنسحاب . وتولى المغرب عمرو بن حفص المهلبى سنة ١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م ونازل الصفرية فى الزاب ونكّل بهم ، وخلفه ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٤ هـ/ ٧٧٠ م وكان بطلاً مغواراً فقضى على الصفرية فى المغرب الأوسط (الجزائر) قضاء نهائياً ، وحاولت ورفجومة الثورة فقمع حركتها سنة ١٥٧ هـ/ ٧٧٤ م ويقال إنهم تفرقوا فى القبائل بعد هذه الحركة ولم يعد لهم كيان قبل مستقل . ونشر بوضوح أنه لم يعد للصفرية شأن يذكر فى المغربين الأوسط والأقصى بعد عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠ هـ) فإن من بقى منهم انسحب إلى سجلماسة وحكامها الصفرية من بنى مدرار .

(ج) بنو^(١) مدرار

استقر في أذهان كثيرين من الصفرية - وخاصة صفرية مكناسة - بعد إخفاق حملتي عكاشة وعبد الواحد على القيروان وكثرة من قتل فيهما من الصفرية حتى لقد بلغوا أكثر من مائة ألف صفري أنه ينبغي أن يبحثوا لهم عن مدينة نائية يصعب وصول الجيوش القيروانية العباسية إليها يتخذونها مأوى لهم ويعيشون فيها شبه منعزلين عن مسالك تلك الجيوش ، واختاروا سجلماسة لذلك سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م لأنها تقع في أقصى مكان بالجنوب الشرقي من المغرب الأقصى على نهر زيز والطرق المؤدية إليها شديدة الوعورة ، وتكتنفها مთاهات من القفار . وكان الذي اختارها زعيم من زعماء الصفرية ممن أسهموا في حروب ميسرة وخالد بن يزيد إمامي الصفرية ، وهو أبو القاسم سمكو بن واسول الملقب بمدرار زعيم صفرية مكناسة ، وكان من حملة العلم وارتحل في سبيله إلى المدينة وإلى تونس ، وفيها تتلمذ على عكرمة المفسر مولى ابن عباس وتلميذه ، وكان يعتنق دعوة الصفرية فحملها عنه تلميذه سمكو ، ورجع إلى قومه في مكناسة يشر بها ويدعوهم إليها ، فاستجاب له كثيرون وشاركوا في حروب ميسرة وخالد بن يزيد كما أسلفنا . وكان حصيفا ، وكان قد درس مذهب الصفرية أو عقيدتهم ، ورأى من أسسها الأخذ بالتقية وأن من حق الصفري أن يعلن أنه مع الجماعة في الظاهر ويطن الدعوة الصفرية ، وكان لا يعد دار المسلمين أو دار الجماعة دار حرب ، بل يتعايش معهم ، والصفري لذلك من حقه القعود عن الحرب وأن لا يحمل السلاح في وجه المسلمين ، وهو ما آمن به ، ركانه كره الحروب التي خاضها ميسرة وخالد بن يزيد ضد جيوش القيروان وأن يسلم المسلم السيف في وجه أخيه المسلم ، لذلك رأى أن ينحاز عن معاركهما الطاحنة إلى سجلماسة وتبعته كثرة من صفرية قومه أهل مكناسة ، وجاءته عناصر صفرية مختلفة من صنهاجة وزناتة وزنوج السودان من سكان الفياقي والصحراء بين سجلماسة وغانة ، وسرعان ما أصبحت مدينة كبيرة .

وكان سمكو الملقب بمدرار صالحا تقيا متواضعا ، فرأى أن يكون أول إمام في هذه الدولة سودانيا من رءوس الخوارج ، وهو عيسى بن يزيد ، وارتضته الصفرية وبايعته ، فقام بأمر سجلماسة وشق القنوات واستكثر من غرس النخيل والزروع . واتسع ثراء أهل سجلماسة لكثرة ما كانوا يتبادلونه - ويتجرون فيه - من السلع مع السودان . وظلت الصفرية - مع السنين - تنقم على عيسى بن يزيد - بعض تصرفاته ، حتى إذا كانت سنة ١٥٥ هـ/ ٧٧١ م

(طبع ليدن) ص ٦٠ وفي مواضع مختلفة وأعمال
الأعلام للسان الدين بن الخطيب (طبع الدار البيضاء)
١٣٧/٣ وما بعدها وتاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق)
١٣٠/٦ وما بعدها .

(١) انظر في دولة بني مدرار بسجلماسة كتاب المغرب
في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (طبع باريس) للبكري
ص ١٤٨ وما بعدها والبيان المغرب لابن عذاري (طبع
بيروت) ص ٢١٥ وما بعدها وصفة المغرب للإدريسي

نخه عن الإمامة ، ونصبت مكانه أبا القاسم سمو الملقب بمدرار حتى سنة ١٦٧ هـ/ ٧٨٣ م وظلت الدولة في أسرته ، ولذلك قيل لها دولة بنى مدار ، وقد عمل على إرساء قواعد الدولة على أساس المبدأين اللذين أشرنا إليهما : مبدأ التقية ومبدأ القعود عن الثورة على حكام الجماعة الإسلامية وعملهم عباسيين وغير عباسيين ، وبذلك ضمن لسكان سجلماسة الصفرين أن يعيشوا معيشة هادئة آمنة لا يعكر صفوها حرب مع ولاة العباسيين ودولة بنى الأغلب التي قامت باسمهم في القيروان . وبهذا الموقف الذي وضع فيه سمو الملقب بمدرار سجلماسة وسكانها من الصفرين نفهم ما يقوله ابن خلدون من أن سمو مدارا كان يخطب في عمله لأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي (١٣٦-١٥٨ هـ) وابنه المهدي (١٥٨-١٦٩ هـ) . وتوالى أبنائه وأحفاده من بنى مدار يدعون في خطبهم لخلفاء بنى العباس ، وبذلك كفوا شر حروبهم وجيوشهم . واتخذت الصفرية في سجلماسة ابنه إلياس إماما بعده ، وتظل تنقم عليه وجوها من سياسته وتصرفاته ، وتُجمع أمرها في سنة ١٩٤ هـ/ ٨٠٩ م على خلعه وتولية أخيه اليسع مكانه ، ويذكر البكري أنه هو الذي دبر أمر خلعه أخيه ، وكان حازما يحسن تدبير الملك ، فأعد جيشا قويا وسَّع به أطناب إمارته ، واستطاع احتلال درعة وضمها إلى إمارته وأخذ الخمس من مناجم النضة فيها ومعدن الذهب ، وبنى بجانب سجلماسة مدينة شيد قصورها واختط مصانع بها وأقام حول سجلماسة سورا لتحصينها جعل فيه اثني عشر بابا ، وأصهر بابه مدارا للحاكم الرسمي عبد الوهاب (١٧١ - ٢١١ هـ) في ابنته أروى توثيقا للعلاقة بين دولته الخارجية الصفرية والدولة الخارجية الرسمية الإباضية في الجزائر ، وتوفي سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٣ م فولى إمامة الصفرية بعده ابنه مدار ، وطالت ولايته ورزق بابنين من الرسمية وقرينة لها صفرية ، وسمى كلا منهما ميمونا ، وكان يؤثر ابن الرسمية على أخيه ، وحاول أن يولي مكانه سنة ٢٢٤ هـ/ ٨٣٨ م فأرغمته الصفرية على التنازل عن الإمامة لأخيه ميمون بن الصفرية ، فنفي أباه إلى بعض قرى سجلماسة حتى وفاته سنة ٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م وظل هو يلي الإمامة حتى وفاته سنة ٢٦٣ هـ/ ٨٧٧ م وخلفه عليها ابنه محمد حتى سنة ٢٧٠ هـ/ ٨٨٤ م وخلفه ابنه اليسع ، وفي عهده نزل أبو عبد الله الشيعي داعية المهدي الإمام العبيدي كرامة في الجزائر وظل فيها سنوات يث دعوته ، ونجح في بثها واستطاع تكوين جيش منها لمنازلة الدولة الأغلبية في القيروان ، وشعر بأنه يوشك أن ينجز مهمته لصالح المهدي ، فأرسل إليه يستقدمه ليشترك في الأحداث الأخيرة ، ولما المهدي اصطحب معه رفقة من رجاله سنة ٢٩٣ هـ/ ٩٠٥ م والتزم التخفي من عمال الدولة العباسية في طريقه وسلك طرقا غير معهودة أدته إلى سجلماسة ، فأكرمه اليسع ، وبعد فترة ارتاب فيه ، فسجنه هو ورفقائه . وعلم بذلك أبو عبد الله الداعي العبيدي الشيعي ، فانتظر حتى انتصر على الأغلبة سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م وزحف إلى سجلماسة لإخراج عبيد الله المهدي من السجن ورد حريته إليه ، وعلم اليسع بقدمه إلى سجلماسة ،

فخرج إليه بجيشه من مكناسة ودارت معركة كتب فيها النصر لأبي عبد الله الشيعي وجيشه ، وقتل اليسع في المعركة واستولت كمامة على سجلماسة ، وخرج المهدي ورفاقه من محبسهم ، وبايعه أبو عبد الله الشيعي ، وبايعه الناس وولى على سجلماسة واليا من كمامة ، وانصرف مع داعيته إلى إفريقية التونسية .

ولم تلبث صفرية سجلماسة أن انتفضت على والي المهدي الكمامي وقتله هو ومن معه من كمامة سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م وبايعت الفتح بن ميمون بن الرستمية ، وتوفى سريعا فخلفه أخوه أحمد ، واستقام أمره وحكمه إلى أن زحفت إليه كمامة بقيادة مصالة بن حبوس سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م فافتتح سجلماسة وقبض على أحمد وولاه ابن عمه المعتز ، وتوفى سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م وبايعت الصفرية ابنه سمكو ، وكان لا يزال في المهد ، فثار عليه ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون ، وتلقب بالشاكر لله ، ورفض الدعوة الصفرية ، وأعلن الأخذ بمذاهب أهل السنة ، وكان عادلا منتهى العدل كما يقول ابن خلدون ، ويقال إنه دعا لنفسه بالخلافة ، ويقول ابن خلدون إنه دعا لبني العباس ، وأنه ضرب العملة باسمه . وظل يحكم سجلماسة حكما عادلا رشيدا إلى أن اكسح جوهر الصقلي بجموعه الشيعية من كمامة وصنهاجة المغرب الأقصى ، واستولى - فيما استولى - على سجلماسة ، وأخذ حاكمها السني محمد بن الفتح أسيرا إلى رقادة بإفريقية التونسية ، وتوفى بها سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م . وثار الصفرية على والي جوهر الصقلي سريعا ، وبايعت أحد أبناء الشاكر لله ، وارتضى ذلك المعز العبيدي ، غير أن أخاله ثار عليه وقتله سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م . وأخذ نجم قبيلة مكناسة في الأقول بينما أخذ نجم قبيلة زناتة في التآلق والسطوع . وكان أمويو الأندلس قد استطاعوا جذب مغراوة الزناتية إليهم ، وبمساعدهتهم زحف حزرور بن فلفول من أمرائها إلى سجلماسة سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م وبرز له المعتز مع قومه الصفريين من مكناسة ، وقتل وهزم قومه هزيمة ساحقة لم تقم لهم بعدها في سجلماسة قائمة ، وأقام حزرور بها دعوة الأمويين الأندلسيين ، وكانت أول دعوة أقيمت لهم في المغرب الأقصى .

(٥) الأدارة^(١)

معروف أن الحسين بن علي سليل الحسن بن علي بن أبي طالب ثار على العباسيين بمكة أيام الخليفة العباسي المهدي في ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م وثار معه أهله وفي مقدمتهم

١٨٨/٣ وتاريخ ابن خلدون ١٢/٤ وما بعدها والاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي ودولة الأدارة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة لإسماعيل العربي (طبع بيروت) .

(١) انظر في دولة الأدارة كتاب المغرب للبكري وصفة المغرب للإدرسي وررض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع (طبعة الرباط) ص ١٩ وما بعدها والبيان المغرب لابن عذارى ٢٩٩/١ وما بعدها وأعلام الأعلام للسان الدين بن الخطيب

عماه : يحيى وإدريس ، وسرعان ما نازله جيش عباسى فى مكان على بعد ثلاثة أميال من مكة يقال له : « فخ » ودارت الدوائر على الحسين ومَنْ معه فقتل فى المعركة مع جماعة من أهل بيته ، وفر عمه يحيى إلى الدَّيْلَم ، أما عمه إدريس ففر إلى مصر ، وكان على يريدها يومئذ شخص اسمه واضح ، وكان يتشيع ، فأتاه إلى مخبئه ، ووجد معه مولاه راشداً فنصحهما أن يحملهما على البريد إلى المغرب الأقصى بعيدا عن المهدي وعيونه ، وأخذاً بنصيحته ، ونزلا فى ربيع الأول سنة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨م فى مدينة ولىلى بجبل زهون على إسحق بن محمد بن عبد الحميد المعتزلى شيخ قبيلة أوربة ، وعرفه أمره ، فأجاره ، فبايعه وبايعته معه قبيلته ، وجمع على الدعوة إليه أيضا قبائل زواغة ولوالة وغمارة ونفزة ومكناسة وكافة البرابر بالمغرب فبايعوه . ولما تمت دعوته زحف إلى جموع البربر الذين كانوا لا يزالون على دين المجوسية وإخوانهم المتهودين والمتنصرين فدانوا له وأسلموا على يديه . وفى سنة ١٧٣ هـ/ ٧٨٩م زحف إلى تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة الزناتية وأسيرها محمد بن خزر فأعلن إليه الطاعة وبايعه هو وقبيلته مغراوة فأمنه وأمن سائر زناتة وبنى مسجدا بتلمسان ونظم شئونها ورجع إلى عاصمته « ولىلى » ولم يلبث أن توفي سنة ١٧٥ هـ/ ٧٩١م ويقال إن الرشيد أرسل إليه شخصا أظهر له الولاء ، فقربه منه ، وانتهر فرصة فسد إليه السم وكان فيه حتفه .

وكانت زوج إدريس حاملا فاتفق أنصاره على انتظار وضعها ، وأنجبت ولدا سمته باسم أبيه إدريس فقام على تربيته خير قيام مولاه راشد ، وتوفى راشد سنة ١٨٦ هـ/ ٨٠٢م فجعلوا مكانه فى الوصاية عليه ولإشرافه على تربيته يزيد بن إلياس ، حتى إذا بلغ الصبى الحادية عشرة بايعوه فى جامع ولىلى ، وشبَّ ودان له المغرب الأقصى واستوزر مصعب بن عيسى الأزدي وأخذ يستكثر فى بطانته من العرب حتى بلغوا نحو خمسمائة وبهم عظم سلطانه . وقتل إسحق بن محمد بن عبد الحميد كبير أوربة لما علم من اتصاله بخصومه الأغلبية حكام تونس وشرقى الجزائر . ورأى أن مدينة ولىلى تضيق بحاشيته وأنصاره ، فصمم على بناء مدينة تسعهم ، وكلف باختيار موضعها بضعة من المهندسين ، وأشاروا عليه بموضع على مقربة من عاصمته ، فأخذ تَوَّأ فى بناء مدينته : فاس سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٧م وتصادف أن كان فقهاء قرطبة حينئذ نائرين على الحكم الرضى لانهماكه فى ملذاته وفى اللهو والملاهى فاجتمع أهل العلم والورع من الفقهاء وحضروه سنة ١٩٠ هـ/ ٨٠٥م وقاتلهم فتغلب عليهم وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس والإسكندرية . ولا ندرى هل لحقوا بفاس فى أول بناء إدريس الثانى لما أو فى أثناء بنائها ، إذ نراه يتم شطرا منها سنة ١٩٢ هـ/ ويسمى العُدوة الأندلسية ، إما لأن الأندلسيين ساعدوا فى بنائه وسكنوه أو لأنهم سكنوه فحسب . وفى العام التالى بنى شطرا ثانيا مقابلا للشطرا الأول وسمَّى عدوة القرويين أى المغاربة ، وجعل فيه مسكنه وإدارة حكومته ، وسمَّى الشطران جميعا باسم فاس وظل يفصل بينهما طريق طويلا . وغزا إدريس الثانى قبيلة مصمودة

ودانت لطاعته واستولى على أغمات سنة ١٩٧ هـ/ ٨١٢ م ثم غزا تلمسان وجدد مسجدها ومنبره وأقام بها ثلاث سنوات يدبر شئونها ، ومحا منها دعوة الصفرية ، واقتطع غرب الجزائر حتى نهر شلف عن دعوة الأغالبة والعباسيين ، ولم يستطع الأغالبة منازل الأدارسة بعد هذا التاريخ وتوفى سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م .

وخلف إدريس الثاني ابنه محمد بعهد منه ، فرأى تقسيم مملكة أبيه بينه وبين إخوته واختص نفسه بفاس وأعمالها ، وأعطى القاسم إقليم الريف والهبط بما فيه من سبتة وتطوان وطنجة ، وأعطى عمر بلاد صنهاجة وغمارة ، وداود هوارة وتازة ومكناس ، وعبد الله أغمات وبلاد المصامدة والسوس ، ويحيى أصيلا والعراش وبلاد ورغة ، وحمة وليلى وأعمالها ، وعيسى أزمور وتامسنة ، وأبقى تلمسان لأولاد سليمان بن عبد الله أخى جده إدريس . وخرج عيسى على أخيه محمد وطلب من القاسم حربه فامتنع وطلب ذلك من عمر فهزمه وأخذ ما فى يده وطلب إليه محمد حرب أخيهما القاسم لامتناعه عن حرب عيسى فحاربه وأخذ ما فى يده ، وبذلك اتسعت ولايته فشملت إقليم الريف والهبط وتامسنة وهو جد المحموديين الإدريسيين الممتلكين لقرطبة فى أوائل القرن الخامس بالأندلس ، وتوفى سنة ٢٢٠ هـ/ ٨٣٤ م ولم يلبث الأمير محمد أن توفى سنة ٢٢١ هـ/ ٨٣٥ م وخلفه ابنه على فى التاسعة من عمره ، فقامت على تربيته الحاشية وظل حتى سنة ٢٣٤ هـ/ ٨٤٨ م وكانت أيامه أيام رخاء . وعهد لأخيه يحيى فاتسع سلطانه وعظمت فاس فى العمران وبُنِي بها كثير من الفنادق والحمامات ورحل إليها الناس من البلاد ، وهاجرت إليها سيدة ثرية فاضلة من القيروان من قبيلة هوارة - هى أم البنين الفهرية - ومعها أموال كثيرة أفادتها من ذويها ، واعتزمت إتفاقها فى وجوه الخير ، فاختطت سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م المسجد الجامع المشهور بعدوة القرويين وهو المسمى باسم جامع القرويين ، وتحول فيما بعد إلى اليوم جامعة كبرى فى فاس كجامعة الأزهر فى القاهرة ، ويذكر لأحمد بن سعيد اليفرنى أنه بنى مئذنته على رأس قرن من اختطاطه . وولى بعد يحيى ابنه يحيى المسمى باسمه فأساء السيرة وكثر عبثه ، فثارت عليه العامة ، واضطر إلى الانسحاب إلى العدو الأندلسية ، وبعد ليلتين من نزوله بها وافاه أجله ، وبذلك انقطع الملك فى الدولة من ذرية محمد بن إدريس الثانى .

وثار الصفرية ببجبال مديونة ودخلت عدوة الأندلس بفاس وقاومتها عدوة القرويين بقيادة يحيى بن القاسم بن إدريس وهزمتها وأخرجتها منها ، وتطورت الظروف فقام بالأمر فى فاس يحيى بن إدريس ابن عمر ، فملك جميع أعمال الأدارسة فى المغرب ، وخطب له فى سائرها ، وفيه يقول ابن خلدون : « كان أعلى بنى إدريس ملكا وأعظمهم سلطانا ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه فى السلطان والدولة » . وكانت الدعوة العبيدية قد نجحت واستطاعت

تقويض الدولة الأغلبية ، واستولى على صولجان الحكم فى طرابلس وتونس والجزائر عبيد الله المهدي وطمح إلى ملك المغرب الأقصى ، فعقد لمصالة بن حبوس كبير مكناسة على رأس جيش ضخم لمنازلة حكامه سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م ونازل مصالة يحيى بن إدريس ، وارتضى إعلانه الطاعة للمهدي وخلع نفسه وإنفاذ البيعة فأبقى له مصالحه فى فاس وعقد له عمله عليها وحدها دون بقية بلاد المغرب ، وعقد مصالة لابن عمه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة يومئذ على بقية المغرب الأقصى ، وعاد مصالة إلى المغرب سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م فأغراه ابن أبي العافية يحيى فاستصفى أمواله ، وأجلى الأدارسة إلى الريف فنزلوا مدينة البصرة واختلطوا بها حصن النسر سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م . وبذلك انتهت دولة الأدارسة فى فاس وانتهى معهم سلطان أوربة . وتجدد لهم ملك فى سبتة وأصيلا وإقليم أو منطقة المبط ، وكانوا يختارون شخصا يقدمونه عليهم مثل قنون بن محمد بن القاسم بن إدريس ، وتوفى سنة ٣٣٧ هـ/٩٤٨ م فاتفقوا على تقديم أبي العيش أحمد بن قنون وكان يخطب لعبد الرحمن الناصر الأموى ، وارتأى أن يخرج إلى الأندلس مجاهدا سنة ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م واستخلف أخاه الحسن بن قنون واتصلت مشايعته للأمويين الأندلسيين إلى أن غزا المغرب بلقين ، فدخل فى دعوة العبيدين مما جعل المستنصر الأموى يعد جيشا لحربه ، ونازله فى عهد هشام المؤيد الأموى جيش كثيف من الأندلس اضطره إلى طلب الأمان سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م . وبذلك انتهت دولة الأدارسة فى إقليم المبط كما انتهت فى فاس .

وأما سليمان أخو إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى فإنه نزل تلمسان وتملكها من زنانة ودانت له وتركها له إدريس الثانى- ، وتملك أنحاء من المغرب الأوسط ، وورث ملكه ابنه محمد واقتسمه أبناؤه ، وظلوا يتوارثون تلمسان وأرشكول وجراوة وتنس واستشعر بعضهم الولاء لبنى أمية ، وأخيرا ضاع ما بيدهم ، جزء أخذه ابن أبي العافية وجزء استولى عليه أولياء الدعوة العبيدية .

وقبل أن تترك الدولة الإدريسية لأبد أن نشير إلى أنها أول دولة أسست فى المغرب الأقصى ، وكانت دولة إسلامية عربية ، وقد أسهمت بقوة فى نشر الإسلام السننى فى المغرب الأقصى وتلمسان وتطهيرهما من الصفرية والرافضة وعينت بتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره ورواية الحديث النبوى وتفقيه الناس أمور دينهم ، وأخذت تتكون فى مساجد المدن حلقات القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء وعنى علمائها بتعليم المغاربة العربية وأصبح فى المغرب مؤدبون ومعلمون مختلفون . وكانت الدولة عربية وفتحت أبوابها لشخصيات عربية كثيرة جاءتها من القيروان ومن المشرق ، حتى قالوا إنه كان فى بطانة إدريس الثانى - كما أسلفنا - خمسمائة عربى . وأخذوا يتكاثرون مع الزمن ، ولما ثار كثيرون من الفقهاء وأهل العلم والورع بقرطبة

على الحكم الرضى - كما أسلفنا - سنة ١٩٠ للهجرة وقاتلهم وانتصر عليهم ، هدم دورهم ومساجدهم ، فلحق كثيرون منهم بفاس ، وكل ذلك أسرع بعروبة المغرب الأقصى .

(هـ) فاس^(١) وسجللماسة^(٢) بعد الأدارسة والمدوايين

انتهى حكم الأدارسة فى فاس سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م وتطورت بها ظروف مختلفة وجعلها العبيديون لموسى بن أبى العافية كبير مكناسة ، فظل مواليا لهم حتى سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م إذ رأى أن يعلن ولاءه للخليفة الأموى بقرطبة عبد الرحمن الناصر . ودانت فاس بالطاعة للعبيدين سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٥ م وعادت إلى الناصر سنة ٣٤١ هـ/٩٥٣ م فولّى عليها محمد بن الخير المغراوى ، واستدار العام فرأى أن يرحل إلى الأندلس للجهاد واستخلف عليها ابن عمه أحمد بن سعيد ، وهو الذى شاد مئذنة جامع القرويين بفاس سنة ٣٤٤ هـ/٩٥٥ م وافتتحها جوهر الصقلى باسم المعز العبيدى سنة ٣٤٩ هـ/٩٦٠ م وظلت الدعوة العبيدية قائمة له فيها حتى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م إذ أرسل الحكم المستنصر الخليفة الأموى فى قرطبة قائده غالبا إلى المغرب فدخل مدينة فاس وأعاد فيها الخطبة للأمويين . وفى سنة ٣٦٩ هـ/٩٧٩ م عادت للعبيدين ، ولم تلبث أن عادت للأمويين سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م وولى عليها المنصور بن أبى عامر زيرى بن عطية الخزرى المغراوى الزناتى وجعلها سنة ٣٧٧ هـ/٩٨٨ م دار ملكه ، فعلا قدره وارتفع شأنه ، وملك مدينة تلمسان وبسط سلطانه على المغرب من السوس الأقصى إلى الزاب فى الجزائر ، وأسكن قبيلته أنحاء فاس وبالقرب منها ورفع عن أحوازها بنى يفرن سنة ٣٨٢ هـ/٩٩٢ م فثاروا عليه وهزمهم وأسكنهم مدينة سلا على المحيط ، وابتنى سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م مدينة وجدة . وفسدت العلاقات بينه وبين المنصور بن أبى عامر ، ونازله ودارت الدوائر على جيشه ، فأرسل إليه جيشا ثانيا بقيادة المظفر ، وتغلب المظفر عليه . وفى سنة ٣٩٣ هـ/١٠٠٢ م أصبح المظفر حاجبا للمؤيد هشام بعد أبيه المنصور بن أبى عامر فكتب للمعز بن زيرى بالولاية على فاس وسائر أعمال المغرب ، وظل المعز واليا للأمويين على فاس والمغرب حتى سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣٠ م . وكانت الخلافة الأموية قد سقطت فى قرطبة فاستقل المعز بن زيرى بالمغرب وفاس حتى وفاته سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م وعاشت فاس أيامه فى رخاء ، وكان ممدحا يقدر الشعر والشعراء فقصدوه من مملكته ومن الأندلس . وخلفه ابنه دوناس إلى وفاته سنة ٤٥٢ هـ/١٠٦٠ م وفى عهده ازدهرت الحياة فى فاس ونما بها العمران وأصبحت مدينة واحدة بعد أن كانت عدوتين متقابلتين وكثر فيها بناء المساجد والحمامات والفنادق .

وما بعدها .

(٢) راجع فى هذه الحقبة لسجللماسة كتاب الأعلام لابن الخطيب ١٥٠/٣ .

(١) انظر فاس فى هذه الحقبة بكتاب البيان المغرب لابن

عذارى ٢٩٩/١ وما بعدها والأعلام لابن الخطيب ١٥٣/٣ وما بعدها وروض القرطاس ص ٨٣

وخلفه ابنه فتوح ، وفي أيامه ظهرت لتونة فى أطراف البلاد بقيادة عبد الله بن ياسين ، وخافها فترك مدينة فاس عاصمته لمعنصر بن حماد المغراوى سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م وافتتحها يوسف بن تاشفين سلما ، وعاد معنصر فتغلب عليها وخلفه ابنه تميم ، وزحف إليها يوسف بن تاشفين وافتتحها نهائيا سنة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م .

وأما سجلماسة فإن جوهرًا الصقلى حين افتتحها ولّى عليها مبادر بن زيرى إلى أن توفى فى سنة ٣٥٧ هـ/٩٦٧ م فتولاها ابنه يصلين الزناتى ، واستطاع الأمويون فى قرطبة أن يجذبوا إليهم قبيلة مغراوة وكبيرها حزررون بن فلفول ، فزحف إليها باسمهم سنة ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م واستولى عليها وأقام بها الدعوة لهم ، وعقد له المنصور بن أبى عامر حاجب الخليفة الأموى المؤيد ومدير دولته عليها وعلى جميع أعمالها هى ومدينة درعة ، وظلت فى أسرته المغراوية ، وتملكها ابنه مسعود سنة ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م وغلب على جميع أعمالها هى ودرعة حتى توفى سنة ٤١٣ هـ/١٠٢٢ م وخلفه ابنه محمد لمدة قصيرة إذ توفى سنة ٤١٧ هـ/١٠٢٦ م ووليها بعده ابنه مسعود . وكان أمر لتونة وشيخها الكبير عبد الله بن ياسين قد شاع فى البلاد ودانت له جميع الصحراء وبلاد السودان فكتب إليه فقهاء سجلماسة أن يغزوها ليرفع عنها العسف والجور ويطهرها مما بها من المنكرات ، ولّباهم والتقى بمسعود وجموعه وهزم وقتل فى المعركة سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م ودانت سجلماسة ودرعة للشيخ ابن ياسين بالولاء والطاعة ، فجعل عليها عاملا من لتونة وانصرف إلى الصحراء .

٤

المرابطون - الموحدون - بنومرين

(أ) المرابطون^(١)

المرابطون صنهاجيون بدو كانوا ينتقلون وراء أنعامهم فى الرمال الصحراوية المترامية بين جنوبى المغرب الأقصى وقبائل إفريقية المدارية السوداء حتى السنغال وغيرها من بلاد السودان ونفس كلمة السنغال خير شاهد على ذلك إذ هى تحريف لكلمة صنهاجة على لسان البرتغاليين ، حين وصلوا إلى سواحلها فسموها Senhagal ثم أصبحت Senagal وظلوا دهورًا متبذنين العمران يعيشون على الأنعام وألبانها ولحومها ، واتخذوا اللثام على وجوههم شعارًا لهم بين

دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ليوسف إشباخ ترجمة محمد عبد الله عنان . وقيام دولة المرابطين للدكتور حسن عمود (طبع القاهرة) وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان .

(١) انظر فى دولة المرابطين روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص ١١٩ وما بعدها وابن عذارى فى الثالث (طبع باريس) والرابع طبع بيروت وأعمال الاعلام لابن الخطيب ٢٢٥/٣ وتاريخ ابن خلدون ١٨١/٦ وما بعدها والاستقصا فى أخبار

الأمم ، وكثروا فى منطقتهم وتعددت قبائلهم ومنها كدالة ومسوفة ولمطة وجزولة ولتونة وهى أهمها جميعا . وكان دينهم فى جاهليتهم المجوسية مثل سائر البربر ، وأخذوا يدخلون فى دين الله متأخرين فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ، وتحمسوا له ، وجاهدوا فى سبيله أمم السودان ودوحوهم وحملوهم على اعتناقه فدانت به كثرتهم ، وأذى الجزية منهم من لم يعتنقه . وكان لهم - بسبب اتساع منطقتهم - ملك ضخم توارثه ملوكهم ، وكان ملكهم فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى يحيى بن إبراهيم الكدالى ، وكان على شىء من التقوى فتجهز لأداء فريضة الحج سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م وفى عودته منه لقى بالقيروان أبا عمران الفاسى شيخ المذهب المالكى ، فاستمع إلى دروسه ، ولزمه فترة فأعجب به الشيخ وسأله عن موطنه ، فقال له إن الجهل فاش فى الناس هناك وحذا لو أرسلت معنا تلميذا لك يفقههم فى الدين ، فعرض الشيخ رغبته على تلاميذه فلم يقبل أحد منهم الذهاب معه لتلك الغاية ، فكذب له رسالة إلى تلميذ له فى سجلماسة هو وجاج بن زولو اللطلى لعله يقبل تلك المهمة ، فانتدب له وجاج تلميذا تقيا نابها من تلاميذه هو عبد الله بن ياسين الجزولى ، وما إن نزل فى قبائل صنهاجة المتبدية حتى أعجبوا به ، والتفوا حوله أول الأمر ، وعادوا فأنكروا عليه ما نهاهم عنه من بعض المحرمات ، وشعر باليأس فصمم على أن يتركهم وشأنهم ويقصر نفسه على النسك وعبادة ربه . وأشار عليه يحيى بن عمر أحد رؤساء لتونة أن يتنكأ معه فى جزيرة قرب مصب نهر السنغال ، ونزلها معه وأقام فيها رباطا ، وتسامع بنسكه الناس فأخذ يفد عليه كثيرون ممن فى قلوبهم مثقال حبة من إيمان لينسكوا معه فى رباطه بتلك الجزيرة ، فلما بلغت عدتهم ألفا قال لهم : « اخرجوا فأنتم المرابطون » أى المجاهدون فى سبيل الحق وحمل كافة الناس عليه ، ولذلك سمو بهذا الاسم : المرابطون ، وغلب على تسميتهم بالملثمين ، وبحق ظلت هذه الدولة - طوال عهدها - دولة رباط وجهاد فى سبيل الله .

وخرج عبد الله بن ياسين معهم ومع يحيى بن عمر اللمتونى ، وأخذ يُعدّ العدة للجهاد فى سبيل الله ، وجاءته من صنهاجة البدوية قبائل كثيرة انضمت إلى دعوته ، وظل زعيمها الدينى بينما كان يحيى بن عمر زعيمها الحربى واتجه شمالا فاستولى - كما مر بنا - على درعة وسجلماسة وإقليمها سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م وأصلح من أحوال هذه المنطقة وغير ما بها من المنكرات وأسقط عن الناس المغارم والمكوس . وكان استيلاؤه على هذه المنطقة حطما للحصار الشمالى الذى كان مضروبا على قبائل صنهاجة البدوية أو الصحراوية ، وعاد إلى الصحراء وتوغل فى الجنوب فهاجم أهل السودان الغربى فى حوض السنغال وانتصر عليهم ، وكان ذلك حطما للحصار الجنوبى الذى كان مضروبا على صنهاجة الصحراوية ، فوصلوا إلى شعوب إفريقيا السوداء وأخذوا ينشرون فيها الدين الخفيف . ولم يلبث يحيى بن عمر أن توفى فى نفس السنة ، فخلفه أخوه أبو بكر أحد كبار رجال العالم الإسلام المجاهدين فى سبيل الله ، وبدأ

فندب المرابطين للجهاد فى بلاد المغرب الأقصى فغزا بلاد منطقة السوس سنة ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م واستدار العام ففتح من بلدانها ماسة على المحيط وتارودنت على نهر السوس ومعا أبو بكر منها دعوة الروافض وصعد إلى الشمال فاستولى على أغمات ، وحَمَس أنصاره من المرابطين لجهاد برغواطة الفاسقة ، وكانت مواطنها فى ساحل المحيط فى سلا بإقليم فاس وآنفه وآزموور فى تامسنة وآسفى فى إقليم دكالة ، وكانوا صفرية ، وكان كبيرهم طريف بن صبيح من قواد مسيرة الصفري ، ويقال إنه تنبأ ، وتوالى أبنائه يتنبؤون ويشرعون لقومهم الشرائع ، وقاومهم الأدارسة والعبيديون والأمويون ، ولكن أحدا منهم لم يقض عليهم قضاء مبرما حتى نازلهم أبو بكر بن عمر بجموعه من المرابطين فى وقائع سحقهم فيها سحقا ، واستشهد عبد الله بن ياسين فى بعض تلك الوقائع سنة ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م ومازال أبو بكر يواقعهم حتى استأصل شأفتهم كما يقول ابن خلدون ومخاهم من الأرض محوا . وبلغه خلاف عفيف بين قبيلته ومسوفة فى موطنهم بالصحراء ، فخشى مغبة ذلك وارتحل إليهم سنة ٤٥٣ هـ/ ١٠٦١ م ليصلح ذات بينهم ، واستعمل على المغرب الأقصى ابن عمه يوسف بن تاشفين . ومن ذلك الحين انقسمت حركة المرابطين العظيمة قسمين : قسم جنوبى يجاهد فى إفريقية المدارية بقيادة أبى بكر بن عمر وخلفائه من بعده ، واستطاع هذا المجاهد العظيم الاستيلاء من بلاد السودان على ٩٠ مرحلة فى رواية وعلى مسيرة ثلاثة أشهر فى بلدانها وأراضيها برواية أخرى . ومازال يجاهدهم هذا البطل المقدام حتى استشهد فى إحدى غزواته سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م بعد أن ضرب أروع الأمثلة فى نشر الإسلام والجهاد فى سبيله . وأما القسم الشمالى من حركة المرابطين فكان بقيادة يوسف بن تاشفين وقد شمل ما استولى عليه المرابطون - قبل يوسف - وما سيستولون عليه بقيادته من المغرب الأقصى وغير المغرب الأقصى من مثل تلمسان والأندلس .

وكان يوسف بن تاشفين بطلا شجاعا حازما مدبرا للملكه على خير وجه ، مجاهدا فى سبيل الله طوال حكمه ابتغاء الثواب من ربه ، وكان بحق من كبار الشخصيات الإسلامية المؤسسة للدول والمدن ، ولم يكد يستدير العام بعد توليه الحكم حتى رأى أن يتنى فى السهل الواسع شمالى أغمات وجنوبى تهرتسيفت مدينة لتكون حاضرة لحكمه . وسرعان ما أخذ فى بنائها سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م وهى مدينة مراكش ، وقد شيدت وفق مخططات رسمتها طائفة من مهرة المهندسين وقامت على بنائها طائفة من العمال الحاذقين كما بنى بها المسجد الجامع وإدارة الحكم ، وسرعان ما تكاثرت بها الجوامع والمدارس والفنادق والحمامات ، وأصبحت إحدى مدن العالم الإسلامى الكبرى . وفى نفس السنة جند يوسف الأجناد حتى اكتمل له ما يزيد عن مئة ألف فارس من صنهاجة وغيرها من قبائل المغرب الأقصى ، وقصد مدينة فاس فحارب القبائل حولها وانتصر عليها وافتتحها الفتح الأول ، ومضى يهزم القبائل ويفتح البلاد ، وفى سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧ م استولى على بلاد غمارة فى منطقة الريف إلى

طنجة ، وفتح مدينة فاس الفتح الثاني سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩ م وعاد إليها فى السنة التالية فافتتحها عنوة وافتتح حصون نهر ملوية ، وأخذ كثير من البلدان يفتح له أبوابه دون حرب ، وفى سنة ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ م فرّق عماله على بلاد المغرب وفى سنة ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م استولى على طنجة ، وفى سنة ٤٧٢ هـ أرسل قائده مزدى إلى تلمسان فاستولى عليها ، وفى سنة ٤٧٣ هـ/ ١٠٨٠ م ضرب السكة أو العملة باسمه ، وفى السنة التالية فتح مدينة وجدة وتنس ووهران ومدينة الجزائر وجميع أعمال نهر شلف ، وبذلك ضم إلى المغرب الأقصى الشطر الغربى من الجزائر ، وفى سنة ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م فتح مدينة سبتة . وبذلك وحد المغرب الأقصى جميعه جنوبا حتى الصحراء الكبرى وغربا حتى المحيط وشمالا حتى البحر المتوسط ، ولم يكنه الاستيلاء على حدوده الشرقية غربى نهر الملوية حتى مدينة وجدة ، فقد مدّه شرقا واستولى على شطر كبير من الجزائر كما أسلفنا . وكان واسع الأفق مؤمنا بأن العالم الإسلامى ينبغى أن يتوحد تحت راية واحدة هى راية الخليفة العباسى ببغداد ولذلك كتب إليه معلنا دخوله فى طاعته ، وكتب إليه الخليفة مرحبا ومباركا له فى مملكته ، واكتفى يوسف بأن لقب نفسه بلقب أمير المسلمين . ومما يدل على حسن إدارته وسياسته أنه كان يختار الولاة على ولايات مملكته الواسعة من خيرة رجال قبيلته الصنهاجية المعروفين بالأمانة والعدالة والزهادة ، وضمّ إلى كل وال فقيها أو أكثر ليكون مستشاره فى أحكامه بحيث تتمشى مع الشريعة الإسلامية ، ورفع عن كاهل الرعية المكوس والمغارم التى كان يتقاضاها منهم حكامهم السابقون . وكانت الأندلس - فى القرن الخامس الهجرى - قد أصبحت أندلسات وإمارات متعددة وأخذت تتنافس وتتحارب فى هذا العهد الذى سمي عهد أمراء الطوائف ، ونشط أعداؤهم النصارى الإسبان فى الشمال للانقضاض عليهم ، وأخذوا يؤدون إليهم - قهرا - إتاوات ومغارم شتى ، وخاصة لألفونس السادس ملك ليون وقشتالة ، واستطاع سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م أن يلتقم طليطلة أكبر إماراتهم دون حرب ، مع مساعدة أميرها القادر بن ذى النون على أخذ بلنسية . وشعر المعتمد أمير إشبيلية والمتوكل أمير بطليوس بهذا الخطر الداهم وكذلك غيرهما من الأمراء ، فاستصرخوا البطل المغوار يوسف بن تاشفين أن ينجدهم ضد ألفونس السادس قبل أن يتلهمهم كما ابتلع طليطلة ، وأرسلوا إليه - مستغيثين - نفرا من قضاة المدن الكبرى ، فأطلعوه على جلية الأمر ، فثارت حميته للإسلام والمسلمين فى الأندلس ، كما ثارت حمية قومه المرابطين المجاهدين الذين نذروا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله ودينه الخفيف ، وأعد سريعا جيشا جرارا لمنازلة نصارى إسبانيا وأعد له أسطولا ضخما عبّر الزقاق سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م وأخلى له المعتمد صاحب إشبيلية مدينة الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجيشه ، واتجه لحرب عدو الله فى طليطلة وانضم إليه المعتمد والمتوكل أمير بطليوس وعبدالله بن بلقين أمير غرناطة بجيوشهم ، وعلم ألفونس بمقدمه وأنه منازل فاستغاث بملوك النصارى فى إسبانيا وفرنسا

وإيطاليا وبالبابا فى روما وجاءته حشود من الفرسان ، والتقت الفشتان فى موضع يُدعى الزلاقة شمالى بطليوس ، ودارت معركة حامية الوطيس مُزّق فيها جيش ألفونس شر ممزّق ، ويقال إنه كان مائة وثمانين ألف فارس ومئتي ألف راجل ، فنكّل جيش يوسف بن تاشفين بهذا الجيش وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفرّ ألفونس على وجهه إلى طليطلة فى شردمة قليلة من الفرسان مشخنا بالجراح . وبلغت يوسف وفاة ابن له ، فاضطر إلى العودة إلى مراكش بعد هذا النصر المين ، ولو أنه تابع بعده زحفه إلى طليطلة لاستولى عليها . وفى سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م أخذ ألفونس يغير على إمارة المعتمد بن عباد عن طريق حصن لبيط ، واستغاث بابن تاشفين ، فاجتاز الزقاق إليه وكتب إلى من سواه من أمراء الطوائف ليلتقوا للجهاد ضد ألفونس ، ولم يلبّه سوى أمير مرسية وأسرّها فى نفسه ، وانتصر أمير المسلمين وعاد إلى عاصمته مراكش . ودبّ الخلاف والشقاق بين أمراء الطوائف ومدّوا أيديهم إلى ألفونس يدفعون له المغارم ويطلبون منه العون وخاصة عبد الله بن زيرى أمير غرناطة فعبر يوسف الزقاق إلى الأندلس للمرة الثالثة ، وفيها خلع عبد الله بن زيرى وأسرته عن غرناطة وأرسل بهم إلى مراكش . وترك وراءه صهره سير بن أبى بكر ليخلع أمراء الطوائف جميعا ومن أبى قاتله أو أخذه أسيرا ، وقاتله المتوكل أمير بطليوس وقتله ، وناله المعتمد أمير إشبيلية وأسرّه ونفاه مع أسرته إلى أغمات . واستولى المرابطون على المرية وفر ابن صمادح إلى إفريقية كما استولوا على دانية وشاطبة وبلنسية سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م وبذلك دانت لهم الأندلس ماعدا سرقسطة فإن ابن تاشفين - بنظره الثاقب - رأى أن تظل مع أمرائها من بنى هود ، لتكون غرا حريبا حاجزا بين نصارى الشمال والأندلس . وفى سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م وقيل بل فى سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م عبر ابن تاشفين إلى الأندلس مرة رابعة لأخذ البيعة لابنه على . وفى سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م توفى البطل العظيم يوسف بن تاشفين وبويع لابنه على بمراكش .

وكان على مجاهدا كبيرا مثل أبيه وفى سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م وجّه أخاه تميم الوالى على غرناطة بجيش إلى إقليش شرقى طليطلة ، ولقيه ألفونس وهزمه تميم هزيمة منكرة ، قُتل فيها ابنه الوحيد ولى عهده ، ومات بعد الموقعة بعشرين يوما متحسرا على هزيمته وفقد ابنه ، واستولى تميم على حصن إقليش وشنتريّة . وفى سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م عبر على بن يوسف إلى الأندلس بجيش كثيف هاجم به طليطلة وفتح من أحوازها سبعة وعشرين حصنا وفتح مجريط ووادى الحجارة . وفى السنة التالية فتح سير بن أبى بكر مدن شريش وبطليوس وبرتغال ويابرة وأشبونه وجميع بلاد الغرب . وفى سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م توفى سير بن أبى بكر بإشبيلية وخلفه عليها محمد بن فاطمة حتى سنة ٥١٠ هـ . وفى السنة التالية ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م توفى القائد مزدى غازيا ببلاد النصارى . وفى سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م تملك المرابطون جزائر البليار : ميورقة وأختيها . وأخطأ على بن يوسف فأخذ سرقسطة من حماها بنى هود ، وسرعان

ما وقعت فريسة للنصارى سنة ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م . وفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة عبر على بن يوسف إلى الأندلس ، ودوَّخ بلاد الغرب وفتح شتمرية . وفى سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م استدعى المعاهدون من نصارى غرناطة ألفونس الأول ملك أراجون للاستيلاء على مدينتهم ، فرحف إلى الجنوب ، وعلم المرابطون فردوه على أعقابهم . وأجلُّوا عن غرناطة كل من كانوا سببا فى استدعائه من النصارى إلى مدينة سلا على المحيط فى المغرب وبالمثل إلى مكناسة . وفى سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٧ م هاجم تاشفين بن على النصارى وفتح ثلاثين حصنا فى الغرب . وفى سنة ٥٢٨ هـ/ ١١٣٤ م وجَّه على بن يوسف جيشا كثيفا بقيادة على بن غانية والى بلنسية ومرسية شرقى الأندلس إلى مدينة إفراغة شرقى سرقسطة ، فلقى جيشا لألفونس الأول ملك أراجون فنزاله وهزمه هزيمة منكرة . وفى سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨ م أخذ البيعة بمراكش لابنه تاشفين ، وتوفى على سنة ٥٣٧ هـ/ ١١٤٢ م .

وخلف تاشفين أباه عليا ، ولم يلبث الموحدون أن نازلوه سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م ودارت عليه الدوائر وتوفى برمضان من نفس السنة . وكانت دولة المرابطين دولة عظيمة عملت على نشر الإسلام فى السودان الغربى بالسنگال وغير السنگال ، وقضت على الصفرية والنحل الضالة نخلة البجلية من السوس ونخلة برغواطة المارقة فى إقليم تامسنا وجعلت الإسلام فى المغرب الأقصى كله سنيا ، ووحده بحدوده المعروف بها إلى اليوم ، وصانت الأندلس من الضياع ، فقد كانت سفينة توشك على الغرق ، فأنقذتها وردتها إلى مواصلة الحياة الأدبية والفلسفية والعلمية لأربعة قرون تالية . وقد شملت دولتهم - على اتساع أرجائها - عدالة وأمن لم يحظ بهما قط فى أزمتهم ، إذ كانت تمتد من ممالك النصارى فى شمال إسبانيا إلى السنگال فى الجنوب ، ولا مكس ولا مغرم ولا معونة فى بادية أو حاضرة إلا ما كان من الزكاة والعشر مما فرضه الإسلام ، والأسعار فى غاية الرخص ، والناس فى دعة ورخاء ورفاهية إلى أن ثار على الدولة مهدي الموحدون واستولى خليفته عبد المؤمن على صولجان الحكم من المرابطين .

(ب) الموحدون^(١)

أنشأ هذه الدولة بالمغرب الأقصى محمد بن تومرت فقيه من هرغة إحدى بطون مصمودة ، وهى إحدى القبائل الأربع الكبرى التى كانت تعيش فى مناطق هذا المغرب ، وهى غمارة

الموحدة والخفصية للزركشى (طبع القاهرة) والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وعصر المرابطين والموحدين ليوسف إشباخ ترجمة عنان ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس .

(١) انظر فى الموحدين كتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة (طبع دار الغرب الإسلامى) والمعجب للمراكشى (طبع القاهرة) والجزء الثانى من البيان المغرب (طبع باريس) وروض القرطاس لابن أبى زرع وتاريخ ابن خلدون ٢٢٥/٦ وما بعدها وتاريخ الدولتين

وكانت تنتشر فى منطقة ، الهبط والريف ، وزناتة وكانت تنتشر فى كثير من المناطق وخاصة حول حوض نهر ملوية من منبعه إلى مصبه ، ومن فروعها مغراوة التى قضت على الأدارسة وبنى مدرار ، وصنهاجة فى مناطق مختلفة ، ومعها صنهاجة الملقبون أصحاب دولة المرابطين ، ثم مصمودة وكانت تنزل فى السفح الجنوبى لجبال الأطلس وسهوله ، وهى الجبال المسماة جبل درن ، وكانت تنتشر من آسفى فى منطقة دكالة إلى حاحه على ساحل المحيط ومراكش والسوس وجزولة . وكانت تطمح إلى الملك كما ملكت قبلها صنهاجة وبعض فروع زناتة مثل بنى مدرار فى سجلماسة . ومن فروع مصمودة هرغة وهتانة وتينملل ودكالة وهيلانة وغيرهم حتى ليصبحون معظم سكان المغرب الأقصى .

وولد لهذه القبيلة الكبرى محمد بن تومرت الهرغى حول سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ونشأ كما ينشأ لداته فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء فى بلدته ثم فى مراكش حتى إذا بلغ نحو العشرين من عمره رحل إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ، كما يقول ابن خلدون ، ومرّ بالأندلس ودخل قرطبة وهى دار علم ، ورحل إلى الإسكندرية وحجّ ودخل العراق ولقى جملة من العلماء . وكانت عقيدة الإمامية الاثنى عشرية شائعة فى بغداد ، فدرسها وعرف أنها تقوم على الإمامية أو فكرة إمامة أحد أحفاد على عن طريق الوصية المتسلسلة إليه ، وأن المسلم لا يكون مسلماً حقاً إلا إذا فوّض أمره للإمام وبذل نفسه فى سبيله ، فرأى أن يكون ذلك ركناً أساسياً فى دعوته ، فهو إمام ، وهو يتصف بالصفات القدسية التى يتصف بها الإمام عند فرقة الإمامية الشيعية . ولكن كيف تكون إمامته والإمامة خاصة بالبيت النبوى ؟ فأكد أنه علوى فاطمى وذكر له سلسلة نسب تصله بسليمان بن عبد الله أخى إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة ، وكان قد ترك لأخيه سليمان وذريته تلمسان .

ولم يأخذ محمد بن تومرت عن الإمامية عقيدة الإمام الفاطمى أو العلوى وحدها ، بل أخذ معها فرعها من المهديّة والعصمة ، أما المهديّة فيريدون بها الإمام الذى ينقذ العالم من الشرور والآثام ، فلقلب نفسه بالمهدى أى الإمام الذى اختاره الله لتخليص العالم مما فيه من الموبقات والمعاصى ، وأما العصمة فيراد بها أن الأئمة معصومون عن الخطأ وعن ارتكاب أى إثم أو اقتراف أى ذنب ؛ مع الإيمان بأن الله أضفى عليهم صفات روحية قدسية ، وهى صفات تجعل طاعتهم فريضة على كل مسلم وأن عقيدته لا تتكامل إلا إذا فوّض أمره إلى الإمام وبذل نفسه فى سبيله . ولكل ذلك سعى نفسه - وسماه أتباعه - الإمام المهدى المعصوم . كلمات ثلاث ولكنها كلمات فى غاية الخطورة ، فهو الشخص الذى اختاره الله لعباده ليكون حاكمهم دينا ودنيا : حاكم مهدى ينقذ الناس من الظلم والمآثم ، وكلمته لا ترد فهو معصوم ولا يجرى على لسانه إلا الحق ، والحق وحده . وألف ابن تومرت فى هذه الصفات التى خلعها على نفسه مستمداً لها من الإمامية الشيعية كتاباً فى الإمامية افتتحه بقوله : « أعز ما يطلب » .

وبجانب هذه الأسس الثلاثة وهى أنه إمام مهدي معصوم يأخذ عن الفاطميين لعقيدته أساسا رابعا هو تنظيم دولته بحيث يكون على رءاستها إمام وتتبعه طبقتان : طبقة الصحابة وهم عشرة مستشارون وطبقة الأنصار وهم خمسون وبجانب هاتين الطبقتين الطلبة وهم دعائهم وكانوا يتعلمون أسس العقيدة ونشرها فى القبائل . ودرس وهو فى بغداد - مذهبي المعتزلة والأشعرية ، وعرف الأصول الخمسة التى يدين بها المعتزلة ، وهى التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، وأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأعجبه المبدأ الأول وهو التوحيد ، وهو يعنى عند المعتزلة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، فهو ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر ولا يحصره المكان ولا الزمان ، وكل آية فى القرآن الكريم يفهم منها مشابهة الله للمخلوقات مثل : (يد الله فوق أيديهم) تؤول ، فاليد فى الآية معناها القدرة ، وبالمثل الآيات الأخرى المماثلة . والأشعرية يلتقون مع المعتزلة فى هذا المبدأ وهو تنزيه الله عن التشبيه وكل ما يتعلق بالجسمية والتجسيد ، ومع أن ابن خلدون يقول إنه أخذ بمذاهب الأشعرية فى كافة العقائد ، وألف فى العقائد على رأيهم رسالته المرشدة فى التوحيد ، مع ذلك نرى أنه ربما صرح باسم الأشعرية لأنه كان لهم شعبية بالمغرب كله لعصره وقبل عصره . وإنما دعانا إلى الزعم بأن ابن تومرت أخذ فكرة أو مبدأ التوحيد وما يتصل به من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات عن المعتزلة أنه استخدمها بنفس المعنى للدلالة على أتباعه ، فهم موحدون أى يؤمنون بأن الله لا يشبه المخلوقات بوجه من الوجوه وينفون عنه التجسيد بكل صورته . وكان يتهم المرابطون وشيوخهم بالقول على الذات العلية بالتجسيم وأنهم لذلك كافرون مارقون عن الدين ويجب نقض طاعتهم وقتالهم ، ومعاذ الله أن يكون المرابطون كفارا أو مجسمة وقد أدوا للإسلام خدمات كبرى إذ قضوا فى منتصف القرن الخامس الهجرى على مجوس برغواطة فى إقليم تامسنا بالمغرب الأقصى واستنجد بهم أمراء الطوائف فى الأندلس ضد غارات الإسبان عليهم فغبروا إليهم وهزموا الإسبان هزيمة ساحقة فى موقعة الزلاقة وكان لهم جيش فى مورتانيا نشر الإسلام بقوة فى غرب إفريقيا ووسطها ، وفضلهم تحولت غانة بلدا إسلاميا إلى اليوم ، وظلم ما قاله ابن تومرت عنهم من أنهم كفار مجسمة وكل ما هناك أن فقهاءهم كانوا سلفين يتركون التأويل للآيات التى قد يفيد ظاهرها التشبيه على الله مع تنزيهه ونفى التجسيد عنه ، وبذلك يتبين أن ابن تومرت لم يسم أتباعه باسم الموحدين عفا بلا قصد مما جعل مؤرخا يقول : « كان لقب الموحدين الذى أطلقه ابن تومرت على أتباعه غير ذى معنى لأن كل المسلمين موحدون ، ولم يكن المرابطون أقل توحيدا من الموحدين » . فهى كلمة - كما رأينا - تؤدى معنى واضحا عنده وعند أتباعه . وفى رأى أن الذى وصل ابن تومرت بمذهب المعتزلة هم الإمامية لأنهم كانوا موصولين بهم من قديم ، وأحكم هذا الاتصال فى القرن الخامس الهجرى الطبرسى المتوفى سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م وقد فسح فيه - كما ذكرت فى الحديث عن التفسير

فى القسم الخاص بالعراق فى هذه السلسلة - للتأثر بالمعتزلة فى نفى التشبيه عن الذات العلية . ومبدأ ثان من مبادئ المعتزلة الخمسة أخذ به ابن تومرت وجعله جزءاً لا يتجزأ من دعوته ، وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو ما ينبغى على كل مسلم أن يصدر عنه بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإلا فبقلبه ، وهو أضعف الإيمان ، وجعل ابن تومرت ذلك شعاراً للدعوة . ويقول صاحب المعجب إنه أخذ عن المعتزلة القول بأن صفات الذات العلية من مثل تقدير سميع عليم هى عين الذات الإلهية ، وقال الأشعرية إنها زائدة على الذات .

ويعود ابن تومرت إلى المغرب وينزل طرابلس ويحاول أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويلقى مقاومة ، ويتركها إلى بجاية ، ويلقى نفس المقاومة ، ويزداد أتباعه ويلتقى بعيد المؤمن بن على الكومى من قبيلة كومية ، ويقال إنها زناتية ويقال بل مصمودية ، وصحبه إلى تلمسان ، والتف حوله كثيرون . وسار موكبه إلى فاس والمغرب الأقصى ، ونراه يظن أن أدوات الموسيقى منكر ، فيأمر أتباعه بتحطيمها . وينزل مكناسة ويلقى بها مقاومة فيتركها إلى مراكش ويلتقى فى المسجد بأمر المسلمين على بن يوسف ويعظه . وأخذ ينكر على الفقهاء أخذهم بالظاهر فى تفسير الآيات التى قد يفهم منها التجسيد قائلين إن علم ذلك عند الله مع تنزيهه ونفى التشبيه عنه ، وهو قول أهل السنة ورماهم بالكفر كما رماه بالجمود لتمسكهم بمذهب مالك وفروعه ، وكأن ذلك كان تمهيداً لتأخذ هذه الدعوة بمذهب داود الظاهرى الذى يأخذ بالكتاب والسنة فحسب ، وناظره الفقهاء وانتصر عليهم ، ولحق بأغصات ثم بقبيلة هتانة المصمودية وشيخها أبى حفص ، ونزل على قبيلته هرغة سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م وبنى بها رباطاً للعبادة ، واثالث عليه القبائل وخاصة من مصمودة ، وانتقل إلى جبل تينملل جنوبى منطقة مراكش ، وأخذ ينظم أتباعه فى طبقات ، فأول طبقة إيت عشرة أو أهل عشرة وهم صحابته كصحابه الرسول ، وتليهم طبقة الأنصار إيت خمسين أو أهل خمسين . وكان يسمى حفظة المذهب وفقهائه الطلبة أى الدعاة ويسمى أهل دعوته الموحدين بالمعنى الذى أوضحناه . وأعد جيشاً عداده ٤٠,٠٠٠ مقاتل من الموحدين وجعل عليه عبد المؤمن بن على ، ولقيتهم جيوش المرابطين فهزموهم ، وتبعوهم إلى بحيرة بمراكش ، ودفعوهم إليها وأنخنوا فيهم قتلاً وسبياً وسميت هذه المعركة معركة البحيرة . ولم يلبث المهدي أن توفى بعدها بأربعة أشهر سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م ، وكنم عبد المؤمن وأصحابه موته ثلاث سنوات يمؤون بمرضه حتى استحكم أمرهم ، فأظهروا للناس موته وعهده لعبد المؤمن بن على بخلافته .

وأجمع أصحاب ابن تومرت العشرة وأنصاره الخمسين والدعاة أو الطلبة وكافة الموحدين على البيعة لعبد المؤمن بن على بمدينة تينملل سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م باسم خليفة ابن تومرت ، ولم يلبث أن أبعد فى الغزوات فى منطقة تادلة ، واستولى سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م على درعة ،

وتسابق الناس في المغرب الأقصى إلى دعوته وانتفض البربر في سائر أنحاء المغرب على المرابطين . ويتحاشى عبد المؤمن مقابلتهم في مراكش بعد هزيمة البحيرة المشهورة المارة ، ويقوم منذ سنة ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م إلى سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م بحملة كبرى يخترق فيها ممر تازا إلى تلمسان ويستولى على شطر كبير من المغرب الأوسط . وكان تاشفين بن علي بن يوسف يحاذيه ولا ينازله ، وفي هذه الأثناء توفي أبوه علي بن يوسف وولى الخلافة تاشفين ، وهاجم عبد المؤمن سبتة وامتنعت عليه ، وكان القاضي عياض هو الذي دافع عنها بقوة ، ولذلك سخط عليه الموحدون ، وظل عبد المؤمن يتابع تاشفين حتى حصره في مدينة وهران بالجزائر وبها توفي سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م وبموته سقطت وهران ، وأخذت مدن المرابطين تسقط في حجر الموحدين مع ما أبدى المرابطون فيها من بسالة عظيمة ، وخاصة مدينتي فاس ومراكش . وقد ظل عبد المؤمن محاصرا لمراكش تسعة أشهر وهي تقاوم بزعماء أميرها إسحق بن علي بن يوسف وطال عليها الحصار وأجهد أهلها الجوع فاستسلموا في شوال سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ولم يبق الموحدون على أحد من المرابطين وقتلوا إسحق بن علي بن يوسف ، وانمحي - كما يقول ابن خلدون - أثر المرابطين من البلاد واستولى عليها الموحدون كما استولوا على تلمسان وعلى شطر كبير من المغرب الأوسط . ولن يقف ملك عبد المؤمن في بلاد المغرب عند هذا الحد ، إذ كان قد حدث منذ أواسط القرن الخامس أن اكتسحت أمواج الحلالية وبنى سليم طرابلس وإفريقية التونسية وشطرا كبيرا من المغرب ، وأعدت لظهور ما يشبه أمراء الطوائف في إفريقية التونسية مثل بنى خراسان في تونس وبنى جبارة في سوسة وبنى جامع في قابس وبنى الرند في قفصة . وكان بنو حماد في بجاية ، وكان المعز بن باديس وابنه تميم انحازا إلى المهديّة على البحر المتوسط بين سوسة وصفاقس ، وحمل ملوك صقلية النورمانديون بأساطيلهم على سواحل طرابلس واستولوا عليها كما استولوا على جزيرة جربة المقابلة لقابس ، وسرعان ما استولوا في سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م على المهديّة وكثير من مدن إفريقية التونسية الشرقية مثل قابس وصفاقس والمنستير وسوسة ، وعلم عبد المؤمن ذلك كله فصمم على أن يجمع ديار المغرب كلها في قبضة واحدة ، حتى لا تسول للملوك صقلية نفوسهم الاستيلاء عليها ، فخرج من مراكش سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م في جيش جرار استولى به على بجاية عاصمة بنى حماد وخلعهم عن إمارتها واستسلمت له إمارات الطوائف الصغرى في إفريقية التونسية ، واستولى من النورمان على كل ما كان بأيديهم من مدن الساحل في طرابلس وإفريقية التونسية ، وبذلك تحققت على يده وحدة المغرب السياسية من طرابلس إلى المحيط .

وبمجرد أن توفي تاشفين بن علي بن يوسف وانتقل صولجان الحكم في المغرب الأقصى إلى الموحدين اختلت أحوال الأندلس ، بل لعلها اختلت من قبل ذلك في عهد علي بن يوسف منذ شغل المرابطون عن الأندلس بحرب الموحدين ، فاستولى النصارى على كثير من الثغور

المجاورة لبلداتهم . ورأى بعض أعيان البلاد فى الأندلس إخراج بلداتهم من ولاية المرابطين وإعلان استقلالهم بها ، وبذلك بدا فى الأندلس ما يمكن أن نسميه عصر الطوائف الثانى ، وفى سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م استولى صاحب برشلونة : ريموند على طرطوشة وجميع قلاعها وعلى لاردة وإفراغة ، واتفق أهل بلنسية ومرسية وشرقى الأندلس على تولية عبد الله بن عياض وخلفه محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ، ودانت له جيان وولى عليها صهره إبراهيم بن همشك ، وظل ابن مردنيش يقاوم الموحدين إلى أن توفى سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢ م ودخلت بلاده فى طاعة الموحدين وبالمثل جيان وابن همشك . وكان الموحدون يرسلون جنودهم منذ سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م إلى الأندلس واهتموا بالغرب فيها ، فدانت لهم إشبيلية وقرطبة . وكان ألفونس السابع قد استولى على المرية سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م فنازله عثمان بن عبد المؤمن وإلى إشبيلية ، وحاول ألفونس الدفاع بكل ما يستطيع ، ولم يفته دفاعه ولا جنوده فقد هزم هزيمة ساحقة توفى على أثرها ، وهو ثانى ملك نصرانى يقضى عليه المسلمون بعد قضائهم على جده ألفونس السادس بعد هزيمته فى أقليمش وقتل ابنه فى معركتها الطاحنة . وعبر عبد المؤمن إلى الأندلس ، ونزل بجبل طارق وسماه جبل الفتح وبنى به مدينة ، ووفد عليه وجوه الأندلس من مالقة وقرطبة وإشبيلية للبيعة سنة ٥٥٦ هـ/١١٦١ م وقدم له الشعراء مدائح رائعة وتوفى سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣ م . وبحق استطاع إنشاء أكبر دولة عربية فى عصره إذ امتدت من المحيط الأطلسى إلى أنحاء طرابلس فى إفريقيا ومن ديار النصرارى فى الأندلس إلى درعة والسوس فى المغرب الأقصى .

وخلفه ابنه يوسف وكان مثقفا ثقافة واسعة ، ثقفا فى أثناء ولايته لأبيه على الأندلس واتخاذة إشبيلية عاصمة له هناك ، وكان مثل أبيه وإمامه ابن تومرت أثرا على كتب المذاهب الفقهية وما بها من كثرة الفروع والعلل مؤمنا بمذهب أهل الظاهر الذين يرجعون فى فقههم إلى الكتاب والسنة فحسب كما هو معروف عن داود الظاهرى فى المشرق وابن حزم فى الأندلس . ومربنا أن من مبادئهم التوحيد وسموا به أنفسهم الموحدون أى الجماعة التى تنفى مشابهة الذات العلية للمخلوقين نفيا باتا ، ومبدأ ثالث هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما مربنا ، مع الإيمان بأن ابن تومرت كان إماما مهديا معصوما . ومع ذلك كله يزعم بعض المؤرخين المعاصرين أن دعوة الموحدين لم تقم على أساس مذهب دينى أو سياسى واضح لأنه غابت عنهم معرفة المبادئ التى قامت عليها هذه الدعوة .

وانتهت فى عهد يوسف فتنة ابن مردنيش وكذلك فتنة ابن همشك ودانت له الأندلس شرقا وغربا . وكان ألفونس إنريك Alfonso Enrique ويسميه مؤرخو العرب ابن الريق وهو صاحب قلورية شمالى نهر تاجه بالقرب من المحيط ، استولى على أشبونة وشترين وقصر

أبى دانس منذ سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م وعبر يوسف إلى الأندلس فى ستنى ٥٦٦ هـ/١١٧٠ م و ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م لمجاهدته ومجاهدة النصارى واستولى على بعض الحصون .

وتوفى يوسف سنة ٥٨٠ هـ وخلفه ابنه يعقوب ، وفى عهده بلغت ثورة الموحدين على أصحاب المذاهب الأربعة فى المشرق وكتبهم ذروتها إذ كان قصده نحو مذهب مالك من المغرب وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث . وكان الأيوبيون قد أرسلوا قراقوش لإحداث قلاقل فى طرابلس وتونس عليهما يتبعان مصر ويعينانها فى حروبها مع الصليبيين ، وفى الوقت نفسه نزل إفريقية التونسية بعض بنى غانية (أمهم من غانة) ولاية المرابطين على جزائر البليار لمحاولة تأليب أهلها وثورتهم على الموحدين ، واستطاع يعقوب القضاء على هذه القلاقل والفتن بحملة كبيرة اتجه بها إلى تلك الديار سنة ٥٨٣ هـ وأتم القضاء عليها نهائيا الولاية بعده . ووضع نصب عينيه الاستعانة بالملالين وغيرهم من الأعراب فى إعداد جيش ضخم لمنازلة نصارى الإسبان من جهة ، وليفيد فى جيشه من بسالتهم المشهورة وليبعد عيهم وغاراتهم عن المغرب من جهة ثانية . وتوفى ابن الرنق ملك البرتغال سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م وخلفه ابنه : سانشو فتمكن سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م بمساعدة صليبيين هولنديين وإنجليز من الاستيلاء على مدينة شلب ، فاستردها يعقوب سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م واستولى على عدد من الحصون ، وأخذ يعد لمعركة كبرى ، واستنفر العرب الملالية والمغاربة وأهل الأندلس ، وسمع بذلك ألفونس الثامن صاحب قشتالة ، فاستعان بالبابا وملوك أوربا وحشد جموعه النصرانية فى سهل حول حصن يسمى الأرك بين قرطبة وطليلة ومزقهم جيش المسلمين كل ممزق ، ولاذ ألفونس الثامن بالفرار نحو طليطلة مع عدد من فرسانه ، ولو أن يعقوب تبعه إلى طليطلة لاستولى عليها ، ولكنه صنع ما صنعه يوسف بن تاشفين بغد موقعة الزلاقة ، إذ اكتفى بعقد معاهدة بينه وبين ألفونس بعدم الاعتداء لمدة عشر سنوات . وما يؤثر له أنه أصلح مسجد إشبيلية وبنى مئذنته المعروفة باسم الخير الدا . وتوفى سنة ٥٩٥ هـ/١١٩٨ م .

وتولى بعده ابنه عبد الله الناصر وشغله أمر بنى غانية ، واستولى على جزائر البليار سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م وتابعت هزائمهم فى طرابلس والمهدية وتونس وعند تبسة فى إقليم الزاب ، وانسحب من بقى منهم إلى الصحراء . وبينما كان الناصر مشغولا بالقضاء على بنى غانية كان ألفونس الثامن يعد لمعركة فاصلة بينه وبين الموحدين وأعانه البابا وملوك النصارى وجاءه عبّاد الصليب سيولا وراء سيول ، والتقى النصارى بجيش الموحدين عند حصن العقاب إلى الجنوب الشرقى من حصن الأرك سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢ م ، ودارت الدوائر على الموحدين . وتوفى الناصر بعد الموقعة بشهور قليلة ، وكان ذلك إيذانا بانتهاء الجبهة الإسلامية فى الأندلس . وخلف الناصر ابنه يوسف الذى تلقب بالمستنصر ، وثار عليه أهله وذوو رحمة فى الأندلس والمغرب

واضطربت في الأسرة منافسات وحروب أهلية إلى أن قضى المرينيون على دولة الموحدين سنة ١٢٦٨هـ/١٢٧٠م وفقدت في أثناء ذلك مدن الأندلس حراسها وحمايتها، فبين سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م وسنة ٦٤٦هـ/١٢٤٩م سقطت في حِجَور نصارى الإسبان مدن الأندلس الكبرى : قرطبة وبلنسية ودانية وشاطبة وإشبيلية عروس الأندلس، وسقطت مرسية سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م .

(ج) بنو^(١) مرين

بنو مرين قبيلة بربرية زناتية كانت تستوطن المغرب الأوسط ودفعها العرب الهلاليون غربا فاستقرت في حوض مَلُوية حتى منابعه وحوض نهر زيز شمالى سجلماسة ، وكانوا موالين للموحدين وأسهمت منهم طائفة كبيرة بقيادة أميرها « محيو » في موقعة الأرك المشهورة ، وقُدِّمه المنصور الموحدى على جميع المتطوعين من زناتة للاشتراك في المعركة ، وأصابته في الموقعة جراحة مات منها شهيدا . وخلفه على الإمارة في قومه المرينيين ابنه عبد الحق ، وكان يطمح أن تصبح لقبيلته دولة مثل دولة لمتونة الصنهاجية أو دولة المرابطين ودولة هرغة المصمودية : دولة الموحدين . ودخل بجموعه لعهد المستنصر في وادي تازا وشرقى وادى سبو ، وواقعه الموحدون سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م وهزمهم ، وتوفى فخلفه ابنه عثمان وأخضع بنى رياح الهلالية وتوفى فخلفه أخوه محمد ونازله الموحدون فتح مكناسة فهزمهم ، وتوفى سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٩م وتلاه أبو يحيى بن عبد الحق أخوه ، وهو الحقق لأمانى بنى مرين فى تأسيس دولة لهم بالمغرب الأقصى ، إذ ناصب الموحدين العداء ، واستولى منهم على مكناسة ، وهى أول قاعدة ملكها بنو مرين ، وقصد إلى مدينة فاس فباعه أهلها طواعية راضين ، وعادوا فنقضوا بيعتهم ، وتحداه يَغْمُراسن أمير بنى عبد الواد ، والتقى ، وانتصر بنو مرين ، وعاد ابن عبد الحق سريعا إلى فاس ، فطلب أهلها منه الأمان وأعطوه العهود فقبل منهم وصفح عنهم ، ورحل إلى سلا ونازل جيشا للموحدين وهزمه واستولى عليها ، ونازل جيشا لبنى عبد الواد فى طريقه إلى درعة وهزمه ، ودخل أهل درعة فى طاعته ، وعاد إلى عاصمته فاس ، وتوفى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ويعد - بحق - المؤسس لدولة المرينيين فى المغرب الأقصى .

وولى إمارة المرينيين بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق وكان مجاهدا كبيرا يرى فرضا عليه أن يجاهد نصارى الإسبان ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وبدأ جهاده لهم على رأس قوة مرينية

التلمسانى (طبع الجزائر) وزهرة الآس فى بناء مدينة فاس لأبى الحسن الجنائى (طبع الجزائر) وروض القرطاس لابن أبى زرع والاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى للسلاوى .

(١) انظر فى دولة بنى مرين روضة النسر فى أخبار دولة بنى مرين لابن الأحمر (طبع الرباط) والذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية (نشر ابن أبى شنب) والسادس من تاريخ ابن خلدون والمسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن لابن مرزوق الخطيب

سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م وفي سنة ٦٦٨ هـ/١٢٦٩ م افتتح مدينة مراكش عاصمة الموحدين ، وبذلك قضى نهائيا على دولتهم ، وبسطت الدولة المرينية سلطاتها على المغرب الأقصى جميعه جنوبيه وشماليه حتى سبتة وطنجة . وابتهج الفقهاء بالدولة الجديدة ، لأنها خلصتهم من إجبارهم على مدارس المذهب الظاهري ورفضهم لمذهب مالك فقيه المدينة والحجاز الذي كان يعتنقه الفقهاء في المغرب منذ حياة صاحبه في القرن الثاني . وقد عادوا إليه وإلى مدارس كتابه الموطأ ومدونة سحنون التي أملاها عليه عبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك وكتاب التهذيب للبراذعي الصقلي والنوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني وغير ذلك من كتب الفقه المالكي ومطولاته التي كان يجمع منها يعقوب الموحدي الأحمال ويحرقها يريد نحو مذهب مالك وإزالته من المغرب . وسرعان ما عاد إليه المغرب جميعه بعد انتهاء عصر الموحدين وابتداء عصر المرينيين ، وتنادى الفقهاء بأن عقيدة ابن تومرت إنما هي انشقاق على الجماعة ، وبذلك كان فقهاء المذهب المالكي من العوامل في تثبيت حكم المرينيين وعلى رأسهم يعقوب بن عبد الحق . ومنذ عهده بل قبله تلتحم الحروب بين بنى مرين وبنى عبد الواد وستظل تلتحم على مر السنين ، وكانت بين يعقوب ويغمراسن سلطان بنى عبد الواد واقعة بأسلى قرب وجدة في الشمال سنة ٦٧٠ هـ/١٢٧٢ م انتصر فيها يعقوب وحاصر تلمسان ثلاثة أشهر ثم رفع الحصار وعاد إلى فاس ، وفي سنة ٦٧٢ هـ هاجم سبلماسة واستخدم في حصارها البارود لأول مرة في المغرب الأقصى وأذعن له ، وفي سنة ٦٧٤ هـ/١٢٧٦ م بنى مدينة فاس الجديدة على مسافة ميل غربى المدينة القديمة إلى الجنوب قليلا ، ويمر بين سوريهما ذراع من النهر يتجه نحو الشمال وعليه تقع الطواحين ، والذراع الثاني للنهر يتفرع فرعين يمر أحدهما بين فاس القديمة وفاس الجديدة ويتابع الفرع الثاني سيره وسط المزارع ، وجعلها مقر الحكومة الجديدة ، وسماها يعقوب المدينة البيضاء ولكن الشعب سماها باسم فاس الجديدة ، وجعلها ثلاثة أقسام ، قسم فيه قصوره وقصور أسرته ومعه حدائقه وبنى فيه جامعا بديعا ، وقسم ثان به قصور قواده وشخصيات دولته ، وقسم ثالث خاص بسكنى الحرس مع جوامع وحمامات ، وبنى في عدوة القرويين بفاس مدرسة كبيرة ، وبنى مارستانا وزوايا ، وبنى بجوار القصر الملكي دارسك العملة واختط سوقا للمدينة ونظمه تنظيما حسنا وجعل لدكاكين الصاغة أمينا يدمغ كل ما يُصنع من فضة أو ذهب في فاس بمنقاش ، وكان أهل فاس عرفوا - منذ هذا التاريخ على الأقل - بنظام الدمغة . وتجهز يعقوب في سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٩ م لعبوره الثاني للزقاق على رأس جيش مرينى لجهاد النصارى في إسبانيا وأبلى بلاء حسنا وعاد إلى عاصمته فاس . وفي سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨٢ م نازل يغمراسن في ملعب الخيل بأحواز تلمسان وهزمه وعاد إلى فاس . ولم يلبث أن أخذ يستعد لجوازه الثالث إلى الأندلس سنة ٦٨١ هـ/١٢٨٣ م ليجاهد نصارى لإسبان واستولى على بعض حصونهم . وفي سنة ٦٨٥ هـ عبر الزقاق للجهاد مع صفوة مستبسة

من بنى مرين وأحرز نصرا مجيدا على نونيو جونزالث دى لارا nuno gonzalez de lara جنوبى قرطبة فى ربيع الثانى سنة ٦٨٥ هـ/سبتمبر سنة ١٢٨٦ م . وتوفى بأورته فى الجزيرة الخضراء . وكل ما استولى عليه من الحصون والبلاد كان يتركه لبنى الأحمر أصحاب غرناطة، فهو لم يجاهد لغنيمة إنما كان يجاهد لنصرة المسلمين ضد أعداء الإسلام نصارى الإسبان، وظل ذلك مبدأ ثابتا لحكام بنى مرين فى جهادهم لأولئك النصارى، فهم لا يغنون بجهادهم غنما. إنما يغنون الدفاع عن الإسلام ضد خصومه إرضاء لله ورسوله. وتلك منة ليعقوب وخلفائه المرينيين .

وخلف يعقوب - بعهد منه - ابنه يوسف ، وسار سيرته فى الجهاد فعبّر الزقاق إلى الأندلس مرارا ، كما سار سيرته فى العدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه ، ونازل عثمان سلطان تلمسان مرارا ، وفى سنة ٦٩٨ هـ/١٢٩٩ م حاصرها وظل محاصرها ثمانى سنوات ، وفى سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠١ م أسس أمامها مدينة المنصورة لمعسكره ، وشاد بها قصره وبنى بجواره جامعا عظيما ومنارة على رأسها تفاحات من ذهب ، وبنى الناس حول قصره المنازل والقصور ، وغرسوا البساتين وأجروا المياه وأداروا على المدينة سورا ، وبنيت بها حمامات وفنادق ومارستان ، حتى إذا عادت لبنى عبد الواد هدموها وخربوها وطمسوا معالمها ، وتوفى عثمان بن يغمراسن سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م حزنا وكمدا ، وتوفى ابنه أبو زيان مثله كمدا سنة ٧٠٧ هـ/١٣٠٨ م . ولم يلبث أن توفى يوسف بن يعقوب ، ففك المرينيون الحصار عن تلمسان ، ولا بد أن نذكر أن المرينيين حين حاصروا تلمسان استولوا على كل ما كان بيدها . مدن فى المغرب الأوسط بل ربما أضافوا إليها مدنا جديدة ، فقد استولوا على وجدة ووهران ومستغانم وتنس ومليانة وشرشال والمدية وبجاية . وبعد يوسف رغب فى الاستيلاء على صولجان الحكم أخوه أبو يحيى وابنه أبو سالم وحفيده أبو ثابت عامر ، وأرسل عامر إلى بنى عبد الواد أن يؤيدوه نظير رد ممالكهم عليهم فى المغرب الأوسط فأيدوه ، وتم له الأمر ، وفى لهم بالعهد ، وخلفه عثمان بن يعقوب فأغار على تلمسان سنة ٧١٤ هـ/١٣١٥ م .

وتوفى عثمان سنة ٧٣١ هـ/١٣٣١ م وخلفه ابنه أبو الحسن على ، ويفكر فى الاستيلاء على تلمسان ويستولى على ندرومة ويحاصر وجدة سنة ٧٣٥ هـ/١٣٣٥ م ويستولى على وهران وتنس ومدينة الجزائر ومليانة سنة ٧٣٦ هـ/١٣٣٦ م ويحاصر تلمسان ، ويعيد بناء المنصورة لسكانه وسكنى جيوشه . ويفتح تلمسان سنة ٧٣٧ هـ ويأخذ بنى عبد الواد وأهلها بالرفق ويأخذ فى الاستيلاء على مدن الجزائر ، ويدخل بجاية ويضع عن أهلها ريع المغرم وتذعن قسنطينة لطاعته ، ويقدم إلى تونس ومعه حشد من العلماء الأجلاء اجتمعوا له من المغرب الأقصى والمدن التى نزلها ، وظل بها من سنة ٧٤٨ هـ/١٣٤٨ م إلى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م . وفى شهر محرم سنة ٧٤٩ للهجرة هزم العرب أبا الحسن على القيروان هزيمة شديدة وربما كان من أسبابها

أنه كان فى جيشه بنو عبد الواد ومغراوة وتوجين ، وجميعهم سلب منهم ديارهم ، فعملوا على هزيمته وانتصار العرب . وشاع فى المغرب الأقصى خبر بموته . فدعا ابنه أبو عنان لنفسه وبايعه الناس . وفى شهر شوال من سنة ٧٥٠ هـ أبحر فى أسطول ضخم إلى الجزائر ، وتخطم أسطوله بساحل زواوة فى الجزائر ولم ينج إلا نفر قليل منهم ، وغرق من كان معه من العلماء مفخرة المغرب الأقصى والجزائر . ولم يتنازل ابنه أبو عنان له عن الملك بعد أن تحقق من حياته خشية أن يحرمه من ولاية عهده ، وشغل الابن بأبيه حتى توفى سنة ٧٥٢ هـ / ١٣٥٢ م وتم له الأمر . وزحف إلى تلمسان سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م وكان يليها عثمان الثانى وأبو ثابت فاستولى عليها وقتل عثمان وفر أخوه أبو ثابت إلى شلف فأرسل إليه أحد قواده فاستولى على معسكره بكل ما كان فيه ، وفر أبو ثابت ثانيا وقتل فى فراره ، واستولى أبو عنان على كثير من مدن الجزائر بما فيها بجاية وقسنطينة .

وتوفى أبو عنان سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م وهو آخر حكام بنى مرين العظام ، وبويع لابنه أبى بكر السعيد وكان طفلا فظل فى الحكم سنة ، وخلفه عمه إبراهيم لمدة سنتين . وطبىعى وقد اضطرت الأمور أن تعود تلمسان لأهلها بنى عبد الواد ، ويتولى أخوه لمدة سنة ، ويتولى بعده سلاطين ضعاف ، واختلت الأحوال وظلت الدولة تزداد اختلالا بتولى أناس غير أكفاء ، وازدادت الفتن الداخلية وظلت الحروب مشتتة بين بنى مرين وبنى عبد الواد وكثيرا ما تغلب الوزراء على الحكم فقدموا له الصبية والضعاف من ذرية عبد الحق ليخلو لهم الجو . وأخذ بعض الحكام فى سجلماصة ومراكش وأطراف الدولة يحاولون الاستقلال عنها . وتفقد الدولة المربية المغرب الأوسط وتعود إلى حدودها الأولى ، فقيم كان كل هذا الصراع بين المرينيين والتلمسانيين وحكامهم من بنى عبد الواد . ولو فكر هؤلاء الحكام المسلمون فى الأمر ومصلحة الأمة لأغمدوا السيف ولم يسلوه على إخوانهم ، وإنما يسلونه على عدوهم من نصارى الإسبان الذين ينازلون المسلمين فى الأندلس نزالا ضاريا . ومن الحق أن بنى مرين أدوا دورا عظيما فى الدفاع عن غرناطة . فقد ظلوا حتى أيامها الأخيرة يخوضون معها أو منفردين معارك طاحنة بذلوا فيها كل ما يستطيعون غير طامعين فى غنم أو أى كسب مادى . ولا نمضى طويلا فى القرن التاسع الهجرى حتى نشعر بضعف المرينيين فقد استولى البرتغاليون منهم على سبتة سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م إذ تحولت الحرب المقدسة إلى أرض المغرب . واستولى البرتغاليون على الدار البيضاء أو آتفه سنة ٨٧٤ وعلى طنجة ومدينتى أصيلا والعرائش سنة ٨٧١ هـ / ١٤٧١ م . وخرجت عن طاعة الدولة مراكش ومنطقة الريف فى الشمال وسجلماصة ودرعة والسوس فى الجنوب ، ولا بد أن نذكر أنه إذا كانت الدولة المربية ضعفت وتخاذلت إزاء هذا الاحتلال البرتغالى الواسع لموانئ المغرب على الزقاق والمحيط فإنه كان هناك من الشباب العربى دائما من يستبسلون فى مقاومتهم وينزلون بهم خسائر فادحة فى الأرواح، من مثل

أبي الحسن^(١) على المنذرى، وكان قد قام بأعمال بطولية فى حروب غرناطة مع النصارى ، وعز عليه أن لاتجد مدن سبتة والقصر الصغير وطنجة من يدافع عنها ضد أعدائهم ، فانسحب إلى تطوان جنوبى سبتة على البحر المتوسط . وأخذ فى تحصينها واجتمع له ثلاثمائة فارس ، وأخذ بهذه الكتيبة الصغيرة يغزو منطقة المدن الثلاث السابقة ويأسر كثيرين من نصارى البرتغاليين وينهك قواهم فى أشغال التحصينات . ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن تطوان إنه زارها ورأى بها ثلاثة آلاف من عبيد النصارى ويقول إنهم كانوا يلبسون جميعا سترة من الصوف وينامون ليلا مقيدين بالأصفاد فى سراديب تحت الأرض . ومثله شاب^(٢) إدريسى ذهب إلى غرناطة وانخرط لفترة من الزمن فى خدمة الغرناطيين حتى أصبح محاربا مجريا ، وعاد ليستقر فى جبل بنى حسن بالقرب من مدينة تطوان ، واجتمع إليه عدد من الفرسان ، وأخذ ينزل البرتغاليين فى المنطقة ويفتك بهم ، ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن جبل بنى حسن إن البرتغاليين يعرفونه جيدا ويعرفون بطولته ويسمونه باسمه على بن راش (راشد) وهو الشريف الإدريسي على بن موسى بن الرشيد . ولابد أنه كان لشبان مغاربة أعمال كثيرة كأعمال الإدريسي والمنذرى غير أن المؤرخين قلما يثبتونها . ومرر بنا الحديث عن بهلول وبطولاته العظيمة فى عصر الموحدين . وتبلغ الدولة المرينية غاية الضعف فيتولى الأمر الوطاسيون وهم فرع من بنى مرين ولم يكن بيدهم شئ من السلطان الحقيقى . وكان أولهم محمدا الشيخ منذ سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧٢ م حتى سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م وخلفه ابنه محمد البرتغالى حتى سنة ٩٣١ هـ / ١٥٢٤ م فأخوه بوحسن لمدة سنة فأحمد بن محمد البرتغالى حتى سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م . وكان الكابوس البرتغالى يزداد فى عهدهم جثوما على ساحل المحيط ، وقد استولوا على ماسة فى منطقة السوس سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٩ م وأختها أغادير فى منطقة السوس أيضا سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م وعلى آسفى فى منطقة دكالة سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م وعلى أزموور سنة ٩١٩ هـ وكانوا ينشئون فى كل مدينة حصونا للدفاع عنها ويقيمون فى كل مدينة حاكما عسكريا ، وكانوا كثيرا ما يغيرون على البلاد وراء الساحل فى الداخل وينهبون خيراتها . ولابد أن تذكر أن الوطاسيين لم يقفوا مكتوفى الأيدى إزاء هذا السيل البرتغالى فقد أبلو فى جهادهم بقدر ما استطاعوا ولكن قدرتهم كانت محدودة ، إذ خرجت مراکش وأكثر أجزاء المغرب الأقصى عن نفوذهم ، وشغلتهم واستنفدت كثيرا من طاقتهم الفتن الداخلية الكثيرة ، حتى لم يعد لهم حول ولا قوة ، ولذلك كان طبيعيا أن تسقط فاس فى أيدي الأشراف السعديين سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٥٠ م وسلطانها - فى الواقع - انتهى قبل ذلك بسنوات طويلة .

(١) انظره فى كتاب وصف إفريقيا فى مدينة تطوان (٢) راجعه فى نفس المصدر فى بنى حسن ص ٣٢٣ .

السعديون - الطرق الصوفية - العلويون

(أ) السعديون^(١)

السعديون ثاني دولة عربية علوية تقوم في المغرب الأقصى بعد دولة الأدارسة ، وكانوا ينتسبون إلى محمد النفس الزكية سليل الحسن بن علي بن أبي طالب . وكان السبب في قيام هذه الدولة أن البرتغاليين أخذوا منذ أوائل القرن التاسع الهجري المقابل للخامس عشر الميلادي يكثر من حملاتهم على سواحل المغرب الأقصى في الشمال على الزقاق وفي الغرب على المحيط الأطلسي واستولوا على كثير من الموانئ المغربية خلال هذا القرن ، وتمادوا يستولون على مدن في القرن العاشر الهجري كما أسلفنا ، وكانوا كلما استولوا على ميناء ازداد غضب الشعب وازدادت حميته اضطرابا لمقاومة البرتغاليين وإخراجهم من أرض الوطن الغالي . وآلم الشعب دائما أن لا يجد عند الوطاسيين قوة يستطيعون بها إنقاذ البلاد ، وظل يبحث عمن يقوده لحرب البرتغاليين وإخراجهم من أرض الوطن ، وأخيرا عثروا على بغيتهم في شخص من أصل حسني شريف كان يقيم مع أسرته بالقرب من تارودنت على نهر السوس يسمى أبا عبد الله محمدا فأخذ الناس يبايعونه مستبشرين بنسبه الشريف . وحين تمت له البيعة تلقب بلقب القائم بأمر الله ، ونهض توًّا لجهاد البرتغاليين ونودي به سلطانا في منطقة السوس سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م وأخذ في محاربة البرتغاليين ورافقه النصر عليهم مرارا وتوفي سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م وخلفه ابنه أحمد الأعرج ، وتابع سياسة أبيه في جهاد البرتغاليين واسترد منهم أغادير وماسة وسواحل السوس جميعها ، ودخل مراكش سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م وبايعه المسيطرون عليها من قبيلة هتانة المصمودية واتخذها عاصمة ولم تكد طلائع جيشه ترى في آسفي وآزمور بمنطقة دكالة حتى أخلاهما له البرتغاليون خوفا من القتل والسبي وفروا على وجوههم لا يلوون كما أدخلوا مدينة أصيلا لضغط أهل منطقة الهبط عليهم ، وتوفي سنة ٩٤٦ هـ / ١٥٣٩ م وخلفه أخوه محمد المهدي وطرده البرتغاليين من آسفي وآزمور بعد عودتهم إليهما واستولى على مكناس ثم على فاس سنة ٩٥٢ هـ إذ حاصرها ودخلها واعتقل الوطاسيين وأرسل بهم إلى تروندت في السوس ، غير أن

مآثر الخليفة أبي العباس المنصور لأحمد بن القاضي (تحقيق محمد زروق) طبع الرباط ، ولابن القاضي أيضا جذوة الاقتباس (طبع الرباط) وكتاب نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني (تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق) (طبع دار الغرب) والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .

(١) انظر في دولة السعديين كتاب المغرب في عهد الدولة السعدية لعبد الكريم كرتيم وكتاب تاريخ الدولة السعدية لمجهول تحقيق كولان طبع الرباط ومناهل الصفا في أخبار الملوك الشرقا للفشتال (تحقيق عبد الله كنون) والمغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات (طبع بيروت) وتاريخ الأسرة السعدية للأقراني والمتقي المقصور على

واحدا منهم هو يوحسون كان قد لجأ إلى الترك في الجزائر واستعان بهم في الاستيلاء على مدينة فاس فأعاثوه واستولى عليها ونودي به سلطانا ، فحاصره محمد المهدي واستولى منه على فاس وقتله . وأدّى صنيع يوحسون بمحمد المهدي إلى تخلصه من الوطاسيين جميعا في تروندت وبذلك أصبح المغرب الأقصى جميعه خالصا له . وكان فقيها وعلى معرفة بالأدب ، وكان واسع الأفق فأحسن تدبير الدولة ونظم شئونها ، وجعل لها موارد من الضرائب على الزراعة والصناعات تُعين حكامها السعديين على مقاومة البرتغاليين ، وهو بذلك يعد المؤسس الحقيقي لدولة السعديين . ويقول خصومهم إن هذا اللقب دليل على أنهم ليسوا شرفاء من البيت النبوي ، إنما هم من بنى سعد بن بكر القبيلة القيسية التي شرفت بحليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ ، والصحيح أنهم علويون من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، أما تلقيبهم بلقب السعديين فتعبير من المغاربة معاصريهم بأنهم سعدوا بهم ، كما يقول مؤرخهم الفشتالي في كتابه مناهل الصفا ، وأى سعد كان ينتظره المغرب في القرن العاشر الهجري أكبر من سعده بهم في تطهيرهم لسواحله من البرتغاليين ما عدا طنجة في الشمال . وخلف محمدا المهدي ابنه عبد الله الملقب بالغالب بالله ، وظل يدافع البرتغاليين من جهة والترك في الجزائر من جهة ثانية ، وكانت أيامه أيام أمن ورخاء كثر فيها البنيان وال عمران وتوفي سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م . وتولى بعده ابنه محمد الملقب بالمتوكل ، وكان لأبيه أخوان تغربا في الجزائر لدى الترك العثمانيين مدة ، وهما عبد الملك وأحمد ، وصمما أن لا يتنازلا عن صولجان الحكم والملك لابن أخيهما ، وكان عبد الملك شخصية نابهة ، وكان يحسن الإيطالية والإسبانية ، وسافر إلى الآستانة ، وأخذ يلح في أن يرسل الترك معه جيشا للاستيلاء على فاس من يد ابن أخيه وعاد إلى الجزائر ، فأمدّه واليهما بكيفية من الجيش التركي استعان بها على استرجاع فاس ، وبمجرد دخوله فيها فرّ ابن أخيه المتوكل وبايعه الناس وتلقب بالمعتصم سنة ٩٨٤ هـ / ١٥٧٧ م .

وكان عبد الملك المعتصم يحسن تدبير الملك ، فنظم أمور الدولة ولم يلبث أن نظم الجيش على طريقة الجيش التركي وما يتبع فيه من أساليب ، أما ابن أخيه محمد الذي لُقّب بالمتوكل فإنه حاول عبثا أن يشاغب عمه في منطقة السوس ، ولما أعياه ذلك لجأ إلى طنجة ، ولقى بها ملك البرتغال سباستيان ، فوضع يده في يده معاهدا له على حرب عمه عبد الملك ، وانتهاز الفرصة ملك البرتغال وجهاز جيشا قاده بنفسه ، يقال إن عدده بلغ ثمانين ألفا ، وانضم إليه محمد المتوكل مع من أغواهم ، ونزل البرتغاليون في ميناء أصيلا ، ورأى عبد الملك أن يطاولهم حتى يتوغلوا في داخل البلاد ، وتغلغلوا إلى الجنوب حتى وصلوا إلى وادي المخازن بقرب مدينة القصر الكبير ، وتركهم حتى إذا عبروا جسر الوادي أمر يهدمه ، ثم لقيهم في جمادى الأولى سنة ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م ودارت معركة حاسمة سحق فيها الجيش البرتغالي سحقا ذريعا وقتل ملكه سباستيان ونصيره محمد المتوكل . وأثناء المعركة توفي عبد الملك المعتصم وفاة طبيعية

لأنه كان مريضاً وصمم على أن يحضر المعركة، وكان أخوه أحمد هو الذى يدبرها، وكنتم خبر وفاة أخيه عن الناس حتى لايعكر عليهم فرحتهم بهذه المعركة الفاصلة : معركة وادى المخازن التى أعطت البرتغاليين درساً أن لايفكروا مرة ثانية فى إنزال جيش لهم بالمغرب الأقصى، وأخذوا ينسحبون من المواقع التى استولوا عليها بشواطئ المحيط وأحياناً كانوا يتركونها لجارتهم إسبانيا .

وتولى بعده أخوه أحمد الذى اكسب لنفسه فخرَ النصر المجيد فى معركة وادى المخازن ، إذ كان هو الذى أدارها ، وبايعه الناس مبتهجين به وتلقب بالمنصور ، وكان حاكماً عظيماً كبير المهمة بصيراً بشئون السياسة ، ومن أعماله إنشاء ما أسماه الديوان وهو مجلس شورى ينعقد كل يوم أربعاء من الأسبوع - ويضم بعض رجال الدولة وبعض الشخصيات - للنظر فى الشئون السياسية والمصالح العامة ، وأعاد تنظيم الجيش تنظيمًا جديدًا جامعاً فيه بين النظام المغربى والنظام التركى ، وكانت بعض أقاليم الصحراء فى الجنوب قد خرجت عن طاعته ، وخاصة إقليمى توات وتيكورارين فأرسل إليهما جيشاً قوياً أعادهما إلى طاعته . وكانت مملكته تتاخم فى الجنوب أقطار السودان فانتشر فيها الحديث عنه ، ودخل ملك بُرنو فى طاعته مما جعله يطمح للاستيلاء على السودان الغربى جميعه فأرسل إليه جيشاً ضخماً فى نهاية القرن العاشر الهجرى واستطاع الاستيلاء عليه ، وبذلك امتد نفوذه جنوباً إلى أقاليم سودانية لم يصل إليها نفوذ المغرب فى أى عصر قبله . ووضع يده على منابع الثروة الضخمة فى هذه البلاد ، حتى كان الذهب يُجَبَّى إليه منها بالأحمال ولذلك لقب بالمنصور الذهبى ، ويقال إن عدد من كانوا يضربون السكة أو العملة الذهبية فى عهده بلغ ألفاً وأربعمائة . وهذا الغنى الطائل للدولة وتجارتها وأهلها هيأ لها ازدهاراً فى الحضارة وما يتصل بها من الصناعات وضروب الحياة ، وكثر حينئذ إنشاء القصور ومن أهمها قصر المنصور الذى سماه باسم البديع ، وقد استغرق بناؤه ثمانى سنوات ، وأنفق عليه أموالاً طائلة . وتوفى سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٣ م .

وبعد وفاة المنصور تنازع أولاده الثلاثة : زيدان وأبو فارس ومحمد الملقب بالمأمون ، ونودى بزيدان سلطاناً فى فاس وأبى فارس سلطاناً فى مراكش ، وتحاربا وانتصر أبو فارس ، غير أن أهل فاس فضلوا الخضوع للمأمون ، فنودى به سلطاناً سنة ١٠١٣ هـ/١٦٠٤ م واغتيل أبو فارس ، وحدثت طامة كبرى بتنازل المأمون للإسبان عن مدينة العرائش على ساحل المحيط جنوبى منطقة المحيط سنة ١٠١٨ هـ/١٦١٠ م وبذلك عادت الاستعانة بالعدو الأجنبى ، ونشبت فتن واضطرابات ، ونودى بالابن الثالث للمنصور : زيدان سلطاناً ، وظلت الاضطرابات وتوفى سنة ١٠٣٨ هـ/١٦٢٨ م وتنازع الملك أولاده الثلاثة عبد الملك والوليد ومحمد شيخ وتوفى الأخير سنة ١٠٦٥ هـ/١٦٥٤ م . وبوفاته ينتهى حكم هذه الأسرة ، وهو فى الواقع قد انتهى منذ تسليم المأمون ميناء العرائش للإسبان ، إذ اتسع نفوذ الطرق الصوفية وأصبحت هى التى

تدير الحكم في أكثر أجزاء المغرب الأقصى .

(ب) الطرق^(١) الصوفية

أخذت الطرق الصوفية تكثر في المغرب الأقصى منذ القرن الثامن الهجري ، مثله في ذلك مثل بقية البلاد المغربية ، وأخذت تكثر معها الزوايا ، وعادة يكون بها ضريح لمؤسسها الصوفى أو لصوفى كبير ومصلّى ومسكن لبعض العلماء والطلاب الغرباء ، وكان أهل اليسار يقفون على هذه الزوايا أوقافا كثيرة ، وتلى فيها الأوراد وتقام الأذكار ، وقد تنعقد فيها بعض الدروس ، فتكون دارا للتعليم والوعظ والنسك . ولما فسدت الحياة السياسية فى أواخر عهد الدولة المرينية وضمّعت الحكام عن مواجهة أعداء الوطن البرتغاليين فى القرن التاسع الهجرى أخذ أهل المغرب الأقصى يلوذون ببعض أصحاب هذه الطرق آمليّن أن يجدوا عندهم الحماية للذود عن دار الإسلام وإنقاذ الوطن من هذا البلاء المستطير ، والتفّ كثير من منهم حول صوفى شاذلى صالح هو الشيخ محمد بن سليمان الجزولى صاحب كتاب دلائل الخيرات المتوفى سنة ٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م متوسمين فيه أن يستجيب لهم ، واستجاب ، وتقدم مع جموع كثيرة من مريديه الصوفية وغيرهم يتصدى للبرتغاليين وينالهم منازل ضارية . وبذلك حول الصوفية من جماعة تعيش للنسك وحده إلى جماعة مجاهدة فى سبيل الله تجاهد أعداء الدين والوطن من البرتغاليين النصارى ، وانتصر عليهم بمن آزره من الصوفية وغيرهم مرارا ، غير أن خائنا اغتاله ، ليقف جهاده . ولم تلبث الدولة السعدية أن قامت واستطاع حكامها البوامل أن يستردوا كل ما أخذته البرتغاليون واستولوا عليه من موانئ المحيط الأطلسى ومدنه كما أسلفنا وقد نالوهم فى معركة وادى المخازن كما مر بنا ولم تلبث المعركة أن استحوطت إلى ما يشبه مذبحه كبرى للبرتغاليين ، فردّوا إلى صوابهم ولم يعد يمر بخاطرهم أن يستولوا على أى ميناء مغربى على المحيط ، بعد أن كادوا يستولون على الساحل جميعه بمدنه وموانيه . وخاب الأمل فى أبناء المنصور الثلاثة كما مر بنا فقد تنازعوا على العرش ، وتنازل أحدهم - وهو المأمون - لإسبانيا عن مدينة العرائش جنوبى منطقة الهبط ولم يلبث الإسبان أن أسسوا لهم فى العام الثالى بالقرب من مصب نهر سبو فى المحيط مدينة سميت المعمورة واسمها الآن المهديّة وتنازل لهم البرتغاليون عن سبتة وطنجة فى الشمال وكذلك عن الجديدة فى منطقة دكالة وأزمور . وشق ذلك على المغاربة . ولأدوا - من جديد - بالمتصوفة يأملون أن يرفع أحدهم لواء الجهاد للعدو الإسبانى فينضوا تحت لوائه ، واتسعت الفتن واتسع اضطراب الأمور ، وطمح كثيرون - حتى بين المتصوفة أصحاب الزوايا - أن يأخذوا بلادا أو أجزاء واسعة من الدولة التى توشك على

لأخبار دول المغرب الأقصى للسخاوى ونشر المائى
لأهل القرن الحادى عشر والثانى للقادري تحقيق محمد
حجى وأحمد التوفيق (طبع دار الغرب) .

(١) انظر فى الطرق الصوفية ونشاطها السياسى ما كتبه
الدكتور محمد حجى عن الزاوية الدلاية ودورها الدينى
والعلمى والسياسى (طبع الدار البيضاء) والاستقصا

الاحتضار . ونكفى بالحديث عن أحدهم وهو الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائى مؤسس الزاوية الدلائية بتادلة سنة ٩٧٤ هـ/١٥٦٧ م وقد اتسعت حتى شملت مباني كثيرة ، وتكاثر بها العلماء المدرسون والطلاب ، وقد ثار الشيخ محمد الحاج على الدولة السعدية فى جبال الأطلس الوسطى سنة ١٠٤٢ هـ/١٦٣٣ م وتبعه كثيرون من البربر واستولى على سلا سنة ١٠٤٥ هـ/١٦٣٦ م وزحف إلى مكناس وفاس سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤١ م وتملكهما وأقام الدولة الدلائية ، وقامه محمد بن الشريف رأس الدولة التالية ، وستم فيها الحديث عنه ، وعلى شاكلته صوفية من زوايا أخرى ثاروا على السعديين . وخير منهم جميعا وأعظم الشيخ الصوفى المجاهد البطل أبو عبد الله محمد العياشى الذى لجأ إليه أهل منطقة الهبط ، فنصّدى للإسبان حتى خلّص منهم مدينة العرائش ، كما خلّص منهم مدينة آزمور فى جنوبى تامسنة وخلّص منهم الجديدة سنة ١٠٤٩ هـ/١٦٣٩ م ، ومع هذه الأعمال المجيدة امتدت إليه يد آثمة سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٢ م فقتلت البطل المندم النظير . ومن أهم رجاله وأعوانه الخضر غيلان الذى أرسله إلى منطقة الهبط لجهاد أعداء الله ، واستطاع الاستيلاء على مدينة القصر الكبير سنة ١٠٦٣ هـ/١٦٥٢ م .

(ج) العلويون^(١)

هذه ثالث دولة علوية فى المغرب الأقصى بعد دولتى الأدارسة والسعديين ، ومؤسسوها مثل مؤسسى هاتين الدولتين من سلالة الحسن بن على بن أبي طالب ، وكانت أسرتهما تعيش من قديم فى منطقة سجلماسة ، وكان أهل المنطقة يرحبون بهم ويوسعون لهم فى العيش معهم لنسبهم الشريف . وعندما ثار أبو الحسن (بوحسون) السملالى فى مناطق الصحراء الجنوبية بالمغرب الأقصى واستولى على سجلماسة ودرعة والسوس أذعن له بالطاعة أبرز أفراد الأسرة حيثئذ الشريف ابن على ولم يلبث ابنه محمد أن رفض هذه الطاعة ، وحاربه السملالى فأسره وظل فى أسره حتى افتكه ابنه محمد المسمى باسمه . وعاد الأب فى سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤٠ م إلى حرب السملالى واستطاع هزيمته فى سجلماسة وتعقبه فى درعة وإقليم السوس حتى قضى على شره وشغبه . ولم يلبث الأب محمد بن الشريف أن هاجم محمداً الحاج رئيس زاوية الدلاء ورجاله ، وكان مستوليا على فاس ومكناس وحوض نهر سبو ، واستطاع محمد الحاج هزيمته سنة ١٠٥٦ هـ/١٦٤٦ م وعقد بينهما صلح على أن تكون منطقة الصحراء (سجلماسة ودرعة) إلى جبل بنى عياش لمحمد بن الشريف ، وما يقع إلى الشمال من ذلك إلى حوض نهر أم الربيع إلى الغرب يكون لزاوية الدلاء ورئيسها محمد الحاج الدلائى . وحاول محمد بن الشريف

(١) العلوية بالمغرب لكرول وكولان (طبع باريس) ونشر
المثنى لأهل القرن الحادى عشر والثانى ، والاقتضا
لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى .

(١) انظر فى العلويين أو الدولة العلوية الدرر الفاخرة
بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة لابن زيدان ونزهة
الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى للأفراتى وتاريخ الدولة

الاستيلاء على تلمسان ، وسرعان مارده الأتراك العثمانيون حكام الجزائر . وتوفى سنة ١٠٦٩ هـ/ ١٦٥٩ م وخلفه ابنه محمد ، وحدث شقاق بينه وبين أخيه الرشيد ، وتحاربا وتوفى محمد فى أثناء الحرب ، فخلص الأمر للرشيد وتمت بيعته سنة ١٠٧٥ هـ/ ١٦٦٥ م وكان قد تولى لايه وأخيه على مكناس فاتخذها عاصمته واستولى على سجلماسة ، ولم يلبث أن استولى على فاس ومنطقتها فى سنة ١٠٧٦ هـ/ ١٦٦٦ م من يد محمد الحاج رئيس الزاوية الدلائية وحلفائه من أعراب الأتبيج ، وفتح منطقتى المبط ونودى به سلطانا على المغرب جميعه فى السنة التالية . وصمم على هدم الزاوية الدلائية فى منطقة فازاز شرقى ممر تازا ودخلتها جنوده سنة ١٠٧٨ هـ/ ١٦٦٧ م وهدموها ولم يبقوا منها باقية ، واستسلم له محمد بن الحاج الدلائى فأرسل به مع أسرته إلى فاس حيث عاشوا فى رعايته ، وتلطف مع شيوخ الزاوية فأرسل بهم إلى معاهد فاس وغيرها ليزاولوا نشاطهم العلمى . واستولى سنة ١٠٧٩ هـ/ ١٦٦٨ م على مراكش من يد أعراب الشبانات ، ولم يلبث أن فتح مدينة تروندت وبقية مدن السوس ، وأذعن بالطاعة له أعراب المغرب الأقصى جميعهم من الحلالية فى الشرق وقبائل حسان والمعل فى منطقة درعة ، وأعلنت منطقة الريف فى الشمال طاعتها له ، ماعدا مليلة وسبتة اللتين كانتا قد استولى عليهما الإسبان ، وماعدا طنجة التى انتقلت إلى الإنجليز وبذلك أعاد الرشيد إلى المغرب الأقصى وحدته ، وهو يعدد المؤسس الحقيقى لتلك الدولة العلوية .

وتوفى الرشيد سنة ١٠٨٢ هـ/ ١٦٧٢ م وخلفه أخوه إسماعيل وهو من أعظم سلاطين العلويين وطال حكمه نحو سبعة وخمسين عاما حتى سنة ١١٣٩ هـ/ ١٧٢٧ م وكانت سنوات رخاء وخير وبركة للمغرب الأقصى ، وقد مدَّ حدوده شرقى نهر المُلوية حتى مدينة وجدة ، وثبتت تلك الحدود إلى اليوم ، كما مدَّ حدوده جنوبا متوغلا فى بلاد السودان الغربى . وكوّن للمغرب الأقصى جيشا ضخما من البربر والأعراب والسود وكان يأتى بهم من فتوحه فى السودان الغربى وحوض النيجر ، واتخذ لهم معسكرا يدربون فيه تدريبا عسكريا متقنا وبلغوا فى حياته مائة وخمسين ألفا ، ووزعهم على القلاع بجميع أنحاء المغرب الأقصى للحراسة وأمن الطرق . وعاشت البلاد لعهد فى رخاء وطمأنينة وأمان وسخت الأرض بالخيرات . وأخذ إسماعيل يستكمل عدته لمنازلة الأتباع المحتلين لشواطئ المغرب الأقصى فى الشمال والغرب ، وكانت كاترينا وارثة عرش البرتغال قدمت مدينة طنجة صداقا إلى زوجها شارل الثانى ملك إنجلترا سنة ١٠٧٢ هـ/ ١٦٦١ م فانتقلت طنجة من أيدي الإسبان إلى أيدي الإنجليز ، واستطاع طرد الإنجليز منها سنة ١٠٩٥ هـ/ ١٦٨٤ م كما استطاع طرد الإسبان من المعمورة (المهدية) شمالى مدينة سلا ، حتى إذا كانت سنة ١١٠١ هـ/ ١٦٨٩ م طردهم من مدينة العرائش ، وكان قد خلعها منهم العياشى ، وعادوا فاستولوا عليها ، ودق الشعب فى المغرب الأقصى الطبول ابتهاجا بعودتها ، إذ كان قد أعلن من أجلها الحداد ، واتخذ لذلك شعارا أن يلبس

أحذية سوداء فلما استردّها إسماعيل نزعوا تلك الأحذية من أقدامهم وعادوا إلى ليس نعالهم الصفراء المغربية . وفى سنة ١١٠٤ هـ/ ١٦٩٢ م طرد إسماعيل الإسبان من مدينتي أصيلا والعرائش ، وبذلك استرد للمغرب الأقصى ساحل المحيط جميعه وصدقت فراسة المغاربة للالتفاف حول أسرة علوية شريفة لإنقاذ المغرب الأقصى مما دهاه من كوارث مفرجة . وحاول السلطان إسماعيل فتح سبتة ومليلة وحاصر سبتة طويلا يريد أخذها من يد الإسبان ولكنهم ثبتوا فيها يعاونهم أسطولهم فى البحر وقربها من ديارهم .

وتوفى - كما أسلفنا - سنة ١١٣٩ هـ/ ١٧٢٧ م وتلاه عهد اضطرابات وفتن لتنازع أبنائه على الحكم وتدخل الجيش وأخذ يختل الأمن وينتشر الفساد وتشيع الفوضى وتسوء حالة البلاد الاقتصادية واستمر ذلك نحو ثلاثين عاما إلى أن أنقذ البلاد حفيد للسلطان إسماعيل ، هو محمد بن عبد الله الذى خلف أباه سنة ١١٧١ هـ/ ١٧٥٧ م وكان قد أظهر فى عهد أبيه قدرة سياسية حين عينه حاكما لمنطقتي مراكش وآسفى فى دكالة ، ثم عينه قائدا فنظم الجيش وأقر الأمن فى السوس ، وتابع بعد استيلائه على صولجان الحكم نشر الأمن فى ربوع البلاد ، وتجول فيها متفقدًا لشئونها وحصن المدن الكبرى والثغور وشيّد بهما الأبراج والحصون وزوّدتهما بالمدافع والقوات العسكرية لحفظ الأمن والنظام فى أنحاء البلاد ، وعنى بالأسطول فأمدّه بكل ما يلزمه من عتاد حربى ، وأضاف إليه طائفة من السفن ، وأمر أن يواصل البحارة والجنود فيه تدريبات ومناورات منتظمة على المتوسط والزرقاق والمحيط . وكان البرتغاليون قد نزلوا فى ميناء الجديدة (المعمورة) شمال سلا سنة ١١٨٢ هـ/ ١٧٦٩ م فطردهم منها وابتنى ميناء الصويرة فى منطقة حاحة غربى مراكش . ووثق علاقات دولته بالدولة العثمانية وتبادل معها الهدايا تأكيدا للمودة .

وتوفى سنة ١٢٠٤ هـ/ ١٧٨٩ م وعادت البلاد إلى الاضطراب والفوضى فى عهد ابنه اليزيد ولم يلبث أن توفى سنة ١٢٠٦ هـ/ ١٧٩٢ م وتولاها أخوه سليمان لنحو ثلاثين عاما ، ومضى فى أوائل عهده بحروب متصلة بينه وبين أخويه هشام ومسلمة ، وخرج منها بعد طول عناء ، ليظل بقية أيامه ينازل بربر الأطلس التلى أو الأطلس المتوسط ، وولى بعده ابن أخيه عبد الرحمن بن هشام حتى سنة ١٢٧٦ هـ/ ١٨٥٩ م وشغل بثورات داخلية واحتل تلمسان حين احتلت فرنسا الجزائر ، وهزم فى موقعة إيسلى . وخلفه ابنه محمد حتى سنة ١٢٩٠ هـ/ ١٨٧٤ م وقضى على ثورة الجيلالى الزرهونى واحتلت إسبانيا تطوان ثم انسحبت منها بمقتضى معاهدة . وتلاه ابنه الحسن وهو من أهم سلاطين الدولة العلوية وقد نشر الأمن فى ربوع البلاد ، وأخذ يفتحها على الغرب فأرسل البعوث إلى أوروبا وأخذ يرقى بالبلاد حضاريا وفكريا ، وعهده الزاهر يعد - فى رأينا - افتتاح العصر الحديث فى المغرب الأقصى .

الفضل الثاني

المجتمع المغربي

١

عناصر السكان

البربر هم العنصر الأصيل الذي عاشت قبائله وبطونه وعشائره - منذ آماذ سحيقه - في المغرب وسواحله وسهوله وجباله وهضابه ووديانه من برقة إلى المحيط الأطلسي واختلف مؤرخو العرب ونسابة البربر في الأصل الذي انحدروا منه اختلافات شتى استقصاها ابن خلدون في الجزء السادس^(١) من تاريخه ، فقبل إنهم ساميون من ولد عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام ، وقيل بل من ولد إبراهيم عليه السلام ، وقيل هم ساميون حقا ولكنهم عرب يمنيون من ولد النعمان بن حمير بن سبأ ، وقيل من لخم وجذام وقيل بل هم مضربون من ولد بر بن قيس بن عيلان ، وقيل إنهم حاميون من مصرايم بن حام ، وقيل : بل من مازيغ بن كنعان بن حام . وكما اختلف المؤرخون والنسابة في أصلهم اختلفوا في موطنهم الأصلي وهجرتهم منه ، هل هو الجزيرة العربية أو اليمن أو الشام أو فلسطين ، واختلفوا فيمن أخرجهم منه ، قيل أخرجهم داود - بوحى نزل عليه - إلى ديار المغرب ، وقيل خرجوا بعد قتل داود لجالوت فأرّين إلى إفريقيا ، وحاولوا النزول بمصر فمنعهم القبط فاتجهوا إلى برقة وما وراءها وانساحوا في المغرب إلى المحيط ، وقيل بل الذي أخرجهم من الشام إلى إفريقيا يوشع بن نون ، وقيل : بل إفريقيش أحد ملوك التبابعة اليمينيين ، وقيل إنه ارتحل معهم في هجرتهم إلى المغرب حيان يمينيان : كرامة وصنهاجة . ويعلق ابن خلدون على كل هذه الأقوال وما يماثلها بقوله^(١) : « إنها تكاد تكون من أحاديث الخرافة ، إذ مثل هذه الأمة (الضخمة) المشتتة على أمم وعوالم ملأت جانباً من الأرض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور (مثل الشام) . والبربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام فما الذي يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات في شأن أوليتهم » . وابن خلدون محق في عدّ كل تلك الأقاويل من باب الخرافة سواء في ارتحال البربر من الشام أو غيرها إلى ديار المغرب أو في محاولة التعرف على الأصل الذي نشأت منه وتناسلت ذريتهم . والذي يؤكد المنطق والواقع أن البربر نشأوا بالمغرب وليسوا منقولين إليه من آسيا ، وليسوا ساميين إنما هم إفريقيون حاميون مما جعل

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٨٩/٦ وما بعدها .

ابن خلدون يقول : « والحق الذى لا ينبغي التعويل على غيره فى شأن البربر أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح .. وأن اسم أبيهم مازيغ بن كنعان » . ويقول ابن خلدون إن إفريقش - فيما يقال - هو الذى سماهم بالبربر لما سمع رطانتهم واختلاط أصواتهم . وأولى من ذلك ما يقال من أن الكلمة ترجع إلى أصل لاتينى هو Barbarus وهو عند الرومان من لا يُفهم كلامه ، وربما وجدوا الكلمة على لسان المغاربة أنفسهم فأخذوها عنهم ، إذ سموا بها أنفسهم وشعوبهم ، أما القول بأن العرب هم الذين سموا بها الشعوب المغربية لعدم فهمهم لغتهم وأن من ذلك قولهم بربر الأسد إذا زار بأصوات غير مفهومة فبعيد الاحتمال .

ويقول ابن خلدون إن شعوب البربر ترجع إلى مجموعتين ضخمتين هما شعوب البرانس وشعوب مادغيس الأبتى أو البتر ، وتجمع شعوب البرانس عند النساين عشرة شعوب أو قبائل كبرى هى مصمودة ، وصنهاجة ، وأورية ، وعجيسة ، وكثامة ، وإزداجة ، وأوريغة ، ولمطة ، وهسكورة ، وجزولة . والقبائل التى اشتهرت منها بسكنى المغرب الأقصى هى مصمودة وكانت تسكن أربع مناطق هى : حاحة - السوس - مراكش - جزولة ، ومن بطونها غمارة وكانت تسكن منطقتى الريف والهبط وبرغواطة وكانت تسكن منطقتى تامسنة ودكالة . وصنهاجة ، ويقال إنها ثلث البربر وموطنها المغرب الأقصى والصحراء وراءه إلى السودان الغربى ، ومن بطونها لمتونة ومنها عشيرة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، ومن بطونها أيضا بنو مزغنة منشئو مدينة الجزائر . وشعوب لمطة وهسكورة وجزولة كانت مواطنها جميعا المغرب الأقصى ، وكان للشعوب الأخرى بعض بطون فى المغرب مثل هواره من أوريغة . أما شعوب البتر فأربعة : نفوسة فى طرابلس ، وإداسة وتختلط بطونها بهواره ، وضريسة ، ولوا . ومن البطون الكبرى لهذه الشعوب من سكان المغرب الأقصى ورفجومة بأوراس ومضغرة ويسكنون ما بين فاس وتلمسان ، ومكناسة على نهر ملوية من سجلماسة إلى مصبها ، ومغراوة فى فاس وسجلماسة وهى فرع من زناتة وكانت تسكن المغرب الأوسط وشطرا من المغرب الأقصى ومن بطونها يفرن وواسين ومنها بنومرين حكام المغرب الأقصى .

وظل البربر بعيدين عن الأمم القديمة لا يتصلون بهم أى اتصال حتى نزل بديارهم الفينيقيون فى القرن التاسع قبل الميلاد - وربما قبله أو بعده - وكانوا شعبا ملاحيا يحترف التجارة ، وأخذوا يبحثون فى سواحل البلاد المغربية عن مواضع صالحة لرسو سفنهم كى يتبادلوا السلع مع أهلها ونزلوا قرطاجة فى تونس ، وأخذوا يبحثون عن مواطن أخرى على طول الساحل فى الجزائر ثم فى المغرب الأقصى على البحر المتوسط والمحيط وأنشأوا عليها مدنا فينيقية هى مليلة على المتوسط وطنجة وأصيلا على المحيط ، ولا بد أن أثروا بحضارتهم الفينيقية فى تلك المدن وأنماطها المختلفة فى أثناء القرون المتصلة التى خالطوا فيها السكان المغاربة ، ولا بد أن عرف المغاربة كثيرا من طرقهم فى الزراعة والصناعة وخاصة فى التعدين ، كما عرفوا أبجديتهم ولغتهم

وربما أتقنها منهم كثيرون . وتنشأ منذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد حتى أواسط القرن الثاني حروب بين قرطاجة عاصمة الفينيقيين وروما ويكتب النصر لروما ، وتوول إليها ديار المغرب بما فيها من المدن الفينيقية ، وتصبح مليلة وطنجة وأصيلا تابعة لهم ، وينشئون على ساحل البحر المتوسط بقرب الزقاق مدينة سبتة وتوغلوا على المحيط ، وأنشأوا لهم موقعا أو مدينة هي سلا ، ومدينة ثانية أو موقعا هو أنفه (الدار البيضاء) ويتوغلون في الداخل وينشئون مدينة وكيلى . وظلوا في المغرب نحو ستة قرون إلا قليلا ، وطبيعى أن يؤثر فيهم بحضارتهم الرومانية وخاصة في المدن التي كان لهم فيها جاليات ولما اعتنقوا الدين المسيحي حاولوا نشره في البلاد المغربية وخاصة الساحلية . غير أن من دخلوا فيه من البربر - وخاصة في المغرب الأقصى - كانوا قلة ، فقد ظلت جماهير المغرب وثنية . واكتسح الوندال ما ملكته روما من البلدان المغربية ، وكانوا شعبا حربيا غير متحضر فلم يتركوا فيها أثرا ، وخلفهم البيزنطيون ، ولم يحاولوا نشر شيء من ثقافتهم ولا حضارتهم في البلاد المغربية .

والعرب هم العنصر الثاني في المغرب الأقصى بعد البربر ، وقد جاءوا إلى المغرب في خلافتي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان لا طلبا للاستيلاء على ما فيه من طيبات الأرض وثمارها وإنما طلبا لنشر دين الله حتى لا يعبد في الأرض إله سواه وحتى تعم تعاليمه الداعية إلى العدل والمساواة بين الناس ، وأخذ ولاة القرن الأول الهجري أنفسهم بتطبيق هذه التعاليم ، مما جعل المغاربة يدخلون في الدين الخفيف أفواجا . حتى إذا تكاثرت المسلمون منهم في عهد واليهم حسان بن النعمان كَوْن منهم كنيّة عدادها اثنا عشر ألفا وولّى على قبيلة جراويّة في الجزائر واليا منها . وهو رمز لما كان يأخذ به ولاة القرن الأول الهجري في المغرب من المساواة بين العرب والبربر في الجهاد والحكم . ويتسع ذلك في عهد خلفه موسى بن نصير ، إذ يولّى على طنجة واليا بربريا هو طارق بن زياد ، ويعهد إليه بفتح الأندلس ، فيغزوها على رأس حملة أكثر جنودها من البربر ، ويلحق به على رأس حملة ثانية فيكمل الفتح معه . ويتقاسم شرف هذا الفتح عربي هو موسى وبربري هو طارق بن زياد ، وجيش مؤلف من العرب والبربر . وبذلك لم يعد في ديار المغرب أى فارق بين عربي وبربري ، غير أننا لا نكاد نمضى في القرن الثاني الهجري حتى تنكب البلاد العربية بخلفاء أمويين لا يحسنون تدبير الملك فيولون على ديار المغرب ولاة جبارين يظلمون أهلها في الخراج وغير الخراج وغير واعين لتعاليم الإسلام في المساواة والعدالة بين المسلمين ، ويبلغ السفه والعته بوالى طنجة أن يصرّح بأنه عازم على تخميس أراضي البربر زاعما زعما مخطئا أنها غنائم حرب . وتنادى كثيرون من المغاربة كيف الخلاص من هذا الظلم الفادح ، وسرعان ما أخذ دعاة الخوارج من الصفرية والإباضية يوضحون لهم أن الخلاص الحقيقي إنما هو في اعتناق دعوتهما التي تسوّى بين المسلمين في جميع الحقوق . واعتنق مذهب الصفرية في المغرب الأقصى كثيرون وكوّنوا جيشا استولى على

طنجة وقتل واليها ، ونازلته جيوش الدولة الأموية مرارا ، وكان النصر حليفه ، ومراً بنا - فى الفصل الماضى - أن قائدین صفرین هاجما القيروان سنة ١٢٤ هـ/ ٧٤١ م وباءا بهزيمة ساحقة . وفى سنة ١٣٨ هـ/ ٧٥٥ م هاجمت ورفجومة القيروان واستباحتها وخلصها منها أبو الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية فى طرابلس . وتدور الأعوام وتنشأ الدولة الإدريسية ، وتأخذ فى القضاء على الصفرية فى شمالى المغرب الأقصى وينسحبون إلى سجلماسة ودولة بنى مدرار . وأخذ إدريس الثانى (١٧٥ - ٢١٣ هـ) يستكثر من العرب فى حاشيته حتى بلغوا خمسمائة . وهى أول دولة عربية إسلامية تنشأ فى المغرب الأقصى وقد عملت على تحفيظ القرآن الكريم ونشر حلقات القراء والمحدثين والمفسرين والفقهاء فى جميع مدنها والعناية بتعليم المغاربة العربية . وجاءها كثيرون من فقهاء تونس والمشرق ولاذ بها أربعمائة أسرة من أسر الأندلس الفقهية ، وجعلت عاصمتها عدوتين : عدوة للمغاربة سمتها عدوة القرويين وعدوة للأندلسيين . ونمضى إلى منتصف القرن الخامس الهجرى وتحديث الهجرة الأعرابية الكبرى لبنى هلال وبنى سليم إلى ديار المغرب ، ويقال إنهم كانوا نحو نصف مليون من الأعراب ، ويقال بل كانوا مليوناً أو يزيدون ، ولم يكونوا طلاب حكم وملك ، ولذلك لم يقيموا لهم دولة فى المغرب ، إنما كانوا طلاب مواطن يقيمون فيها ، وانساحوا كسيل عَرم فى برقة وطرابلس وإفريقية التونسية والجزائر ، وكأنا وجدوا فى كل ذلك ما يغنيهم عن الانسحاق فى المغرب الأقصى واكتساحه . ولا يمضى على هذا الطوفان للهلالين وبنى سليم نحو قرن حتى يستنجد أهل طرابلس وإفريقية التونسية بعبد المؤمن بن على سلطان الموحدین لاستيلاء النورمانديين بأساطيلهم على سواحل طرابلس وجزيرة جربة وميناء المهديّة وغيرها من موانئ إفريقية التونسية ورأى واجبا عليه أن ينقذ تلك البلدان ويخرج بجيش ضخم إليهم وأخذ يستولى به على مدن الجزائر . وعلم وهو ييجاية أن القبائل الحلالية ، وهى الأثيج وزغبة ورياح وقرة تتجمع مع صنهاجة لحربه ، وأرسل إليها جيشاً نازلاً ثلاثة أيام وانتصر عليها فى اليوم الرابع وفر الأعراب تاركين وراءهم الأهل والمال ، فأمر بنقل النساء والأولاد إلى مراكش والعناية بهم . ولما أتم رحلته واسترد طرابلس والمهديّة وغيرها من موانئ إفريقية التونسية وعاد إلى عاصمته مراكش أمر أن يكتب إلى سادة بنى هلال أن نساءهم وأولادهم فى الحفظ والصيانة ، فوفدوا عليه وأكرمهم وردّ عليهم نساءهم وأولادهم وأسبغ عليهم أموالاً وافرة ، ونقل منهم إلى المغرب الأقصى ألفاً من كل قبيلة بأسرهم ، ولما عزم على زيارة الأندلس سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م دعا عرب بجاية إلى العبور معه للأندلس للجهاد برسالة تلهب حماسه ختمها بأبيات من نظمه استهلها بقوله :

أقيموا إلى العلياء هُوجَ الرّواحل وقودوا إلى الهيجاء جرّد الصّواهل

واستجاب له جمع ضخم كما يقول صاحب المعجب^(١) فأُتزل طائفة بنواحي قرطبة وطائفة بنواحي إشبيلية ، وأقاموا هنالك . وفي سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨٢ م وقد على الخليفة بعده ابنه يوسف حشدًا كبير من قبيلة رياح وضعوا أنفسهم تحت تصرفه وعبر كثيرون منهم معه إلى الأندلس . ولما خرج ابنه يعقوب المنصور لاسترجاع قفصة وقابس واستعادها خرجت عليه في هذه الأثناء بقايا من قبائل رياح الهلالية وأخواتها من قبائل جُشم والأبجج ، فردهم إلى طاعته ، ولاذوا بدعوته ، فأمر بنقلهم إلى المغرب الأقصى لكف عدوانهم عن المغرب الأوسط ، وصعدوا لأمره ، فأُتزل بنى رياح في مناطق الهبط وأزغار وفاس مما يلي سواحل طنجة إلى سلا ، وأُتزل بنى جشم في تامسنة وما وراءها من الأراضي ، وأُتزل الأبجج في منطقتي دكالة وتادلة . ويبدو أن بطون بعض هذه القبائل تحركت من منازلها بعد عصر الموحدين إلى منازل جديدة استقرت فيها إذ يذكر الحسن^(٢) الوزان في القرن العاشر الهجري أن بعض فروع رياح سكنوا منطقة دكالة وضواحي ميناها آسفي على المحيط وأن فروعاً أخرى سكنت منطقة حاحة وسهولها ، كما يذكر أن فرع المنتفق من أبجج تحول شمالاً وسكن أزغار ، وأن فرع صبيح منها تحرك جنوباً وسكن السهول الواقعة بين سلا ومكناس . ويقول إن يعقوب فتح لعامة العرب نوميديا أي الصحراء في جنوبي الجزائر متداخلة مع شطر من الصحراء في المغرب الأقصى ، ولعل ذلك ما جعل بعض بطون القبائل العربية أو الأعرابية في نوميديا ينزح إلى موريتانيا الشرقية ويتغلغل إلى وادي ملوية شمالاً ووادي أو نهر درعة جنوباً . ومن أهم هذه القبائل المعقل ، يقول ابن خلدون : « هذا القبيل لهذا العهد (في القرن الثامن الهجري) من أوفر قبائل العرب ، ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى ويتنهبون إلى البحر المحيط من الغرب » ويطونهم كثيرة ، وتستولى على ملوية كلها إلى سجلماسة ، وتصعد إلى ممر تازا وأنحاء تادله وتلال مكناسة ، واستولت على السوس الأقصى وانتجعت في الرمال إلى مواطن المثلثين^(٣) ، وملتقى بسليم قرب وادي درعة ، وتشتغل بالتجارة^(٤) وتذهب مع سلعها في قوافل إلى تمبكو ، وأهلها أثرياء ولهم أملاك وأراض زراعية كثيرة في درعة . وكل القبائل التي ذكرناها أخذت بطونها تمتاز بأهل المغرب الأقصى بحيث أصبح عربياً ديناً ولغة .

والعنصر الثالث في المغرب الأقصى هو الأندلسيون الذين أخذوا في الهجرة إليه منذ عهد الحكم الربضي في أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل الثالث إذ أوقع بققها قرطبة وقعة الريض المشهورة وأمر بطردهم من الأندلس ، وكانوا مع من اشتركوا معهم في الوقعة ألوفا ، وذهب

(٢) انظر كتابه وصف إفريقيا ص ٥٦ وما بعدها .

(٣) راجع ابن خلدون ٥٨/٦ .

(٤) وصف إفريقيا ص ٦٢ .

(١) انظر في استفار عبدالمؤمن للأعراب المعجب

ص ٢٩٤ وانظر في استفار يوسف ويعقوب لهم

واسكان يعقوب لقبائلهم المغرب الأقصى ابن خلدون

٢٠/٦ ، ٢١ ، ٢٤ .

كثيرون منهم إلى الإسكندرية ثم تركوها إلى جزيرة كريت وانتزعوها من أيدي البيزنطيين وأنشأوا فيها دولة إسلامية سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ظلت بها أكثر من قرن إلى أن استعادها البيزنطيون سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م وحشد كبير اتجه إلى فاس في المغرب الأقصى وكان إدريس الثاني بينها فجعلها عدوتين : غدوة للمغاربة وغدوة للأندلسيين ، ويقال إنه نزلها منهم أربعمائة أسرة سوى من نزلوا في بلاد المغرب الأقصى الأخرى . ونمضى إلى القرن السابع الهجري فتسقط - كما مر بنا في غير هذا الموضع - قرطبة وبلنسية ودانية وإشبيلية في حجر الإسبان ، ثم تسقط مرسية ، وتهاجر منها جميعا إلى المغرب الأقصى أفواج من الأندلسيين باحثين لما عن موطن جديد في فاس وفي غير فاس ، ويرحب بهم المغاربة ويفسحون لهم في أسباب العيش . وأخذت هذه الهجرة الأندلسية تتسع بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م وخروج العرب من الجزيرة الأندلسية فإن كثيرين منهم نزلوا المغرب الأقصى واتخذوه وطنا ثانيا لهم ، حتى إذا اتخذ فيليب الثالث ملك إسبانيا سنة ١٠١٨ هـ/١٦٠٩ م قرارا بطرد كل المسلمين من إسبانيا التجأت منهم أفواج كثيرة إلى المغرب الأقصى متخذة منه شاطئ نجاة ، ورحب بهم المغاربة كما رحبوا - من قديم - بمن نزل بينهم لعهد الحكم الربضي ثم لعهد سقوط المدن الكبرى في القرن السابع الهجري ، ثم لعهد سقوط غرناطة . ودائما كان الحضريون من الأندلسيين فقهاء وعلماء وأصحاب صناعات ينزلون المدن ويستقرون فيها وكان الفلاحون والزرايع منهم ينزلون سهول المغرب الأقصى ووديانه وتلاله ، وارتقوا فيه بطرق الري والزراعة والغرس التي ألفوها في الأندلس سواء في السهول والوديان أو في التلال أو في مرتفعات الجبال ، واختار كثيرون منهم - منذ سقوط غرناطة - منطقتي الريف والمهبط في الشمال . وتحول غير قليلين منهم إلى قراصنة يغيرون على سفن إسبانيا وشواطئها والسفن الأوربية انتقاما من إخراجهم كرها من وطنهم الأندلسي . وكانت هذه الأفواج الأندلسية أكثر حضارة وثقافة من المغاربة ، فأفادوا منهم حضاريا وثقافيا فوائد كثيرة بجانب الفوائد المادية والاقتصادية من الحرف والصناعات وأساليب الزراعة ، وبمرور الزمن اندمجوا في الشعب المغربي اندماجا تاما . والعنصر الرابع اليهود وكان أول نزول لهم في المغرب بالقرن الثالث ق .م على عهد الفينيقيين وكثر نزولهم فيه بعد تحطيم القيصر تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد ويبدو أنهم اختلطوا بالبربر إذ حاولوا نشر دينهم فيهم واعتنقه بعض البربر ، ولابد أن دخل منهم كثيرون المغرب الأقصى في أثناء المدة الفينيقية والرومانية ، وظلوا بالمغرب بعد الفتح الإسلامي ناعمين بما يعطيه الإسلام لأهل الذمة : اليهود والنصارى من الحرية في إقامة شعائرهم مع المعاملة الحسنة ، وربما نزع إليهم في العهود الإسلامية يهود من فلسطين ، حتى إذا سقطت غرناطة أخذ ينزح إلى المغرب عامة والمغرب الأقصى خاصة يهود كثيرون ممن كان يضطهدهم نصارى الإسبان كما اضطهدوا المسلمين ، وشملهم قرار فيليب الثالث المار ذكره بطردهم من إسبانيا مثل

المسلمين ، ولاحقوهم بأنواع من التعذيب الشديد ، فالتجأ كثيرون منهم إلى المغرب الأقصى وانتشروا في مدنه وقراه من تخوم البحر المتوسط والمحيط إلى تخوم الصحراء . وفي كتاب وصف إفريقيا وحديث الحسن الوزان فيه عن المدن ما يصور مدى انتشارهم بعد سقوط غرناطة إذ يذكر أن في مدينة بادس على البحر المتوسط شارع طويل يسكنه اليهود يباع فيه الخمر ، ويقول الوزان إن لهم في منطقة حاحة بمدينة تدنس مائة بيت يهودي وبمدينة آيت دؤاد كثير من الصنائع اليهود يمارسون الحدادة وصنع الأحذية والصباغة والصياغة ، وفي درعة وسجلماسة كثير من صناعاتهم وتجارتهم . ويقول الوزان لهم في تازة خمسمائة بيت ويعنون بصناعة الخمر من كروم البساتين فيها والمزارع . ويبدو أنهم كانوا كثيرين في فاس منذ القرن الثامن الهجري ، إذ يذكر الحسن الوزان في حديثه عن فاس أنهم كانوا يسكنون في فاس القديمة ونقلهم السلطان المريني أبو سعيد عثمان الذي تولى الدولة بين سنتي ٨٠١هـ / ١٣٩٨ م و ٨٢٥هـ / ١٤٢١ م إلى مدينة فاس الجديدة التي بناها مؤسس دولة بني مرين سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م وهم يشغلون فيها - كما يقول - شارعا طويلا جدا وعريضا للغاية حيث تقع دكاكينهم وكنايسهم أو معابدهم ، ويذكر أن عددهم تزايد زيادة كبيرة حتى لم يعد من الممكن معرفة عددهم ، كما يذكر أن معظم الصاغة منهم . وإذا كان الوزان يلاحظ ازديادهم المفرط في زمنه لأوائل القرن العاشر الهجري بعد سقوط غرناطة فلا بد أن أعدادهم في فاس والمغرب الأقصى تضاعفت بعد طرد فيليب الثالث لهم من إسبانيا في القرن الحادي عشر الهجري ونراهم - منذ الدولة المرينية - يحاولون أن يكون لهم شيء من النفوذ عند بعض حكامها ، وبلغوا من ذلك أن اتخذ آخر سلاطينها عبد الحق وزيرا منهم يسمى هرون فثارت عليه العامة ومعهم الفقهاء والخطباء ، وعادوا في الدولة السعدية يتصلون بحكامها ، ونجحوا في أن تتخذ منهم سفراء إلى أوروبا وبعض من يمثلونها في الصفقات التجارية الكبرى . ولابد أن نذكر أن المغاربة لم يلتحموا بهذا العنصر أي التحام ، فقد كان عنصرا دخيلا عليهم لغة وديننا ويقول الوزان في حديثه عنهم بفاس إنهم كانوا محتقرين من كل الناس .

أما النصارى فلم يكونوا يوما عنصرا من عناصر السكان في المغرب الأقصى إذ كانوا دائما وافدين عليه ، وفدوا أيام الدولتين الرومانية والبيزنطية ، ويبدو أنه كانت لهم جاليات في مدينة سبتة وغيرها ، يدل على ذلك من بعض الوجوه قول الوزان في حديثه عن فاس : « نجد بعض أسماء الأعياد التي اعتاد النصارى الاحتفال بها والتي لا يزال الناس يعملون بها اليوم (في زمنه) ولا يدرى أحدينا عن سبب التمسك بهذه الأعياد ، ففي كل مدينة مغربية يُحتفل ببعض الأعياد والعادات التي خلفها النصارى منذ الزمن الذي كانوا يحكمون فيه إفريقيا ، يريد زمن الدولتين الرومانية والبيزنطية . ويدخل المغرب الأقصى في الإسلام ويجلو عنه نصارى الدولتين إلا قليلا . ونمضي إلى عصر الموحدين فيذكر الحسن الوزان في حديثه عن مراکش أن

المنصور الموحدى بنى فى القصة قصرا للحرس من الرماة النصارى ، وكان عددهم عادة خمسمائة ، وكانوا يسيرون أمام موكب الخليفة حين ينتقل من مكان إلى مكان . وبعد خروج العرب من الأندلس نقل الإسبان والبرتغاليون الحرب الصليبية إلى سواحل البحر المتوسط والمحيط ، وكانوا يظلون فيها - كما أسفلنا - سنوات تطول أو تقصر ، ثم يغادرونها قسرا أو جبرا ، وقد يستولون منهم على مئات يستخدمونهم عبيدا أو رقيقا ويكلفونهم بمختلف الأعمال من أبنية وتحصينات وغير تحصينات على نحو ما مرّ بنا من صنع بطل تطوان فى ثلاثة آلاف أسير منهم كان يهكهم فى أعمال التحصينات . وأخذ كثيرون من المسلمين المنفيين عن الأندلس بعد سقوط غرناطة وقرار فيليب الثالث المار يشغلون بالقرصنة فى عرض البحر المتوسط وعلى سواحل إسبانيا انتقاما من ملوكها وكانوا يجلبون كثيرا من رقيق النصارى فى قرصتهم ويستحيلون عبيدا ، وكان كثير منهم يسلم ، فينتهى رقه ويستحيل مسلما مواطنا .

٢

المعيشة

مر بنا فى الحديث عن جغرافية المغرب الأقصى أن أراضيه خصبة ، ومن قديم كان أهله يعيشون على الزراعة ورعى الأنعام ، وإذا أخذنا نسير فيه من الشمال إلى الغرب على المحيط وبدأنا بمنطقة المحيط وجدناها وافر الإنتاج من الحبوب ومختلف الثمار من الفواكه وخاصة البرتقال والكرز . وتليها منطقة أزغار ، وبها كثير من الحبوب والأقوات ، ويزرع بها القطن ، وبها كثير من الماشية والخيول والغزلان وأنواع ممتازة من الفواكه . وتجاورها منطقة فاس ، ويقول الحسن الوزان بحديثه عنها : فى القسم الجنوبي من المدينة كثير من الحدائق المليئة بأشجار مثمرة متنوعة وممتازة مثل أشجار البرتقال والليمون والأترج والزهور الجميلة من بينها الياسمين والورود والرتم الذى استورده الأندلسيون من أوروبا . وتحفل البساتين بقصور جميلة وبرك ماء وحفريات ، وتحاط البرك بالياسمين والورود وأشجار البرتقال ، وعندما يمر الإنسان فى فصل الربيع بجوار هذه الرياض يشم أعطر شذى ينبعث من كل جانب ، ولا يكاد يشبع نظر الإنسان من متعة جمالها وملاحظتها ، وتشبه كل روضة من هذه الرياض جنة أرضية . وكان من عادة الوجهاء الإقامة فيها ابتداء من مطلع شهر نيسان (أبريل) حتى آخر أيلول (سبتمبر) . ويقول الوزان عن زروعها فى الشمال والشرق والجنوب : بها مزارع جميلة مليئة بالأشجار المثمرة من كل صنف ، وتخترق هذه المزارع بعض تفرعات النهر ، ولكثرة الأشجار يخيّل للناظر إليها من بعد أنها غابة حقيقية ، وتنتج منها الثمار بوفرة ، وثمارها من نوع جيد ، ويقدر ما يباع فى اليوم بكل موسم خمسمائة حمل من الثمار فيما عدا العنب الذى لا يدخل فى هذا

الرقم . وإلى الغرب من فاس أرض واسعة عرضها خمسة عشر ميلا وطولها ثلاثون تكثر فيها العيون والجداول وهي خاصة بالجامع الكبير (جامع القرويين) ويزرع فيها الكتان والبطيخ والقرع والخيار والجزر واللفت والقنبط وسوى ذلك من الخضر ، وتنتج هذه الأرض مقادير كبيرة ، وحتى لتقدر كمية إنتاجها بخمسة عشر ألف حمل فى الصيف ومثلها فى الشتاء . وتوجد فى حضيض الجبال أشجار الزيتون والفواكه والأعشاب وهي شديدة الحلاوة . ومن مدن منطقة فاس مكناس ، ويقول عنها الوزان إنها تقع فى سهل بديع وعلى مسافة ثلاثة أميال منها مزارع أشجار عديدة ثمارها ممتازة ولاسيما السفرجل وثماره فخمة جدا وزكية الرائحة ، وكذلك ثمار الرمان التي تبدو عجيبة فى حجمها ونوعها لأنها تخلو تماما من البذور ، والخوخ الأبيض والأخضر إنتاجهما غزير جدا ، ويُجنى العناب بمقادير وفيرة ، ويوجد الكثير من التين وعنب التكميات ، وتجنى مقادير كبيرة من المشمش والخوخ ومقادير لا تحصى من الزيتون ، والأراضى المحيطة بالمدينة خصبة جدا ، وتنتج كمية كبيرة من الكتان . وتنمو ببعض الأنحاء أشجار التوت ويتنفع بها لتغذية دود القز . وأراضى منطقة تامسنة صالحة لزراعة كل أنواع الحبوب والبقول ، وبها كثير من البساتين . وتنتج الكثير من العنب والكرز والشمام ويزرع بها القطن بمقادير وفيرة ، وينمو بها نوع من البلوط ثماره حلوة . ومنطقة دكالة كم منطقة تامسنة خصبة ، وتنتج كميات وافرة من القمح والعلل والزيتون وبعض الفواكه مثل التين وبها كثير من الأبقار . ويجوارها منطقة حاحة ، وتنتج القمح والذرة البيضاء والشعير ، ويكثر فيها التين والدراق ، وإنتاج العسل بها وافر جدا ، وبها الكثير من المعز وقليل من الضأن والبقر والخيول . وتليها إلى الداخل منطقة مراكش وسط سهل خصب ، وكان فى المدينة (عاصمة المرابطين والموحدين) بستان جميل واسع جدا مليء بكل أنواع الأشجار والزهور ، كما يقول الوزان ، وكان به حوض ماء مربع من المرمر فى وسطه عمود يحمل أسداً من رخام منحوتا نحتا دقيقا يتدفق من فمه ماء صاف غزير ، وفى كل زاوية من زوايا الحوض الأربع فهد من رخام أبيض منقوش يقع خضراء مستديرة . وبالقرب من البستان كانت توجد حديقة للحيوان تضم العديد من الحيوانات الوحشية كالزرافات والفيلة والأسود والتيوس الجبلية . وكان للأسود خاصة حديقة حيوان منفصلة عن بقية الحيوانات الأخرى . ومنطقة هذه المدينة تكتظ بالكثير من المياه والأنهار والعيون ، ولذلك تنتج القمح والحبوب بمقادير وافرة وتكتظ بالبساتين وثمارها كالعنب والتين والتفاح والكمثرى ، وبها كثرة من المعز والأنعام ، ويزرع بها الكتان والقنب ، وينمو فى سفوح الجبال السفرجل وأشجار الزيتون والجوز ، وجنوبى حاحة على المحيط منطقة السوس ، ويكثر فى أنحائها إنتاج القمح والشعير وقصب السكر كما يكثر النخيل والتمر والتين والعنب ، كما تكثر النيلة . والماشية - وخاصة فى بعض الأنحاء - وافرة جدا وبالتالي يكثر فيها الصوف . ونصعد إلى الشمال على البحر المتوسط فى أقصى الشرق إقليم غارت وتكثر فيه

الكروم والعسل والمعز والأغنام ، ولذلك يكثر فيه الصوف ، كما تكثر في بعض الأنحاء - مثل أزغار على المحيط - أشجار التوت وما يتغذى عليها من دود القز . ويجوار منطقة غارت إلى الغرب منطقة الريف على البحر المتوسط وتكثر فيها الفواكه وخاصة البرتقال والعناب والسفرجل والليمون ، كما يكثر العسل وأشجار الزيتون . وجنوبي غارت منطقة الحوز وتنتج القمح والشعير والذرة وكميات وافرة من الكروم والدراق والتين والسفرجل المعطر والليمون وأيضا من الكتان والقنب ، وتكثر أشجار التوت في بعض المناطق ويتغذى عليها دود القز ، وبها كثير من الماشية وخاصة المعز والخيول والبغال . وجنوبي الحوز منطقة تادلة وتكثر بها بساتين الكروم والتين وأشجار الجوز والزيتون الباسقة ، وتتكاثر فيها الأنعام والماشية والأغنام ولذلك إنتاج الصوف فيها وافر جدا وسفوح الجبال جيدة لرعى الماشية وإنتاج الشعير . وشرقي منطقة مراكش منطقة هسكورة وتكثر بها أشجار النخيل والزيتون والجوز والنيلة وبساتين الفاكهة الجيدة : مشمش وغير مشمش وخاصة الكروم وتنتج عنباً أحمر كبير الحجم كبيض الدجاج ، ويكثر فيها العسل ، ومن عسلها نوع أبيض كاللبن وهو ممتاز ونوع أصفر كالذهب ، كما يكثر فيها الزيت وطعمه طيب . ويكثر الغنم والمعز ، ويقول الزوان : لبعض أغنيائهم مائة ألف رأس من الغنم والمعز ، ويبيعون صوفها ويتركون للرعاة الحليب والجبن . وشرقي السوس منطقة جزولة وتنتج كميات وافرة من الشعير وبها مراعى واسعة هيأت لوفرة من الماشية والأنعام والأغنام . وإلى الجنوب الشرقي منها منطقة درعة ، وشمالها على نهر زيز سجلماصة ، والمنطقتان تهتمان بتربية المعز والأغنام وتنتجان كميات وافرة من التمر لكثرة ما بهما من النخيل ، وللتمر فيهما أنواع كثيرة فاخرة ، وكانت تنمو بهما الكروم والدراق .

ومن وجوه العيش والكسب في المغرب الصيد على سواحل البحر المتوسط والمحيط والأنهار ، ولا يكاد الزوان يترك مدينة كبرى أو صغرى على البحر المتوسط إلا يذكر أن بها صيادين أو أن أهلها جميعا صيادون ، من ذلك ما يذكره عن أهل ميناء بادس من أن صياديها يحرصون على أن يحصلوا على كميات كبيرة من السردين وأسماك أخرى ، وعادة يحتاجون لمساعدة بعض الأشخاص لهم في سحب الشباك ، ويتركون لهم وللأشخاص الذين يوجدون هناك قسما طيبا من السمك الذي يصيدونه . ويقول عن أهل مدينة صغيرة تسمى تاغسة إنهم صيادون وملاحون . ولابد أن كان كثير من سكان الريف والمهبط يحترفون القرصنة زمن ازدهارها في المغرب الأقصى بالقرون التاسع والعاشر والحادي عشر ، وكانت كثرة القراصنة من الأندلسيين الذين اضطهدهم ملوك الإسبان واضطروهم إلى الخروج من موطنهم في الأندلس . وضعفت القرصنة بعد ذلك وظل صيد السمك غالبا على منطقة الريف ، وكان يزاوله بعض السكان على المحيط ، كما كانوا يزاولونه في بعض الأنهار والبحيرات ، وأهم نهر كانوا ينزلون للصيد فيه نهر أم الربيع عند مصبه قرب مدينة آزموذج بمنطقة دكالة ، وكان يكثر في مياهه نوع من السمك

يسمى - كما يقول الوزان - الألوز وكان موسم صيده يبدأ فى تشرين الأول (أكتوبر) وينتهى فى أواخر نيسان (أبريل) ويقول الوزان إنه كان يحوى من الدهن أكثر مما يحوى من اللحم . أما البحيرات فتمثل لها ببحيرة كانت بمنطقة دكالة أيضا فى حوض الجبل الأخضر ، وكانت تحوى كمية كبيرة من الأسماك مثل سمك الحنكليس ، وسمك الشبوط وأسماكاً أخرى ، وكلها ممتازة للغاية ، ويقول الوزان إن أحداً لم يكن يصيد بها وإن السلطان محمد بن محمد البرتغالى توقف بجوارها ثمانية أيام وأمر بالصيد فيها . وكما كانوا يجلبون صيد البحر كانوا يجلبون صيد البر بواسطة الأشراك ، وخاصة فى منطقة درعة حيث كانوا يصيدون الحيوانات الوحشية مثل النعام والوعول ويسمونهم اللمت والبقر الوحشى ويسمونهم ودان .

ومنذ القدم يعنى المغرب الأقصى بالصناعات اليدوية كالحدادة والنجارة واستخراج المعادن وتصنيعها وبخاصة الحديد ، وتنتشر مناجمه فى مناطق كثيرة ، وبخاصة فى منطقة غارت بالشمال ، فالوزان يقول إن مليلة كانت تنتج كمية كبيرة من الحديد ، وإن فى جميع الجبال المجاورة لجبل مدينة أمجأو مناجم حديد ، ويسكن المشتغلون بشئون هذه المناجم كثيرا من الدساكر والقرى فى المنطقة ، ويقول عن جبل بنى سعيد : تستخرج من الأرض كمية كبيرة من الحديد ، ولكل رئيس من رؤساء المشتغلين بالمنجم وشؤنه بيته بجوار المنجم ومصنعه الذى يصفى فيه الحديد ، وينقل الحديد إلى فاس على شكل سبائك ، وما لا يمكن بيعه يستخدم لصناعة أدوات من نوع الفئوس والمناجل والبلطات التى يقطع بها الخشب . وفى منطقة الحوز بجبل بنى يستتين عدة مناجم حديد على سفحه ، ويصنع الحديد ، وتعمل منه سبائك تُخذى بها الخيل ، ونفس السبائك تستعمل نقودا ، ويجنى هؤلاء الجلبون من هذا الحديد دخلا كبيرا لأنهم يبيعون منه كمية كبيرة . ولكثرة الحديد فى المنطقة استطاع سكان جبل بنى يازغة صنع ما يشبه « تلفريك » للعبور من ضفة نهر إلى أخرى ، وسنصفه فى موضع آخر . وفى منطقة جزولة عدة مناجم للحديد والنحاس ويصنعون من النحاس أوعية عديدة يحملونها إلى مختلف الأنحاء . ويكثر صناع آنية النحاس بأفران فى منطقة درعة لأنها من السلع التى يحملونها إلى السودان ، وفيها عمال مهرة جدا فى الصناعات كصنع الشمعدانات والصحاف والمحابر والأشياء الأخرى ، وجميعها تباع كما لو كانت من فضة . ونعود إلى منطقة الحوز ففى بلدة مزدغة تربة صلصالية يصنعون منها عددا لا يحصى من الأواني الخزفية ويبيعونها فى فاس . وبسهل سهب المرجة الذى يبلغ حوالى ثلاثين ميلا عرضا وأربعين ميلا طولاً بين جبال الأطلس المحاطة بغابات ضخمة ينتج الفحامون هناك مائة حمل من القمح ، وتلتقى بمثل هذا القمح فى مدينة العرائش . وفى قصر المزاليق بسجلماسة منجم للرصاص وآخر للإثمد (الكحل) وتلقانا فى مدن كثيرة صناعة الشمع لكثرة إنتاج العسل فى غير بلدة ، ومعاصر الزيت لكثرة أشجار الزيتون فى معظم أنحاء البلاد ، وبالمثل دباغة الجلود ، وتوجد أشجار النيلة فى أماكن مختلفة

وخاصة السوس وهسكورة ، وكان يصنع الصابون فى بلدان متعددة وخاصة فى منطقة الريف ، وفى أماكن مختلفة وخاصة فى منطقة الهبط خشب البقص فى جبل بنى واغرافت وتصنع منه الأمشاط فى فاس وسلا . وفى بعض المناطق تكثر أشجار التوت لتغذية دود القز ، كما فى مكناس وأزغار بمنطقة الحوز ، ويجمع منه الحرير . وفى منطقة الريف يشيع تمليح السردين إعدادا لبيعه ، كما يشيع فيها وفى المغرب قطع الأشجار الضخمة وإعدادها للتصدير أعمدة وألواح ، وبجانب ذلك يشيع صنع القوارب والطرادات فى هذه المنطقة ومنطقتى الهبط وأزغار وكان لهما فى ميناء بادس دار صناعة . وفى كل مدينة نجد الإسكافين أو الحذائين والدباغين والسراجين .

وفى مدن كثيرة تنسج الملابس ، ينسجها عادة النساء ، وحيث تكثر زراعة القطن تكثر الأقمشة القطنية كما فى أزغار وتامسنة وسلا ، وحيث تكثر الأغنام والمز يكثر الصوف كما فى منطقة السوس ، وتشتهر بنسيج نوع ناعم من الصوف كالجوخ وبالأقمشة الصوفية . وأيضا حيث تكثر زراعة الكتان تكثر الأقمشة الكتانية كما فى السوس أيضا ، وبالمثل تجنى منطقة الحوز من الكتان كمية كبيرة ، ولذلك يحبك السكان - وخاصة فى جبل مغسة الأقمشة الكتانية ، ويحصلون من أغنامهم فى جبل بنى يازغة على صوف شديد النعومة تصنع منه نسائهم أقمشة كالحرير ، وبمدينتى تفزة وأفزة من منطقة تادلة أغنام مماثلة ، ونسائهما ماهرات - كما يقول الوزان - فى شغل الصوف ، ويصنعن منه برانس ونحمارات جميلة جدا ، وبذلك يربحن من المال أكثر من رجالهن إلى حد ما . وبالمثل بمنطقة هسكورة كمية كبيرة من الأغنام وتصنع من صوفها أقمشة جميلة جدا . ولكى نتصور مدى نشاط صناعة النسيج فى المغرب الأقصى أسوق ما ذكره الحسن الوزان عنها فى فاس ، فقد ذكر أن بها مائة وعشرين مؤسسة للنساجين وهذه المؤسسات أو المصانع أبنية كبيرة كل منها مؤلف من عدة أدوار مع قاعات فسيحة كقاعات القصور ، وتحوى كل قاعة عددا كبيرا من عمال نسج الكتان والقنب . وتلك هى الصناعة الرئيسية فى فاس ويقال إنها تكفل العمل لعشرين ألف عامل .. ومن جهة أخرى كان يوجد مائة وخمسون مصنعا لقصارى (مبيضى) الخيوط ، ويقوم معظمها قرب النهر لبل الخيوط ودقها . وتجهز هذه المصانع بالكثير من المراحل والخواصى المبنية لغلى الخيوط ولحاجات مهنية أخرى . والقنب هو الذى يتخذ منه الحبال . ولا بد أن كانت هناك مصانع أخرى لنسج الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية إلا إذا كانت تضمثتها المصانع السابقة .

ومنذ القرن الثانى المحجرى تبنى فى المغرب الأقصى المنشآت العمرانية التى لا تقتصر على بناء مفرد ، أو أبنية محدودة ، بل تتجاوز ذلك إلى بناء مدن بمساجدها وقصورها وحماتها وفنادقها ومارستاناتها وأسواقها ، فقد بنى إدريس الثانى مدينة فاس أو بعبارة أدق بناءها

سنة ١٩٢ وجعلها عدوتين أو شطرين : شطرا على الحافة الشرقية للنهر وشطرا إلى الغرب منه ، ويفيض الحسن الوزان فى وصف جمال بيوتها وزينة حجارتها بالفسيفساء وطلاء سقوفها بطلاء لازوردى وذهبى وما فى الطوايق من شرفات كثيرة الزخرف ، ويسترسل فى الحديث عن دهاليزها وما بها من أعمدة رخام ودعائم مقوسة وسقوف مزينة بنقوش متنوعة الألوان ، ويتحدث عن مساجدها التى تبلغ ٦٠٠ مسجد وجامعها الكبير المسمى جامع القرويين وكان يوقد فيه كل ليلة ستمائة مصباح ، وكانت تلقى فيه الدروس على الطلاب ، وبذلك تحول - مثل الأزهر - إلى جامعة ضخمة . ويسط القول فى المدارس والمعاهد والمؤسسات والحمامات والفنادق بفاس وسوقها الضخم وصناعه ودكاكينه ، ويطوف بنا فى أرجاء فاس القديمة وأختها الجديدة التى بناها بجوارها أول السلاطين المرينيين يعقوب بن عبد الحق ، وكيف استدار من حول المدينتين سور جعلهما مدينة واحدة . وقد بنى ابن هذا السلطان مدينة البصرة على مسافة ٨٠ ميلا من فاس إلى الشمال الغربى وعلى مسافة ١٥ ميلا جنوبى مدينة القصر الكبير فى منطقة أزغار وكان الأدارسة - فى أثناء حكمهم - يتخذونها مقرهم الصيفى . ونمضى إلى زمن المرابطين فيؤسس يوسف بن تاشفين أمير المسلمين مدينة مراكش الكبرى وهى مثل فاس تعد من المدن الرئيسية فى العالم ، شيدها يوسف وفق مخططات وضعها مهندسون مهرة ، وكان لها أربعة وعشرون بابا وجدار سور غاية فى الجمال والمناعة كما يقول الوزان . ويصف جامعها الكبير وتزين يعقوب المنصور الموحدى له بأعمدة جلبها من إسبانيا ، ويطل فى وصف منارته التى شيدها له يعقوب ، وقد باعت زوجته خليفتها الذهبية الخاصة والفضية وما تملك من أحجار كريمة وما قدمه لها يعقوب عند زواجه منها لصنع ثلاث تقاحات ذهبية توضع فوق قمة المنارة زينة لها ، ويطل الوزان فى وصف قصبة مراكش . ويذكر أن الخليفة يعقوب المنصور بنى فيها اثنا عشر قصرا متقنة البناء والزخرفة لحرسه وحاشيته ولحفظ السلاح ولأبنائه ولتعليمهم ، وكان بجانب هذه القصور - كما مر بنا - بستان وحديقة حيوان . وبنى يعقوب المنصور أيضا ثلاثة مدن ، هى القصر الكبير والقصر الصغير فى منطقة أزغار ومدينة الرباط العاصمة الحالية للمغرب الأقصى . وبناء هذه المدن وما دخل عليها من إضافات كان يستلزم آلاف من العمال والمهندسين والبنائين والحداين والتجارين والزواقين المرينيين للمباني بالفسيفساء وبأعمدة الرخام والدعائم المقوسة والخشب المزخرف بالنقوش والأصباغ والألوان البديعة . وهذه الأعمال المعمارية الضخمة وما استلزمت من صناعات وصناع وما سبقها مما اقتبسته عن الحسن الوزان من الصناعات اليدوية التى كانت منبثة فى أرجاء المغرب الأقصى والصيد والإنتاج الزراعى المتنوع الوافر ، كل ذلك أعد لتجارة نشيطة واسعة منذ القدم ، فقد كان الفينيقيون يتبادلون سلعهم مع المغرب الأقصى فى المدن التى أنشأوها على سواحله الشمالية والغربية ، وخلقهم الرومان يصنعون نفس الصنيع ، وربما عبرت قوافل تجارهما إلى السودان .

واستمر المغرب الأقصى يتبادل سلعه مع شعوب البحر المتوسط في العصور الإسلامية ، وكانت سفن البنادقة والجنوئين ماتنى ذاهبة إلى موانئ البحر المتوسط آية منه محملة بمحبوب المغرب الأقصى وبالجلود والشمع وبخيوط الصوف ، كما كانت تحمل كثيرا من الأخشاب المعدة للتصدير بين أعمدة وألواح . وكثيرا ما كانت سفن البنادقة والجنوئين تعبر الزقاق إلى موانئ المغرب الأقصى على المحيط لتبادل مع أهلها السلع ، وكان الجنوئين والبنادقة جميعا يأتون بأقمشة ومنتوجات أوربية مختلفة ويأخذون بدلها عن طريق المقايضة سلع المغرب الأقصى من القمح والشمع والجلود والصوف وغير ذلك . ويقول الحسن الوزان عن مدينة سلا على المحيط « إن الكثير من التجار الجنوئين يقصدونها ويعقدون فيها صفقات مهمة ول هؤلاء التجار مستودعاتهم في كل من فاس وسلا ، وكانوا يقيمون مع هذه المستودعات بعض أصحابها أو بعض مندوبي شركاتها لجمع ما يريدون من المحاصيل ، ويذكر الوزان أن جنويا ثريا من تجار جنوة مكث مع أسرته في فاس ثلاثين سنة حتى توفي . ولابد أن كان للجنوئين والبنادقة مستودعات مماثلة في موانئ المحيط والبحر المتوسط ، وقد انضم إليهم بعد خروج العرب من الأندلس البرتغاليون والإنجليز والفلمنك وخاصة في الموانئ التي احتلها الأولون . وثلاث مناطق كانت تتجر مع السودان ، هي السوس وكانت تحمل إلى أهلها الأقمشة الصوفية والكتانية والسكر الذي كانت تنتجه ، ودرعة وكانت تحمل إليهم أواني النحاس من أفران والتمور وبعض الأقمشة ، وسجلماسة وكانت تحمل إليهم التمور والأقمشة المختلفة والزيت والمفاتيح والأقفال وتعود قوافلها محملة بالتبر والعاج وريش النعام والرقيق . وكان تلك التجارة مع السودان تعود على تجار هذه المناطق الثلاث ، بشاء طائل . وكان إنتاج المناطق يختلف من منطقة إلى أخرى ، فتمور سجلماسة مثلا تقايض بالقمح وأواني النحاس وفي منطقة جزولة تقايض أوعية النحاس بالأقمشة والتوابل والخيول ، وبالمثل جلود الثيران والشمع بجبل بني زكار ، وكان لكل بلد سوق ، ونسوق أسماء الدكاكين في سوق فاس .. لتتعرف من خلالها على ألوان التجارات ، وهي تتوالى عند الوزان على هذا النمط : ثلاثون دكانا للمكثبات ، مائة وخمسون لباعة الأحذية ثم باعة الأواني النحاسية ، خمسون دكانا لباعة الفواكه ، وبعدهم باعة الشمع وباعة الخيطان ، وعشرون دكانا لباعة الزهور ، وباعة الحليب ، وثلاثون دكانا لباعة القطن ، فدكاكين الأشياء المصنوعة من القنب : الحبال والخيوط وأرسان الخيل فصناع النطاقيات الجلدية المطرزة بالحزير ، فصناع أعمدة السيوف والسكاكين فباعة الأواني الخزفية ذات الألوان الجميلة ولها مائة دكان فباعة الملح فباعة اللجومات والأعنة والسروج ولهم ثمانون دكانا فحظيرة يباع فيها الجزر واللفت فباعة الفول الأخضر ، فدكاكين لبيع اللحم المفروم ، فسوق العشائين للقنيبط وأنواع الخضر الأخرى وبه أربعون دكانا ، فباعة الزلاية ، فباعة اللحم المقلى والسماك المقلى ، فباعة الزيت والسمن والعسل والجبن والزيتون ، فالأطعمة المحفوظة ، فأربعون دكانا للجزارين وتُنْبَحُ

الحيوانات فى مسلخ خاص ويفحصها المحتسب ويصنع لسعرها نشرة يُباع اللحم بموجبها . وبعد الجزارين سوق الأقمشة الصوفية الغليظة ولها مائة دكان ، فشاحذو الأسلحة من سيوف وخناجر . فصيادو الأسماك من نهر فاس ونهر سبو القريب منها ، وهى ممتازة ، فصناع أقفاص الدجاج ولا تترك طليقة بل تحبس فى أقفاص حرصا على النظافة ، فباعة الصابون فباعة الدقيق فباعة القش فباعة خيوط الكتان ، ولصناعة الدلاء الجلدية أربعة عشر دكانا ، فصناع التروس والمجنّات ، فصناع سروج الخيل والدجاجات ، فالحدادون الذين يعدون كسوة الخيل فصناع السروج . وبجانب هذه السوق سوق أخرى للتجار فى مدينة صغيرة بها اثنا عشر بابا وهى خمسة عشر حيا ، حيان للإسكافين أو الحدائين ، وحيان لتجار الأقمشة الحريرية وحى لباعة النطاقيات النسائية ، وحيان لباعة الأقمشة الصوفية ، وثلاثة أحياء للخياطين وحيان لباعة الأقمشة الكتانية والأقمشة النسائية ، وحى لما يوضع على حواشى البرانس وأزرارها المضفورة من زخرفة وزينة . وإلى الشمال سوق العطارين والصيدلة وبه نحو مائة وخمسين دكانا ، ودكاكين العطارين غاية فى الزينة ، ويقول الحسن الوزان : لا أعتقد أن فى العالم كله سوق عطارين تماثل هذه السوق . وإلى جانبها دكاكين باعة الإبر ولهم خمسون دكانا ثم دكاكين الطحّانين والصبّانين فباعة الأقمشة القطنية ، فباعة الطيور الصالحة للأكل والعصافير المغرّدة فباعة القباقيب التى تلبس حين تكون الطرق موحلة ، فصناع السهام ، فخمسون دكانا لباعة المكائس ، فباعة صوف الخراف ، فصناع القفاف وقبود الخيل ، فصناع النحاس ودكاكينهم ، فباعة المكائيل وآلات الحلج والبرادة ، وباعة المحارث والدواليب وعرائش العربات ، فسوق الصباغين . وهذا كله لخصته من وصف الحسن الوزان لسوق فاس بكتابه وصف إفريقيا لأدل على ما كان بالمغرب الأقصى من سلع لا تكاد تحصى وفرتها له أرضه الطيبة ، مما أتاح له فى التجارة من قديم نشاطا تجاريا واسعاً داخلها وخارجياً .

٣

الثراء - الرّفه - الموسيقى - المرأة

(أ) الثراء

كان المغرب الأقصى كثير الخيرات والطيبات من الرزق ، فكثرت فيه الأثرياء من الأفراد والأقاليم ، وأما الأفراد فنستطيع أن نمثل لهم بمثاليين ذكرهما الحسن الوزان ، أولهما وجيه رآه فى مدينة تاكوليت بإقليم حاحة كانت منزلته كمنزلة رئيس وزارة ، وكان يملك موارد ضخمة ، وكان ينفقها على الناس ليكسب ودهم ويظل أثيرا لديهم ، وكان كريما ينفق الكثير - كما يقول الوزان - من الصدقات ، ويساعد أهل بلده بماله لقضاء حاجاتهم ، ولم يكن فى بلده إنسان

واحد لا يحبه ولا ينزله منزلة والده . والثاني فى مدينة تاغوداست بمنطقة هسكورة وكان بها عدد من الشخصيات النبيلة ، ربما كان أبولهم أميرها ، وهو - كما يقول الوزان - وجيه أسمى سخي سخاء كبيرا ، وكان لديه أكثر من مائة ألف رأس من الغنم والمعر ، يستمد منها دخلا كبيرا من شعرها وصوفها ، ويترك للرعاة الحليب والجبن ، ويقدمون له قدرا من السمن .

وبجوار ثراء الأفراد كانت هناك مدن وأقاليم أو مناطق ثرية ثراء طائلا ، أما المدن فنستطيع أن نميز بينها مدن الموائى ، إذ كان تجارها يثرون من تجاراتهم وحتى المدن التى كانت تقترب منها أو تجاورها كان ينالها نصيب من هذا الثراء مثل مدينة تاكوليت المذكورة آنفا فقد كانت تجاور ميناء آفور بمصب نهر التانسفت بقرب المحيط فعاد ذلك على أهلها بثراء كبير . وقد لا تكون للبلدة ميناء ولكن أهلها يزاولون التجارة مثل هادكيس جنوبى تاكوليت بنحو ثمانية أميال ، فإن أهلها كانوا تجارا ولذلك كانوا على غير قليل من الثراء ، ويقول الوزان كان لديهم خيول حسان وكانوا يتأقون كل التأق فى ملابسهم . وما بالك بكبار التجار وأصحاب المصانع الضخمة فى فاس عروس المغرب الأقصى وعاصمة الأدارسة والمرينيين ، وبدون ريب كان الأغنياء الموسرون فيها يعدون بالعشرات ، وذكر الوزان أنه كان بها مارستان جميل فى الداخل والخارج ، وكان بها بعض غرف مخصصة للمجانين المخبولين ، وكان بها مائة حمام جيدة البنيان ، وللنساء حماماتهن الخاصة ، أما الحمامات المشتركة فتخصص فيها ساعات للرجال وساعات للنساء ، وحينما يغسل خدم الحمام شخصا يستلقى على ظهره أو بطنه ويقومون بتدليكهم بنوع من المراهم منشطة وأحيانا بأدوات مثل كيس صوفى ينزع الأدران . وكان بفاس مائتا فندق يقول الوزان إنها كانت فخمة للغاية ويتألف الفندق من ثلاثة طوابق ، وبعضها فسيح جدا إذ يحوى مائة وعشرين غرفة أو أكثر ، وتجهز جميعا ببرك ماء وكل ما يلزمها ، ويقول الوزان إنه لم ير فى إيطاليا أبنية تماثلها إلا فى قصر الكردينال فى دُير الحضر بروما ، ويقول إن أبواب الغرف كلها تطل على ممشى ، ويشيد بالقصور التى بناها يعقوب بن عبد الحق مؤسس الدولة المرينية ، وليست قصورا بل مدينة أضافها إلى فاس كما مررنا فى حديثنا عن المرينيين فى الفصل الماضى ، وقد أنفق سلطانها المرينى أبو عنان على إنشاء معهد - كما يذكر الوزان - أربعمائة وثمانين ألف دينار ، مما يدل على ثراء واسع كانت تتمتع به الدولة المرينية .

ومثل فاس مدينة مراكش عاصمة المرابطين والموحدين والدولة السعدية ، ويتحدث الوزان عن جامعها ، ومازنته به المنصور الموحدى صاحب موقعة الأرك من أعمدة جليها من إسبانيا ومن منارة كانت إحدى عجائب الدنيا وبنى بالقصبة اثنى عشر قصرا ، ويقول إن إمبراطوريته من ماسة فى السوس إلى طرابلس يحتاج اختراقها طولا إلى تسعين يوما وعرضا إلى خمسة عشر يوما ، ولم تكن الدولة فى عهد المنصور السعدى تقل إثراء عنها فى عهد المنصور الموحدى فقد توسع فى فتح بلاد السودان الغربى وكان الذهب يُجيبى إليه منها بالأحمال ، مما جعل العمال

فى دارسكه يتزايدون ، حتى قيل إنه كان فيها ١٤٠٠ عامل بيد كل عامل مطرقة لضرب الدنانير الذهبية ، ولذلك لُقّب بالمنصور الذهبى .

ويتوقف الوزان مرارا ليحدثنا عن ثراء المناطق فى المغرب الأقصى ، من ذلك ما يقوله عن منطقة يولوان فى منطقة دكّالة من أنه كان يسكنها عديد من النبلاء الكرام . وقد بنوا عمارة فيها غرف عديدة على نفقتهم لتكون دار ضيافة فاخرة ، وأرضهم خصبة وتنتج مقادير وافرة من القمح وعندهم ماشية لا عداد لها ، إذ لدى كل فرد منهم نحو مائة زوج من الأبقار ويحصد الفرد العادى مائة حمل من القمح ومنهم من يحصد منه ثلاثة آلاف حمل . ومثل منطقة دكّالة فى ثرائها منطقة هسكورة بأغنامها وما يُصنع منها من الأقمشة الصوفية الجميلة ومن الجلود المغربية وبها كثرة من محصول الزيت وتعنى بصناعة سروج الخيل . ويشمل الثراء كثيرا من نواحي منطقة تادلة ، وتشتهر مدينتا تفضة وأفزة بصنع البرانس وهى نوع من العباءات أو الثياب تنسج قطعة واحدة مع قلنسوتها ويسلك فى العنق ويترك من أمام مفتوحا ، ولا يخاط منه إلا ما يقابل الصدر . ومنطقة فاس غنية جدا لوفرة حبوبها وثمارها وماشيتها . وبالمثل منطقة مكناس لثمارها العجيبة من سفرجل زكى الرائحة ورمان يخلو من البذور وعنّاب بديع مع وجود مختلف الثمار من الخوخ والمشمش والعنب والتين ، ومنطقة المحيط غنية لكثرة موانئها التجارية ، ولكثرة ما تنتجه كورها من الحبوب والثمار . وتتميز ثلاث مناطق هى : السوس وسجلماسة ودرعة بتجاراتها الواسعة مع السودان الغربى ، وتجار السوس يحملون إليه ما ينتجون من السكر والتمور وما يصنعون من الجوخ وأقمشة الكتان ، ويحمل تجار سجلماسة تمورهم والأقمشة القطنية والصوفية والمنتجات المغربية ، ويحمل إليهم تجار درعة تمورهم الفاخرة والمنتجات المغربية وما يصنعون من أوانى النحاس ، ويعودون جميعا محملين بالعاج والذهب وريش النعام والرقيق ، ويدّر ذلك على تجار هذه المناطق ثراء واسعا .

(ب) الرّفه

هذا الثراء الطائل لبعض مدن المغرب الأقصى ومناطقها ودولها وبعض أفرادها من التجار وغير التجار يجرّ بطبيعته إلى غير قليل من الرفه . ومن يرجع إلى الحسن الوزان فى حديثه عن ملابس سكان فاس ويريد أعيانها ونبلاؤها يجده يقول إنهم أناس محترمون يلبسون فى الشتاء ثيابا من جوخ أوربية المنشأ ، ويتألف ما يلبسون من سترة (جاكيت) ضيقة ملتصقة بالجسم لها نصف أكمام ، تمرّر من فوق القميص ، ويلبسون فوق تلك السترة ثوبا عريضا مخاطا من الأمام (لعله المعروف عند المغاربة بالقشايية) وهى ثوب له أكمام يسلك فى العنق ويخاط من أمام ولا يترك منه إلا فتحة العنق) ويصنعون فوق هذا الثوب البرنس الذى وصفناه منذ قليل ، وقلنا إنه ينسج قطعة واحدة مع قلنسوته ولا تغطى الأذنين ، ويلفون فوق تلك القلنسوة عمامة

من قماش تُطَوَّى مرتين حول الرأس وتمر من تحت اللحية ، ويلبسون سروالا من كتان ، ويضعون فى أقدامهم خُفًّا عندما يمتطون جيادهم شتاء . ويقول الوزان إن عامة الشعب يلبسون ستره وُرُثْسًا بدون الثوب (القشاية) الذى تكلمنا عنه . وربما كان أدق من ذلك ما ذكره فى بلدان مغربية أخرى من أن أهلها يلبسون كساء من صوف غير مخيط يشتمل به الرجال والنساء على نحو ما نرى عند قدماء المصريين . يقول الوزان : « وللنساء هندامٌ حسن جدا ، ويلبسن فى الشتاء ثيابا عريضة الأكمام مخيطة من الأمام كأثواب الرجال ، ويلبسن فى الصيف قميصا يطوِّقنه بزئار ، وعندما يخرجن من بيوتهن يلبسن سراويل طويلة تغطي كل أرجلهن وخمارا يغطي الرأس وسائر الجسم ، ويتغطَّى الوجه بقطعة قماش كتانى ، ويضعن فى آذانهن حلقات ذهبية كبيرة مرصعة بحجارة كريمة بدیعة جدا ، ويضعن أساور ذهبية فى معاصمهن . أما النساء من غير الشريقات فيلبسن أساور من فضة ويضعن مثلها فى أرجلهن . ودائما يشير الوزان فى البلدان المختلفة بأن المرأة كانت تتزين بحلى فضية ، وكأنها كانت هى الحلى الشعبية الشائعة ، ومرُّبنا فى الحديث عن سوق فاس ما كان به من دكاكين كثيرة لبيع الأقمشة الصوفية والكتانية والحريرية النسائية وما كان هناك من دكاكين لبيع النطاقيات النسائية وكل فنون الزخرف من الزينة للملابهن وكل أنواع العطارة والروائح الفاتحة .

ويتحدث الحسن الوزان عن الغذاء فيقول إن عامة الشعب تناول اللحم مرتين فى الأسبوع أما الأعيان والأغنياء فيتناولونه مرتين فى اليوم حسب شهيتهم . ولهم ثلاث وجبات يومية : وجبة الصباح وتتكون من خبز وجِساء من دقيق القمح وبعض الفواكه ، ووجبة الظهيرة وتتألف من خبز وجبن وزيتون وسلطة ، ووجبة المساء وتتألف من بعض الأطعمة ومن اللحم المسلوق ، والكسكسى وهم يواظبون عليه فى العشاء ، وقد يأكلونه فى الغذاء ، وهو عجينة تحول إلى حبيبات ، وتطبخ بالبخار وعند نضجها تسقى بالسمن وبمواد مغلية مع اللحم .

وكان لابد للمرفهين فى المغرب الأقصى من لعب يقطعون بها أوقاتهم ، وقد اختاروا لعبتي الشطرنج والرد يتسلون بهما ، ومعروف أن لعبة الشطرنج تمثل صورة الحرب ، فهى حرب بين جبهتين وفى كل جبهة ملك ووزير وبعض القواد وبيادق أو عسكر وطبية للدفاع عنها ، وتحاول كل جبهة التغلب على مقابلتها ، ويكتب النصر لإحدهما كما فى الحرب تماما . أما الرد فتدل خطوطه الأربعة والعشرون على عدد ساعات اليوم ونصف الخطوط تدل على عدد شهور السنة ، وحجارته السود والبيض هى الليالى والأيام ، وتدل قطعتا الزهر على حظوظ الناس فى دنياهم . وأنشأ ملوك فاس وسلطينها لأهلها مسرحا لصراع الأسود ، وكان يصيدهم للسلطان قناصو جبل زرهون . وكان المسرح ساحة واسعة يصطف حولها أهل فاس للفرجة ، وكانت تُصَفَّ فى الساحة عدة صناديق كبيرة يتسع داخل كل منها لرجل يقف فيه ويتحرك بسهولة ، ولكل صندوق باب صغير ويجلس فيه رجل مسلح ، وعندئذ يطلق الأسد - كما يقول الوزان -

حرّاً في الساحة ، ويقوم أحد الرجال بفتح صندوقه وينطلق إليه الأسد حين يراه ، حتى إذا دنا منه أغلق الباب ، وكل رجل يصنع نفس الصنيع مثله ، حتى يغضب الأسد بل حتى يمتلئ غضبا ويشتد به غضبه وثورته ، وحينئذ يدخل ثور إلى الساحة ، وتنشب بينه وبين الأسد معركة دامية شديدة العنف ، والجمهور يهرج ويصفق ، وإذا قتل الثور الأسد انتهى المشهد المسرحي عند ذلك ، وإذا قتل الأسد الثور يخرج إليه الرجال المسلحون من صناديقهم لمبارزته ، وهم عادة اثنا عشر رجلاً ، ومع كل رجل حربة تنتهي بنصل من حديد طوله ذراع ونصف ، وإذا بدا تفوقهم على الأسد واضحا نقص السلطان عددهم ، وإذا بدا أن الأسد يتفوق على الرجال عمد السلطان ومن معه إلى تسديد سهام إليه من أعلى شرفاتهم خشية أن يفتك بأحد المصارعين ، فيموت . وبذلك تنتهي اللعبة بين تصفيق الجماهير وما يتصل به من هرج ومرج ، ويمنح السلطان جائزة لكل مصارع : عشرة دنانير وكسوة جديدة .

(ج) الموسيقى^(١)

أول زمن للنهضة الموسيقية في المغرب الأقصى كان زمن الدولة السعدية ، إذ لا نلتقي بأخبار عن الموسيقى وأصحابها قبل هذا الزمن في القرن العاشر الهجري المقابل للسادس عشر الميلادي ، ومن المعروف أنه كان بالأندلس نهضة موسيقية مبكرة ، غير أنها ظلت بعيدة عن المغرب الأقصى وظل لا يعرف عنها شيئاً إلا حين نزل بعض أهلها هناك واستمعوا إليها ، وكأنما انتظر المغرب الأقصى حتى اكسحه الأندلسيون وهاجروا إليه هجرتهم الكبرى بعد سقوط غرناطة بأخرة من القرن التاسع الهجري واتسعت هذه الهجرة - كما مر بنا - في عهد فيليب الثالث لأوائل القرن الحادي عشر الهجري ، على أن النهضة الموسيقية أخذت تزدهر منذ عهد السلطان عبد الله الوطاسي المريني الملقب بالغالب (٩٦٤ - ٩٨١ هـ / ١٥٥٧ - ١٥٧٤ م) إذ نجد الموسيقيين المغاربة يحافظون على إيقاعات الموسيقى الأندلسية بكل نوبها أو قطعها الموسيقية الكبيرة العشر ، وهي رمل الماية - الماية - رصد الذيل - الأصهبان - الرصد - غريبة الحسين - الحجاز الكبير - الحجاز الشرقي - عراق العجم - العشاق . ويتألق حينئذ اسم موسيقار كبير هو الحاج علي البطلة من أهل فاس وحاشية السلطان عبد الله الوطاسي ، ويقال إنه أضاف إلى النوبات الكبيرة النوبة الحادية عشرة المسماة بالاستهلال ، وبذلك أصبحت إحدى عشرة ، وتبدأ النوبة بمقدمة موسيقية للجوقة يليها افتتاح على إحدى الآلات لرئيس الجوقة ثم توشية موسيقية للجوقة ، ثم تبدأ أنغام ميازين النوبة ، ولكل نوبة خمسة ميازين أو أقسام ، وهي

محمد بن الحسين الخائك (طبعة مصورة لورثة الحاج
عبد السلام القريقاق . طبعة ١٩٨١ م) .

(١) انظر كتاب الموسيقى الأندلسية المغربية للأستاذ عبد
العزيز بن عبد الجليل (نشر المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب بالكويت) راجع كتاب الخائك

البسيط والقائم والبطاحي والقدام والدرج. وتتخلل هذه الميازين بعض الإنشادات ينشدها موسيقار منفرد، وخاصة في الموسيقى المصاحبة لقصائد المولد النبوي وهي فيها تكون من رقيق أشعار المتصوفة مثل الششتري، وفي غيرها تشيد بإيقاعات الميزان المسماة بالطبوع وأحيانا تكون غزلا. والغرض من هذه الإنشادات الترويح عن المستمعين. والطبوع مفردا طبع وتقابل في الموسيقى الأندلسية المغربية كلمة مقام المعروفة في موسيقى المشرق العربي، ومنها مفرد وهو 'عشاق' واحسين واحصار والزوركد والأصهبان والمزوموم والرمل والرصد والعجم والمجنب، ومنها ممزوج، وهو عراق العرب وعراق العجم والحجاز المشرقي والصيكة أو سلم الرست.

وحاول الموسيقيون المغاربة منذ عهد الوطاسيين المرينيين تكملة النوب كما رأينا عند الموسيقار الحاج علي البطلة بإضافته نوبة الاستهلال المغربية الجديدة. ومنذ زمنه أضاف المغاربة إلى الميازين - وكانت أربعة - ميراثا جديدا هو الدرج نشأ عن الغناء الشعبي المردد في حلقات الذكر بالزوايا. وأضافوا إلى ذلك بعض الآلات الموسيقية، من ذلك الآلات النحاسية في بعض الجوق العسكرية بالموكب السلطاني. واستمرت الآلات الوترية وفي مقدمتها العود والقانون، والآلات النقرية وفي مقدمتها الدف والرق وأضيفت إليهما الدربوكة المغربية، وآلات النفخ وفي مقدمتها الناي والمزامير. والفضل الأول في تسجيل هذه الموسيقى الأندلسية المغربية يرجع إلى محمد بن الحسين الحائك الذي أثارته الحمية لما يخشى على تلك الموسيقى من الضياع لألحانها وأنغامها فانبرى سنة ١٢١٤ هـ/ ١٨٠٠ م لتأليفه فيها «كناش الحائك» مسجلا فيه نوبات تلك الموسيقى البالغة بنوبة الحاج علي البطلة إحدى عشرة نوبة والميازين الخمسة التي تتألف منها أجزاء النوبة، وطبوع هذه الميازين أو مقاماتها النغمية، ويذكر مع كل طبع أو مقام شواهد من عدة موشحات أندلسية ومغربية، وبذلك حافظت هذه الموسيقى على تلك الموشحات أو بعبارة أدق حافظ عليها الحائك، وبذلك كان عمله في كناشه مزدوجا فقد رسم فيه النظام الدقيق للموسيقى الأندلسية المغربية وحماه من الضياع كما أثبت فيه طائفة كبيرة من نصوص غنائية للموشحات الأندلسية والمغربية.

(د) المرأة^(١)

كانت المرأة المغربية تحظى بشعور كريم بكرامتها، كما كانت تحظى بغير قليل من الحرية، وهي حرة قلما حظيت بها أختها في المشرق، وكان لذلك أثره في الحياة السياسية والثقافية، ومن أوائل ما يلقانا من ذلك ما ذكرناه عن أم البنين الفهرية التونسية وتبرعها العظيم لبناء جامع

كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لحمد بن عبد الملك المراكشي (طبع الرباط).

(١) انظر في المرأة المغربية مواضع مختلفة في الجزء الأول من كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي للأستاذ عبد الله كون، والقسم الثاني من السفر الثامن من

القرويين بفاس الذى سرعان ما تحول إلى جامعة كبرى بفاس إلى اليوم . وكانت زوجة يوسف بن تاشفين سيدة حصيفة وكانت تدبر معه دفة السياسة والحكم ، وكان رأيها دائما صائبا وانتفع بها فى حياتها فى تثبيت حكمه وملكه . وكانت لا تقل عنها حصافة وشعورا ببلغة زينب بنت إبراهيم بن تافلويت زوجة تميم بن يوسف بن تاشفين حاكم غرناطة والأندلس ، وكانت تجيز الشعراء ، ولابن خفاجة الشاعر الأندلسى فيها قصيدة طنانة ، ولها أعمال بر كثيرة . وعلى شاكلتهما تميم بنت سيد المرابطين يوسف بن تاشفين كانت من أهل الخير والصدقات . ومن فضلياتهن حواء بنت أخى يوسف بن تاشفين ، زوجة سير بن أبى بكر الذى ظل واليا على إشبيلية سبعا وعشرين سنة حتى سنة ٥٠٧ وكانت تقيم فى قصرها ندوة أسبوعية تحاضر فيها شعراء إشبيلية وتنقد بعض أشعارهم ، وتسبغ عليهم جوائز وعطائنا كثيرة ، وللأعشى التطليل فى مدحها قصيدة بديعة مذكورة بترجمته فى كتابنا عن الأندلس . ومن السيدات الفضليات فى عهد الموحدين زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن سلطان الموحدين زوجة ابن عمها أبى زيد بن أبى حفص تتلمذت فى علم الكلام لأبى عبد الله بن إبراهيم الأصولى وكانت عالمة نابهة الشأن . ومنهن من سيدات الشعب خيرونة الأشعرية ولها فضل فى نشر المذهب الأشعرى بين نساء مراكش ، ومنهن فى علم الحديث مريم بنت أبى الحسن صاحب المدرسة بسبته ، ومن المتصوفات - وهن كثيرات - منية بنت ميمون الدكالية ، ومن الأديبات من بيت الحكام الموحدين رُميلة ، ومن سيدات الشعب أمة العزيز بنت أبى محمد بن الحسن النسيبة وحفصة بنت القاضى أبى حفص بن عمر وأم النساء بنت التاجر الفاسى وكانت أديبة شاعرة . ومن السيدات الفضليات النابات زمن المرينيين فى العلوم الدينية الفقيهة أم هانىء بنت محمد العبدوسى والفقيهة أم البين جدة الشيخ زروق ورحمة بنت الجنان والدة الشيخ ابن غازى وغيرهن كثيرات فى الفقه والحديث النبوى ، ومن الأديبات أم الحسن بنت أحمد الطنجالى وصفية العزفية من بيت العزفين وصيغ زوجة أحمد بن شعيب الجزائى ، واشتهرت فى الطب عائشة بنت الجيار السبئية . وبذلك لم يعد الطب خاصا بنساء بنى زهر كما كان الشأن فى عصر الموحدين ، فقد انتقلت معرفته والحذق فيه إلى النساء المغربيات فى العصر المرينى . ويذكر الوزان الذى زار منطقة درعة فى عصر الوطاسيين المرينيين نحو سنة ٩٢٠ هـ/١٥١٤ م أن نساءها يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدارس للفتيات والفتيان . وحرى بنا أن نذكر فى عهد الوطاسيين السيدة عائشة بنت على ابن راشد مخططة مدينة شفشاون لتحسين ناحيتها من نصارى سبته ، وقد تزوجت حاكم مدينة تطوان وتوفى فحكمت تطوان بعده وضبطتها خير ضبط وتصدّت لنصارى سبته بذكاء ودهاء وحسن سياسة وأعجب بشجاعتها السلطان أحمد الوطاسى فاقرن بها سنة ٩٤٨ هـ/١٥٤١ م .

ونلتقى فى عصر السعدين بسيدات فضليات كثيرات ، منهن سحابة الرحمانية السفيرة

إلى الآستانة بيشرى فتح تونس للدولة العثمانية طالبة جزاء حمل تلك البشارة مساعدة ابنها عبد الملك بككية عثمانية من الجزائر فى استعادة ملك والده وأجابتها الدولة العثمانية ، واستولى على صولجان الملك . وأبدت أخته مريم بسالة عظيمة فى قيادتها بقصبة مراكش لثلاثة آلاف جندى من الرماة تحقق بهم النصر لأخيها عبد الملك . واشتهرت مسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبي بأعمال خيرية كثيرة ، ومن منشآتها الخالدة بمراكش المسجد الجامع بباب دكالة ، واشتهرت بالعلم والتقوى عائشة بنت أحمد بن عمران والدة ابن عسكر المؤرخ المعروف . ومن السيدات الفضليات فى عهد السعديين العريفة بنت حجو ولها فضل فى تعليم الأسرة السعدية الصورة الحضارية للملابس والطعام والتعامل مع النساء إذ كانوا قد جاءوا إلى فاس من البدو . ومن السيدات الفضليات فى عصر العلويين السيدة خثانة بنت بكار زوجة السلطان إسماعيل ، وكانت فقيهة عالمة وأديبة بارعة ، وكانت حليفة تحسن إبداء الرأى وعرضه ، وكانت نعم الوزير لزوجها تشير عليه دائما بالرأى الصائب ، وحجت وأكثرت فى حجها من الصدقات وأعمال البر والخير ، توفيت سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م . ومن السيدات الفقيهات العالمات زوجة المختار الكتتى المتوفاة سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨١٠ م وكانت تدرس للنساء مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكي بينما كان زوجها المختار بن أبي بكر الكتتى يدرسه للرجال ، وترجم لهما فى كتاب واحد ابنهما محمد ، وسمى كتابه : الطارفة والتالدة فى مناقب الشيخ الوالد والشيخة والدة . ويذكر الأستاذ عبد الله كنون أنه كان هناك دائما معلمات فى مجال التعليم الأولى يعلمن البنات والأولاد الصغار الكتابة والقراءة والقرآن الكريم ومبادئ العلوم الضرورية ، ولم يكن يخلو حى فى المدن من دار فقيهة تنهض بهذا التعليم مما يدل على الدور العظيم الذى كانت تقوم به المرأة المغربية فى تعليم النشء ونشر المعرفة .

٤

المالكية - الصفريّة - المعتزلة - الظاهرية

(أ) المالكية

كان المغرب الأقصى يقتدى بإفريقية التونسية طوال القرون الإسلامية الثلاثة الأولى ، إذ كانت تعتبر الرائد للمغرب جميعه ، وكان علماؤها فى القرن الهجرى الثانى يرحلون فى كل عام لأداء فريضة الحج ، وكانت المدينة حتى زمن مالك تعد دار الفقه ، وكان مالك نفسه إماما كبيرا من أئمتة ، يلقي فيه دروسه ويؤلف فيه كتابه الموطأ ، فكان علماء إفريقية يقصدونه لأخذ الفقه عنه وأخذ كتابه الموطأ ، وخلفه تلاميذه المصريون - وفى مقدمتهم عبد الرحمن

ابن القاسم - فكان الطلاب يرحلون إليه ويتلمذون عليه كما رحلوا وتلمذوا على أئمة الفقه المالكي بعده في مصر . فكان ذلك سبب ازدهار المذهب المالكي في إفريقية التونسية ، وكان كتاب الموطأ قد حُمل إليها فكان يدرس فيها ويدرس معه كتاب في المذهب لتلميذه عبد الرحمن بن القاسم الذي فرّع فيه فروعا كثيرة . سماه المدونة وحملها عنه سحنون إلى تلاميذه في موطنه ونسبت إليه باسم مدونة سحنون . وأخذ التلامذة من تونس إلى المحيط الأطلسي يقدمون إلى القيروان للتلمذة على سحنون وأضرابه من حملة الفقه المالكي بعد وفاته سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م . وكانوا يعودون إلى مواطنهم في المغرب الأقصى فيدرسون للطلاب المذهب المالكي ويشيعونه بين الناس في بلدانهم ، وأظن ظنا أن إدريس منشاء الدولة الإدريسية ومن خلفه من أبنائه وأحفاده كانوا يدفعون رعاياهم في المغرب الأقصى بفاس وغير فاس إلى التفقه بمذهب مالك دون غيره من المذاهب لموقفه المعروف مع محمد النفس الزكية حين أعلن بمكة الثورة على المنصور ، إذ أفتى الناس بالتحلل من بيعه الخليفة المنصور ومبايعه النفس الزكية محمد بن عبد الله سليل الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ٢٤٥-٢٦٢ هـ / ٨٦٠ م وفي السنة التالية بعد القضاء على ثورة النفس الزكية استدعى جعفر بن سليمان وإلى المدينة مالكا وجردّه من ثيابه ، وضربه بالسياط عقابا على فتواه . وفرّ عقب إخفاق ثورة النفس الزكية عمه إدريس إلى المغرب الأقصى واستطاع تأسيس الدولة الإدريسية ، فكان طبعيا أن يرضى لمالك الفقيه الكبير فتواه لابن أبي شبيب ، وأن يدفع الناس والعلماء والطلاب إلى التفقه بمذهبه ، مما جعل المذهب المالكي يشيع هناك بقوة منذ القرن الثالث الهجري .

ونحن لا نصل إلى القرن الرابع الهجري حتى يصبح للمغرب الأقصى أعلامه في الفقه المالكي الذي يدرسه في المدن وفي القبائل المختلفة ، ومنهم أبو هرون البصري الذي أدخل كتاب ابن المواز الفقيه المالكي المصري إلى المغرب الأقصى لأول مرة وأيوب بن محمد فقيه المصامدة وأبي القاسم بن محرز فقيه المثلثين وعثمان بن مالك فقيه فاس ، وله تعليق على مدونة سحنون ، ودراس بن إسماعيل الفاسي تلميذ أبي بكر بن اللباد شيخ فقهاء المالكية بالقيروان في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، وله رحلة إلى المشرق حمل فيها من الإسكندرية كتاب ابن المواز ، وعبد الرحيم الكناشي تلميذ فقيه القيروان في النصف الثاني من القرن الرابع : ابن أبي زيد وأخذ عنه كتابيه : النوادر والمختصر . وينشط المغرب الأقصى في دارسة الفقه المالكي لعهد المرابطين ، وكانوا يعينون فقيها مالكيا مع كل والٍ للملاءمة الأحكام في عهده للشرع . وسنعود للحديث عن نشاط الفقه المالكي لهذا العهد في الفصل المقبل ، ويضعف هذا النشاط في عصر الموحدين لعنايتهم بنشر المذهب الظاهري ، وسنخصص هذه العناية بمحدث في غير هذا الموضع ، ويعود إلى المذهب المالكي نشاطه وازدهاره في العصور التالية حتى العصر الحديث .

(ب) الصفيرية^(١)

معروف أنه تولى المغرب من طرابلس إلى المحيط في القرن الأول الهجري ولاية عظام طبقوا فيه تعاليم الإسلام القاضية بالمساواة بين العرب وغيرهم من الشعوب التي دخلت في الإسلام ، وقد رأينا حسان بن النعمان (٧١ هـ / ٦٩٠ م - ٨٦ هـ / ٧٠٥ م) بعد انتصاره الحاسم على الكاهنة يُدخل من قومها في جيشه كتيبة من اثني عشر ألف رجل تجاهد مع العرب في سبيل الله ، وليس ذلك فحسب ، فإنه ولَّى أكبر أبناء الكاهنة على قومه في جبل أوراس وبذلك ملك قلوب المغاربة ودانوا له بالطاعة حتى المحيط ، وخلفه موسى بن نصير (٨٦ هـ / ٧٠٥ م - ٩٦ هـ / ٧١٤ م) فوضع التنظيم الإداري للمغرب وجعله خمس ولايات وخامستها هي المغرب الأقصى ماعدا السوس وجعل عليها واليا بربريا هو طارق بن زياد وعاصمتها طنجة ، فلم يعد هناك فارق بين أن يكون الولي لأى ولاية عربيا أو بربريا مغربيا ، وكلفه بأن يفتح إيبيريا ، فأعدَّ جيشا أكثره من البربر نحو اثني عشر ألف جندي ، وفتح الله له الجزء الجنوبي من إيبيريا ولحقه موسى بن نصير وأتما الفتوح معا . ومعنى ذلك أنه تم في عهد موسى بن نصير رفع جميع الفوارق بين العرب والبربر ، فقد أصبحوا جميعا متساوين في حكم الولايات وقيادة الجيوش والجهاد في سبيل الله ، وبذلك لم يصبح فتح الديار المغربية من برقة إلى المحيط فتحا حربيا ابتغاء المكاسب الدنيوية ، بل أصبح فتحا عقائديا لنشر الدين الحنيف وما ينبغى أن يستشعره أتباعه عربا وغير عرب من الأخوة في إعلاء كلمة الله .

ومُنيت الأمة الإسلامية بعد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز بخلفاء أمويين منذ السنة الأولى في القرن الثاني الهجري ليسوا في مستوى أمانة الحكم التي ينبغى أن يتحملوها ، فقد ولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، وسرعان ما ولَّى على المغرب يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج فتعسف مع البربر في جمع الضرائب ناسيا أن البربر أصبحوا رفقاء سلاح مع العرب ، فقتلوه . وتوالى في عهد أخيه هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ / ٧٢٣ م - ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م) ولاية ليسوا في مستوى المهمة ، كان آخر المتعسفين منهم عبيد الله بن الحبحاب فأرهنى المغاربة هو وعماله بالضرائب وبلغ من سفه عامله على طنجة أن أعلن أنه عازم على تخميس أراضي المغرب الأقصى أى أخذ خمسها للدولة . وبينما صَبَّرَ المغاربة يكاد ينفذ إذا بدعاة مذهبي الصفيرية والإباضية ينتشرون بينهم يدعونهم إلى الدخول في عقيدتهم التي تناقض عقيدة حكام بني أمية وترى في استيلائهم على الخلافة عدوانا على الأمة ، إذ ينبغى أن يكون اختيار الخليفة متحررا من كل قيد فلا يقصر على قريش ، بل يتولاها أشد الناس خوفا من الله وأكثرهم طاعة له وأحرصهم على الاستمساك بالدين وطاعة الله واتباع أحكام الإسلام ، ولو كان

(١) انظر في ملعب الصفيرية الملل والنحل للشهرستاني.

بريريا بل لو كان عبدا حبشيا . وأخذوا يحضونهم على كفاح بنى أمية وعملهم ووصفهم بالفسق والمعصية ، واستجاب جبل نفوسة فى طرابلس للإباضية ، بينما استجاب المغرب الأقصى للصفرية وكانوا أكثر تطرفا من الإباضية إذ كانوا يكفرون مرتكب الكبيرة ويوجيئون قتله ، وعدوا دار المسلمين دار حرب واستحلوا دماءهم وأموالهم وقتل نسايتهم وذريتهم . ومربنا حديث عن ثورتهم فى شمالى المغرب الأقصى بقيادة ميسرة رئيس مضغرة ثم خالد بن حميد الزناتى وانتصارهم على جيوش عبيد الله بن الحبحاب والوالى الأموى بعده كلثوم بن عياض القشيري ، ثم ما كان من انتصار الوالى الأموى حنظلة بن صفوان على جيشين صفرين ، وأخيرا انتصار أبى الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية على قبيلة وررجمومة الصفرية حين استولت على القيروان ونكلت بأهلها ، وفى أثناء ذلك ينسحب سمكون واسول إلى سجلماسة وينشئ بها دولة صفرية كما مربنا . ويبدو أن بقية المغرب الأقصى أخذت تنفر من عقيدة الصفرية ، وساعدت دولة الأدارسة الناس هناك فى القضاء عليها بتلك الأنحاء .

(ج) المعتزلة^(١)

كان واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال فى البصرة من أكبر الوعاظ فى عصره إن لم يكن أكبرهم ، وقد جعل للاعتزال أسسا خمسة ظلت قائمة فيه بعده ، وهى الوحداية صفة ثابتة لله ، بحيث لا يشبه المخلوقات بأى صورة فليس كمثله شئ ، وما جاء فى القرآن الكريم والحديث النبوى مما قد يفيد تشبيها يجب تأويله ، مثل (يد الله فوق أيديهم) فمعناها قدرة الله فوق قدرتهم ، ثم هو واحد فصافته مثل السميع ، البصير هى نفس ذاته . وأساس ثان أو مبدأ ثان هو العدل على الله ، ولذلك ينبغى أن يكفل لعباده ما هو أصلح لهم تحقيقا لسعادتهم . وأساس ثالث هو إنفاذ وعده للمؤمنين بأن لهم الثواب والنعيم المقيم والوعيد للكفار الآثمين بالعقاب وعذاب النار ، وأساس رابع هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ لا يحل لمسلم أن يسكت على جرم أو إثم ، وواجب عليه أن يأمر بكل ما هو خير . وأساس خامس هو أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر ، واختلفت فى ذلك الجماعة الإسلامية اختلافا كبيرا ، فكانت المرجئة تعده مؤمنا وأهل السنة يعدونه مؤمنا فاسقا والخوارج : الصفرية والأزارقة يعدونه كافرا إذ يرون العمل جزءا لا يتجزأ من الإيمان ، أما واصل فكان يجعله فى منزلة وسطى بين الإيمان والكفر . وكان ماينى يخطب فى شباب البصرة واعظا ومؤيدا آراءه بالحجج والأدلة العقلية ، وفتن به الشباب وأصبح له بينهم أتباع وأنصار كثيرون امتلأوا حماسة لدعوته الاعتزالية ، فرأى أن يتخذ منهم نفرا يتميز باللسن والفصاحة والخطابة والوعظ كما يتميز بالقدرة الجدلية على الدعوة للمبادئ الاعتزالية ، وفرقهم

وطبقات المعتزلة بتحقيق الأستاذ نواد سيد ص ٦٧ ، ١١٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ .

(١) انظر فى المعتزلة الملل والنحل للشهرستانى ص ٣١ وكتابنا العصر العباسى الأول ص ١٣٤ وفضل الاعتزال

على بلدان مختلفة من العالم الإسلامي ، وإلى ذلك يشير تلميذه صفوان الأنصارى فى مدحه له قائلا :

له خَلَفَ شعبَ الصَّيْنِ فى كلِّ ثَغَرَةٍ إلى سوسها الأقصى وخلفَ البرابرِ
رجالَ دَعَاةٍ لا يَفْلُ عَزِيمَهُم تهكُّمُ جبارٍ ولا كيدُ مآكرِ
وأوتادُ أرضِ الله فى كلِّ بلدةٍ وموضعُ قَتايها وعلمُ التشاجرِ

فهو قد أرسل دعائه الذين يفحمون خصومهم بالبراهين السديدة وَيَعْلُونَ عليهم كلما ناظروهم أو جادلوهم ويقول إن منهم دعاة تغفلوا فى بلاد البربر إلى منطقة السوس . وفى كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة أن واصلا أنفذ إلى المغرب تلميذه عبد الله بن الحارث فتبعه الخلق ، وفيه أن المعتزلة حاربت مع إبراهيم بن عبد الله أخى النفس الزكية حين ثار على أبى جعفر المنصور وأن بشيرا الرحال المعتزلى قتل معه فى موقعة باخمرا سنة ١٤٥ هـ وأن أبناءه لحقوا بالمغرب وغلبوا على مدن فيه أظهروا فيها دعوة الاعتزال . وفى الكتاب نفسه أن للمعتزلة فى بلد تدعى البيضاء مائة ألف يحملون السلاح يُعَرِّفُونَ بالواصلية ، وفيه أيضا أنهم كثيرون فى طنجة ، وأن رئيسهم هناك إسحق بن محمود بن عبد الحميد هو الذى أيد إدريس بن عبد الله مؤسس الدولة الإدريسية حين ورد عليه وأنه أدخله فى الاعتزال وكأن الدولة كانت دولة معتزلة ، وأظن فى ذلك ضربا من المبالغة وكانوا كثيرين فى بلاد إدريس الثانى ، ولعله كان يعطف عليهم لنصرة أسلافهم لإبراهيم بن عبد الله أخى النفس الزكية ، ونجد ابنه محمدا يبنى جنوبى مدينة القصر الكبير مدينة يسميها البصرة ، ولعله بناها لهم ذكرى لمدينة أستاذهم واصل بن عطاء ومرر بنا فى الجزائر حديث مماثل عن المعتزلة ، ولم يفكروا هنا ولا هناك فى دولة أو ما يشبه الدولة .

(د) الظاهرية^(١)

الظاهرية أو أصحاب المذهب الظاهرى ينسبون إلى أبى سليمان داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى المتوفى سنة ٢٧٠ للهجرة وكان فى أول أمره فقيها شافعيًا يتعصب لمذهب الإمام الشافعى تعصبا شديدا ، ثم استقل عنه وأسس له مذهباً سمي مذهب أهل الظاهر ، وهو مذهب أساسه إنكار القياس فى الفقه ومسائل التشريع ، لأن القياس عقلى والدين إلهى ولا يحتكم فى الإلهى أو ما هو إلهى إلى العقل أو ما هو عقلى ، ويكفى لبيان الأحكام التشريعية ما فى القرآن الكريم والحديث النبوى من عموم ، وتأسيسا على ذلك ينبغى الوقوف عند ظاهر الكتاب

ص ٣٥٤ وما بعدها ووفيات الأعيان لابن خلكان :
ترجمة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن .

(١) انظر النصوص الواردة فى المعيار للنشرى (طبعة
حجرية بفلس) ٣٦١/٢ ررض القرطاس لابن
أبى زرع ١٩٥ والمعجب للمراكشى (طبعة القاهرة)

والسنة وإغلاق الأبواب أمام القياس وجميع الآراء التي تُبنى عليه . وَكُتِبَ لهذا المذهب أن يتحمس له عقل أندلسي هو عقل علي بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ م وكان قد بدأ حياته الفقهية بدراسة مذهب مالك ثم تركه إلى مذهب الإمام الشافعي ثم أثر على مذهبيهما مذهب داود الظاهري ، ولابن حزم في الاحتجاج له ضد الأحناف والشافعية كتاب الإبطال للأصول الخمسة التي يأخذون بها ، وهي القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل ، فكل ذلك يجب إبطاله والاكتفاء بالكتاب والسنة .

وقد ازدهر هذا المذهب الظاهري في عصر دولة الموحدين ، إذ كانت تتخذه مذهبا فقهيا لها من دون المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة لمالك وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل ، وحاول الأستاذ عبد الله كنون في الجزء الأول من كتابه : « النبوغ المغربي في الأدب العربي » الاستدلال بأن خلفاءهم أو حكامهم كانوا يدعون إلى الاجتهاد كأنه بذلك يريد نفى اعتناقهم لعقيدة الظاهرية ، ولا نستطيع أن نبتل شهادات القدماء الكثيرة بأن الموحدين كانوا ظاهرية ، من ذلك أن الوثائقي في كتابه المعيار نعت ابن تومرت بأنه ظاهري وأن ابن أبي زرع في روض القرطاس في سنة خمسين وخمسمائة يقول إن عبد المؤمن أمر بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث أي أنه أمر بتحريق كتب المذاهب الفقهية الأربعة والاكتفاء بكتب الحديث ومعها القرآن طبعاً وهي نفس نظرية المذهب الظاهري ، وفي المعجب يقول الحافظ أبو بكر بن الجذ : « لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب (يوسف) أول دخلة دخلت عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس (في الفقه المالكي) فقال لي : يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله ، أرايت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيهما يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أئين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لي - وقطع كلامي : يا أبا بكر : ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه ، أو السيف » . ويذكر صاحب المعجب أن ابنه يعقوب المنصور أمر بحرق كتب المذاهب الأربعة لمالك وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله ﷺ والقرآن ففعل ذلك ، فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبراذعي وواضحة ابن حبيب وماجانس هذه الكتب ونحوها . ولقد شاهدت - أنا يومئذ بمدينة فاس - يوتى منها الأحمال فتوضع وتطلق فيها النار « ويعلق صاحب المعجب على ذلك بقوله : « كان قصده في الجملة نحو مذهب مالك من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث » ويقول ابن خلكان : « إنه أمر

برفض فروع الفقه كما أمر الفقهاء بأن لا يفتوا إلا بالكتاب والسنة النبوية ولا يقلدوا أحدا من الأئمة المجتهدين القدماء بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم . ولعل فى ذلك كله ما يثبت ثبوتنا قاطعا أن دولة الموحدين كانت تعمل على نشر المذهب الظاهرى وتأمير العلماء برفض ماعده من المذاهب ، وبحق يقول عبد الرحمن الفاسى فى كتابه بيوتات فاس : « إن ملوك الموحدين قد تحلوا بالمذهب المعروف لهم من إنكار الرأى فى الفروع الفقهية والعمل شرعا على محض الظاهرية ، وجرؤا على ذلك سنين بطول إيااتهم (حكمهم) إلى أن انقرضوا ، أولهم فى ذلك مهديهم (ابن تومرت) أول ملوكهم» . وبمجرد أن انتهت دولة الموحدين عاد المذهب المالكى فى المغرب الأقصى إلى النشاط والازدهار حتى اليوم .

٥

الزهاد - المتصوفة

(أ) الزهاد

المسلمون من قديم - يستشعرون الزهد فى حطام الدنيا ومتاعها الفانى أملا فى السعادة بالدار الآخرة يوم القيامة ، يوم يحاسب كل امرئ على ما قدمت يده ، فإن كان عمله صالحا وازدرى الدنيا وأقبل فيها على الزهد والتقشف كان جزاؤه من ثواب الله موفورا وسعد فى آخرته السعادة الكبرى . وكان ذلك شعار الصحابة فى الفتوح ، فهم لا يفتنحون البلاد طلبا للمغانم وإنما لإعلاء دين الله ، ودائما نسمع بينهم عن كثير من الأتقياء ، فالآخرة هى التى تهيمهم ، ولم يكونوا زاهدين زهدا متطرفا ينسيهم الدنيا والعمل فيها ، بل كان غالبا زهدا معتدلا يعتد بالمصالح الدنيوية مع الاتجاه إلى الله ، مما جعلهم ينفقون أموالهم فى أعمال البر وعون الفقراء . ونجد هذا الزهد شائعا فى العالم الإسلامى . وقليلًا قليلًا أخذ أناس يستشعرون الزهد الخالص ، ويعيشون له منقطعين لعبادة ربهم ، ويمكن أن نجد أمثلة منهم فى جبال المغرب الأقصى الكثيرة حيث يعيشون على ما بها من ماء وثمار . وكان بين فقهاء المدن وأهلها أيضا كثيرون من هؤلاء الصلحاء الزهاد ، ونضرب مثلا لهم القاضى ابن محسود^(١) الحواري وكان من قضاة العدل وأئمة الفضل زاهدا فى الدنيا مقبلا على الله تعالى على قدم التجريد ، ولما مات لم يترك غير سجادة مصلاه وقعب يتوضأ فيه ومصحفه الذى كان يتلو فيه كتاب الله . ونضرب مثلا ثانيا بالتاجر محمد بن إبراهيم المهدوى الفاسى الزاهد صاحب كتاب الهداية الذى أقام بجامع القرويين أربعين سنة لم تفته فيها صلاة جماعة ، وكان يملك أربعين ألف

حرزهم وعثمان السلاجى ويسكر . ومن مراجع تراجمهم الشوف وجذرة الاقباس وسلوة الأنفاس .

(١) انظر فيه وفيمن يليه من الزهاد القرطاس لآين أبى زرع ص ١١٧ ، ١٧٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠-٢٧٢ وفى هامش القرطاس مع ابن محسود وأبى جيل وابن

دينار أنفقها كلها في سبيل الخير ، وأصاب أهل مدينته : فاس مجاعة وكان عنده ألف وسق (حمل بعير) من تمر فباعه كله للمحتاجين الضعاف بوثائق وأحرهم بالثمن إلى أجل ، فلما حل الأجل استدعاهم إلى منزله ، فرمى بالوثائق جميعا في الماء ، وقال لهم : أنتم منها الآن في حل ، فأني ما بعت لكم ولا أعطيتكم إلا مال الله تعالى . ويتعش الزهد في عصر المرابطين ، ونشر إزاء كثيرين من زهاد هذا العصر أنهم كانوا مقدمات لانتشار نزعة التصوف في المغرب الأقصى مثل أبي جبل المتوفى سنة ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م وكان كثير السباحة في الأرض . ويتكاثر الزهاد في عصر الموحدين مثل ابن حرزهم المتوفى سنة ٥٥٩ هـ وأبي عبد الله السلالجي الأصولي المتوفى سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ومثل يسكر الغفجومي المتوفى سنة ٥٩٨ هـ وكان ورعا فاضلا ومثل أبي عبد الله المعروف بابن تخميس المتوفى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م وكان كثير الورع شديد الانقباض عن الناس . ويكتظ كتاب الشوف إلى معرفة رجال التصوف لابن الزيات يوسف بن يحيى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م بكثيرين من الزهاد ، ألفه سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م وهو يشتمل على مائتين وسبع وسبعين ترجمة أكثرهم من أهل مراكش ، غير أنه لم يترك بلدا في المغرب الأقصى إلا ذكر منها رجلا ، ويسميه في مقدمته صلحاء ، وهم في جمهورهم زهاد ونسك المغرب الأقصى حتى زمنه . وحرى بنا أن نذكر أن الشعراء أخذوا يفردون للزهد بابا في دواوينهم على نحو ما نجد عند أبي الربيع الموحدي . وكما يقفنا كتاب الشوف على الزهاد في عصر الموحدين نجد عبد الحق بن إسماعيل يؤلف في العهد المريني بأخرة من القرن السابع كتابا عن صلحاء أو زهاد الريف ، وفي الجزء الثاني من كتاب الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى للأستاذ محمد بن تاويت تحليل له ، وهو يرمز إلى اطراد الزهد في عصر المرينيين ، وظل مطردا في عصر السعديين ويذكر الأستاذ كون منهم الهبطي الطنجي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م وينقل عن الدوحة أنه كان آية من آيات الله تعالى في الزهد واتباع السنة والانزواء عن الدنيا وتعليم العلم ، ومثله ابن خجوة المتوفى سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م ويظل للزهد رجاله المشهورون في عصر العلويين .

(ب) المتصوفة

من قديم أخذ كثيرون من زهاد الأمة وأتقيائها يبالغون في نسكهم فارضين على أنفسهم تلاوة القرآن وذكر الله وتسيحه ، كما فرضوا على أنفسهم المبالغة في التوكل على الله والثقة به ، ثقة تملأ النفس طمأنينة . ومع مرور الزمن أخذ كثيرون من هؤلاء الواقفين المتوكلين يهتمون بأمور الدنيا ومعاشهم ، فهم لا يهتمون بكسب القوت ، لأن السعي له يفضي إلى فقدان التوكل والثقة في الله ، ومع الزمن أخذوا ينبذون طيبات الدنيا ومباهجها مرددين قول الرسول ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الظير تغدو خماصا (جائعة) وتروح بطانا (ممتلئة) » . وأخذ هذا التعمق في التوكل والثقة بالله يتحول تدريجا إلى نزعة التصوف ،

ويقال إن مؤسسها هو الحارث بن أسد المحاسبي البغدادي المتوفى سنة ٢٤٣ هـ/٨٥٧ م ويقال بل مؤسسها الذي أودع فيها فكرة الحب الإلهي ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م . ولم يلبث أن ظهر الخلاج في مطلع القرن الرابع الهجري وظهر معه التصوف الفلسفي وكل ما يتصل به من أفكار الحلول والاتحاد مع الله ، وتظل أفكاره تشيع بين المتصوفة وتكون سببا في القطيعة بين الفقهاء والمتصوفة إذ يرمونهم بالكفر إلى أن ظهر القشيري والغزالي في القرن الخامس الهجري ، وأصلحا ما بين الفئتين ، وانقسم التصوف منذ هذا التاريخ إلى تصوف فلسفي به إشاعات من أفكار الخلاج ، وتصوف سني أخذت تتكون فيه وتشيع طرق صوفية سنية مثل طريقة عبد القادر الجيلاني وأحمد الرفاعي . وأخذت الأندلس تتأثر بالتصوف على نحو ما هو معروف عن ابن مسرة ، وبعده عند ابن برجان وابن العريف ، ثم عند الشاذلي وابن عربي وابن سبعين والششتري على ما نحو ما أوضحنا ذلك في كتابنا عن الأندلس . أما المغرب الأقصى فإنما شاع فيه التصوف السني وما يمثله من مثل طريقة أبي الحسن الشاذلي .

وأول ذكر لمتصوفة المغرب نجده عند بعض من ترجموا لنسائه ، وكان جمهورهم - في رأيي - ناسكا يقصرون حياتهم على النسك والعبادة ، ومنهم كما جاء في كتاب النبوغ المغربي ابن حرزهم على بن إسماعيل المذكور بين الزهاد . وقد تعلم على يديه أبو مدين الصوفي المشهور وقرأ عليه كتاب الرعاية للمحاسبي . ونظن أنه كان عبدا ناسكا فحسب ، إذ يقول مترجمو أبي مدين أنه أخذ التصوف عن أبي عبد الله الدقاق الصوفي لا عنه . ومنهم أبو العباس السبتي المتوفى سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م ، وكان لا يترك لنفسه شيئا إلا قدر ما يقوته هو وأسرته في يومه والباقي يتصدق به ، وكان ناسكا ورده القرآن يتلوه آتاء الليل وأطراف النهار ، وكان باراً باليتامى والمساكين . وهي حياة زاهد في رأيي لا صوفي . ومثله عبد السلام بن مشيش الحسني وكان تقيا صالحا عالما ، وسأله سائل عن أوراد يعمل بها ظانا أن له وردا مثل الصوفية ، فقال مستنكرا أرسول أنا؟ الفرائض مشهورة ، والمحرمات معلومة ، فكن للفرائض حافظا وللمعاصي رافضا واحفظ نفسك من ابتغاء الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإثارة الشهوات واقنع بما قسم الله لك ، وهي إجابة زاهد لا صوفي ، وإن كان قد درس على يديه الشاذلي صاحب الطريقة الصوفية المشهورة . ومثله أبو الحسن المسفر معاصره وإن كان قد ذكر ابن عربي أنه لقيه في كتابه « محاضرات الأبرار » لأن مجرد لقاء ابن عربي له لا يدل حتما على أنه صوفي ، إنما هو ناسك . وربما كان الصوفي الحقيقي في عصر الموحدين يلنور بن ميمون أبو يعزى^(١) المتوفى سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦ م عن مائة وثلاثين سنة ، أمضى منها عشرين سنة سائحا في الجبال بمنطقة مراکش ، ثم رحل إلى ساحل المحيط فأقام به ثمانين سنة لا يأكل إلا من نبات

(١) انظر في أبي يعزى روض القرطاس ص ٢٦٧ وجذوة الاقتباس لابن القاضي ص ٣٥٤ .

الأرض . وإنما نرجح أنه كان صوفيا لأن مترجمي أبي مدين الصوفي المشهور يقولون إنه سلك الطريقة الصوفية على شيخ المشايخ أبي يعزى إلى أن وصل وحقق وأدرك ، ومن الصوفيين المشهورين في عصر المريتين الشيخ زروق^(١) المتوفى سنة ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ م وله نحو عشرين مؤلفا في التصوف منها قواعد التصوف وعدة المريد وعلى شاكلته أحمد الصومعي في عصر السعديين وله في أبي يعزى كتاب بعنوان : المعزا في مناقب الشيخ أبي يعزى وعدة مؤلفات أخرى في التصوف .

ونحن لا نصل إلى القرن التاسع الهجري في التصوف حتى يصيبه في المغرب الأقصى ما أصابه في البلاد الإسلامية الأخرى من كثرة المدّعين الجهلاء له ، وزعمهم أنه لا يحتاج إلى دراسة إذ تكنى فيه المعرفة الروحية الربانية ، وتخلي كثيرون منهم عن فروض الإسلام ونوافله ، فحسبهم العبارات والشعائر التي يأخذونها عن شيوخهم ، وأباحوا لأنفسهم كل المتع مقيمين لأنفسهم حفلات ذكر يتواجدون فيها وقد يشقون ثيابهم ويمزقونها بتأثير ما يسمعون من أغان على الذكر تصور الوجد الملتاع . وكان الناس يكبرونهم إذ يزعمون لهم أن بينهم القطب الذي اختاره الله ، كما يزعمون أن بينهم أربعين واصلين مثله يسموهم الأوتاد ، وإذا مات القطب حل أحد الأوتاد محله . وما زاد في خروج الصوفية عن الجادة وتجاوزهم لحدود الشرع انتشار مذهب الملامية^(٢) الإيراني بينهم وهو مذهب كان معتقوه يصنعون كل ما يوجب اللوم لهم مما يعد محرما ومخجلا لأقصى درجة ، إذ يرون أن يشتهروا بين الناس أنهم لا يؤدون شعائر الدين وفروضه ، وإن أدوها فعلا ، كما يريدون أن يقنعوهم بأنهم لا يتمسكون بنواهيه ، حتى يذمهم الناس أشنع ذم ، وحتى يحتقروهم إلى أقصى حد ، وهم بذلك ملامية أى أهل الملامية ، تأخذ بهم من كل وجه ، ولذلك حاربت الدولة العثمانية هذه الجماعة بالجزائر في عهد الدولة السعدية أشد حرب حتى كادوا يقضون عليها . وللمنصور الذهبي رسالة إلى السلطان مرادخان العثماني يهتته بالقضاء على تلك الفئة ، وحاربها هو في المغرب الأقصى ومن خلفوه من السعديين ولكن يظهر أنهم لم يستطيعوا القضاء عليها قضاء مبرما .

على كل حال كان انتشار مذهب الملامية في المغرب الأقصى من أسباب انحراف التصوف والصوفية ، مما جعل كثيرين من العلماء يذمون ما آل إليه من تخطى الشريعة والخلق الحميد ، ويدعون إلى محاربة البدع التي شاعت فيه ، ويدعو إلى ذلك بعض الصوفية والنسك المتمسكين بأوامر الدين ونواهيه مثل الهبطي الطنجي المار ذكره فإن له ألفية بناها على النصيح والإرشاد وحمل فيها حملة شديدة على متصوفة عصره وما يرتكبون من المنكرات .

(١) راجع في الشيخ زروق كتاب النبوغ المغربي ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
(٢) انظر في الملامية كتاب الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ٣/ ٦٩٠ وما بعدها وراجع تاريخ الأدب العربي في إيران بالجزء الخامس من هذه السلسلة ص ٥١٧ ..

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة العلمية

(أ) فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون

مرّ بنا - في الحديث عن الثقافة بالجزائر - أن فتوح العرب للمغرب حوّلت بعد قرن واحد إلى شعب عربي ، وقد نزل الفينيقيون دياره وظلّوا به نحو ستة قرون أو تزيد ، ولم يستطيعوا تحويله إلى لغتهم وحضارتهم ، وبالمثل ظلّ به الرومان ستة قرون أخرى - وخلفهم البيزنطيون نحو قرن - ولم يستطيعوا أن يحولوه إلى لغتهم ودينهم المسيحي وحضارتهم . وكأنما كانت هناك معجزة هيأت للمغرب - مهما اختلفت أقطاره وتباينت - هذا التحول إلى العرب والعروبة ، وليست المعجزة إلا أن العرب الفاتحين لم يكونوا يبتغون النهب والسلب لخيرات الأرض المفتوحة ، إنما كانوا يبتغون نشر الدين الخفيف ، مما جعل جماهيرهم تستحيل إلى معلمين يحفظون المغاربة بعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض مبادئ العربية وبعض تعاليم الإسلام . ومن تمام هذه المعجزة أن المغاربة وجدوا هذا الدين السّماح يسوّى بين حملته الفاتحين وبين الشعوب المفتوحة ، فلا سيد ولا مسود ولا استنزاف لخيرات البلاد ، والجميع عربا وبربرا متساوون في الحقوق والواجبات فأخذوا يدخلون فيه أفواجا : فوجا وراء فوج .

وكان هذا الدين الخفيف يدعو بقوة إلى العلم والتعليم ، ومعروف أن أول ما أنزل منه على الرسول ﷺ : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فالدعوة إلى العلم والتعليم تقتزن بأول ما نزل من الذكر الحكيم . ويشيد القرآن بالعلم والعلماء مرارا في مثل : ﴿وقل رب زدني علما﴾ ومثل : ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ . ولذلك لا نعجب إذا رأينا الفاتحين في الأقطار المغربية يتحولون إلى معلمين للشعوب البربرية ، يعلمونها مبادئ الإسلام والعربية ، ويتجرد منهم كثيرون للجلوس في غرف ملحقة بالمساجد أو في المساجد نفسها لتعليم القرآن وسموها الكتاتيب ، وكانوا يلقون عليهم فيها بعض الأحاديث النبوية وبعض الأشعار .

وأخذ كثيرون يتجردون لإلقاء المواعظ في المساجد وتفسير بعض السور والآيات الكريمة وذكر بعض الأحاديث النبوية مع شيء من التعليق عليها وبعض الأحكام الفقهية . وبذلك نشأ

التعليم فى الأقطار المغربية - مثل بقية الأقطار العربية - معتمدا على الكتاتيب لتعليم الناشئة وعلى المساجد ليتلقى فيه من يكبرونهم دروساً فى التفسير والحديث والفقه والعربية ، وتمضى هاتان الصورتان من التعليم ، حتى إذا كنا فى القرن الخامس أخذت تنضم إلى الكتاتيب والمساجد مؤسسة جديدة هى المدارس والمعاهد ، ويتنافس معلموها أو شيوخها وشيوخ المساجد ، مما أثرى الحركة العلمية ، حتى إذا كنا فى القرن الثامن الهجرى أخذت تظهر مؤسسة ينافس شيوخها شيوخ المدارس والمساجد ، وهى مؤسسة الزوايا ، وحرى أن نخص كل دار من هذه الدور العلمية بكلمة .

(ب) دور العلم : الكتاتيب - المساجد - المدارس - الزوايا - المكتبات

الكتاتيب

انتشرت الكتاتيب - منذ القرن الأول الهجرى - فى كل بلد وقرية كبيرة أو صغيرة فى الوديان وعلى سفوح الجبال ، ويقول ابن خلدون بمقدمته فى الفصل الخاص بتعليم الناشئة فى الكتاتيب « إن هذا التعليم شعار من شعائر الدين أخذ به المسلمون ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده عن طريق آيات القرآن وبعض متون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذى يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات » . ثم يقول : « إن مذهب أهل المغرب (الأقصى) الاقتصاد على تعليم القرآن فقط وأخذ الناشئة فى أثناء دراسته يرسم ألفاظه ، ويقول إنهم لا يخلطون ذلك بتعليم شىء من حديث أو فقه أو شعر حتى تجاوز الناشئة حد البلوغ إلى الشبيبة (الشباب) ، بخلاف أهل إفريقية التونسية فإنهم يخلطون فى تعليمهم للناشئة القرآن بالحديث فى الغالب ومدارسه قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها .

فالكتاتيب فى المغرب الأقصى إذن لم تكن تعنى بشىء سوى تحفيظ القرآن وتعليم رسم الآيات وما يتصل بذلك من الخط ، ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن الكتاتيب بفاس إن بها مائتى كتاب ، ويشتمل كل كتاب على قاعة كبيرة مع درجات تستخدم كمقاعد للأطفال ، والمعلم يعلمهم القراءة والكتابة لا فى كتاب معين ، وإنما يستعين بالواح خشب كبيرة تكتب عليها الناشئة ما تحفظه من الآيات . ويختم الناشء القرآن فى نحو سبع سنوات ، ويعلمه المعلم الخط ، وحينما يصل إلى إجادة جزء لا بأس به من القرآن يقدم أبوه هدية لمعلمه ، وحينما يختمه يصنع أبوه وليمة فاخرة لكل زملائه فى الكتاب ، ويقدم لمعلمه كسوة جديدة . ويقول الوزان إن للناشئة - مثل طلاب المعاهد - يومين فى الأسبوع للراحة لا يختلفون فيها إلى الكتاتيب .

ويذكر الأستاذ كنون - كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع - أن المرأة المغربية هي التي كانت تقوم في ميدان التعليم الأولى بتعليم الناشئة ذكورا وإناثا ، وأنه لم يكن يخلو حَيَّ من دار معلمة وتسمى فقيهة ، ويذكر الحسن الوزان عن مدينة في إقليم نوميديا أن النساء فيها هن اللاتي يعلمن الأولاد ذكورا وإناثا حتى سن الثالثة عشرة ، ويبدو أن ذلك كان سنة متبعة في المغرب الأقصى جميعه من قديم .

المساجد

كانت الناشئة حين تنجز حفظها للقرآن الكريم تتجه إلى حلقات الشيوخ في المساجد لتلقى ما يُلقى بها من تفسير للذكر الحكيم ورواية للحديث النبوي وتعاليم للشريعة ودراسات للعربية وتاريخ للرسول والأمة العربية . وكان القائمون على الدروس في هذه الموضوعات يختلفون ، فمنهم من يعطى مبادئ في هذه الدراسات ، ومنهم من يعطى دروسا متعمقة لمن ثقفوا المبادئ واستوعبوا وخاصة في الجوامع الكبيرة بكل بلدة . وكانت هذه الجوامع تعد مراكز الإشعاع الفكرى في كل مكان ، ولتقى بها في كل بلدان المغرب الأقصى الكبرى مثل سبتة وطنجة وأصيلا وتازة وسجلماسة . ويذكر الحسن الوزان أن في فاس ستمائة مسجد منها خمسون كبيرة جميلة البنيان مزدانة بالأعمدة والنسيفساء والخشب المنقوش مع تبليطها بالرخام أو ما يشبهه من الميورقي .

وفصل الحسن الوزان الحديث عن جامع القرويين بفاس الذى بُنى في عهد الدولة الإدريسية سنة ٢٤٥ هـ / ٨٦٠ م ويُعد أقدم جامعة علمية في العالم العربي . وعلى نحو ما أحدث الأضر في القاهرة من نهضة علمية في مختلف العصور كذلك أحدث جامع القرويين نهضة مماثلة لا في فاس وحدها بل في المغرب الأقصى جميعه . ويذكر الوزان أن محيط هذا الجامع يبلغ ميلا ونصفا وأن له واحدا وثلاثين بابا كبيرا عاليا ومنارته عالية جدا ويوقد فيه كل ليلة ستمائة سراج ، وعلى طول الجدران كراسي من مختلف الأنواع ، يلقي منها طائفة من الأساتذة على الشعب محاضرات روحية في أمور دينه وشريعته . وكانت تبدأ هذه المحاضرات بعد صلاة الصبح وتنتهى بعد شروق الشمس بساعة . وقد ألف الدكتور عبد الهادى التازى عن هذا الجامع موسوعة كبيرة تحدث فيها بالتفصيل عن جوانبه المعمارية والثقافية ومكانته في العلم والفكر المغربيين في مختلف الأزمنة . وعلى نحو ما ذكر الحسن الوزان من تفصيلات عن جامع القرويين دون تفصيلات مماثلة عن جامع على بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين بمراكش وقد هدمه عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين وشيّد مكانه جامعا آملا أن يشيع عليه اسمه محل اسم على بن يوسف ولكن الناس ظلوا يسمونه باسمه القديم ، وبني عبد المؤمن جامعا بجوار قصبة مراكش ، وقد اعتنى به حفيده يعقوب وزينه بأعمدة جلبها من الأندلس ، وشيّد له منارة في منتهى

الروعة كمنارة الخير الدا التي شيدها فى جامع إشبيلية ،وترى زوجته بعد أن شيدها أن تبعد حليها الذهبية الخاصة وما تملك من أحجار كريمة وكل ما قدمه لها زوجها عند اقترانه بها ، وتأمّر - كما ذكرنا فى غير هذا الموضع - أن يصنع بثمانها جميعا ثلاث تفاحات ذهبية تعلق قمة المنارة ليكمل رونقها . وطبيعى أن تزدهر الدراسات الدينية واللغوية بهذين الجامعين فى عصر الموحدين وبعدهم وأن ينافسوا جامع القرويين فى الحركة العلمية ، وتنافسهم معها الجوامع الكبرى فى سجدلماسة وتارودنت ومكناس وتازة وسبتة وطنجة وأصيلا وسلا . وكانت لهذه الجوامع أوقاف تدرّ عليها ما ينفى بالنفقة على شيوخها وتلاميذها .

المدارس

معروف أن أول من أشاع نظام المدارس فى المشرق نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ) إذ شيد طائفة منها فى بلدان مختلفة بالعراق وإيران ، ووقف على كل مدرسة أوقافا كثيرة تنفى بنفقات أساتذتها وطلابها ومكثباتها وعيّن فى كل مدرسة أستاذة فى مختلف العلوم الدينية واللغوية والرياضية وكانت كل مدرسة من هذه المدارس تسمى بالنظامية ، وأشهرها نظامية بغداد ، وقد زارها ابن بطوطة سنة ٧٢٧ ووصف ما بها من الحياة العلمية . وطاروت شهرة هذه المدارس النظامية فى العالم الإسلامى منذ تأسيسها ، ونرى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين الحضيف (٤٥٣ - ٥٠٠ هـ) يؤسس بمدينة فاس مدرسة عُرفت - كما يقول الأستاذ كتون فى النبوغ المغربى - باسم مدرسة الصابرين .

ونظن ظنا أنه لا بد أن شيد مدرسة ثانية فى عاصمته مراكش . فإذا تحولنا إلى عصر الموحدين وجدنا الأستاذ المنونى يذكر فى كتابه : « حضارة الموحدين » : أن عبد المؤمن مؤسس الدولة أسس فى مراكش مدارس ، منها مدرسة لإعداد الموظفين فى الدولة ، ومدرسة خاصة بتعليم أمراء الموحدين ، وأسّس مدرسة بالرباط لتعليم فن الملاحة ، وعُنى حفيده يعقوب الموحدى بتأسيس المدارس لا فى المغرب الأقصى فحسب ، بل أيضا فى إفريقيا التونسية والأندلس . ويتحدث الحسن الوزان عن مدرسة شيدت فى عهد الموحدين - ولعلها شيدت فى عهد يعقوب - بقصبة مراكش ويقول إنها أشبه بمؤسسة ، إذ يلحق بها مساكن للطلاب ، وفى رأى أنه كان بها مساكن أيضا للأستاذة . ويقول إنها تشتمل على ثلاثين غرفة وفى الطابق الأرضى قاعة كانت تُلَقّى فيها الدروس فى الماضى ، وكان التلميذ فى هذه المدرسة يُعَفّى من المصاريف ، ويُعطى كسوة ، وكان الأستاذة يتقاضون راتبا شهريا فيها بين مائة ومائتى دينار حسب طبيعة الدروس التى يقومون بها . ويذكر أن مبنى المدرسة كان مزينا بالفسيفساء البديعة وزخارف متنوعة . ويقول الوزان إنه كان بها فى الماضى عدد كبير من الطلاب ، وقلوا الآن أى فى القرن العاشر الهجرى قلة شديدة ، ويقول فى القصبة قصر مزخرف كان مدرسة لأبناء الخليفة

وأبناء أسرته . وبأخرة من عهد هذه الدولة نجد المحدث الكبير أبا الحسن الشاربي السبتي المتوفى فى سنة ٦٤٩ يشيد مدرسة بسبته ويقف عليها من خيار أملاكه وعقاراته ما يفى بالإتفاق عليها ، ويلحق بها مكتبة نفيسة .

واتسع تشييد المدارس وتأسيسها فى عهد الدولة المرينية ، ويقول ابن مرزوق فى كتابه عن السلطان أبى الحسن المرينى المسمى بالمسند الصحيح أن السلطان عثمان أبا سعيد والد أبى الحسن أنشأ بفاس مدرستى العطارين والمدينة البيضاء الملحقه بفاس وأن أبا الحسن ابنه أنشأ مدرسة الصهريج فى الشطر الأندلسى ومدرسة داخل جامع القرويين فى الشطر المقابل وتعرف باسم مدرسة مصباح أول أساتذتها ، وأنشأ مدرسة ثالثة فى الوادى كما أنشأ فى كل بلد من بلدان المغرب الأقصى وما تبعه من بلدان المغرب الأوسط (الجزائر) مدرسة : فى مكناس وتازة وسبته وأنفة وأزمور وأسفى وأغمات ومراكش ووقف عليها أوقافاً كثيرة وألحق بها مكتبات نفيسة . ويقول الحسن الوزان بأخرة من عهد المرينيين إن فى فاس وحدها إحدى عشرة مدرسة ، وقد تحوى المدرسة مائة غرفة أو أكثر ، ولجميع الأساتذة رواتب ممتازة ، ويذكر أن بمكناس ثلاث مدارس وكذلك بتازة ، ويذكر طريقة التعليم فى تلك المدارس لمعهد ، فيقول إن الأستاذ يكلف تلميذا فى بدء الدرس بقراءة النص ، ثم يأخذ فى تفسيره وبيان دلالات كلمه مضيفا إليه بعض آرائه مع بيان ما يوجّه إلى النص من اعتراضات ، ويتحاور الطلاب ويتناقشون فى معانى النص ودلالاته ، ويشترك الأستاذ معهم فى المناقشة والحوار . وواضح أنه لم ينته العصر المرينى إلا وكان المغرب الأقصى فى أواخر هذا العصر قد اكتمل بالمدارس وبما تخرج من شباب العلماء فى كل فن وعلم ، ولعل هذا ما جعل المؤرخين لا يعنون بالحديث عما أنشأ السعديون والعلويون فيما بعد من مدارس إذ كانت سنة أوفريضة متبعة .

الزوايا

لم يكن المغرب الأقصى يعرف الزوايا المتعلقة بالمتصوفة والنسك قبل القرن السابع الهجرى إذ كان يطلق عليها اسم أربطة جمع رباط مثل رباط عبدالله بن ياسين الذى تنسك فيه مع بعض رفاقه كما مرّ فى حديثنا عن قيام دولة المرابطين . وربما كانت أول زاوية عرفها المغرب الأقصى زاوية أبى محمد صالح التى أقيمت فى منتصف القرن السابع الهجرى بمدينة آسفى على المحيط : ويقال بل كانت تسمى رباطا وأن الزوايا إنما أخذت تعرف بالمغرب الأقصى فى القرن الثامن الهجرى على نحو ما يذكر ذلك ابن مرزوق فى كتابه عن السلطان المرينى أبى الحسن وإنشائه الزوايا ، ومع ذلك لم يذكر له زاوية أنشأها ، وذكر زاوية أبى زكريا يحيى بن عمر بسلا .

وفى كتاب الشعر الدلائى للسيد عبد الجواد السقاط زاوية أسست بدرعة فى القرن الثامن

المجری باسم زاوية سيد الناس محمد ﷺ . وأخذت الزوايا تتكاثر فى المغرب الأقصى منذ القرن العاشر المجرى حينما ضعفت الدولة المرينية وأخذ البرتغاليون والإسبان يستولون على أطراف المغرب الأقصى على المحيط والبحر المتوسط وكأنا المغاربة يشوسوا من الدولة وحكامها ، فأخذوا يلتفون حول شيوخ التصوفة أملين أن يجدوا بينهم من يصلح أحوال البلاد ومن يحسن قيادتهم ضد أعدائها الخاسئين ، وأسهموا بقوة فى بناء الزوايا بكل بلدة ، وكانت الزاوية تضم الشيخ ومريديه ، وأخذت سريعا لا تقتصر على مكان للعبادة بل أصبحت أشبه بمسجد وتضم إليها مبانى لسكنى شيخها أو شيوخها ومريديهم . وأيضا فإنها لم تعد مكانا للنسك فحسب بل أصبحت مكانا للتعليم ومدرسة يتخرج فيها كثيرون ، وكانت تلقى بها خطب حماسية لإلهاب حمية الشباب فى مقاومة الأعداء المحتلين للديار والانقضاء عليهم والعصف بهم حتى لا تبقى منهم باقية ، ومرر بنا مدى جهاد هذه الزوايا وأصحابها فى طرد المحتلين والتكليف بهم ، وطبيعى أن يُعَدَّ فى كل زاوية طعام لمن بها ولقصاذاها . وعدَّ الأستاذ عبد الجواد السقاط فى مقدماته للزاوية الدلائية أربعين زاوية منتشرة فى بلدان المغرب الأقصى وصحاريه ، وفى رأينا أنها تزيد عن ذلك كثيرا . وتحول بعضها إلى ما يشبه مؤسسة كبيرة ، بل مدينة تامة على نحو ما يلقانا فى الزاوية الدلائية وقد أفرد الأستاذ السقاط مجلدا كبيرا للحديث عن الحركة الشعرية بها وقدم لها بمقدمة عن تاريخها والجوانب الثقافية إذ كانت تدرس فيها العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوائل وكأنها جامعة صغرى مما يدل بوضوح على إسهام الزوايا بالمغرب الأقصى فى الحركة العلمية بجانب العناية بالأدب والشعر .

المكتبات

لا ريب فى أن المكتبات تعد أعظم المؤسسات العلمية ، إذ تحمل التراث العلمى والأدبى جميعه للأمة وتفتح أبوابها يوميا وتقدم كنوزها لطلاب العلم والأدب وشيوخهما ، ولن أستطيع تصوير أهميتها فى سطور معدودة ومعروف أنه كان بكل جامع فى كل بلد مكتبة ، وقد أحصى الدكتور محمد حجى فى كتابه : الحركة الفكرية فى المغرب لعهد السعديين اثنتى عشرة مكتبة عامة بفاس منها اثنتان إحداهما مكتبة القرويين المليئة بالنفائس والكنوز من مثل تاريخ ابن خلدون بخطه ، وعدَّ بمراكش أربع مكتبات ويزاوية الدلاء مكتبة وبالمثل فى بعض المدن الكبرى . وعدَّ من المكتبات الخاصة خمس عشرة مكتبة ، منها مكتبة آل الغرديس بفاس استعان بها فقيه الجزائر الكبير أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى سنة ٩١٤ فى تأليف موسوعته الفقهية الكبرى : « المعيار » المنشورة فى ستة مجلدات . وكان قد أورثهم جدهم فى القرن الرابع المجرى بكار بن عيسى الغرديسى شرفا عظيما إذ كان أول من حمل صحيح البخارى إلى المغرب الأقصى وعنه حملة كثيرون .

(ج) نمو الحركة العلمية

تأخذ الحركة العلمية بالنمو في المغرب الأقصى منذ قامت الدولة الإدريسية ، فإنه نزل بفاس في عهد إدريس الثاني كثيرون من أهل الأندلس الذين قادوا الثورة ضد الحكم الرضوي ويقال إنهم كانوا نحو أربعمئة أسرة وكان بينهم كثيرون من الفقهاء ، إذ كانوا هم أصل تلك الثورة ، وشغلوا شطرا من فاس سمي بالعدوة الأندلسية ، وسرعان ما أخذ فقهاء الجامع يلقون فيه دروسهم منذ أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث للهجرة ، حتى إذا كنا في منتصف هذا القرن وبنت السيدة الجليلة فاطمة أم البين الفهرية جامع القرويين في عدوة فاس المغربية المقابلة أخذ شيوخ الجامعين يتنافسون في تعليم الشباب الفاسي ، ويظل لهذا النشاط العلمي آثاره في المغرب الأقصى بعد القضاء على الدولة الإدريسية بفاس في أواخر القرن الثالث الهجري ، ويعود هذا النشاط بقوة في عهد المرابطين الذين قاموا بإنقاذ المغرب الأقصى مما كان فيه من فئات ضالة كبقايا الصفرية في سبلماسة وبعض الأنحاء والمعتزلة في البصرة والشمال الغربي وكالبرغواطية في تامسنة وكالجلية الشيعية الروافض في تروندت بالسوس وبذلك وحدوا المغرب الأقصى وأخذوا يردونه إلى أحضان السنة باعثن فيه حركة علمية ناشطة ، وما إن توافى سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وحتى ينزل أمير المرابطين يوسف بن تاشفين على رأس جيش ديار الأندلس ويهزم ألفونس أمير قشتالة ونصارى الإسبان وأوربا معه هزيمة ساحقة في الزلاقة ، ويضم الأندلس إلى دولته المغربية . ومن حينئذ تنمو الحركة العلمية في المغرب الأقصى نموا واسعا ، إذ أخذت تلتحم تدريجا بالحركة العلمية الأندلسية ، فقد أخذ علماء الأندلس يفدون عليه ، كما أخذ طلابه وعلماءه يفدون على الأندلس ، وكان يوسف بن تاشفين بعيد النظر ، فعمل على جلب علماء الأندلس إلى عاصمته مراكش حتى ليقول صاحب المعجب : « انقطع إليه من جزيرة الأندلس من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه على (٥٠١ هـ / ١١٠٨ م - ٥٣٧ هـ / ١١٤٣ م) من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار » وفي موضع آخر يقول : « لم يزل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك ، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك » .

ومنذ هذا التاريخ يصبح المغرب الأقصى والأندلس دار علم وأدب واحدة ، وكثير من العلماء والأدباء في القطرين قضوا شطرا من حياتهم في وطنهم والشرط الآخر في الوطن الثاني . وتنبه إلى ذلك مؤلفو كتب التراجم كما سنرى عما قليل . ويتحول الحكم إلى الموحدين ، ويقول صاحب المعجب عن عبد المؤمن المؤسس الحقيقي لدولتهم : « كان مؤثرا لأهل العلم محبا لهم محسنا إليهم يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته ، ويجرى عليهم

الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم » . واتخذ - حسب تعليمات أستاذه ابن تومرت - عشرة مع خمسين من الأسياف بينهم رؤساء القبائل وطائفة كبيرة من الدعاة كانوا يسمون باسم الطلبة ، وكانوا يعدّون للدعوة إعداداً علمياً . ويقول صاحب المعجب عن ابنه يوسف سلطان الموحدين إنه كان يحفظ أحد الصحيحين - الشك منه كما يقول - إما البخاري وإما مسلم .. مع ذكر جمل من الفقه ، وكان له مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو ، وتعلم الفلسفة وجمع كثيراً من أجزاءها وكتبها واجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر الأموي ، ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء ، وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك قبله من ملك المغرب ، وكان ممن صحبه من العلماء المتقنين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين ، ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبئه عليهم ويحضره على إكرامهم ، وهو الذي نبهه على أبي الوليد بن رشد . وفي أيام ابنه يعقوب بلغت دعوة الموحدين ضد أصحاب المذاهب الأربعة الذروة إذ أمر بإحراق كتب الفروع عامة سواء للمالكية أو الحنفية أو الشافعية أو الحنبلية ، وكان قصده محو مذهب مالك وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده ، وأمر المحدثين بجمع أحاديث من كتب الصحاح الستة وسنن البزار وأبي شيبة والدارقطني والبيهقي في الصلاة وما يتعلق بها ، وكان يمليه بنفسه على الطلبة ويأخذهم بحفظه . ولابد أن نذكر ما أسلفناه من أنه تم في عهد الموحدين الامتراج العلمي والأدبي بين القطرين المغربي والأندلسي حتى لرى كتاب التراجم الأندلسيين حين يؤلفون كتاباً يمزجون فيه بين علماء القطرين إذ يجعلونه لهما جميعاً على نحو ما يلاحظ في كتاب الصلة لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م وكانت عناية المرينيين بالعلم وأهل الأدب لا تقل عن عناية الموحدين ومر بنا ما حكاه ابن مرزوق والوزان عن عنايتهم بتشيد المدارس وفرض الرواتب فيها للأساتذة والإنفاق على الطلاب وكسوتهم ، وبطيل الوزان الوصف لمعهد بناه السلطان المريني أبو عنان (٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م - ٧٥٨ هـ / ١٣٥٨ م) ويذكر أن فيه ثلاثة أروقة مسقوفة تحلى بجمال لا يتصوره عقل ، والأعمدة منمنقة بألوان متباينة والقناطر بين الأعمدة مكسوة بالفسيفساء وبالذهب الصافي وباللازورد ، والسقف من خشب مجزغ ، ويختم وصفه الطويل للمدرسة بأن نفقاتها ارتفعت إلى أربعمائة وثمانين ألف دينار .

ومنذ أوائل هذه الدولة يشعر المغاربة بتعمق أنهم والأندلسيين الذين هاجروا إليهم بعد سقوط مدنهم الكبرى في حجر الإسبان إخوة تجمعهم أواصر كثيرة ، بل لقد كان هذا الشعور يتعمقهم منذ عصر دولة المرابطين غير أنه ازداد عمقا بكثر من هاجر إليهم من إخوانهم الأندلسيين في القرن السابع الهجري ، وهو ما جعل المغربي من أمثال محمد بن عبد الملك

المراكشي حين يؤلف كتابه الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة يجعله قسمة بين الأندلسيين والمغاربة ، ولالأندلسيين الشطر الأكبر . وأخذت تتسع الهجرة من الأندلس ، حتى إذا كانت سنة ٨٩٧ هـ وسقطت غرناطة بدأت هجرة أندلسية كبرى إلى مدن المغرب الأقصى . وتلتها الهجرة أيام فيليب الثالث حين أمر سنة ١٥١٨ هـ / ١٦٠٩ م بطرد الموريسكيين من جزيرة الأندلس . وكان لهذه الهجرات الأندلسية الجماعية في أواخر أيام المرينيين وزمن السعديين أثر بعيد في نمو الحركة العلمية بالمغرب الأقصى ، ولذلك نرى خطأ كبيرا في قياس المغرب الأقصى على بلدان الدولة العثمانية في المشرق العربي وخمود الحركة العلمية بتلك البلدان لأن فوارق كانت تفرق بين المغرب الأقصى وبينها ، أهمها ما ظل ينزله من جموع الأندلسيين بعد سقوط غرناطة على مدى سنوات طويلة متعاقبة . وينوه ابن القاضى فى كتابه عن المنصور الذهبى السعدى (٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م - ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م) بشغفه الشديد بالعلوم على اختلافها ورعايته للعلماء والأدباء . وينوه الأستاذ عبدالله كنون فى الجزء الأول من كتابه النبوغ المغربى بالخلفاء العلويين : الرشيد (١٠٧٥ هـ / ١٦٦٤ م - ١٠٨٤ هـ / ١٦٧٢ م) وإسماعيل (١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م) ومحمد بن عبد الله (١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م - ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م) ونهضتهم العلمية بالمغرب الأقصى . وفى كل ما قدمناه ما يدل - بوضوح - على أن الحركة العلمية المغربية كانت دائما بأعين الحكام المغاربة ، فهم يتعهدونها ويقدمون لها كل ما يستطيعون من عون مادي ومعنوى .

٢

علوم الأوائل

ليس ين أيدينا معلومات واضحة عن علوم الأوائل ونشاط علماء المغرب الأقصى فيها زمن المرابطين إلا ما ذكر من أن بعض الأطباء الأندلسيين نزّلوا مراکش لرعاية يوسف بن تاشفين وابنه على رعاية طبية ، ومنهم أبو العلاء^(١) بن عبد الملك بن زهر ، وله فى الطب تصانيف متعددة وقد أمر السلطان على بن يوسف حين توفى سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م بجمع كبة الطبية ونسخها فى السنة التالية لوفاته ، ومن أهمها كتاب التذكرة ونشره جبريل كولان بالعربية والفرنسية فى باريس سنة ١٩١١ للميلاد ، ونظن ظنا أن بعض المغاربة تتلمذ عليه حين نزوله فى مراکش وربما تبعه إلى بلدته إشبيلية ليكمل تعلمه عليه .

ولا يليث الموحدون أن يستولوا من المرابطين على صولجان الحكم وتزدهر علوم الأوائل

(١) انظر فيه كتابنا عن الأندلس ص ٧٩ .

فى عهدهم ، مما يدل على أن المغاربة كانوا قد أخذوا يدرسونها منذ عهد المرابطين ، وقاد حركة ازدهار هذه العلوم فى المغرب الأقصى يوسف^(١) بن عبد المؤمن الموحدى (٥٥٨هـ/١١٦٢م - ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م) ، إذ تعلم الفلسفة منذ أن كان حاكماً لإشبيلية فى عهد أبيه عبد المؤمن ، واصطفى لنفسه حينذاك طبيباً الفيلسوف أبابكر بن طفيل واصطحبه معه إلى مراكش حين استولى على صولجان الحكم ، وكان لا يكاد يفارقه ، ورغبه فى جمع كتب الفلسفة فاجتمع له منها - كما يقول صاحب المعجب - ما يقرب مما جمعه الخليفة الأموى المستنصر (٣٥٠هـ/ ٩٦١م - ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م) فى الأندلس ، وكانت مكتبته تعد أغنى مكتبة فى زمانه تحوى كتب الفلسفة . وكما كان ابن طفيل يجلب إليه الكتب الفلسفية وما يتصل بها من علوم الأوائل كان يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبئهم عليهم - كما يقول صاحب المعجب - ويحضره على إكرامهم والتنويه بهم ، وله فى الفلسفة والطب والفلك كتب مختلفة . وشكا إليه يوسف قلق عبارات أرسطو فى كتبه وحاجتها إلى الشرح والتلخيص وسأله أن يقوم بذلك فاعتذر بعلو سنه ، وأشار عليه أن يطلب ذلك من ابن رشد - وكان قاضى إشبيلية حينذاك - فاستدعاه وطلب إليه أن ينهض بهذا العمل ، فنهض به على خير صورة ممكنة ، إذ وضع شروحا مطولة ومتوسطة ومختصرة لكثير من مؤلفات أرسطو .

وكل هذه الشروح تُرجمت إلى اللاتينية وترجمت معها مؤلفاته الفلسفية مثل تهافت التهافت الذى ردّ فيه على تهافت الفلاسفة للغزالي ، والكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشرعية من الاتصال . وأخذت كتبه تدرس فى الجامعات الأوروبية منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، ولولاها لما فهم الغرب فلسفة أرسطو بالإضافة إلى ما كان لمؤلفيه الآخرين من أثر عميق فى حركة التحرر الدينى الأوروبى . وهى يدّ لابن رشد لا على الفكر الأوروبى وحده بل على الفكر العالمى جميعه .

وكل آثار ابن رشد وابن طفيل وغيرهما من فلاسفة الأندلس مثل ابن باجة أستاذ ابن طفيل أحدثت فى المغرب الأقصى نهضة علمية فى مختلف علوم الأوائل وخاصة فى الرياضيات التى شغف بها المغاربة ، وفى مقدمتهم عبدالله بن محمد بن حجاج المشهور باسم ابن الياسمين^(٢) المتوفى سنة ٦٠١ هـ/ ١٢٠٥م وله منظومة فى الجبر والمقابلة وأخرى فى أعمال الجذور ، وكان يعاصره على بن محمد بن فرّجون القيسى القرطبى نزيل فاس المتوفى مثله سنة ٦٠١ هـ وله كتاب^(٣) لباب اللباب فى بيان مسائل الحساب . وتدل القصور المختلفة التى بناها المنصور

(١) انظر فى يوسف وأخباره مع ابن طفيل وابن رشد (٣) راجع الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى المعجب فى مواضع متفرقة (راجع الزبير) . ٣٧٥/٥ .

(٢) انظر حضارة الموحدين للمنونى ص ٧٤ .

يعقوب الموحدي في قصبة مراكش والمسجد الذي بدأه جده عبد المؤمن وأضاف إليه زينات وإضافات وعمد وغير عمد ومأذنته البديعة على أنه كان بمدينة مراكش حينئذ كثير من المهندسين المواطنين والمجلولين من الأندلس المستوطنين فيها ، وما أحدثوه في المسجد الكبير مقصورة يجلس فيها الخليفة وحواشييه يوم الجمعة وكانت ميكانيكية مثبتة بعجلات في أسفلها ولها ست أذرع وتمتد بفواصل متحركة^(١) .

ومن كبار الرياضيين الفلكيين حينئذ أبو علي الحسن المراكشي مؤلف كتاب المبادئ والغايات في علم الميقات ويذكر صاحب كشف الظنون أنه أعظم ما ألف في هذا الفن ، وينقل عنه الأستاذ عبد الله كنون أن أبا علي المراكشي رتب هذا الكتاب على أربعة فنون هي الحسابيات في نحو ثمانين فصلا ، ووضع آلات الإسطرلاب ولها سبعة أقسام ، وللعمل بها خمسة عشر فصلا ، والدربة عليها في أربعة أبواب أو فصول^(٢) .

ونمضى إلى عصر المرينيين وملتقى في علم الفرائض أو الموارث - وكانوا يلحقونه بالرياضيات - بإبراهيم بن أبي بكر التلمساني نزيل سبتة الذي مر بنا في الجزائر وله في الفرائض أرجوزة سميت التلمسانية شرحت في سبتة وغير سبتة مرارا ، ولابن الشاط المتوفى سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م « غنية الرائض في علم الفرائض » . وملتقى بمفخرة المغرب في الرياضيات ابن البناء^(٣) أبي العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي المولود بمراكش سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٦ م والمتوفى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢٢ م وقدم في الغاية في مختلف العلوم الدينية واللغوية والبلاغية وبرع إلى الغاية في العلوم الفلسفية ولاسيما في الرياضيات والفلك ، وله في الحساب والجبر التلخيص في أعمال الحساب وعليه يعتمد الطلاب في جامع أو جامعة القرويين بفاس إلى اليوم ، وشرحه بكتاب سماه رفع الحجاب . وطارت شهرته في حياته وقصده الطلاب من كل فج ، وتخرج رياضيون ماهرون على يديه مغاربة وجزائريون مثل الآبى محمد بن إبراهيم التلمساني ، المتوفى سنة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م . ولابن البناء في الفلك كتاب اشتهر في عصره وبعد عصره سماه السيارة في تعديل السيارة وله المدخل إلى علم النجوم . ويلمع اسم اللجائي الفاسي عبد^(٤) الرحمن بن أبي الربيع المتوفى سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م في الرياضيات والميمنة أو الفلك وقد ابتكر إسطرلابا يلصق في جدار ، والماء يدير شبكته على الصفيحة بحيث يعرف منه مدى ارتفاع الشمس وما مضى من النهار كما يعرف مدى ارتفاع أى كوكب ليلا .

جذوة الاتقياس ونيل الابتهاج ودرة الحجال وأزهار

الرياض . وانظر في مؤلفاته النبوغ المغربي ٢٣١/١ .

(٤) انظره في الدرة لابن القاضي ٨٢/٣ والدجدة

٤٠٢/٢ وكون ٢٢٤/١ .

(١) انظر المنوني ص ٧٦ ، ٨٠ .

(٢) راجع الجزء الأول من النبوغ المغربي لكون ص

١٦٦ .

(٣) لابن البناء ترجمات كثيرة في الكتب السالفة مثل

ويلقنا بعده عبد^(١) الرحمن الجادري المتوفى سنة ٨٣٩ هـ/ ١٤٣٥ م مؤقت جامع القروير بفاس ، وله روضة الأزهار فى علم الليل والنهار ، وكتاب ثان جمع فيه بين العمل بآلة الإسطراب وبالصفحة الشكازية وبربع الدائرة وطريقة العمل بالحساب والجداول . ومن علماء الهندسة فى العصر المريني ابن ليون التجيبى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ/ ١٣٥٠ م وله كتاب الإكسير فى الأشكال الهندسية .

وكان الخليفة المنصور الذهبى السعدى مكباً على كتاب إقليدس يحل أشكاله ، ولأحمد بن القاضى المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ/ ١٦١٦ م شرح باسم فتح الخبير بحسن التدبير لفك رموز الإكسير لابن ليون السالف^(٢) . وللبعيل^(٣) أبى زيد عبد الرحمن الجزولى المتوفى سنة ١٠٠٦ هـ/ ١٥٩٧ م شروح فلكية على الیسارة فى تعديل السيارة لابن البناء وروضة الأزهار للجاردى وهو الذى أحدث الساعة الرخامية بجامع تارودنت . ولمحمد^(٤) بن قاسم بن القاضى المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ/ ١٦٣٠ م كتاب البرق الوامض فى الحساب والفرائض . وأهم الرياضيين فى عصر العلويين الرودانى محمد بن سليمان المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ/ ١٦٨٣ م وله إسطراب مبتكر مكون من كرتين ، وفى كتاب النبوغ المغربى وصف^(٥) مفصل له . ولعل فى كل ما قدمت ما يدل على أن المغرب الأقصى ظل ناشطاً فى الدراسات الرياضية والفلكية والهندسية طوال الحقب الماضية .

وطبعى أن ينشط المغرب الأقصى فى الطب والصيدلة لضرورتهما فى العناية بحياة الناس ، ومرّ بنا أن أبا العلاء^(٦) بن زهر الطبيب كان طبيباً ليوسف بن تاشفين وخليفته من بعده ابنه على ، مما يؤكد نزوله فى مراكش لرعايتهما الصحية ، ونزلها بعده ابنه عبد الملك الذى كان طبيباً للمرابطين ثم للموحدين إذ توفى سنة ٥٥٧ هـ/ ١١٦٢ م وهو أهم طبيب عربى كلىنىكى أو عملى بعد الرازى .

واتخذ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحدى الفيلسوف ابن طفيل طبيباً بينما اتخذ ابنه يعقوب أبا بكر بن زهر طبيباً الخاص ، وكانت أخته أم عمرو طبيبة ماهرة وكانت تعنى صحياً بزوجة يعقوب ونساء الأسرة الموحدية ، وكان ابنه عبد الله طبيب الناصر بن يعقوب الموحدى . وأحصى الأستاذ المتونى فى كتابه « حضارة الموحدين » نحو عشرين^(٧) طبيباً وصيدلياً أندلسياً

- | | |
|---|--|
| (١) انظر مظاهر الثقافة المغربية للدكتور ابن شقرون ص ٢٢٠ . | (٥) انظر وصف هذا الإسطراب عند الأستاذ كتون ٢٩٤/١ . |
| (٢) راجع الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ١٥٧/١ . | (٦) انظر فى أطباء أسرة بنى زهر كتابنا عن الأندلس ص ٧٩ . |
| (٣) نفس المصدر ١٥٨/١ وانظر النبوغ المغربى للأستاذ عبد الله كتون ٢٦٤/١ . | (٧) راجع حضارة الموحدين للأستاذ المتونى ص ٨٨ وما بعدها . |
| (٤) النبوغ ٢٧٠/١ . | |

نزلوا مراکش لخدمة الخلفاء الموحدين . ويذكر بالمثل الأطباء المغاربة الذين أتقنوا الطب والصيدلة في عصر الموحدين ، ومنهم يحيى بن محمد السلوى المتوفى سنة ٥٦٣ هـ/١١٦٧ م ، والشريف الإدريسي المتوفى حوالى سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م وله كتاب فى الصيدلة أو مفردات الأدوية ، وأحمد بن عبد الملك الجذامى الناشئ بسبته والمتوفى بمراكش سنة ٦٥٠ هـ/١٢٥٣ م. وقد أفاض المراكشى فى كتابه المعجب فى وصف البيمارستان الذى شيده المنصور ، ويقول إنه أجرى عليه ثلاثين ديناراً كل يوم للإلتفاق ، وإنه كان به قسم للصيدلة وعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، ويذكر أن يعقوب كان يعود مرضى المارستان كل أسبوع بعد صلاة الجمعة . ويبدو أن أبا إسحق إبراهيم الدانى البجائى كان أول رئيس للبيمارستان كما يفهم من ترجمة ابن أبى أصيبعة له فى كتابه طبقات الأطباء وأن رياسته ظلت فى بيته فترة .

ويذكر الدكتور شقرون فى كتابه مظاهر الثقافة المغربية سته^(١) من الأطباء المشهورين فى العصر المرينى ربما كان أهمهم أبو العباس أحمد بن شعيب الفاسى الذى اشتهر بتعمقه فى الفلسفة والرياضيات وعلوم الأرائل ، وكان طبيباً فى البلاط المرينى زمن السلطان أبى سعيد عثمان وابنه أبى الحسن وقد اصطحبه معه حين غزا تونس ، وبها توفى بالطاعون سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م وكان طبيباً بارعاً كما كان شاعراً بارعاً . ومن أكبر الدلالة على كثرة الأطباء فى العصر المرينى أن نجد مؤلفاً مجهولاً لكتاب « بلغة الأمنية ومقصد الليب فيمن كان بسبته فى الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب » الذى نشره الأستاذ محمد بن تاويت فى العدد التاسع من مجلة تطوان يذكر سبعة من الأطباء بمدينة سبتة ، بينهم طبيبة بارعة هى عائشة^(٢) بنت الجبار ، ويقول :

« قد كان بسبته فى هذه الطبقة جماعة من الأطباء والشجّارين - يريد الصيدالة العشّالين - سوى من ذكرناه لم يبلغوا فى العلم والمكائنة مبلغ هؤلاء (السبعة) تركت ذكرهم » ، وإذا كان هذا العدد من الأطباء بإحدى مدن المغرب الأقصى فما بالنا بمن كان بفاس من الأطباء والصيدالة ، ولا بد أن كانوا كثيرين ، إذ يذكر الحسن الوزان أنه كان بفاس فى الداخل أو فى داخلها مارستانات بدیعة وعدة مارستانات أخرى خارج أبوابها ، وعلى الأقل كان يحتاج كل مارستان إلى صيدلى وطبيب إن لم يكن يحتاج إلى عدد من الأطباء والصيدالة .

ويعرض الدكتور محمد حجى مؤلفات^(٣) الأطباء والصيدالة ، ويبدأ بالوزير الغسانى المتوفى سنة ١٠١٩ هـ/١٦١٠ م وما يذكر له حديقة الأزهار فى شرح ماهية العشب والعقار وهو

(١) مظاهر الثقافة المغربية : دراسة فى الأدب المغربى (٣) الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ١٦٠/١ وما بعدها .

فى العصر المرينى ص ٢٢٧ .

(٢) النبوغ المغربى ٢٢٥/١ .

معجم صيدلى نباتى ، ويذكر للطبيب عبد الغنى بن مسعود الزمورى كتابا فى الطب بعنوان : القول المفيد فى علاج الحصى بقول سديد ، وكتابا فى الصيدلة بعنوان خواص النباتات ، شرح فيه الأدوية باللسان اليونانى والسرمانى والفارسى والعجمى ، كما يذكر للطبيب أبى الغول الفشتالى أرجوزة طبية فى ألف بيت وأربعمائة وعشرة ، ويذكر أيضا للطبيب على بن إبراهيم أرجوزة فى علاج العيون وأدوائها وأخرى فى الأعشاب وخواصها فى شفاء الأمراض .

وينغ فى عصر العلويين غير صيدلى وطبيب ، منهم عبد^(١) القادر بن شقرون المتوفى بعد سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨م وله فى الصيدلة مؤلفات متعددة سوى منظومة سميت بالشقرونية فى ٧٠٠ بيت فى الأغذية والأدوية ، ومنهم عبد^(٢) الوهاب أدراق المتوفى سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٦م وهو من أسرة فاسية اشغلت بالطب ، وإليه انتهت رئاسة الطب فى زمنه ، وله مؤلفات ومنظومات طبية مختلفة ، ومنهم عبد^(٣) الله بن عزوز المراكشى المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩م وله فى الصيدلة كتاب باسم كشف الرموز فى الأعشاب الطبية وكتاب فى الطب باسم ذهاب الكسوف . ولعل فى كل ما ذكرت ما يصور - بوضوح - عناية المغاربة ببحوث الطب والصيدلة طوال العصور السالفة .

ويلحق بعلوم الأوائل علم المنطق الذى يعرف به الصحيح من الفاسد فى التعاريف والبراهين والأقيسة ، وهو يشترك فى العلوم كلها ، فليس هناك علم لا يأخذ منه بحظ . والمنطق علم يونانى الأصل وضعه أرسطو ورتب فصوله وقضياه ترتيبا محكما ، ونقله العرب منذ القرن الثانى الهجرى وتداوله علماءهم وأقطارهم ، وأصبح يدرس فى جوامعها الكبيرة أو جامعاتها ، حتى إذا نشأت المدارس فى القرن الخامس الهجرى أخذت تتدارسه ويضع فيه أفضل الدين الخونجى المتوفى سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥١م كتابا موجزا باسم الجمل وتطير شهرته فى العالم العربى بجميع أقطاره شرقا وغربا ويأخذ علماء المغرب - كعلماء المشرق - فى مدارسته وشرحه لطلابهم . ومن عرفوا بدراسة المنطق بأخرة من عصر الموحدين ، وربما لحق عصر المرينيين ، عبد^(٤) الله بن محمد الأغماتى من أهل أغمات من المغرب الأقصى من علماء القرن السابع الهجرى ، وينعته الغبريني بأنه المنطقى النحوى ويقول عنه : كان أعلم الناس بكتاب سيبويه ومقاصده ، وله تحصيل لعلم المنطق .

ونلتقى فى أوائل عهد المرينيين بمحمد^(٥) بن على بن يحيى المدعو بالشريف قاضى الجماعة

- | | |
|---|--|
| (١) النبوغ المغربى ٢٩٩/١ والحياة الأدبية بالمغرب فى عهد الدولة العلوية للدكتور الأخضر ص ٢٠٧ . | (٤) انظر الأغماتى فى عنوان الدراية للغبرنى ص ٢٢٣ . |
| (٢) النبوغ المغربى ٣٠٠/١ والأخضر ص ٢٣٩ . | (٥) الإعلام بمن حل براكش وأغمات من الأعلام ٢٨١/٤ وانظره فى بغية الوعاة للسيوطى . |
| (٣) الأخضر ص ٣٦٦ . | |

بها المتوفى بمراكش سنة ٦٨٢ واشتهر بأنه كانت له مشاركة فى علوم الأصول والكلام والمنطق والحساب ، وتتردد هذه الشهرة فى ترجمة كثيرين بالعصر المرينى . ويذكر الدكتور محمد^(١) حجي فى العصر السعدى لعبد العزيز المكناسى المتوفى حوالى سنة ٩٨٠ هـ/ ١٥٧٢ م أرجوزة فى المنطق فى مائة وستة عشر بيتا وأرجوزة أخرى لعبد الرحمن البعيلى المار ذكره ، ولعلهما أرادا مضاهاة عبد الرحمن الأਖضرى الجزائرى المتوفى سنة ٩٥٣ هـ/ ١٥٤٦ م فى أرجوزته المنطقية المسماة باسم السلم وقد نالت شهرة واسعة فى العالم العربى ووضعت لها شروح كثيرة ، ويذكر الدكتور حجي لمحمد بن عبد الله المبطى مباحث الكلية والجزئية .

وعرض الأستاذ عبدالله كنون طائفة^(٢) كبيرة من المنظومات والشروح والخواشى والدراسات المنطقية فى عصر العلويين ، نذكر منها أرجوزتى القادرية لعبد السلام القادري المتوفى سنة ١١١٠ هـ/ ١٦٩٩ م والخريدة لحمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٧ م . وشرح سلم الأਖضرى الجزائرى اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ هـ/ ١٦٩١ م وشرح السلم أيضا بنانى . ومن الخواشى حاشية على شرح سعيد قدورة الجزائرى لسلم الأਖضرى لابن منصور الشفشاوى المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٧ م وحاشية أخرى له على شرح البنائى للسلم . وكل ما تقدم دليل على أن المغرب الأقصى ظل يعنى بعلوم الأوائل من طب وغير طب على مر السنين .

٣

علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة

أخذ المغرب الأقصى يُعنى بعلوم اللغة والنحو منذ القرن الخامس الهجرى ، بل ربما بدأت العناية بهما منذ قيام الدولة الإدريسية وبُعُثها بفاس والمغرب الأقصى عامة حركة علمية قوامها العلوم الدينية وما يتبعها من علوم اللغة والنحو ومدارس ما ألف فيهما مما هيأ لنشوء طائفة مبكرة من الكتاب والشعراء . ولاشك أن لمعلمى الكتاتيب ومقرئى القرآن فضلا كبيرا فى هذا الجانب إذ كانوا يأخذون الناشئة بتعلم العربية ومعرفة بعض الألفاظ القرآنية ودلالاتها اللغوية وكذلك ألفاظ بعض ما يلقون عليهم من الأشعار . ولا نغلو إذا قلنا إن قراء الذكر الحكيم كانوا دائما لغويين ونحاة ونرمز إلى ذلك فى عصر المرابطين بمرwan بن عبد الملك بن سَمَجُون المتوفى بطنجة سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٧ م فقد ذكر عنه ابن عبد الملك المراكشى أنه تصدر قديما لإقراء القرآن ، وكان مقرئاً مجوداً ذا حظ من الشعر يذهب فيه إلى التّعير^(٣) وكان لغويا يستظهر الغريب فى أشعاره إلى حد التعمق اللغوى البعيد .

(٣) الذيل والكلمة لابن عبد الملك المراكشى

٣٧٢/٢/٨ .

(١) راجع حجي ١٥٩/١ .

(٢) النبوغ العربى ٣١٤/١ .

ونمضى فى عصر الموحدين وملتقى بمحمد^(١) بن أحمد بن هشام المشهور باسم ابن هشام اللخمي مستوطن سبتة المتوفى سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١ م وكتابه فى لحن العوام الذى سماه « المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان » كتاب نقيس ، حققه الدكتور خورسيه بيرث لاثار تحقيقا علميا قيما وطبعه معهد التعاون مع العالم العربى بالمجلس الأعلى للأبحاث العلمية فى مدريد . ومن قوله فى مقدمته : « أول ما يجب على طالب اللغة تصحيح الألفاظ العربية المستعملة التى حرّفتها العامة عن موضعها وتكلمت بها على غير ما تكلمت بها العرب فى ناديتها ومجتمعها » وبدأ الكتاب بمراجعة الزيدى الأندلسى فى كتابه لحن عامة زمانه وتخطئته لما فى ألفاظ العرب فيها لغتان وبين ما وقع فيه من السهو والغلط ، وذكر بعده أوهم ابن مكى الصقلى فى كتاب تنقيف اللسان . ثم عقد بابا لما جاء فيه عند العرب لغتان أو أكثر ، واستعملت منهما العامة لغة ضعيفة ، وربما عدلت إلى اللحن . وأتبعه بباب لما تلحن فيه العامة ولا دليل عليه من لسان العرب وباب لما جاء لشيئين أو لأشياء فقصره على واحد وباب لما تمثلت به العامة محرفا فى صيغته عن صيغته الأصلية عند الشعراء . والكتاب فى نحو ٤٣٠ صفحة رجع فيها مؤلفه إلى أبيات شعرية وأراجيز شغلت قوافيها فى فهرسه خمس عشرة صفحة من امرىء القيس إلى الشريف الرضى فى آخر القرن الرابع الهجرى . ولا يشك قارئه فى أن المؤلف رجع فى هذه الدراسة إلى أمهات الكتب اللغوية ، وقد وضع لها المحقق فهرسا تضمن نحو خمسين كتابا كما وضع فهرسا لمن ذكر فى الكتاب من اللغويين حتى ليلغون فيه نحو تسعين . ولابن هشام اللخمي بجانب هذا العمل اللغوى القيم كتاب ما وقع فى أبيات كتاب سيبويه وشرحها للأعلم من الوهم والخلل ، وله شرح فصيح ثعلب وهو كتاب لغوى ملء بالألفاظ الغريبة ، وله أيضا شرح مقصورة ابن دريد ، وهما من مراجعه فى كتابه عن لحن العامة . ويلقانا بعده من اللغويين فى عصر الموحدين أبو ذر مصعب^(٢) بن محمد بن مسعود الخشنى الجياني الأصل المستوطن لناس وكان عالما لا يبارى فى اللغة ونحويا أديبا وكفاه شرفا شرحه لغريب السيرة النبوية العطرة ، وعليه اعتمد كل من نشرها فى العصر الحديث . ومن لغويى هذا العصر محمد^(٣) بن عيسى بن أصبغ المشهور باسم أبى عبد الله بن المناصف المتوفى بمراكش خطيبا بجامع بنى عبد المؤمن لسنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م وكان فقيها نظارا جانحا إلى الاجتهاد مائلا إلى القول بمذهب الشافعى مناظرا عليه ، وكان حافظا للغات مليئا من الآداب شاعرا مجيدا مرجزا مطبوعا ، وله أرجوزتان لغويتان : « المذهبة فى نظم الصفات من الحلى والشيآت » وهى أرجوزة ألفية نظمها بمراكش ، وتلاها بأجوزة ثانية سماها المعقبة لكتاب المذهبة فى الأنعام والظباء وحرر الوحش والنعام وما يتعلق

(١) انظر فى ابن هشام اللخمي التكملة ٣٧٠ وبغية

٦٣٦ .

(٣) انظر فى ابن المناصف ابن عبد الملك المراكشى

٣٤٥/٢/٨ .

(٢) انظر ترجمته فى التكملة : ٧٠٠ وجذرة الإقتباس

بها» . ومن لغوى عصر الموحدين يوسف^(١) بن موسى الحواري المتوفى بمراكش سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥٢ م وفيه يقول ابن عبد الملك إنه كان ماهرا في علوم اللسان أدبا ولغة ونحوا ويذكر له أبياتا في ترتيب حروف معجم العين للخليل وأبياتا أخرى في ترتيب حروف الصحاح للجوهري .

ونمضى إلى العصر المريني وثلثي بالشاعر مالك^(٢) بن المرحل المتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م ونظمه لغريب القرآن الكريم ولفصيح ثعلب ، ولا نلبث أن نلتقى بأبي القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسنى المتوفى سنة ٧٦٠ هـ/١٣٥٩ م وله شرح على مقصورة حازم القرطاجنى سماه : « رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة » وهو منشور ، وثلثي بأبي زيد المكودي الفاسى المتوفى سنة ٨٠٧ هـ/١٤٠٤ م وله البسط والتعريف فى علم التصريف ونظم المعرب من الألفاظ وشرح كتاب المقصور والمدود لابن مالك . وأخذت منذ العصر المريني تؤلف كتب مختلفة فى غريب الحديث مثل « تحفة الناظر فى غريب الحديث » للرعيى الفاسى ، ومثل شرح غريب الموطأ لمالك وصحيح البخارى وكتاب الشهاب لابن منصور المرقاوى السجلماسى . وتتكاثر الشروح والخواشى فى العصر السعدى للقصائد النبوية مثل البردة والمهمزة للبوصيرى ومقصورة المكودي فى المديح النبوى وبعض كتب اللغة مثل الصحاح للجوهري وبعض القصائد المشهورة مثل لامية العرب ولامية العجم وبعض الدواوين وخاصة ديوان المتنبي ، وشُرحت لامية الأفعال لابن مالك والشافى لابن الحاجب . وتظل هذه الاتجاهات فى التأليف اللغوى طوال عصر العلويين ، ويؤلف ابن زاكور^(٣) المتوفى سنة ١١٢٠ هـ/١٧٠٨ م شرحا على حماسة أبي تمام باسم عنوان النفاسة فى شرح الحماسة وشرحا على قلائد العقيان للفتح بن خاقان باسم مقياس الفوائد فى شرح ما خفى من القلائد ، وشرحا على لامية العرب باسم تفريج الكرب بشرح لامية العرب ، ويؤلف محمد بن الطيب الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ/١٧٥٦ م شرحا على كتاب الزهر للسيوطى باسم المسفر عن خبايا الزهر ، وحاشية على القاموس المحيط للفيروزابادى باسم إضاءة الراموس حاشية على القاموس وشرح على لامية الأفعال وضوء القابوس فى زوائد الصحاح على القاموس وحاشية على درة الغواص للحريرى ويعدُّ الأستاذ عبد الله كنون شروحا وخواشى أخرى فى اللغة لكثيرين^(٤) .

وكان النشاط فى النحو لا يقل عن النشاط فى اللغة إن لم يزد عليه زيادة كبيرة ، وأول نحوى كبير ثلثي به فى عصر المرابطيين الحسن^(٥) بن على بن طريف المتوفى سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧ م

(١) راجع فى يوسف ابن عبد الملك المراكشى

(٢) ٤٣٧/٢/٨ .

(٣) انظر فى أعمال مالك والشريف الحسنى والمكودي

(٤) راجع فى البوغ المغربى ٣١٥/١ .

(٥) البوغ المغربى ١٠٠/١ .

ظلَّ يدرس النحو طوال عمره بسبته ، وهو أستاذ القاضى عياض وغيره من علمائها فى عصر المرابطين ، وملتقى بعده بعل^(١) بن محمد الجذامى الملقى الذى سكن سبته واستوطنها إلى وفاته سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م وكان يقرئ بها الذكر الحكيم لطلابه ويدرس لهم قواعد العربية ، ومثله أحمد^(٢) بن الخطيئة الفاسى المتوفى زمن الموحدين سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م إذ كان مقرئاً للذكر الحكيم كما كان نحويًا . ولا نبالغ إذا قلنا إن جميع المقرئين يعدون نخاة ، إذ كانوا يحفظون الصبيان ويتقنونهم على حدود العربية كى ينطقوا بآى الذكر الحكيم نطقاً سليماً .

ولا يلبث أن يظهر فى المغرب الأقصى نحوى مهم هو عيسى^(٣) الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م وهو خريج ابن برى العالم النحوى اللغوى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م فقد حج ومراً بالقاهرة وأعجب فيها بمحاضرات ابن برى فى النحو وكان يدرس للطلاب كتاب الجمل للزجاجى ويناقش مسائل النحو فيه وقضاياها وانتظم الجزولى بين طلابه ، وسأله عن مسائل نحوية فأجابه عليها ، وأثبت كل ما دار فى محاضراته وكل ما أدلى به ابن برى من أفكار أو عبارة أدق أثبت ما أدلى به فى « مقدمة » عاد بها إلى بلده وأخذ يدرسها للطلاب فى المغرب والأندلس ، ويعرف به ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة بقوله : جالب الكراسة المشهورة فى العربية عن أبى محمد بن برى نحوى الديار المصرية قدم عليه ولازمه ، ومن كلام ابن برى المذكور على الجمل « للزجاجى » كتب ذلك التأليف المنسوب عند كثير من الناس إلى جالبه أبى موسى الجزولى باسم « الجزولية » ، ويقول القفطى إنه كان إذا سئل هل هى من تأليفك أجاب : لا ، لأنها فى واقع الأمر من تأليف ابن برى الذى كان يلقيه على طلابه فى محاضراته ودروسه ، ويقول القفطى أيضاً : فيها كلام غامض وعقود لطيفة وإشارات إلى أصول صناعة النحو غريبة . وفى هذا كله ما يدل على أن المقدمة إنما هى محاضرات لابن برى ، وعلى عادة التلامذة حين يكتبون ما يسمعون من أساتذتهم فى المحاضرة ويتركون بعض قطع منها وبعض عبارات حدث ذلك نفسه فى المقدمة التى حملها الجزولى عن أستاذه ابن برى ، ولو كان مؤلفاً لها لخلت مما فى بعض عباراتها من غموض وما فيها من رموز وإشارات . على أن فى ذلك ما يدل بوضوح على أن عيسى الجزولى كان تلميذاً باراً لأستاذه ابن برى ، فرأى أن يحتفظ فى المقدمة بنصوص كلامه ولا يضيف إليها شيئاً ، فبدت فيها بوضوح هذه العيوب التى ذكرها القفطى . ومهما يكن فإنها هدية من مصر عن طريق ابن برى للمغرب الأقصى وقد عنى بها وشرحها كثيرون فى المغرب والأندلس وفى مقدمتهم الشلوينى الأندلسى . وينزل المغرب الأقصى ابن خروف إمام النحو الأندلسى المشهور ، ويترك

(١) انظر ابن عبد الملك المراكشى ٢٨١/٥ . المدارس النحوية ص ٣٠٠ والذيل والتكملة لابن

عبد الملك ٥٤٧/٢/٨ .

(٢) راجعه فى إنباء الرواة فى طبقات النخاة ٣٩/١ .

(٣) انظر الجزولى فى إنباء الرواة ٣٧٨/٢ وكتابتها

فيه تلامذة حملوا عنه كتاب سبويه وشرحه له ، منهم ابن رحمون عبد الرحمن بن محمد المصمودي ، وكان من عليّة شيوخ سبته ، توفي سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥١ م ومنهم محمد بن يحيى العبدري الفاسي المتوفى شهيدا بجبل الفتح سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٤ م .

ونلتقى في أوائل عصر المرينيين بمحمد^(١) بن الحسن النهري المعروف بابن المحلى وكلمة المحلى في المغرب الأقصى تعنى - كما يقول ابن عبد الملك المراكشي - أن أباه كان قوالا يغنى في المحافل والأسواق . وكان محمد من تلاميذ ابن خروف وله تقييدات على كتاب سبويه توفي سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦١ م . وما تلبث فاس أن تخرج إماما نحويا مهما هو ابن آجروم^(٢) محمد بن محمد بن داود الصنهاجي المتوفى بفاس سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م وآجروم كلمة بربرية معناها الفقير الصوفى . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته وشيوخه ، ويقال إنه لقي أبا حيان النحوى الأندلسي بمصر وأخذ عنه في طريقه إلى الحج . وقد طارت شهرته في العالم العربى بمتن أو مختصر في تعليم النحو للناشئة ، ويقال إنه وضعه لابنه أبي عبد الله ، وظلت طويلا الجوامع الكبرى والمدارس تفتح تعليم النحو بهذا المختصر الذى يجمع المعالم الأساسية للنحو فيما لا يزيد عن خمس وعشرين صفحة بقطع الكف وكان الأزهر - إلى عهد قريب - يجعله أول ما يدرس لطلابه في علم النحو لإمامه بقواعد النحو فى ترتيب بديع ، ويقول السيوطى فى ترجمته له بكتابه بغية الوعاة : إنه كان على مذهب الكوفيين فى النحو لأنه عبّر عن الجر قسيم الرفع والنصب بالخفض ، كما عبّر الكوفيون وقال مثلهم فعل الأمر مجزوم لا مبنى كما يقول البصريون ، وذكر بين الأسماء الجازمة « كيفما » وهى لا تجزم فى رأى البصريين . وأولى من رأى السيوطى أن يقال إنه بغدادى مثل الزجاجى وأبى على الفارسي يختار من آراء المدرستين البصرية والكوفية ما يراه الأدق والأوفق ، فقد قال مع البصريين إن المنصوب بعد كان خبر لا حال كما يقول الكوفيون ، وقال فى التوابع البدل لا الترجمة ولا التبيين كما يقول الكوفيون ، وقال المنادى فى مثل يازيد مبنى على الضم لا معرب بغير تنوين كما يقول الكوفيون . ومن طريف تيسيراته للنحو أنه قال إن المضارع بعد كى ولامها ولام الجحود وحتى والفاء والواو منصوب بهذه الأدوات لا بأن مضمرة بعدها ، وبذلك أخذت فى وجوه تيسير النحو التى قدمتها إلى مجمع اللغة العربية وأقرّها . ولم يهتم بمتن الأجرومية العالم العربى وحده فقد احتّم بها العالم الغربى أيضا ، فطبعها المستشرقون مرارا وترجموها إلى لغاتهم : اللاتينية والإنجليزية والفرنسية وكانت أولى طبعاتها عندهم فى روما سنة ١٥٩٢ للميلاد . ولابن العبدري معاصر ابن آجروم فى قواعد العربية كتاب الكليات النحوية ، وكان ابن^(٣) هانىء اللخمى السبتي معاصرها المتوفى سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٣٣ م من أئمة العربية ، وكان يدرس النحو للطلاب ، ومن

(٢) انظره فى النبوغ المغربى ٢٢٠/١ .

(١) الذيل والتكملة ٥٢٠/٢/٨ .

مؤلفاته النحوية شرح كتاب التسهيل لابن مالك . ولأبى القاسم الشريف الحسنى السبتي المار ذكره بين اللغويين شرح أيضا على التسهيل ، وكان يدرس لطلابه ألفية ابن مالك .

ومن كبار النحاة فى عصر السعديين أحمد^(١) بن قاسم القدومى المتوفى سنة ٩٩٢ هـ/ ١٥٨٤ م أستاذ الخليفة المنصور الذهبى السعدى ووصف بأنه نحوى زمانه غير مدافع وقال ابن القاضى إليه انتهت رئاسة النحو فى عصره ، وله حاشية على شرح الألفية للمرادى فى أربعة أجزاء . ومن أهم النحاة بعده قاسم^(٢) بن محمد بن القاضى المكناسى المتوفى سنة ١٠٢٢ هـ/ ١٦١٣ م وله شرح على ألفية ابن مالك انتفع به طلبته وشرح آخر على الأجرومية انتفعوا أيضا به ، وله أبيات فى الأفعال التى على حرف واحد يعلمها طلابه ، منها قوله فى الفعلين : فى وعى^(٣) :

إني أقول لمن تزجى وقائته قِ المستجيرَ قياسه قوه قى قينا
وإن هم لم يعوا قولى أقول لهم ع القول وليك عياه عوه عى عينا

ويكثر النحاة فى العصر العلوى ، ومنهم ابن الطيب الشرقى المار ذكره فى اللغويين ، وله شرح^(٤) الكافية لابن الحاجب ، وشرح لامية الأفعال لابن مالك وحاشية على التسهيل لابن مالك ، وحاشية على شرح المرادى لألفية ابن مالك ، وحاشية على المغنى لابن هشام ، وشرح الاقتراح فى أصول النحو للسيوطى ، وعنى بشرح كثير من الشواهد مثل شواهد الكشف للزمخشري وشواهد البيضاوى المفسر وشواهد التوضيح لابن هشام وشواهد التلخيص للزوينى ، وفيض الأستاذ عبد الله كنون فى ذكر كتب النحو المؤلفة والشروح والحواشى ومؤلفيها فى العصر بجانب ما ذكره من أعمال ابن الطيب الشرقى ، مما يدل على اتصال النشاط فى الدراسات النحوية بالمغرب الأقصى طوال الأزمنة الماضية .

وكان الدارسون للنحو فى كل تلك الأزمنة يعرضون - أو يعرض كثير منهم - على طلابهم عروض الشعر العربى كى يحسنوا النطق به إذا أنشدوه ، ولكى يعرفوا بدقة موازينه وقواعدها إذا أرادوا صنع شئ منه أو نظمه ، وأول ما نلتقى به من كتب هذا العلم كتاب فى عصر الموحدين لأبى ذر مصعب الخشنى الذى مر ذكره فى أول الحديث عن اللغويين . ونلتقى فى أوائل العصر المرينى بمالك بن المرحل الذى مر ذكره فى الحديث عن اللغويين ، وله أرجوزة

(١) انظر فى القدومى درة الحجال ١/ ١٥٦ وروضة الآس للمقرئ ص ٣٤ .
(٢) راجع فى قاسم بن محمد روضة الآس ص ٢٢٥ والصفوة للغيرنى ص ٩٥ والمنتقى المقصور على مآثر وغيرها من مؤلفات العصر .
(٣) التلقى ص ٧٩١ .
(٤) راجع النبوغ المغربى فى مؤلفات ابن الطيب الشرقى

فى علم العروض ورسالتان^(١) فى وزن الرباعيات وهما تعرضان وزن للرباعيات أو الدوبيت كما سماها الإيرانيون ومعنى دو عندهم اثنان ، والوزن الأول فعلن متفاعلن فعولن فعْلن والوزن الثانى فعْلن فعْلن مستفعلن مستفعلن . وكان ضياء الدين الخزرجى قد ألف متناً أو منظومة فى هذا العلم فشرحها أبو القاسم الشريف المار بين اللغويين وسمى شرحه باسم رياضة الأئمة فى شرح قصيدة الخزرجى ، وهو أول من شرحها شرحاً وافياً . ولابن رشيد محمد بن عمر الفهرى السبتي الرحالة المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م كتاب فى القوافى سماه : وصل القوادم بالخوافى فى ذكر أسماء القوافى ، وكتاب ثان سماه باسم كتاب فى العروض . ويذكر الدكور حجبى للعصر السعدى كتابين^(٢) فى علم العروض : كتاباً لابن غازى باسم « إمداد بحر القصيد ببحرى أهل التوليد » ويقصد بأهل التوليد المولدين من الشعراء ، وببحريهما أو بوزنيهما بحر أو وزن المتدارك ، وهو وزن محدث فى العصر العباسى ، وبحر أو وزن الدوبيت أو عبارة أخرى الرباعية ووزنها أيضاً محدث . وقد ذكرت فى العصر العباسى الأول أنها بدأت مع بشار وأنها كثرت عند أبي نواس وأبى العتاهية وضربت لها بعض الأمثلة ومنذ القرن الخامس الهجرى يتخذ لها وزنان كما أسلفنا ويُن ذلك غاية التبيين مالك بن المرحل فى الرسالتين اللتين ذكرناهما آنفاً . والكتاب الثانى الذى ذكره الدكور حجبى كتاب كافية النهوض فى صناعة العروض لعبد العزيز الرُّسْموكى . وتلتقى فى العصر العلوى بمحمد بن زاكور المذكور بين اللغويين ، وله شرح على منظومة الخزرجية باسم : « النفحات الأرجية والنسمات البنفسجية بنشر ما راق من مقاصد الخزرجية » كما تلتقى بمحمد بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م وله مقصورة فى العروض والقوافى .

وظل المغرب الأقصى يتدارس ما أنتجه المشرق فى علوم البلاغة والبديع من أعمال قيمة عند أمثال ابن المعتز وقدامة وابن وهب والحاتمى والآمدى والعسكرى والباقلانى وابن سنان الخفاجى وعبد القاهر الجرجانى والزمخشري والسكاكى وابن أبى الإصبع ، مضيفين إلى ذلك مدارس بعض أعمال مغربية وخاصة كتاب العمدة لابن رشيق ، وقد يتناولون أعمالاً سابقة بالشرح على نحو ما صنع ابن رشيد بشرحه لكتاب فى التجنيس أو الجنس . ولم يلبث المغرب الأقصى أن أهدى إلى علوم البلاغة والبديع علمين فذنين ، هما ابن البناء أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المولود بمراكش سنة ٦٥٣ هـ/١٢٥٦ م العالم الرياضى البارِع الذى لا تزال كتبه أو بعضها تدرس إلى اليوم فى المغرب الأقصى المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م ، وأبو محمد القاسم بن محمد الأنصارى السجلماسى ، ولا نعرف شيئاً

(١) انظر تعريفاً بالرسالتين فى الجزء الخاص بالعراق

فى المجلد الخامس من تاريخ الأدب العربى ص ٣٢٨ وهما منشورتان فى العدد الرابع من المجلد الثالث

(٢) انظر الحركة الفكرية ١٥١/١ .

عن تاريخ مولده ووفاته سوى أنه أملى كتابه فى البديع أو أنهى تأليفه سنة ٧٠٤ هـ/١٣٠٥م مما يؤكد أنه كان معاصراً لابن البناء .

ومر ذكر ابن البناء فى حديثنا عن علوم الأوائل ، وقلنا هناك إنه بلغ الغاية فى مختلف العلوم الدينية واللغوية والبلاغية وفى العلوم الفلسفية ولاسيما فى الرياضيات والفلك . وعلى نحو ضبطه لقوانين الرياضة ضبط قواعد النحو فى كتاب سماه الكليات النحوية ، وأكبر الظن أنه وزع قواعد النحو فيه على كليات عامة تستقصى كل كلية مجموعة من قواعده . وبالمثل صنع بالبديع فى كتابه : « الروض ^(١) المريع فى صناعة البديع » والمريع أى الخصب وكلمة البديع عنده تعنى بالضبط ما عناه بها ابن المعتز فى كتابه « البديع » إذ ساق فيه الصور البيانية من تشبيه وغير تشبيه والألوان البديعية من طباق وغير طباق والأصباغ البلاغية فى علم المعانى ، إذ ذكر بين محسنات الكلام الالتفات ورد الأعجاز على الصدور وتجاهل العارف وتأكيد المدح بما يشبه الذم والعكس والخروج من معنى إلى معنى ويشمل الاستطراد . وبذلك تضمن كتاب ابن المعتز علوم البلاغة جميعاً وكان الزمخشري أول من ميز بين علمى البيان والمعانى كما جاء فى مقدمة تفسيره : « الكشف » وجعل علم البديع ذيلًا لهما كما يقول السيد الجرجاني فى شرحه لكتاب المفتاح للسكاكى . وبهذا التصور كتب السكاكى وتوالت بعده الكتب البلاغية تجمع بين هذه العلوم الثلاثة : البيان والمعانى والبديع ، غير أن بعض علماء البلاغة رأى أن يعود إلى التعبير بكلمة البديع عن كل هذه العلوم على نحو ما يلاحظ عند ابن أبى الإصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٧م فى كتابه « بديع القرآن » . فكلمة البديع عنده - كما عند ابن البناء - تعنى علوم البلاغة من بيان ومعان وبديع ، وقد بلغ تعداد محاسنها وقواعدها عند ابن أبى الإصبع فى كتابه : « بديع القرآن » مائة قاعدة ونيفاً ، وبلغت فى كتاب ثان له باسم : « تحرير التجيير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن » مائة وخمسة وعشرين قاعدة . وكأنما رأى ابن البناء يعقله المنطقى أن يسر تصورها على الدارسين بوضع كل مجموعة من القواعد الجزئية الكثيرة عند البلاغيين فى قاعدة كلية تجمعها أو قل تجمع ما رآه حرياً بيانه وتوضيحه ، وهو يقدم لكتابه بتوطئة - أو كما نقول الآن بتمهيد - يتحدث فيها عن تأليفه للكتاب وغرضه منه قائلاً : « غرضى أن أقرر فى هذا الكتاب من أصول صناعة البديع ومن أساليبها البلاغية ووجوه التفريع [فيها] تعريفاً غير مخلّ ، وتأليفاً غير ممل ، يصغر جرمه ويكثر علمه .. ومنفعته فى زيادة المنة ، وفهم الكتاب والسنة » ويريد بزيادة المنة زيادة القدرة على فهم البلاغة القرآنية والنبوية وتلى ذلك ثلاثة أبواب : الباب الأول مقدمات فى الدلالة والكلام والبديع وهو فى ثلاثة فصول أولها يتناول الدلالة وارتباطها باللفظ والمعنى فى أقسامها ،

(١) حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ رضوان بشقرون فى الدار البيضاء بالمغرب الأقصى .

والفصل الثاني فى أقسام الكلام من حيث الصياغة إلى منظوم ومنثور ومن حيث المخاطبات إلى برهان وجدل وخطابة وشعر ومغالطة ، ومن حيث الواقع إلى حقيقة ومجاز ، ومن حيث مواجهة المعنى للغرض إلى القواعد الكلية الأربع التى سيعرض لها فى الباب الثانى ، ومن حيث دلالاته على المعنى إلى القواعد الكلية الثلاث التى يذكرها فى الباب الثانى . والفصل الثالث فى صناعة البديع ، وفيه يذكر أن البلاغة قد تكون فى الإيجاز أو فى المساواة أو فى التطويل ، أما الفصاحة فصفة للفظ وسهولة مخارجه وعدوبته فى السمع ، والصناعة المتكفلة بذلك هى صناعة البديع التى تعرض القوانين الكلية وما يندرج تحتها من الجزئيات . ويحاول أن يصل بين البديع وبين البلاغة والبيان . وفى الباب الثانى يتحدث عن أقسام اللفظ من جهة مواجهة المعنى ، ويجعله فى أربعة فصول أو أربع كليات عامة الفصل الأول أو الكلية الأولى فى الخروج من شىء إلى شىء وتشمل ما يسمى بالتخلص من موضوع إلى موضوع كما تشمل الإدماج وهو أن يدمج المتكلم غرضاً فى غرض والتفريع والاستطراد والخروج من إثبات شىء إلى نفيه أو العكس والاعتراض والالتفات . والفصل الثانى أو الكلية الثانية تشبيه شىء بشىء ، وتشمل صور التشبيه التشابه فى النسب ويدخل فيها مراعاة النظير والمقابلة والطباق . والفصل الثالث أو الكلية الثالثة تبديل شىء بشىء وتشمل الاستعارة والتمثيل وتبادل الكلى مع الجزئى والعكس وتبادل الحقيقة مع المجاز والواجب مع الممكن وإبدال المدح بصورة الذم والعكس والخبر مع الطلب والعكس وما كان مع ما يكون والعكس . ويفسح لمسألة لغوية هى وصف المؤنث بصيغة المذكر والعكس مثل امرأة صبور ورجل علامة . والفصل الرابع أو الكلية الرابعة تفصيل شىء بشىء ويدخل فيه التقسيم والتشكيك والتضمنين أو الإيحاء ثم الاتساع بدلالة البيت دلالات مختلفة ، والتوضيح ، وهو مصطلح غير واضح فى التعبير عن مراده ، وهو عند الرمانى حسن البيان . والباب الثالث أقسام اللفظ من جهة الدلالة على المعنى وهو فى ثلاثة فصول ، الفصل الأول أو الكلية الأولى عن الإيجاز وأدخل فيه الحذف اللغوى كحذف العائد والمضاف والصفة والموصوف . والفصل الثانى أو الكلية الثانية عن الإكثار ومنه الاستظهار وهو استغناء القول عن تكملته ومجىء الصفات أو النعوت للتخصيص بعد النكرات وللتعيين بعد المعارف ، ومنه التذييل والتتميم أو التكميل والتسوير وهو التعميم بعد التخصيص أو العكس ، ومنه الترادف . والفصل الثالث أو الكلية الثالثة التكرير ومنه قبيح ومفيد ، ويكون للتقرير أو للتأكيد أو للمقايضة أو للتصدير أو للترديد ، ومنه المشترك اللغوى والبيئى ، ومنه التجنيس وفرعه نحو اثني عشر فرعاً . وإنما أطلت فى عرض هذا الكتاب لأدل بوضوح على أن ابن البناء استطاع أن يخضع البديع أو البلاغة للمنطق ، وإن جعل لها سبع كليات تضمنت أبواب علم البديع أو علوم البلاغة كما كان يتصورها عصره منذ ابن أئى الإصبع مع إضافة بعض مسائل لغوية وأظهر فى ذلك ذكاء وبراعة فائقين وقد حقق الكتاب تحقيقاً سديداً وقدم له بدراسة

قيمة الأستاذ رضوان بنشقرون رادًا كثيرا من مسأله إلى كتب المشاركة البلاغية والعمدة لابن رشق .

وعلى ضوء هذا الكتاب وإخضاع علم البديع فيه للمنطق مع إدخال بعض المسائل الانوية على المصطلحات البديعية ألف معاصرا لابن البناء هو أبو محمد القاسم السجلماسى كتابه : « المتزج البديع فى تجنيس أساليب البديع^(١) وكلمة البديع عنده - كما عند ابن البناء وابن أنى الإصبع وابن المعتز - تشمل كل صور البيان وألوان البديع ومحسنات المعانى ووجوهها البلاغية المختلفة ، وواضح من اسم الكتاب أنه أراد أن يجارى ابن البناء فى وضع جنس كل لكل مجموعة من قواعد البديع الجزئية الكثيرة ، ورأى أن يخالفه فى الأجناس التى جعلها كليات وعنوانا للفصول السبعة فى البابين الثانى والثالث فى كتابه ، وهى عنده عشرة هى : الإيجاز - التخيل - الإشارة - المبالغة - الرصف - المظاهرة - التوضيح - الاتساع - الانثناء - التكرير . وهو يلتقى مع ابن البناء فى الإيجاز ويدخل فيه الحذف اللغوى مثله ، غير أن ابن البناء يستنبط منه أربع صيغ بلاغية بينما يستنبط السجلماسى أكثر من عشر صيغ بلاغية ، وتقسم فى أثناء ذلك الصيغ تقسيمات كثيرة ، إذ ينقسم الجنس إلى فروع والفرع ينقسم إلى فروع أو غصون ، والغصون تنقسم إلى غصينات دون أن تميز هذه الأقسام المتولدة والمتنوعة بأسماء تعينها ، فمثلا عنده المفاضلة ويعنى بها النقص عن المضمون فى الكلم : نوع من الإيجاز ، وهى نوعان وكأنها جنس متوسط ، والنوع الأول من نوعها الاختزال ، والاختزال بدوره نوعان : اصطلام أى قطع وتر ، وحذف وهو بدوره نوعان : إطلاق وانتهاك ، والانتهاك أنواع . وهى صعوبة واضحة فى الكتاب ، غير أن فيه ذكاء بارعا وقدرة منطقية إلى أقصى حد ممكن . وترك جنس الإيجاز إلى جنس التخيل وما يتصل به من التشبيه والاستعارة والمجاز وهو يقابل عنده الفصل الأول من الباب الثانى عند ابن البناء الخاص بكلية التشبيه ، والتعبير بالتخيل أدق غير أنه لم يضع فيه الكناية ، إذ عقد لها الجنس الثالث فى كتابه ، ولكن لا باسمها وإنما باسم الإشارة ، والبلاغيون قبله يدخلون فى أنواعها كل ما سماه من أنواعها وفروعها ما عدا حذف الحروف من الكلمة المذكور فى آخر جنسها أوحذف بعض الجمل ويسمونه باسم الاكتفاء . والجنس الرابع عنده المبالغة ، وأحسن حين جعل لها جنسا خاصا وقبدها بالصيغ اللغوية المستعملة فى المبالغة مثل حَسَّان - طُول - رَحْمَن - شَرٌّ غير أنه استكثر من أنواعها حتى بلغت نحو المائة واستغرقت اللغة - فيما بعد صفحات كثيرة كما فى ٣٠٦ إلى ٣٠٨ وأيضا فإنه أدخل فيها كثيرا من صيغ المجاز المرسل كتسمية السبب باسم المسبب وعكسه وتسمية الشئ بأولاه وبعقباه . والجنس الخامس الرصف ويعنى به نسق الكلام وترتيبه ، ويدخل فيه التسهيم ،

(١) حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ غلال الغازى فى مكتبة المعارف بالرباط .

وهو أن يشهد أول الكلام بآخره كما يدخل فيه التقسيم والمقابلة والالتفات أو مراجعة المعنى الماضى . والجنس السادس المظاهرة ويدخل فيها المطابقة وهى الجنس باللفظ المماثل ، والمكافأة وهى الطباق وتشمل المقابلة ، كما تدخل المفاضلة فى مثل قوله عز وجل : ﴿تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل﴾ ويسميه ابن أبى الإصبع فى كتابه بديع القرآن : « العكس والتبديل » وتدخل المزاوجة وهى بنفس الاسم عند ابن أبى الإصبع (ص ٢٨ من بديع القرآن) كما يدخل التصدير وهو رد الأعجاز على الصدور عند ابن أبى الإصبع فى كتابه تحرير التعبير ص ١١٦ ، ويقول إن المتأخرين سموه التصدير ، ويدخل التريديد وهو بنفس الاسم عند ابن أبى الإصبع (ص ٩٦ من بديع القرآن) . والجنس السابع التوضيح ، وكان ينبغى أن يسميه حسن التوضيح لأن التوضيح من حيث هو لا يعد بديعا ، ولذلك سماه الرماني حسن البيان وفى رأى أن السجلماسى تابع فى ذلك ابن البناء غير أنه تحدث عنه كنوع فى الفصل الرابع أو الكلية الرابعة الخاصة بتفصيل شئ بشئ وجعل منه التفسير كما صنع السجلماسى ، وكان حريا به أن يجعله فرعاً لأحد الأجناس كجنس الرصف . والجنس الثامن الاتساع وهو أن يحتمل القول أو البيت معنيين أو أكثر ، وذكره ابن أبى الإصبع (ص ١٧٣ من بديع القرآن) كما ذكره ابن البناء فى الفصل الرابع أو الكلية الرابعة من الباب الثانى فى كتابه ، ولم يتسع السجلماسى بالحديث فيه ، وكان حريا أن لا يعقد له جنسا مستقلا . والجنس التاسع الائتناء ، وهو بأنواعه الأصلية والفرعية يقابل الفصل الأول أو الكلية الأولى من الباب الثانى عند ابن البناء وهى الخروج من شئ إلى شئ . وربما كانت تسمية الكلية على هذا النحو أدق من تسمية الجنس عند السجلماسى .

والجنس العاشر التكرير وهو نفس الكلية الأخيرة عند ابن البناء ، والتجنيس مفرع عنده إلى نفس فروعه عند ابن البناء ، وهما يلتقيان فيها مع ابن أبى الإصبع (ص ٢٧ من بديع القرآن) وص ١٠٢ من تحرير التعبير) . ومواضع الالتقاء بين ابن أبى الإصبع والسجلماسى كثيرة ، وبيانها يحتاج إلى مقابلات وتفصيلات لاتسعها هذه الدراسة . وإنما ذهبت إلى أن ابن البناء هو الذى ألف كتابه أولا ثم ألف السجلماسى كتابه لأنه أخذ منه فكرة الجنس الكلى للقواعد البديعية ، وفكرة إدخال مسائل لغوية كثيرة فى دراسة البديع ، مع الاشتراك فى أسماء بعض الأجناس والكليات والمصطلحات وفى كثير من التعريفات والأمثلة والشواهد ، وكان ابن البناء هو الذى بدأ فكرة الكليات التى صدر عنها فى كتابه الكليات النحوية وفى هذا الكتاب الخاص بالبديع . والسجلماسى هو الذى انتهى بها إلى الغاية - على هدى علم المنطق - إذ استحالت فكرة الكلية عنده إلى فكرة الجنس وأنواعه ، ومضى فى الكتاب يطبق المنطق بقضاياها ومقولاته وأقيسته ولا يخفى ذلك بل يصرح به مرارا ، حتى لينقل كلامه بنصه مرارا (انظر الفهرس) وما لاريب فيه أن السجلماسى حاول جاهدا أن يمتنع البديع ، وتم له ذلك ، غير أنه توسع

فى التفريعات على نحو ما يتضح فى تفريعاته على الإيجاز والمبالغة والمظاهرة والتكرير ، ولعل ذلك كان أهم سبب فى أن الكتاب لم يكتب له ولا لمنهجه الذبوع والانتشار فى حلقات دراسة البلاغة والبديع فى البيئات العربية حتى فى بيئة المغرب الأقصى نفسها مع أن فيه أمثلة وشواهد بديعية رائعة تشهد للسجلماسى بحسن ذوقه ورهافة حسه البديعى أو البلاغى . وقد بذل الأستاذ علال الغازى جهدا واضحا فى تحقيقه لهذا الكتاب ودراسته وما صنع له من فهراس مختلفة .

ونعجب أن ينصرف المغرب الأقصى - بعد السجلماسى - عن الإكباب على كتابه بالدرس والشرح وأن يعنى - مثل مصر والشام - بدراسة كتاب التلخيص للقزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ / ١٣٨٩ م ولعلى الياصلاى فى العصر السعدى حاشية على شرح السعد لتلخيص القزوينى وهو تلخيص لعلوم البلاغة الثلاثة : البيان والمعانى والبديع ، ولحمدون بن الحاج فى العصر العلوى المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م حاشية على الشرح المختصر لسعد الدين التفتازانى لتلخيص القزوينى . ومن يرجع إلى الفصل الذى عقده حاجى خليفة فى كتابه : « كشف الظنون » لتلخيص القزوينى يشعر أنه أصبح المسيطر على كل الأبحاث البلاغية فى العالم العربى ، وقد أقبل عليه الشراح يشرحونه يشرحه المغربى والمصرى والعراقى وغيرهم وقد يضعون على الشروح شروحا ، ويسمونها حواشى ، بحيث أصبح هو وتلك الشروح والحواشى المادة الأساسية لتعليم البلاغة بفروعها المختلفة من بيان ومعان وبديع فى جميع الأقطار والبلدان العربية .

٤

علوم^(١) القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

يعنى المغرب الأقصى - من قديم - بقراءات القرآن الكريم ، ومن أهم قرائه - قبل عصر المرابطين - أبو عمران موسى بن عيسى الفاسى ، أخذ القراءات عن أئمتها فى القيروان ومصر ومكة وبغداد ، وأقرأ الناس بالقيروان مدة . وكان يعاصره سليمان بن أحمد الطنجى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م رحل إلى مصر وبرع فى القراءات كما يقول ابن الجزرى . ونزل سبعة

النبوغ المغربى لعبد الله ككون وحضارة الموحدين محمد التونى ومظاهر الثقافة المغربية فى الأدب المغربى بالعصر المرينى لمحمد بن شقرن والحركة الفكرية بالمغرب لمحمد حجى والحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة المغربية للأخضر .

(١) انظر فى تراجم القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين طبقات القراء لابن الجزرى والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى والدياج لابن فرحون والمتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور السعدى وما وضع محققه فى هوامشه من مصادر لبعض الأعلام وكتاب

قبل عصر المرابطين على بن عبد الغنى الحصرى المتوفى بطنجة سنة ٤٦٨ هـ/١٠٧٥ م وله
 قصيدة رائية مشهورة فى قراءة نافع . ولتلقى فى عصر المرابطين بالمقرئين : مروان بن سَمَجُون
 المتوفى سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م وَلِيَّ الصلاة والخطبة بسبته وتصدّر قديما لإقراء القرآن وكان -
 كما يقول ابن الجزرى - مقرئا مجودًا لغويا ، وعلى بن محمد الجذامى نزىل سبته المتوفى سنة
 ٥٣٠ هـ أقرأ بها القرآن ودرّس العربية زمانا ، وأبو بكر محمد الفلنقى نزىل فاس المتوفى بها سنة
 ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م وكان إماما فى صناعة الإقراء ، وله كتاب فى القراءات سماه : الإيماء .
 ومن القراء فى عصر الموحدين على بن محمد بن هذيل المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م وإليه انتهت
 رئاسة الإقراء فى شرقى الأندلس ، وعلى بن أحمد الكنانى المستوطن لفاس المتوفى بها سنة
 ٥٦٩ هـ/١١٧٣ م التزم الإمامة بمسجده فى فاس والإقراء فيه ستا وستين سنة ، وابن خير
 محمد المتوفى سنة ٥٧٥ هـ/١١٧٩ م وهو من أئمة المقرئين والحدثين ، ولد ونشأ بفاس واستوطن
 إشبيلية ، وله فهرسة مشهورة ومنشورة بشيوخه وما اطلع عليه من كتب ، وكانت له أسانيد
 فى القراءات متواترها وشاذها فى مجلد خاص . ومن القراء فى هذا العصر عبد الرحمن الجذامى
 المتوفى سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م تصدّر للإقراء بسبته فى مسجد زقاق الخشاشين نحو من ستين
 سنة ، وابن الصقر محمد بن أحمد الأنصارى المراكشى المتوفى سنة ٥٩٠ هـ/١١٩٣ م وكان
 مقرئا مجودًا محدثا متسع السماع ، ويحى بن محمد الخوزى المتوفى سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٥ م
 تصدر للإقراء بسبته وله أرجوزة فى غريب القرآن ، وعلى بن محمد بن يوسف الفهمى المتوفى
 سنة ٦١٧ هـ/١٢٢٠ م سكن سلا ثم مراكش وكان قائما على القراءات آية من آيات الله -
 كما يقول المراكشى - فى حسن الصوت ضريرا وسمعه المنصور يعقوب صاحب موقعة الأرك
 فأخذ بلبه طيب نغمته ، فقربه واستخلصه لتعليم أبنائه وبناته ، وأبو عبد الله محمد بن الحسن
 الفاسى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ويقول ابن الجزرى إن له شرحا على الشاطبية .
 ومن القراء فى عصر المرينيين ابن رشيد صاحب الرحلة المشهورة المتوفى سنة
 ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م بمراكش وكان يروى قصيدة حرز الأمانى المعروفة باسم الشاطبية . وابن
 آجروم معاصره المار ذكره بين النحاة وله شرح على الشاطبية ، وابن برى التازى على بن محمد
 المتوفى بفاس سنة ٧٣٠ هـ/١٣٣٠ م وله منظومة فى قراءة نافع أحد القراء السبعة سماها الدرر
 اللوامع . وابن هانيء محمد بن على اللخمى السبتي المتوفى شهيدا بجبل الفتح سنة
 ٧٣٤ هـ/١٣٣٤ م وكان أستاذا فى القراءات والنحو ، وأبو القاسم بن عمران الحضرمى السبتي
 المتوفى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م وله كتاب الكافى فى القراءات ، ومحمد بن محمد بن إبراهيم
 الخراز المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٦ م صاحب كتاب مورد الظمآن فى حكم رسم أحرف
 القرآن أتى فيه بزوائد على سابقه ، وله شرح على قصيدة الحصرى فى القراءات . ومن القراء
 فى عصر السعديين محمد بن أبى جمعة المبطى الصماتى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ/١٥٢٤ م مؤلف

كتاب وقف القرآن ذكر فيه الكلمات القرآنية التي يوقف عليها من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ، ولا يزال العمل جاريا في المغرب الأقصى إلى الآن في كتابة المصاحف على ما وضعه ودوَّنه في هذا الكتاب . ولأحمد بن شعيب المتوفى سنة ١٠١٥ هـ/١٦٠٧ م إتيان الصنعة في قراءة السبعة ، ولعبد الواحد بن عاشر أستاذ القراءات المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ/١٦٣١ م شرح على مورد الظمان في حكم رسم أحرف القرآن للخراز . ومن القراء في عصر العلويين عبد الرحمن بن القاضي المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ/١٦٧٢ م وله منظومة في القراءات السبع ، ومنظومة ثانية في رسم المكي في القرآن ، وكتاب في قراءة ابن كثير عالم أم القرى (مكة) وكتاب بيان الخلاف والشهير والاستحسان وما أغفله مورد الظمان لابن الخراز . وعبد الرحمن المنجرة الصغير المتوفى سنة ١١٧٩ هـ/١٧٦٦ م وله حاشية على شرح التونسى المسمى الطراز في شرح ضبط الخراز في رسم أحرف القرآن ، وله أيضا حاشية على شرح عبد الواحد بن عاشر المسمى فتح المنان على مورد الظمان للخراز ، ولمحمد بن عبد السلام الفاسي حاشية على شرح الجعبري على الشاطبية المسماة حرز الأمانى ، وله كتاب في تجويد القرآن ، وكتاب ثان في طبقات المقرئين وكتاب ثالث في مخارج الحروف .

وظل المغرب الأقصى يعتمد في تفسير القرآن الكريم على ما ألفه المشرق فيه من كتب حتى إذا كنا في عصر المرابطين أخذ يظهر فيه بعض المفسرين مثل أبى بكر السبتي محمد بن يعلى المعافري خال القاضي عياض ، وله تفسير لم يتم . وينشط غير عالم مغربى لتفسير الذكر الحكيم في عصر الموحدىن مثل عبد الجليل القصرى من أهل مدينة القصر الكبير المتوفى بسنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م وله تفسير للقرآن كان يقع - فيما يقال - فى ستين مجلدا ، وابن مصالة الفازازى المكناسى المستوطن بأخرة « فاس » المتوفى بعد سنة ٦١١ هـ/١٢١٤ م وكان طوال حياته معتنيا بتفسير القرآن ، وأبى الحسن بن الحصار على بن محمد الأنصارى الفاسي المتوفى سنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م سكن سبتة ومراكش وغيرهما وله الناسخ والمنسوخ فى القرآن ثلاث نسخ : الأكبر والأوسط والأصغر ومقالة فى إعجاز القرآن وأنشد له ابن عبد الملك المراكشى قصيدة رائية فى اثنين وعشرين بيتا نظمها فى المدينى والمكى من سور القرآن ، ومحمد بن يوسف المزدغى المتوفى سنة ٦٥٥ هـ/١٢٥٨ م أقرأ بسبتة وفاس وولى الخطبة والصلاة بجامع القرويين فيها إلى وفاته ، وله تفسير حفيلى مفيد انتهى فيه إلى سورة الفتح . ومن المفسرين فى عصر الدولة المرينية أحمد بن فرتون السلمى الفاسي المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م وهو تلميذ ابن مصالة المار ذكره وله كتاب الاستدراك والإتمام بما فى كتاب السهيلي : التعريف والإعلام بما أبهم فى القرآن العزيز من الأسماء والأعلام ، ومحمد بن على بن العابد الأنصارى الفاسي نزيل غرناطة وبها كتب لابن الأحمر ، وله اختصار الكشاف للزمخشري مع تجريده من آرائه الاعتزالية توفى سنة ٦٦٢ هـ/١٢٦٤ م ولابن البناء المار ذكره

فى الرىاضين والبلاغين الباء فى البسملة ، وتفسير الاسم فيها ، وتفسير سورة الكوثر ، وتفسير سورة العصر ومتشابه اللفظ فى القرآن ، وتسمية الحروف وخاصة وجودها فى أوائل السور ، وحاشية على الكشاف للزمخشري . وولتقى فى القرن التاسع الهجرى بأبى القاسم السلوى وله تفسير للقرآن الكريم .

ومن المفسرين فى العصر السعدى ابن الحاج الشطيبى المتوفى سنة ٩٦٠ هـ/١٥٥٣ م وله اللباب فى مشكلات الكتاب ، وللمنصور الذهبى المتوفى سنة ١٠١٤ هـ/١٦٠٦ م حاشية على الكشاف للزمخشري وبالمثل لمحمد بن عبد الله الرجراجى قاضى تادلة تلميذ أبى العباس المنجور ، ومن مفسرى العصر عبد الله بن طاهر الشريف المتوفى سنة ١٠٤٥ هـ/١٦٣٦ م وله الدر الأزهر فى مناسبات الآيات والسور ، وعبد الرحمن العارف المتوفى سنة ١٠٤٦ هـ/١٦٣٧ م وله حاشية على تفسير الجلالين ، وعلى بن عبد الواحد الأنصارى السجلماسى ، وله تفسير للقرآن الكريم ، وتوفى سنة ١٠٥٤ هـ/١٦٤٥ م .

ومن المفسرين فى عصر العلويين إدريس العراقى المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م وله حاشية على تفسير الثعلبى ، وابن عجبية المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ/١٨٠٩ م وله البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد ، وكان يعاصره الطيب ابن كيران المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ/١٨١٢ م وله تفسير سورة الفاتحة ، وتفسير جزء من سورة البقرة ، وتفسير من سورة النساء إلى سورة غافر . وكان يعاصرها حمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م وله تفسير بعض سور القرآن الكريم وحاشية على تفسير أبى السعود وحاشية أخرى على تفسير البيضاوى ، ولعبد الرحمن الخائلك المتوفى سنة ١٢٣٧ هـ/١٨٢١ م حاشية على تفسير الجلالين .

وينشط المغرب الأقصى فى رواية الحديث النبوى ويشتهر فيها بالقرن الرابع الهجرى أبو محمد الأصبلى عبد الله بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩٢ هـ/١٠٠١ م وهو منسوب إلى مدينة أصبلا على المحيط الأطلسى وبها نشأ وارتحل فى طلب الحديث إلى الأندلس . ثم رحل إلى المشرق فلقى شيوخ القيروان ومصر وحج فلقى بمكة سنة ٣٥٣ هـ أبا زيد المرزوى وحمل عنه البخارى ، وكان يعد من كبار رواة ، ولقى بها الأبهري رئيس المالكية ، وروى كل منهما عن صاحبه كما لقى الدارقطنى المحدث الكبير ، وروى كل منهما أيضا عن صاحبه ، وسع منه البخارى ، ثم سمعه من أبى أحمد الجرجانى ، وعاد يحمل نسخة وثيقة صحيحة من البخارى أدق صحة ، ونزل الأندلس وأمه العلماء والطلاب من كل بلد ، يحملون عنه صحيح البخارى ، ويدل بوضوح على مدى صحتها أن اليونانى الدمشقى فى القرن السابع الهجرى حين أخرج نسخة من صحيح البخارى صحيحة كل الصحة جلب أصل الأصبلى ، وكان أحد أربعة أصول

اعتمد عليها في المقابلة واتخذ حرف (ص) رمزاً له طوال مقابلاته على نحو ما يتضح في طبعة مصر لصحيح البخارى منذ القرن الماضى .

ونلتقى بعده بىكار بن برهون بن عيسى الغرديس السجلماسى ، وكان قد حجّ ولقى بمكة أباذر المروى وسمع منه صحيح البخارى ، وعاد إلى المغرب يملئ رواية البخارى عنه . ورواية أبى ذر كانت أحد الأصول الأربعة التى اعتمدها اليونينى فى مقابلاته لإخراج نسخته من صحيح البخارى على أدق صورة علمية ممكنة ، وتسامع العلماء والطلاب فى المغرب الأقصى بروايته ، فرحل إليه كثيرون من المغاربة والأندلسيين يأخذونها عنه وبذلك حظيت المغرب من قديم بروايتين أصيلتين من روايات صحيح البخارى ، وكان ابن الغرديس لا يزال على قيد الحياة سنة ٤٨٦ هـ مما يجعله أول محدث كبير يلقتنا فى عصر المرابطين . ومن تلامذته يوسف بن عيسى بن الملجوم المتوفى سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م وقد أجاز له سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م وحضر ابن الملجوم مع يوسف بن تاشفين موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م . وكان ابنه عيسى محدثاً على مثاله ، وسمع منه ومن شيوخ عصره ورحل إلى سجلماسة . وسمع ابن الغرديس وأخذ عنه . ونهضى سبته فى عصر المرابطين القاضى عياض إلى علوم الحديث ورواياته وقد توفى سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م وبذلك يكون قد لحق عصر الموحدين إذ عاش فى عصرهم بقية قليلة نحو خمس سنوات ، ومولده بسبته سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م وله فى الحديث النبوى كتب مختلفة ، منها كتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ ، وشرّق هذا الكتاب وغرّب ، وكُتبت له شروح كثيرة ، ومنها إكمال المعلم بصحيح مسلم ، والمعلم لشيخه المازرى الصقلى المتوفى بالمهدية سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م وقد أضاف إلى شرحه لمسلم زيادات وإضافات ، ومنها مشارق الأنوار فى تفسير غريب الحديث بكتبه الصحاح الثلاثة : الموطأ وصحيح البخارى وصحيح مسلم ، ويشمل ضبط ألفاظها وتفسيرها مع التنبيه على مواضع الأوهام والتصحيقات .

ومضت رواية الحديث النبوى والتأليف فيه يزدهران فى عصر الموحدين ، إذ كان خلفاؤهم يعنون به بل كان منهم من يكثر من مدارسته ، حتى نسب إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أنه كان يحفظ أحد الصحيحين : صحيح البخارى أو صحيح مسلم كما يقول صاحب المعجب ، وكان ابنه يعقوب على غراره ، ونال عنده طلبة الحديث ما لم ينالوه فى أيام أبيه وجده كما يقول صاحب المعجب . ويقول ابن أبى زرع فى كتابه روض القرطاس عن ابنه المأمون إدريس (٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م - ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) إنه كان إماماً فى الحديث ولم يزل أيام خلافته يقرأ كتاب الموطأ وكتاب صحيح البخارى وسنن أبى داود . ومن كبار المحدثين فى عصرهم أبو عبد الله بن الغازى السبتي محمد بن الحسن ، وكان راوية للحديث واستقضى ببلده سبته ، توفى سنة ٥٩١ هـ / ١١٠٤ م ومنهم على بن عتيق المتوفى سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م وكان محدثاً

راوية مكثرا عنى بالحديث طويلا ، ومنهم محمد بن قاسم بن عبد الكريم التميمي الفاسي المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م رحل في طلب الحديث النبوي إلى بلاد إفريقية التونسية والبلاد المصرية ودمشق وكان محدثا حافظا ذا كرا للحديث ورجاله وطبقاتهم وتواريخهم ، ومن مصنفاته « اللعة في ذكر أزواج النبي ﷺ وأولاده السبعة » ومنها الأغذية مما جاء في الحديث ، ومنها تحفة الطالب ومنية الراغب في الأحاديث النبوية العلية السنية ، ومنهم أبو عبد الله بن الصيقل محمد بن عبد الله الحسيني القاضي المتوفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م كان راوية للحديث حافظا لمثونه بصيرا بعلمه عارفا برجاله وطبقاتهم وتواريخهم ، عني بذلك أتم عناية ودرس الحديث ببلده فاس واستدرك على عبد الحق في كتابه الأحكام الكبرى أحاديث كثيرة ، ومنهم أبو الحسن ابن القطان على بن محمد بن عبد الملك المتوفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م كان مستبحرا في علوم الحديث بصيرا بطرقه عارفا برجاله مميزا صحيحه من سقيمه ، وله في الحديث مصنفات نافعة ، منها نفع الغلل في الكلام على أحاديث السنن لأبي داود في ثلاثة أسفار ضخمة ، ومنها كتاب في الرد على ابن حزم في كتابه المحلى مما يتعلق به من علم الحديث ، ومنها كتاب حافل جمع فيه الحديث الصحيح محذوف السند ، كمل منه كتاب الطهارة والصلاة والجنائز والزكاة في نحو عشرة مجلدات ، وله أحاديث في فضل التلاوة والذكر ، ومقالة في نعت المحدثين الحديث بأنه حسن . ومن محدثي عصر الموحدين عمرو بن دحية الكلبي السبتي المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م تجول كثيرا في بلاد الأندلس والشمال الإفريقي والمشرق واستقر أخيرا في القاهرة وأسند إليه السلطان الكامل رياسة دار الحديث وكانت له عنده حظوة عظيمة ، ومن مصنفاته الآيات البينات في ذكر ما في أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات ، والمستوفى في أسماء المصطفى ، ومنهم أبو عبد الله بن المواق المراكشي قديما الفاسي حديثا المتوفى سنة ٦٤٢ هـ/١٢٤٤ م وله شرح الموطأ وشرح مقدمة صحيح مسلم وتعقيب على كتاب شيخه أبي الحسن بن القطان في نقده لكتاب الأحكام الكبرى لعبد الحق أظهر فيه دقة معرفته بصناعة الحديث وعلمه مع براعة تعقيباته . ومنهم أبو الحسن الشاربي على بن محمد المتوفى سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥٢ م وكان محدثا راوية مكثرا ثقة عاكفا على العلم جماعة لنفائس الكتب انتقى منها جملة وافرة وقفها على مدرسة شيدها بسبته ، ووقف عليها من أملاكه ما يفى بنفقاتها ونفقات المدرسين فيها والطلاب ، وهي منقبة عظيمة له . ومنهم أبو الحسن بن قطرال قاضي الموحدين في بلدان أندلسية ومغربية كثيرة المتوفى سنة ٦٥١ هـ/١٢٥٤ م وكان محدثا راوية ثقة فيما يحدث به صحيح السماع .

ومن أهم المحدثين في عصر المرينيين أبو عبد الله الأزدي محمد بن عبد الله السبتي المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م روى عن علماء بلدته ، ورحل إلى الأندلس وأخذ عن شيوخها ثم رحل إلى المشرق فأخذ عن جماعة وافرة من شيوخ مصر والإسكندرية ودمشق وحران والموصل

وبغداد وواسط ، وعاد إلى بلده سبعة فروع عنه كثيرون من أهلها ونزلاتها ، وكان رواية مكثراً ثقة ، وكثير من مروياته عن أستاذه ابن الغازي السبتي المار ذكره . ومنهم ابن رشيد المار ذكره بين القراء ، وله السُّنَنُ الأَيُّنُ في السند المُعْتَمَن والمحاكمة بين مسلم والبخاري ، ومنهم ابن الشاط قاسم بن عبد الله السبتي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م أقرأ - عمره - بمدينة سبته ، وله حاشية على صحيح مسلم . وشرح كتاب الشفا للقاضي عياض غير محدث ، ومنهم في القرن التاسع الهجري الزموري وابن السكاك المتوفى سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م . ولابن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م اختصار فتح الباري على صحيح البخاري لابن حجر . ومن المحدثين الكبار في العصر السعدي سُقَيْنُ العاصمي السفياي عبد الرحمن بن علي القصري المتوفى سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م رحل إلى المشرق في طلب الحديث سنة ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م وأخذ عن تلامذة ابن حجر : زكريا الأنصاري وغيره من الشيوخ المصريين ، وتجول في السودان الغربي ورجع إلى فاس سنة ٩٢٤ هـ / ١٥١٨ م وأخذ في إلقاء الحديث على الطلاب حتى وفاته . ومن أهم تلاميذه أحمد المنجور المتوفى سنة ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧ م ويذكر في فهرست شيوخه أنه قرأ عليه أو سمع منه كتب الصحاح الستة سوى مصنفات في الحديث أخرى مما حمله عن المشاركة والمغاربة ، مما يدل على اتساعه في الرواية . ومن محدثي العصر محمد بن قاسم القصار المتوفى سنة ١٠١٢ هـ / ١٦٠٤ م ، وكان إماماً في رواية الحديث وكان يقرئ تلاميذه صحيح البخاري ومسلم والشفا لعياض ، ومنهم عبد الرحمن العارف المار ذكره بين المفسرين وله حاشية على صحيح البخاري .

ومن المحدثين المهمين في عصر العلويين محمد بن سليمان الروداني المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٣ م وله الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ ، ويقصد بالكتب الخمسة صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود وجامع الترمذي وسنن النسائي ، وله كتاب ثان جمع فيه بين أربعة عشر كتاباً من كتب الحديث سماه جمع الفوائد لجامع الأصول ومجمع الزوائد ضم فيه إلى الأصول الستة السابقة مسند الدارمي ومسند ابن حنبل ومسند أبي يعلى الموصلي ومسند البزار ومعاجم الطبراني الثلاثة : الكبير والأوسط والصغير . ومن محدثي العصر إدريس بن محمد الحسيني الفاسي المتوفى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م وله شرح شمائل الترمذي ، وشرح الأحاديث المائة الأولى من الجامع الصغير للسيوطي وتخريج أحاديث الشهاب القضاعي والدرر اللوامع في الكلام على أحاديث جمع الجوامع . ومنهم التاودي بن سودة المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م وله زاد المجد الساري لمطالع البخاري ، وشرح الأربعين النووية .

ونشط المغرب الأقصى - منذ القرن الرابع الهجري - في الفقه نشاطاً عظيماً ، ودائماً إذا أطلقنا الفقه في أي بلد مغربي ولم نخصَّصه فإنه يراد به الفقه المالكي ، إذ عملت أسباب

مختلفة في أن يصبح مذهب مالك هو المذهب الفقهي المنتشر بالمغرب في كل البيئات وكل الأوساط وكل البلدان ، وقد يلقانا من حين إلى آخر فقيه شافعي ، إذ كان شباب العلماء يرحلون إلى مصر ، وكان المذهب المالكي والشافعي يتنافسان فيها ، فربما اختلف بعض هؤلاء الشباب إلى حلقات الشافعية وأعجبهم مذهب الشافعي ، وقليل جدا من كانوا يعتقدون هذا المذهب على مر الحقب . وأهم فقيه مالكي نلتقي به في المغرب الأقصى بالقرن الرابع الهجري دراس بن إسماعيل الفاسي المتوفى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٢ م ، ويقال إن الفقيهين القيروانيين المشهورين أبا الحسن القابسي وابن أبي زيد تلمذا له ، كما يقال إنه هو الذي أدخل مذهب مالك إلى المغرب الأقصى وأنهم كانوا قبل ذلك على مذهب أبي حنيفة الذي كان يدعو إلى اعتناقه الأغلبية في القيروان . وبعد دراس يلقانا تلميذه عبد الرحيم بن أحمد الكتامي المعروف باسم ابن العجوز السبتى المتوفى سنة ٤١٣ هـ/١٠٢٢ م لازم ابن أبي زيد القيرواني مدة وسمع منه كتابه : النوادر والمختصر ، وملتقى بأبي عمران الفاسي المار ذكره بين القراء ، وإليه انتهت رئاسة الفقهاء في القيروان ، وكان يعاصره عبد الله بن غالب المتوفى سنة ٤٣٤ هـ/١٠٤٢ م صاحب ابن أبي زيد بالقيروان وتفقه عليه ، وكان يعاصرها عثمان بن مالك الفاسي المتوفى سنة ٤٤٤ هـ/١٠٥٢ م زعيم فقهاء المغرب الأقصى في وقته ، وله تعاليق على مدونة سحنون .

ويدخل عصر المرابطين ومن فقهاء مروان بن سمجون المار ذكره بين القراء ، وكان فقيها محدثا مفتيا . ويلقانا بعده علي بن القاسم رأس أسرة بنى القاسم بن عشرة بسلا المتوفى سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م وكان فقيها حافظا ومحدثا ووجه أهل بلده استقضى بها وأورث عقبه سوّدا وشرفا . وكان يعاصره أبو عبد الله التميمي الفاسي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ/١١١١ م وهو شيخ القاضي عياض الذي افتتح به فهرسته . ومن فقهاء عصر المرابطين عبد الرحمن بن محمد بن العجوز المتوفى سنة ٥١٠ هـ/١١١٦ م كان يدرس لطلابه المدونة واستقضى للمرابطيين في عدة بلدان بالأندلس والمغرب . ومنهم عبد الله بن علي بن سمجون المتوفى سنة ٥٢٤ هـ/١١٢٩ م وكان فقيها حافظا للفروع عارفا بإقراءها وتدريسها والفقه فيها ، ولاه أسير المسلمين يوسف بن تاشفين قضاء الجزيرة ونقل منها إلى غرناطة سنة ٥٠٨ هـ وظل بها إلى وفاته . ومنهم موسى بن عبد الرحمن الصنهاجي المتوفى بمراكش وهو قاضيا سنة ٥٣٥ هـ/١١٤٠ م وكان عالما بالأحكام مقدما في معرفتها حافظا للرأى ورعا .

ومع أن دولة الموحدين كانت تعتنق في الفقه المذهب الظاهري وتدعو إليه ، كما مرّ بنا في الفصل الماضي . فقد ظل المذهب المالكي حيا طوال العصر ، غير أن كتب التراجم لا توضح مدى حياته ولا مدى حياة المذهب الظاهري ، إذ ترجم لفقهاء العصر ترجمات عامة ، ولا نعرف أيهم كان ظاهريا وأيهم كان مالكيا . وأؤمن بأن الكثرة من القضاة كانت ظاهرية

فضلا عن كان منهم يتولى منصب قاضى القضاة ، إذ الناس على دين ملوكهم ، ولعل خير مثال لقاضى القضاة الظاهري يوضح ما نزع أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء قاضى القضاة أو رئيسهم فى عهد المنصور يعقوب ، فإنه فجر - على هدى المذهب الظاهري فى الفقه - أكبر ثورة على سيبويه ونحاة المشرق بكتابه : « الرد على النحاة » إذ صوّب فيها سهامه على نظرية العامل التى تعد الأساس الذى أقام عليه النحاة بناء النحو مقدّرين أن العامل هو الذى يصنع الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر وهو الذى يترتب عليه ما لا يكاد يُحصى من تقديرات وتعليلات وأقيسة مع ما يضاف إلى ذلك من تمرينات افتراضية . وابن مضاء فى هذه الثورة على النحو وقواعده متأثر فى ذلك كله - كما قلت فى تحقيق الكتاب - بالفقه الظاهري وما ينكره على المذاهب الفقهية المشهورة من الاعتماد على الأقيسة والتعليلات مما أدى فى التشريع - كما أدى فى النحو - إلى ركام هائل من الافتراضات .

وإنما سقت ذلك لأدل على أن دولة الموحدين كانت جادة فى اعتناق المذهب الظاهري وكان قضاة القضاة جادين معها فى هذا الاعتناق حتى أن قاضيا منهم يريد أن يطبقه على علم النحو وقواعده . وبالمثل كان كثير من القضاة أنفسهم يعتقدون هذا المذهب ، غير أن كتب التراجم - كما قلت - لا توضح ذلك ، وأنا أعرض طائفة من فقهاء العصر ، محاولا أن أثبت الظاهرين بينهم ، وأول من نقف عنده ابن الرمامة المتوفى سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١ م وهو من قلعة بنى حماد استوطن مدينة فاس ، واشتهر فضله فاستخلصه على بن يوسف بن تاشفين لنفسه ، واستخدمه قاضيا لنفسه وطالت حياته حتى لحق عصر الموحدين ، وكان شافعي المذهب فلم يكن ظاهريا ولا مالكيًا . ولتلتقى بعبد الرحيم بن عمر الحضرمي الفاسي المتوفى سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م وكان فقيها مالكيًا كما ينص على ذلك ابن عبد الملك المراكشي ، وكان من أهل التقوى وألف كتابا فى المذهب المالكي .

ويلقانا بعده عمر بن عبد الله بن صمم القرشي المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م ، روى عن كثيرين من بينهم ابن مضاء قاضى القضاة الظاهري ، ويقول ابن عبد الملك إنه صنف فى شواذ المذهب المالكي مصنفا ، ولا ندرى حل كان مالكيًا أو كان ظاهريا ينتقد مذهب مالك . وكان يعاصره على بن خيار الفاسي المتوفى سنة ٦٠٥ هـ/١٢٠٨ م وكان فقيها محدثا مشاورا (أى مما يرجع إليه القضاة فى الفتوى) ويقول ابن عبد الملك إنه كان رافضا التقليد ميالا إلى النظر والاجتهاد متفتنا أى أنه كان متصفا بنفس الصفات التى يدعو إليها المذهب الظاهري وأنصاه مما يؤكد أنه كان ظاهريا .

ولتلتقى بعده بأبي عبد الله بن الصيقل المار ذكره بين المحدثين وقد تقلد منصب قاضى القضاة بعد ابن مضاء إلى أن توفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م وخلفه فى منصبه الفقيه ابن دافال موسى بن

عيسى بن عمران حتى وفاته سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م وتقلد المنصب بعده الفقيه على بن محمد بن أبي عشرة ، ونفس منصبهم يؤذن بأنهم كانوا جميعاً ظاهرياً . ويختم فقهاء الظاهرية في عهد الموحدين بأبي الحسن بن القطان المار ذكره بين المحدثين ، ولا نستدل على ذلك فقط بما ذكره ابن عبد الملك المراكشي في ترجمته من أنه كان معظماً عند الخاصة والعامة من آل دولة بني عبد المؤمن وأنه حظى كثيراً من المنصور فابنه الناصر فالمستنصر بن الناصر فبند الواحد أخى المنصور فالمعتصم بن الناصر ، بل نستدل بما هو أهم . فإن من ترجموا له ذكروا أنه رأس طلبة العلم بمراكش ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة وما ذلك ، إلا لأنه سخر نفسه للدعوة بل ليصبح شيخ طلبتها ، وكانوا يطلقون اسم الطلبة على دعائهم . وكان لا يزال يقرأ لهم كتب ابن تومرت ويشرح لهم ما فيها من مبادئ الدعوة . وأيضاً بما يؤكد ظاهريته وانتصاره للمذهب الظاهري ما ذكر من أن أبا علي بن الطوير المراكشي عمر بن محمد الصنهاجي معاصره الفقيه المالكي ألف كتاباً في إثبات القياس الذي ينكره الظاهرية على المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة : مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأبي حنبل ، فرد عليه باسم الظاهرية منكراً القياس بكتاب سماه المنزع في القياس لمناضلة من سلك غير المذهب (الطريق الواضح السديد) في إثبات القياس .

وانتهى عصر الموحدين وبدأ عصر المرينيين وفيه توقف في القضاء العمل بالمذهب الظاهري وعاد للمذهب المالكي سلطانه كاملاً في القضاء والفقه ، ومن فقهاء حيثن محمد بن إبراهيم الغساني التاجر بمدينة أسفى المتوفى سنة ٦٦٣ هـ/١٢٦٥ م كان بعد الفراغ من مجلس تدريسه الموطأ والسير والنحو يقعد في حانوته لإدارته وكسب عيشه . ومنهم أبو الحسن الصُّغَيْرُ الزرولِي على بن عبد الحق المتوفى سنة ٧١٩ هـ/١٣٢٠ م القاضي بتازة ثم بفاس وله تقييد على المدونة . ومنهم تلميذه الشطبي محمد بن علي بن سليمان المتوفى غريباً في أسطول أبي الحسن المريني سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م وكانت له حظوة عنده وكان يقرأ عليه . ومنهم تلميذه القباب أحمد بن قاسم المتوفى سنة ٧٧٩ هـ/١٣٧٨ م قال فيه ابن الخطيب في الإحاطة : « صدر من صدور عدول الحضرة الفاسية ، فقيه نبيل مدرك جيد النظر شديد الفهم ، وله شرح مسائل الفقيه ابن جماعة المصري في البيوع ويقول ابن فرحون في الديباج إنه شرح مفيد ، وله أيضاً شرح قواعد الإسلام للقاضي عياض ، وفتاوى مجموعة نقل عنها الونشريسي في كتابه المعيار . ومنهم محمد بن الفتوح المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م وهو الذي أدخل مختصر خليل بن إسحق إلى المغرب الأقصى . ومنهم محمد بن أحمد بن غازي المتوفى سنة ٩١٧ هـ/١٥١١ م وله شفاء الغليل في حل مقل خليل ، بين فيه - كما يقول الأستاذ كنون - هفوات بهرام ، والمواضع المشككة في مختصر خليل ، وله أيضاً تكميل التقييد أكمل به تقييد أبي الحسن الصغير على المدونة .

ومن أهم الفقهاء فى عصر السعدين اليسينى الفاسى محمد بن أحمد التوفى سنة ٩٥٩ هـ/١٥٥١ م وهو منسوب إلى قبيلة بربرية تسمى يسين بالثناء أو بالثناء وكان فقيه فاس ومفتيها ، ومنهم مبارك بن على الجزولى التوفى سنة ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م ويقول أحمد بن القاضى إن قراءته لمختصر خليل فى الفقه المالكى بصورة تحرير المسائل فقط كعادة أهل مصر والمشرق . ومنهم المنجور أحمد بن على المار ذكره بين المحدثين وهو أستاذ المنصور الذهبى وأجازته إجازة عامة فى فهرسه ، وله فى الفقه شرح المنهج المنتخب للزقاق . ومنهم عبد الواحد الحميدى التوفى سنة ١٠٠٣ هـ/١٥٩٤ م وكان عالما بالفقه مستحضرا لمسائل خليل دعويا على الإقراء والتدريس ، ومنهم يحيى بن محمد السراج الفاسى التوفى سنة ١٠٠٨ هـ/١٥٩٩ م وكان يدرس لطلابه مختصر خليل بن إسحق المالكى المصرى وشيئا من ألفية ابن مالك والمغنى .

ومن الفقهاء المهمين فى عصر العلويين عبد القادر الفاسى التوفى سنة ١٠٩١ هـ/١٦٨٠ م وله كتاب باسم المسائل الفقهية عرض فيه العبادات الدينية ، وأجوبة فقهية عن طائفة من النوازل . ومنهم المساوى الدلائى محمد بن أحمد التوفى سنة ١١٣٦ هـ/١٧٢٤ م وله رسالة نصرة القبض فى الرد على من أنكر مشروعيته فى صلاتى النفل والفرص ، وصرف الهمة إلى تحقيق معنى الذمة . ومنهم أبو على الحسن بن رجال التوفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨ م وله حاشية كبيرة على مختصر خليل وحاشية أخرى على شرح الخرشي عليه ، وله أيضا حاشية على شرح ميارة لتحفة ابن عاصم ، ومنهم التاودى بن سودة المذكور بين المحدثين وله حاشية على شرح الزرقانى المصرى لموطأ مالك ، وإتحاف الناظر والسامع بشرح مسائل الجامع لخليل وشرح تحفة ابن عاصم وشرح الأربعين النووية ، وشرح الزقاقية لأبى الحسن على بن قاسم الزقاق الفاسى التوفى سنة ٩١٢ هـ/١٥٠٦ م .

ولابد أن نشير - وقد أنهينا الكلام عن الحركة الفقهية - إلى ظاهرة مهمة كان لها تأثير فى ازدهار الفقه وفتاويه ، ونقصد ظاهرة المحاماة والمحاميين بجانب القضاة ، وهى التى استبعت فى المغرب كما فى الأندلس ظاهرة التوثيق فكان هناك موثقون وكانت هناك كتب للتوثيق يؤلفها الفقهاء الخبراء بالقضاء والفتوى وهى توضح كيفية كتابة العقود فى المعاملات وغيرها كالزراعات واستجارات العقار . ويكرر الحسن الوزان فى كتابه وصف إفريقيا الحديث عنهم فى عهده لأوائل القرن العاشر الهجرى^(١) .

وأن نتحدث عن أصحاب علم الكلام أو علم العقيدة كما يسميه المغاربة ، وقد مر بنا فى الفصل الماضى حديث عن المعتزلة : الفرقة الكلامية المشهورة فى القرن الثانى الهجرى وأن

(١) وصف إفريقيا ص ٣٤٠ .

داعيا لواصل بن عطاء رأس الاعتزال أو دعاة هاجروا إلى المغرب الأقصى واستطاعوا أن يدخلوا في عقيدة الاعتزال جموعا كبيرة منه ببلدة عُرفت بهم تسمى البيضاء وأنهم أيضا استطاعوا - فيما يقال - إدخال إدريس مؤسس الدولة الإدريسية في عقيدتهم ، وأن محمد ابن إدريس الثاني بنى لهم بلدة بالقرب من مدينة أصيلا سماها البصرة إحياء لذكرى واصل البصري مؤسس الاعتزال في البصرة بالعراق .

ويبدو أن الاعتزال في المغرب الأقصى أخذ - فيما بعد - يتلاشى وتلاشت مدينتهم « البصرة » معهم فلم يعد لها أثر . والمهم أن المغرب الأقصى عرف عقيدة الاعتزال الكلامية مبكرا ، ومعروف أنها تقوم على خمسة مبادئ هي - كما مر بنا في الفصل الماضي - وحدانية الله بحيث لا يشبه المخلوقات ، وأيضا وحدانيته في صفاته بحيث تُعدُّ نفس ذاته ، والعدل على الله فهو لا يظلم بحال ، وإنفاذه وعده في النعيم ووعيده في الجحيم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الإيمان والكفر .

ودارت معارك عنيفة بين أهل السنة والمعتزلة القائلين بأن الإنسان حر مختار في إرادته وأعماله وأن ما جاء في القرآن الكريم من آيات تفيد التجسيد على الذات العلية تؤوّل فمثل ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ تعني أن قدرته فوق ما لهم من قدرة ، وأهل السنة القائلين بأن إرادة الإنسان وأعماله بقضاء الله وقدره يقولون إن مثل قوله تعالى : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ تؤمن بها حسب الظاهر ولا نعرف كيفية هذه اليد ، حتى إذا ظهر أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م نفذ إلى تأسيس مذهب كلامي جديد متوسطا فيه بين المعتزلة وأهل السنة إذ ذهب في مسألة أفعال الإنسان إلى أنها لله خلقا وصنعا وللإنسان كسبا وإرادة ، ووافق المعتزلة في تأويل الآيات التي تفيد التجسيد على الذات العلية . ومر بنا أن المعتزلة كانوا يرون أن صفات الله مثل السميع البصير هي عين ذاته بينما كان أهل السنة يرون أنها زائدة على الذات قائمة بها وأخذ الأشعري فيها برأى أهل السنة . وحاول التوفيق بين الطرفين المتعارضين في مسائل أخرى (انظرها في كتاب العصر العباسي الثاني ص ١٧٧) . وعمّ مذهب في العراق والشام ومصر ، وحمله إلى إفريقية التونسية أبو الحسن القابسي وأبو عمران الفاسي ، وأصبح هذا المذهب : مذهب الأشاعرة المذهب الكلامي السائد في البلدان المغربية .

ونجد في عصر المرابطين علماء يعرضون هذا العلم : علم الكلام أو العقيدة على طلابهم مثل أبي القاسم المعافري السبتي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م ومثل أبي بكر السبتي المار ذكره بين المفسرين . وندخل في عصر الموحدين ومر بنا أن ابن تومرت مؤسس دعوتهم زار العراق وجلب منه إلى عقيدته مبادئ من الشيعة والمعتزلة ، فمن الشيعة أخذ ثلاثة مبادئ : مبدأ الإمام ومبدأ ظهور المهدي الذي يصلح العالم في آخر الزمان ويسمى الإمام المهدي ومبدأ

العصمة من الوقوع فى الآثام وقد أطلقها جميعا على نفسه ، فتلقب بلقب الإمام المهدي المعصوم ، وكان يرفع لذلك نسبه إلى الرسول ﷺ كما فى المعجب للمراكشى . وأخذ من المعتزلة مبدأ توحيد الله أو وحدانيته بحيث لا يشبه المخلوقات ولا يجوز عليه التجسيد بأى صورة من الصور وما جاء فى القرآن من آيات يفهم من ظاهرها التجسيد تؤول على نحو ما صنع ذلك المعتزلة . وشركت الأشعرية المعتزلة فى اعتناق مبدأ عدم التشبيه على الله ، وكانت المعتزلة تمد هذه الوحدانية إلى الصفات - كما مر بنا - فهى عين ذاته لا قائمة بها كما يقول أهل السنة والأشعرى فمثلا الله عليم سميع بصير أى أن ذلك عين ذاته . وأخذ ابن تومرت بذلك كله ، أى أنه أخذ مبدأ الوحدانية عن المعتزلة بخلافه ، كما أخذ عنهم فكرة أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر ، وأيضاً فإنه أقام دعوته - كما يقول صاحب المعجب - على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو أحد مبادئ المعتزلة المذكورة آنفاً . وله فى الدعوة إلى نخلته مصنفات هى : أعز ما يطلب ، الإمامة ، العقيدة المرشدة . ومن أكبر الدعاة لعقيدة ابن تومرت البيهقي وله مصنف فيه ومصنف ثان فى دولة الموحدين حتى نهاية عصر عبد المؤمن بنهما على الدعوة للموحدين ، ومن كبار دعائهم عبد الله بن حماد بن زغبوش المكناسي وله مصنف فى إثبات الهداية الموحدية بالاستقراء من الكتاب العزيز . ومن أهم دعائهم أبو الحسن بن الإشبيلي على بن محمد بن خليل اللخمي نزيل مراكش ، وكان متحقفاً بعلم الكلام كما يقول ابن عبد الملك المراكشى ، ويقول إنه صنف كتاباً سماه « المعراج » قدم به على الخليفة عبد المؤمن الموحدي سنة ٥٤١ للهجرة ، فحظى عنده ورقاه إلى رتب عليّة نال بسببها دنيا عريضة^(١) ، ولعل الكتاب كان فى الدعاية لعقيدة الموحدين ، إذ نراهم يسندون إليه القيام على إرشاد دعائهم المسمين بالطلبة ، وكان يقرأ لهم كتب ابن تومرت صاحب الدعوة ، ويقول ابن صاحب الصلاة فى كتابه المن بالإمامة أنه سمع عليه مع هؤلاء الطلبة كتب ابن تومرت : عقيدة التوحيد ، وهى المسماة العقيدة المرشدة ، وكتاب العقيدة المباركة المسماة بالطهارة ، وكتاب أعز ما يطلب بقراءة أبى عبد الله بن عميرة . ويقول ابن صاحب الصلاة إن القارىء كان إذا قرأ فصلاً مما ذكرته هذه الكتب من عقيدة الموحدين شرح أبو الحسن بن الإشبيلي غامضها وفتح ألقاها على الطلبة حتى يذللها ويبينها أتم بيان^(٢) .

ومن خلفوا أبا الحسن بن الإشبيلي وقاموا على بث تعاليم دعوة الموحدين فى طلبتهم أو عبارة أدق فى دعائهم أبو الحسن^(٣) بن القطان المار ذكره بين المحدثين وقد ذكرنا هناك أن من ترجموا له قالوا إنه : « رأس طلبة العلم بمراكش » ويعنى هذا أنه كان يقوم على إرشادهم - فكان

وما بعدها .

(١) الذيل والتكملة ٣٠٤/١/٥

(٢) المن بالإمامة تحقيق د . عبد الحادى التازى ص ١٦٠ (٣) نظر ترجمته فى الذيل والتكملة ١٦٥/١/٨ .

يشرح لهم كتب ابن تومرت ويفسرها لهم ، كما كان يشرح لهم مذهب الظاهرية ، ويحتج كما أسلفنا لما يذهبون إليه من إبطال القياس في الأحكام الفقهية والاقتصار على الكتاب والسنة . ومن علماء الكلام في عصر الموحدين عثمان السلالجي المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م وله في عقيدة الأشعرية منظومة سماها البرهانية في العقيدة الأشعرية ، ومنهم محمد بن عبد الكريم الفندلاوى الفاسى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩ م وكان ماهرا في علم الكلام ، ومثله معاصره على بن عتيق الأنصارى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/ ١٢٠١ م ومنهم أبو الحجاج نموى الفاسى المتوفى سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م روى عن السلالجي البرهانية . وكان ميرزا في علم الكلام ، ومنهم أبو الحسن بن الحصار المار ذكره بين المفسرين وله في علم الكلام مصنف مفيد ومقالة في الإيمان والإسلام وعقيدة سماها تلقين الوليد وخاتمة السعيد ، ومنهم يوسف بن محمد المكلاى الفاسى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م وكان ميرزا في علم الكلام .

ومن أصحاب علم الكلام في عصر المرينيين أبو الحسن الطنجى اليفرنى المتوفى سنة ٧٣٤ هـ/ ١٣٣٤ م وله شرح على البرهانية للسلالجي سماه : « المباحث العقلية في شرح معاني العقيدة البرهانية » . ومنهم أحمد زروق المتوفى سنة ٨٩٩ هـ/ ١٤٩٤ م وله شرح العقيدة القدسية . ومن المتكلمين في العصر السعدى اليسينى محمد بن عبد الرحمن الفاسى المار ذكره بين الفقهاء وله رسالة في خلف الوعيد . ولأحمد المنجور المار ذكره بين المحدثين شرحان على العقيدة الصغرى والكبرى للسنوسى وله شرح مقاصد ابن زكرى في التوحيد . وللحفصى المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ/ ١٦٢٧ م شرح العقيدتين الكبرى والصغرى في التوحيد للسنوسى ، وتكاثر شروحهما في العصر كثرة مفرطة . ومن أصحاب علم الكلام في عصر العلويين عبد القادر الفاسى المار ذكره بين الفقهاء وله كتاب العقيدة . ومنهم أبو على الحسن اليوسى المار ذكره بين علماء المنطق ، وله شرح على السنوسية الصغرى وحاشية على شرح السنوسى للعقيدة الكبرى ولحمد المهدي الفاسى المتوفى سنة ١١٠٩ هـ/ ١٦٩٨ م النبذة اليسيرة واللمعة الخطيرة في مسألة خلق أفعال العباد الشهيرة ومربنا توفيق الأشعرى فيها بين المعتزلة وأهل السنة . ولعمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٤ م حاشية على شرح السنوسى لعقيدته الكبرى .

التاريخ

نشط المغرب الأقصى في كتابة التاريخ منذ عصر المرابطين ، ومن أهم من كتب عن دولتهم يحيى بن الصيرفى المؤرخ الغرناطى ، فقد ألف عنهم كتابا باسم دولة لمتونة ، وهو -

وإن كان غرناطيا - نزل مراكش طويلا ، إذ يذكر في ترجمته أنه كان من موظفي أمرائها ، وتوفي سنة ٥٥٧ عن تسعين سنة . ومنذ عصر الدولة اللتونية أو دولة المرابطين يصبح تاريخ الأندلس جزءا متما لتاريخ المغرب الأقصى . وكان يعاصر ابن الصيرفي القاضي عياض السبتي المار ذكره بين المحدثين وله ترجمة للرسول ﷺ باسم كتاب الشفا كما مر بنا ، وكتاب في أعلام مذهب مالك باسم المدارك وكتاب في شيوخه باسم الغنية .

وتتكاثر في عصر الموحدين كتب السيرة النبوية العطرة وكتب تاريخ دولة الموحدين وكتب التراجم والفهرسة ، أما السيرة فيكتب فيها محمد بن قاسم بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م كتاب اللمعة في ذكر أزواج النبي ﷺ وأبنائه السبعة . ولأبي العباس العزفي المتوفى سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م الدر المنظم في مولد النبي المعظم ، ولابن دحية المار ذكره بين المحدثين كتاب التنوير في مولد السراج المنير ، وكتاب سلسلة الذهب في نسب سيد العجم والعرب وكتاب المستوفى من أسماء المصطفى ، والابتهاج في المعراج ، وله التحقيق في مناقب أبي بكر الصديق ، وله في التاريخ العام التبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، وتاريخ الأمم في أنساب العرب والعجم ، وأعلام النصر الميين في المفاضلة بين أهل صفين .

ونلتقى في تاريخ دولة الموحدين بثلاثة من مؤرخي الدولة الرسميين بجانب اثنين من المؤرخين غير الرسميين ، وأول المؤرخين الرسميين البيذق وله كتاب عن ابن تومرت ودعوته وكتاب ثان عن دولة الموحدين حتى نهاية عصر عبد المؤمن المؤسس الحقيقي للدولة . ويكتب مؤرخ رسمي ثان من حواشي الدولة ورجالها المقرين هو عبد الملك بن صاحب الصلاة المتوفى أواخر القرن السادس الهجري كتابا عن دولة الموحدين حتى عصره باسم : « المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين » مشيرا بذلك إلى الآية القرآنية : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ ويدل عنوان الكتاب أنه شديد التعصب لتلك الدولة كما هو واضح في قسمه الثاني الذي بقي لعصرنا من تاريخه والذي تحتفظ به مكتبة البودليانا في أوكسفورد ، ويشمل تاريخ دولة الموحدين من سنة ٥٥٤ هـ/١١٦٠ م إلى سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢ م وحقق هذا القسم الدكتور عبد الهادي التازي مع مقدمة قيمة ونشره في دار الغرب الإسلامي . وهو تفصيل لأحداث السنوات الأربع الأخيرة من حياة عبد المؤمن المؤسس الحقيقي للدولة وعشر سنوات لأحداث السنوات العشر الأولى من حياة ابنه يوسف . ونلتقى بمؤرخ غير رسمي هو عبد الواحد المراكشي الذي كان حيا في العقد الثالث من القرن السابع الهجري ، وله كتاب « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » من لدن فتح الأندلس حتى

سنة ٦٢١ هـ/ ١٢٢٤ م وهو يعرض فيه تاريخ الأندلس ودولة المرابطين ، ويفصل القول في دولة الموحدين بقلم مؤرخ حبيب محاييد دون المبالغة التي نلمسها عند البيهقي وابن صاحب الصلاة .

وما نلبث أن نلتقى بالمؤرخ الرسمي الثالث لدولة الموحدين وهو أبو محمد حسن بن أبي الحسن علي بن القطان المتوفى حوالي منتصف القرن السابع الهجري وكان من رجال الدولة ، ومربنا ذكر أبيه أبي الحسن بين المحدثين وبين دعاة الموحدين إذ كان من كبار دعائهم . وأكبر الظن أن ابنه كان مثله من دعائهم كما سيتضح عما قليل فقد صنف كتابا باسم نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، وسقط الكتاب من يد الزمن إلا قطعة من سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م إلى سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨ م وحققها تحقيقا سديدا مع مقدمة قيمة الدكتور محمود مكى وقد كان متحاملا على دولة المرابطين تحاملا شديدا حتى جعل حكايها مجسمين للذات العلية وكفارا مع ما لهم من خدمات عظيمة للإسلام وانتصارات كبرى على النصارى فى الأندلس ، ولكنه التعصب البغيض . وعرض فى كتابه ترجمة ضافية لابن تومرت أشاد فيها به وبدعوته ، حتى ليرفع نسبه إلى رسول الله ﷺ وبطليل الحديث عن أنه معصوم وعن كرامات عبد المؤمن ، ويذكر أن ابن تومرت فرض على أصحابه أن يقرأوا بعد صلاة الصبح كل يوم حزبا من القرآن الكريم ، وحزبا له ضمنه حديثا عن القدر والإيمان وأنه الإمام المهدي الواجب اتباعه وكفر من لم يطعه ولم يصل عليه هكذا يقول أبو محمد بن القطان .

والترجمة دعاية سافرة لابن تومرت ودعوته ، ولا بد أن بقية الكتاب المفقودة كانت على هذه الشاكلة من المبالغة المفرطة فى الدعاية للموحدين . ونضم إلى هذه الكتب التاريخية كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشى ، وهو تاريخ للمغرب والأندلس منذ الفتح إلى آخر أيام الموحدين . وهو أدم مصدر تاريخي لهما ، ونشرت منه أولا أجزاء متفرقة ، وأمكن أخيرا نشر أربعة أجزاء منه فى بيروت . ونشر القسم الخاص منه بالمرابطين والموحدين فى طبعة جديدة بدار الغرب الإسلامى فى بيروت وهو أوسع وأدق مصدر للدولتين . ونضم أيضا إلى الكتب السالفة كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول طبع الدار البيضاء وهو عن دولتي المرابطين والموحدين . ومن كتب التراجم فى هذا العصر كتاب المستفاد فى مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد لمحمد بن قاسم بن عبد الكريم وله أيضا بستان العابدين وريحان العارفين فى ذكر أهل الصفوة والانقطاع إلى الله بالخلة . ومنها التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات يوسف بن يحيى التادلى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ م ولابن المواق المار ذكره بين المحدثين شيوخ الدارقطنى ، ولأحمد بن يوسف ابن فرتون الفاسى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م ذيل كتاب الصلة لابن بشكوال وهو مصدر أساسى لابن الزبير فى كتابه

صلة الصلة ، وتكثر الكتب المسماة بالفهارس والبرامج عن الشيوخ لمؤلفيها وما حملوا عنهم من الكتب .

ونمضى إلى عصر المرينيين وملتقى بأبي عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسى الأنصارى المراكشى المتوفى سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م وموسوعته : الذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة ، وهى موسوعة كبرى طبع منها بعض أجزاءها بتحقيق د . إحسان عباس والجزء الثامن فى مجلدين بتحقيق د . محمد بنشريف ، وهو من أهم مراجعى فى الحركة الثقافية حتى نهاية القرن السابع الهجرى . وما نلبث أن نلتقى بآبى زرع الفاسى المتوفى سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧ م وقيل بل توفى سنة ٧٤١ وهو صاحب كتاب « روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » وهو أجمع تاريخ للمغرب من قيام الدولة الإدريسية إلى سنة ٧٢٦ من سنوات عهد السلطان المرينى أبى سعيد عثمان بن يعقوب ، وكان يعاصره ابن هاتىء اللخمى السبتي المار ذكره بين النحاة صاحب كتاب الغرة الطالعة فى شعراء المائة السابعة ، وكان فى عصرهما أبو الحسن الجزائى صاحب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس . وملتقى فى القرن التاسع الهجرى بالحضرمى وكتاب الكوكب الوقاد فيمن حل بسبته من العلماء والصلحاء والعباد ، وله بلوغ الأمانة ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته من مدرس وأستاذ وطبيب فرغ منه سنة ٨٢٤ هـ/١٤٢١ م ويلقانا محمد بن غازى المكناسى المار ذكره بين الفقهاء وله الروض المتهون فى أخبار مكناسة الزيتون ، ولمجهول كتاب الذخيرة السنية فى أخبار الدولة المرينية والموجود منه ينتهى عند سنة ٦٧٩ للهجرة .

ونلتقى فى عصر السعديين بآبى عسكر المتوفى سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٩ م وله كتاب دوحة الناشر فى علماء القرن العاشر وهو منشور بتحقيق الدكتور محمد حجي . ويلقانا أحمد بن القاضى المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٧ م وله ترجمة للخليفة المنصور الذهبى باسم المتقى المنصور على مآثر الخليفة المنصور ، وله درة الحجال فى أسماء الرجال ، وجدوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس ، وغنية الرائض فى طبقات أهل الحساب والفرائض . كما يلقانا عبد العزيز الفشتالى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م وله كتابه مناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفاء بتحقيق الأستاذ عبد الله كنون . وينبغى أن نضم إليهم أحمد بابا التنبوكى السودانى نزيل مراكش المتوفى سنة ١٠٣٢ هـ/١٦٢٣ م وفيها ألف نيل الابتهاج وهو تذييل لكتاب الديباج لابن فرحون وألف أيضا كتاب كفاية المحتاج اختصارا لكتابه السابق . ويختم مؤرخو العصر بأحمد المقرئ المتوفى سنة ١٠٤١ هـ/١٦٣٢ م وله أزهار الرياض فى أخبار عياض ، والموسوعة الأندلسية : « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها

لسان الدين بن الخطيب « ألفه بالقاهرة ، وله أيضا روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس . ودائما تؤلف فى المغرب الأقصى كتب برامج وفهارس كثيرة .

ومن أهم المؤرخين فى عصر العلويين أبو عبد الله محمد الإفرائى المراكشى المتوفى بعد سنة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م وله « نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى » فى تاريخ الدولة السعدية وصدر الدولة العلوية ، وأيضا « صفوة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادى عشر » ومثله فى الأهمية ابن الطيب القادري المتوفى سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م وله نشر المثنى فى أخبار أهل القرن الحادى عشر والثانى ، وتذيل على كفاية المحتاج لأحمد بابا .

الفصل الرابع

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب المغرب الأقصى - كثرة الشعراء

(أ) تعرب المغرب الأقصى

مرّ بنا . فى الفصل الثانى - أنه كانت تعيش فى بلاد المغرب - من قديم - سكان من قبائل البربر الكثيرة ، وأنه نزلتها قبل الفتح العربى الإسلامى عناصر جنسية مختلفة ، منها الآسيوى مثل الفينيقيين والقرطاجيين واليهود ، ومنها الأوربى مثل الإغريق والرومان والفندال . وفى الفتح نزلها عرب من آسيا قحطانيون يماثيون وعدنانيون مصريون ، ونزلها معهم من كان فى جيوشهم من إيران والعراق والشام ومصر ، ممن تم تعريبهم وحسن إسلامهم . ولم يفتحوا جميعا المغرب ابتغاء الاستيلاء على طبيّاته وخيراته ، وإنما فتحوه ابتغاء نشر الدين الحنيف ، فهم فاتحون ومجاهدون فى سبيل الله وسبيل دينه القويم يريدون أن ينشروه فى أطباق الأرض . وسرعان ما أخذ المغاربة يدخلون فيه أفواجا ، لما رأوا فى تعاليمه من تسوية مطلقة بين أتباعه ، بحيث يصبح لمن يعتنقه من البربر وغيرهم جميع ما للعربى الفاتح من الحقوق فى شئون المال وغير شئون المال ، وبحيث يعم العدل المطلق الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه . وقد حكموا قبل العرب بالفينيقيين والرومان والإغريق ، وجميعهم كانوا يرهقونهم بضرائب فادحة ، وكانوا يسومونهم صورا مقبّية من الظلم التعس والقهر البشع ، وما إن فتح العرب البلاد المغربية حتى ارتفع عنها القهر والظلم والضرائب الباهظة وحلّ مكان ذلك كله العدل التام الذى يكفل للناس حقوقهم دون أى ظلم أو حيف ويسوّى بينهم فى مواجهة الحياة بقسطاس سليم . وليس ذلك كل ما راعهم فى الدين الحنيف فقد راعتهم فيه أيضا بساطته الروحية بالقياس إلى المسيحية التى ظل الرومان والإغريق يحاولون نشرها فى ديارهم ، إذ ليس فيه فكرة الثلاث المعقدة فى المسيحية ، إنما هو إله واحد يدير الكون ، ولا معبود سواه من أوثان وأحجار وكواكب مما كانت تعبده جماهير البربر قبل الفتح العربى . لذلك لا نعجب إذا رأينا البربر فى القرن الهجرى الأول يقبلون جماعات ووحدانا على اعتناق الإسلام ، بفضل حملته من الفاتحين الذين تحولت كثرتهم إلى ما يشبه معلمين يعلمون إخوانهم من البربر تعاليم دينهم الحنيف .

وصدّر ولاية القرن الأول الهجري عن تلك التعاليم في معاملتهم لهم معاملة تقوم على الإخاء والعدل والمساواة ، فقد مر بنا أن حسان بن النعمان (٧١ - ٨٦ هـ) اتخذ من قبيلة جراوة الزناتية كنيّة عدادها اثنا عشر ألفا ألحقها بجيشه ، وبذلك أصبح البربر المسلمون رفقاء سلاح العرب ، يقتسمون معهم بالسوية غنائم الحرب ، وليس ذلك فحسب فإنه ولّى على تلك القبيلة ابنا للكهنة التي هزمها في معركة ضارية ، وبذلك أصبح البربر يقودون الكتائب في الجيش العربي ويتولون بعض الولايات مثل إخوانهم من العرب تماما ، وكان من تديره السياسى الحكيم أن وزع على صغار الفلاحين من البربر مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية التي كانت تمتلكها الحكومة البيزنطية ، مما جذب إليه وإلى الإسلام قلوب البربر ، ووضع الخراج على الأرض بعدالة تامة وبدون أدنى ظلم أو عسف . ودعّم العربية إذ دَوّن الدواوين وجعلها اللغة الرسمية ، فأضاف حاجة البربر إليها في مخاطبتهم مع الحكومة العربية وولاتها الكثيرين إلى حاجتهم إليها في أداء شعائر الإسلام وتلاوة كتابه التي تعد جزءا لا يتجزء من اعتناق البربري للدين الخنيف . وخلف حسانا موسى بن نصير على ولاية المغرب (٨٦ - ٩٦ هـ) فأحكم مثله المساواة التامة بين العرب والبربر في جميع الحقوق وجميع الشئون الخاصة بالحكومة ، وقد فتح منطقة زغوان وصار على رأس جيش عربي بربري حتى المغرب الأقصى يرتب شئون الولايات التي قسم إليها المغرب ، وقد جعل منها للمغرب الأقصى ولايتين : ولاية السوس أو سجلماسة في الجنوب وولاية طنجة في الشمال ، وجعل على طنجة واليا بربريا هو طارق بن زياد الورفنجوى ، وأبقى معه - فى قول بعض المؤرخين - تسعة وعشرين ألف جندي : سبعة عشر ألفا من العرب واثني عشر ألفا من البربر ، وأمر العرب أن يعلموا إخوانهم البربر ما يتيسر من القرآن الكريم وتعاليم الإسلام . وفى سنة ٩٢ هـ/٧١١ م كتب موسى إلى طارق أن يغزو الأندلس - أو بعبارة أدق -إيبيريا ، فجهّز جيشا عداده اثنا عشر ألفا اجتاز الزقاق إلى إيبيريا ، ونزل فى مكان سُمّي باسمه جبل طارق ، وفتح طارق فى برهة قصيرة شطرا كبيرا من إيبيريا ، واستمدّ موسى ، فتيحه موسى بجيش ، وأتما معا فتح إيبيريا .

وإنما سقنا ذلك كله لندل على أن البربر أصبحوا سريعا منذ القرن الهجرى الأول أمة عربية تدين بالإسلام وتنطق جماهير كبيرة منها العربية ، وما نكاد نتقدم فى العقد الثانى للهجرة حتى يتولى على المغرب يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ هـ/٧٢٠ م فينقض سياسة ولاية المغرب قبله ويأخذ فى فرض الضرائب الباهظة على البربر ، فما يستدير عام ولايته الأول حتى يقتلوه ، وما هى إلا سنوات حتى تولى على المغرب فى سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م عبيد الله بن الحبحاب ، فأوحى إلى عماله فى جميع أنحاء المغرب أن يفرّقوا بين البربر والعرب فى الخراج وجميع الشئون المالية ، واستشعر البربر فى ذلك عسفا لا يطاق ، وكان قد نزل بديارهم كثيرون من الخوارج وخاصة من فرقتى الصفرية والإباضية ، وكثر الأولون فى المغرب

الأقصى والثانون في جبل نفوسة بليبيا وأعجب البربر بمادئهما وما تقرّر من التسوية المطلقة بين العرب والموالي بربرا وغير بربر في شئون المال والضرائب وشئون الحكم حتى في تولي الخلافة ، فينبغي أن يتولاها أكثأ المسلمين عربيا أو بربريا أو عبدا حبشيا . واعتنق المذهب الصفرى كثيرون من أهل المغرب الأقصى ، وتولّى زعامتهم ميسرة ثم خالد بن حميد الزناتى ، وواقعوا جيوش الدولة وانتصروا عليها مرارا ، وانسحب منهم سحكو بن واسول فكان دولة صفرية في سجلماسة ظلت حتى أواخر القرن الثالث الهجرى ، أما صفرية الشمال في طنجة وإقليمها فقد ظلت تنازل الولاة في عهد بنى العباس حتى قضى عليهم يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠ هـ) . ويطيب لبعض المستشرقين أن يجعلوا من اعتناق البربر لمبادئ الخوارج في النصف الأول من القرن الثانى الهجرى دليلا على أن المغاربة أو البربر حاولوا أن يرفضوا الإسلام حينئذ والعروية معه ، وهو رأى مخطئ أشد الخطأ ، لأن البربر لم ينفكروا يوما في رفض دينهم الحنيف الذى اعتنقوه ولا في رفض العربية التى تغلغلت في أعماقهم وعبروا بها عن مشاعرهم وعواطفهم وأهوائهم ، إنما كل ما هناك أنهم ثاروا على الظلم والعسف فى جمع الضرائب المجحفة التى ينكرها الإسلام كما ينكر التفرقة بين العربى المسلم والبربرى المسلم فى الحقوق المالية وغير المالية ، فنورتهم إنما كانت مطالبة شرعية بتطبيق مبادئ دينهم وما ابتغاه من العدل المطلق بين أتباعه عربا وبربرا وغير بربر . ومن أكبر الدلالة على مدى ما حدث بين البربر من شعور عميق بالتعرب أن نجد قبائلهم جميعا تحاول كل منهم - منذ القرن الثانى الهجرى - أن تلتق لها نسبا يصلها بالعرب ، ومر بنا فى الفصل الثانى أن قبائلهم كانت ترجع إلى جذمين أو أصلين كبيرين هما البرانس والبتر ، وكانت البرانس تحاول الانتماء إلى العرب الفحطانيين ، بينما كتلت القبائل البتر تحاول الانتماء إلى القبائل العدنانية .

وما نتقدم فى المغرب الأقصى إلى سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨ م حتى نجد إدريس بن عبد الله الحسنى يصل بفراره من وجه العباسيين إلى مدينة ولىلى وينزل على إسحق بن محمد زعيم قبيلة أوربة ويعرفه بنفسه فيكرمه إكراما لا مزيد عليه ويطلعه على سره وأنه يريد أن يؤسس للعلوين بالمغرب الأقصى دولة ، فجمع له عشائر قبيلته وبايعته ، وسمعت به قبائل زواغة ومكناسة وغمارة وعشائر من زنانة فوفدت عليه وبايعته ولم يلبث أن جهز جيشا نازل به تادلة جنوبى ولىلى وتامسنة على المحيط ، وكان بعض أهلها لا يزال وثنيا أو يؤمن باليهودية أو المسيحية ، ففتح حصونهم وأسلموا جميعا . وبذلك تأسست دولة الأدارسة فى ولىلى وسرعان ما أسس إدريس الثانى خليفة أبيه إدريس مدينة فاس فى سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ م .

وكانت تلك الدولة الإدريسية أول دولة إسلامية عربية تأسست فى المغرب الأقصى ، ومضى إدريس الثانى وأبناؤه وأحفاده إلى نهاية دولتهم سنة ٣٠٤ هـ/٩١٦ م ينشرون الإسلام السنى فى تلك الديار ويطهرونها من الصفرية والرافضة ، وفتح إدريس الثانى أبواب دولته لوفود شخصيات

عربية من القيروان والمشرق ، ووفد عليه مئات أسكنهم فى أحد شطرى مدينة فاس وسمى لذلك باسم العدو القروية ، ولما أخفقت ثورة الفقهاء فى قرطبة على الحكم الرضى وطردهم منها ولّى مئات منهم وجوهم نحو مدينة فاس فأسكنهم إدريس الثانى الشطر المقابل لعدو القروين ، وسمى لذلك العدو الأندلسية . وأخذ الأدارسة منذ أيامهم الأولى يعنون بفتح الكتائب فى المدن وتحفيظ الناشئة القرآن الكريم ، وأخذت تنشأ فى المساجد سريعا حلقات المفسرين والمحدثين والفقهاء ومن يعلمون الناس العربية والنطق السديد بها ، وبذلك كله رسخ الإسلام ورسخت العروية فى المغرب الأقصى إلى الأبد . وأخذت الدراسات الدينية واللغوية تنشط فيه لعهد الأدارسة وبعد عهدهم ، ولا يلبث كثيرون من طلاب العلم فيه يريدون أن يتزودوا بأكبر حظ فيغدوا على القيروان ومصر وبلاد المشرق للاستماع إلى كبار العلماء فيها مالكية وغير مالكية ويعودوا بما حملوه من العلم إلى بلدانهم يعلمونه فيها ، وما يكاد ينتصف القرن الرابع حتى يصبح للمغرب الأقصى علماء وفقهاء ومحدثوه الذين تعنى كتب التراجم بإعطاء معلومات عن حياتهم مثل دراس بن إسماعيل الفاسى ومعاصره أبى جيدة وغيرهما كثيرون .

وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى حول منتصف القرن الخامس الهجرى وتنزل قبائلها وعشائرها فى برقة وتونس والجزائر شرقا وغربا وقلما تسقط عشائر منها إلى المغرب الأقصى ، وكان مستمرا فى نشاطه العلمى والأدبى بفضل جامع القروين أو جامعته الكبرى التى أنشئت سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م وكانت سيدة فاضلة من مهاجرة القيروان تسمى أم البنين الفهرية بنت هذا الجامع فاستحال - من حيثئذ - سريعا إلى جامعة ، وهى تعد أقدم جامعة إسلامية عربية فى العالم العربى ، ومضى العلماء فيها يعنون بالعلوم الدينية واللغوية ونشروا تلاميذهم فى أرجاء المغرب الأقصى . ونمضى مع التاريخ حتى القرن الخامس الهجرى ، فدخل الفقيه الجليل عبد الله بن ياسين بلاد صنهاجة فى جنوبى المغرب الأقصى ليحفظهم القرآن الكريم وكان حصيفا سيوسا بعيد النظر فعمل على تثبيت دعائم الإسلام فى السوس ودرعة وسجل ماسة وما وراء تلك البلدان فى الصحراء المترامية ، وكوّن من صنهاجة جيشا لردع ما انتشر فى بعض بلدان المغرب الأقصى من الزيغ والفساد ، وبدأ بمدينة تارودنت ومن بها من روافض سُموا باسم البجلية نسبة إلى عبد الله البجلى الرافضى الذى نزلها فى القرن الرابع الهجرى وأشاع فيها نخلته المارقة ، فحاربهم عبد الله بن ياسين وانتصر عليهم وردهم إلى الإسلام السنى ، ومضى إلى تامسة ونازل فيها برغواطة التى كانت قد اعتنقت نخلة زائغة ضالة ، وأنزل الله عليه النصر المبين ، غير أنه استشهد فى المعركة لسنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م وله فضل تطهير البلاد من الفرق والنحل الضالة وفضل تأسيس دولة المرابطين . وكان يلى أمرها - حين وفاته - أبو بكر بن عمر اللمتونى ، فأسلمها إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين ، فاستولى على مدينة فاس وبنى مراکش سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وجعلها عاصمة للدولة ، أما أبو بكر بن عمر فمضى

إلى الجنوب فى الصحراء يجاهد فى سبيل الله ونشر دينه حتى بلغ السودان ونهر النيجر ، وتوفى سنة ٤٨٠ ، وصار كل ما فتحه يدين بالولاء ليوסף فعظم أمره وشأنه . ومن سياسته الرشيدة أنه كتب إلى الخليفة العباسى ببغداد يبايعه ويطلب منه تقليدا بولايته على ما بيده من البلدان وخاطبه الخليفة بلقب أمير المسلمين ، وثبت له هذا اللقب من حيثذ ، وبذلك أدخل المغرب الأقصى فى إطار الجامعة الإسلامية العربية ، واستصرخه أمراء الأندلس ضد نصارى الإسبان الشماليين ، فعبز الزقاق بجنوده ، وسحق أعداء الإسلام فى وقعة الزلاقة المشهورة فى سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م . وأخذ الأندلسيون من حيثذ يندمجون فى سكان المغرب الأقصى بالزيارة والمصاهرة وخدمة دولة المرابطين والعمل فيها كتابا وقضاة وموظفين وعلماء يفدون على جامعة القرويين ومساجد مراكش وسبتة وطنجة وأصيلا وغيرهما من بلدان المغرب مما كان له أثر بعيد فى استكمال تعربها .

وتتحول مقاليد الحكم فى المغرب الأقصى إلى دولة الموحدين ، ومر بنا فى الفصل الثانى - أن القبائل الحلالية بالجزائر : الأنبج وزغبة ورياحا وقرة وضعت يدها فى يد صنهاجة لحرب عبد المؤمن فأرسل إليها جيشا هزمها وولت على وجوهها لا تلوى على شىء تاركة وراءها نساءها وأولادها ، فأمر بحملهم إلى مراكش وأجرى عليهم نفقات واسعة ، وكتب إلى أمراء تلك القبائل المنهزمة بأن أبناءهم فى الحفظ والصون . وبذل لهم الأمان والكرامة ووفدوا عليه ، فرد عليهم نساءهم وأولادهم وأجزل لهم فى العطاء ، واحتفى بهم ، فملك قلوبهم ، ويقال إنه أخلفهم على السمع والطاعة له وعونه على الجهاد فى الأندلس مع القبائل المغربية ، وفى عودته من فتح المهديّة سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م نقل من تلك القبائل الحلالية ألفا من كل قبيلة وأسكنهم البلاد المغربية متويا بنظره الصائب أن يعدهم عن الجزائر حتى تتخلص من غيظهم فيها وأن يشغلهم بالجهاد فى الأندلس . وأتاح ذلك للمغرب الأقصى جمهورا كبيرا منهم امتزج بسكانه وأنسى كثيرين منهم الرطانة البربرية وأبدلهم منها الفصاحة العربية . وفى سنة ٥٥٨ عزم عبد المؤمن على الجواز إلى الأندلس فأرسل إلى الأعراب فى بجاية وإقليمها يستصرخهم إلى الجهاد فى سبيل الله بالأندلس فاستجاب له منهم - كما يقول صاحب المعجب - جمع ضخم ، فأنزل بعضهم نواحي قرطبة وبعضهم نواحي إشبيلية ، وأقاموا هنالك . ودعا ابنه يوسف الخليفة بعده قبيلة رياح بالجزائر لنفس الغاية ، فوفد عليه منهم حشد ضخم وضعوا أنفسهم - كما مر بنا - تحت تصرفه ، وعبر كثير منهم معه الزقاق للجهاد فى الأندلس . وخرجت بقايا رياح وجشم والأنبج فى الجزائر على ابنه يعقوب ورددا إلى طاعته ، ونقلها إلى المغرب الأقصى فأنزل قبيلة رياح منطقتى المبط وأزغار ، وأنزل قبيلة جشم منطقة تامسنة وقبيلة الأنبج منطقتى دكالة وتادلة . وأخذ كثير من عشائر هذه القبائل ينساح داخل البلاد وعلى المحيط وفى السهول الواقعة بين سلا ومكناس . ومنح يعقوب نوميداى أى الصحراء جنوبى

الجزائر والمغرب الأقصى لعامة العرب ، وتغلغلوا إلى وادى ملوية ودرعة ، وتغلغلت قبيلة المعقل فى زمن ابن خلدون بقفار المغرب حتى المحيط . ومعنى ذلك كله أن بربر المغرب الأقصى اختلطوا اختلاطا واسعا بأعراب الجزائر عن طريق التعايش والمصاهرة والسكنى واتصل ذلك قرونا بحيث استحال سكان المغرب الأقصى شعبا عربيا لغة ودينا وتناولا للحياة إلا فى بعض الجهات النائية فى شواحق الجبال بأوراس والصحراء . وبكل ما قدمت يتضح أن لدولة الموحدين فضلا عظيما فى تعرب المغرب الأقصى بما نقلت إلى أقاليمه من جموع العرب النازلين فى الجزائر وأكبر الظن أنها لم تكن غايتها نقلهم إعدادا لجهاد الإسبان النصرارى فحسب ، بل كانت غايتها أيضا تعريب المغرب الأقصى نهائيا بما أنزلت فيه من جموعهم الهائلة . أما ما يقال من أن ابن تومرت كان يؤلف كُتبه بالعربية والبربرية وأنه كان يحاضر الجماهير باللغتين وأن الدولة - فى بدء عهدها - بدلت الخطباء والأئمة فى جميع البلاد ، وأنها اشترطت أن لا يؤم الناس ولا يخطبهم إلا من يحفظ عقيدة التوحيد لابن تومرت باللسان البربرى . فلم يكن ذلك منها سياسة رجعية كما يقول بعض المعاصرين إنما كان ذلك منها حرصا - والبربرية لا تزال متشرة فى المغرب الأقصى - على إيصال عقيدة الدولة إلى العامة المغربية ، وكان لا يزال فيها جماهير بربرية لا تحسن العربية .

(ب) كثرة الشعراء

تبدأ الحركة الأدبية فى المغرب الأقصى مع نشأة الدولة الإدريسية أواخر القرن الثانى الهجرى إذ كان بين أمرائها شعراء متعددون يتقدمهم إدريس الثانى (١٨٦ - ٢١٣ هـ) وتلاه من أبنائه وأحفاده وأسرته غير شاعر ، وأخذ الشعر يجرى على ألسنة بعض الشعراء المغاربة يمدحون به الأدارسة على نحو ما نجد عند إبراهيم بن أيوب النكورى ، وكانوا يهجون به خصومهم من البرغواطيين وغيرهم . ويظل الشعر يسيل على ألسنة بعض الشعراء فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، حتى إذا كان القرن الخامس الهجرى طارت شهرة بعض الشعراء إلى البلدان العربية وخاصة الأندلس ، إذ نجد ابن بسام يترجم فى الذخيرة لابن القابلة السبتي ويحى بن الزيتونى الفاسى وللنقيى أبى بكر المرادى ويذكر أنهم وفدوا على الأندلس مادحين لأمرء الطوائف ، وأن آخرهم أتجع أمرء المرابطيين بالمغرب الأقصى فى أوائل دولتهم ، وولاه محمد بن يحيى بن عمر اللمتونى قضاء معسكره المجاهد فى بلاد السودان ، ويقول : « أخرجت مما وجدت من شعره . ونثره ما يستخف رواسى الجبال ، ويستوفى ضروب السحر الحلال » . وينزل طنجة فى الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى الشاعر القيروانى على بن عبد الغنى الحصرى المبدع فى شعره ، وتكوّنت حوله سريعا ندوة أدبية . ونمضى إلى عصر المرابطيين ، فيشتهر لعهدهم ابن زنباع والقاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ويترجم عماد الدين الأصفهائى

فى كتابه الخريدة لنفر من شعراء المغرب الأقصى لعهد المرابطين ، هم اليمان بن فاطمة وعبد الله بن حماد المراكشى وعبد المؤمن بن يحيى السجلماسى ومحمد المكناسى المعروف بلقب ينطلق وحماد بن الرفا الفاسى وعلى بن يقظان السبتي القائل :

أحسنُ إلى مصرٍ حينئذٍ متيمٌ بها مستهَامَ القلبِ محترقَ الكبدِ
وهو حب قديم بين مصر وشعراء المغرب الأقصى .

ويأخذ الشعراء هناك فى التكاثر منذ عصر الموحدين وكانت الدولة حفية بهم وبالحرکين العلمية والأدبية ، وكان عبد المؤمن المؤسس للدولة وحفيده يعقوب شاعرين ، وكان ينظم الشعر غير أمير موحدى ، ومن شعراء تلك الدولة عثمان بن عبد الله السلالجى المتوفى سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ومحمد بن حبوس المتوفى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م وأبو الربيع الموحدى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م وابن الياسمين المتوفى سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م وأبو حفص عمر السلمى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م وابن تولو القرشى التيملى المتوفى بمصر سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م وفى نفس السنة محمد بن على السلالقى ، وأبو العباس الجراوى المتوفى سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م وعبد الواحد المراكشى المتوفى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م وابن دحية المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م وابن الخبازة ميمون الخطيبى المتوفى سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م وابن العابد الفاسى المتوفى حوالى سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٣ م وابن عبدون المكناسى المتوفى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م وابن المحلى المتوفى سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م والخليفة المرتضى الموحدى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م .

ورَعَت الدولة المرينية الحرکين الأدبية والعلمية وكثر الشعراء فى عهدها وفى مقدمتهم شعراء البيت المرينى من أمثال عبد الواحد بن يعقوب وعمر بن عثمان والسلطائين أبى الحسن وأبى عنان وأخيه عبد العزيز ، وملتقى بعشرات من الشعراء من أمثال محمد بن عمر الدراج المتوفى سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م وعبد العزيز الملووزى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م ومالك بن المرحّل المتوفى سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م وابن عبد الملك المراكشى صاحب كتاب الذيل والتكملة المتوفى سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م وأبى العباس العزفى المتوفى سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ م ومحمد بن عمر بن رشيد المتوفى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢٢ م والرحالة القاسم بن يوسف السبتي المتوفى سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م وابن شبرين المتوفى سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٧ م وابن شعيب الطبيب الأديب المتوفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م مثل عبد المهيمن الحضرمى ، ومحمد بن عبد الرحمن المكودى المتوفى سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م ومعاصره منديل بن آجرؤم وأبو القاسم الشريف المتوفى سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م وأبو عبد الله الزناتى المتوفى سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م ومحمد بن مصادف المتوفى سنة ٧٩٢ هـ وفى نفس السنة أحمد بن عبد المنان ، وعبد الرحمن

المكودي المتوفى سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م ومحمد بن جابر المكناسي المتوفى سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م وأحمد الحباك المتصوف المتوفى سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م والبهلول الوطاسي وإبراهيم بن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م ومحمد بن أحمد بن غازي المتوفى سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م وابن يجيش المتوفى سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م وفي نفس السنة الغزاني الفاسي وأحمد الدقون المتوفى سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م وعلى بن موسى بن هرون المتوفى سنة ٩٥١ هـ / ١٥٤٤ م وعبد الواحد الوائشريسي المتوفى سنة ٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م ومحمد بن عبد الرحمن الكراسي المتوفى سنة ٩٦٤ هـ / ١٥٥٧ م وغير هؤلاء كثير .

وخلفت الدولة السعدية الدولة المرينية ومضت ترعى العلماء والأدباء ، وبلغ السلطان المنصور الذهبي الغاية في ذلك ، إذ فتح السودان وجاءته منه كنوز الذهب فألقى بكثير منها في حجور الفقهاء والشعراء الذين كان يجمعهم إلى مجالسه ، وكانت مجالس علمية أدبية يتناظر فيها العلماء في الفقه وفي الحديث والتفسير ومختلف فروع العلم إذ كان - كما يقول ابن القاضي في كتابه درة الحجال - له قدم راسخة في كل فن من معرفة الشعر والخبر والمنطق والمعاني والبيان والأصليين والفقه واللغة والتفسير والحديث وعلومه والحساب والهيئة والهندسة والنحو وغير ذلك وكان شاعرا كما كان عالما وعمّ بنوالة الشعراء والعلماء ، فازدهرت لعهد الحياتان العلمية والأدبية ازدهارا لعل المغرب الأقصى لم يعرفه من قبله . ونلتقى في عصره وعصر الدولة السعدية عامة بكثير من الشعراء مثل القصري الفاسي المتوفى سنة ٩٥٥ هـ / ١٥٤٩ م ومعاصره سعيد الحامدي المتوفى بعده بقليل وأحمد المنجور المتوفى سنة ٩٩٥ هـ / ١٥٨٦ م ومحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٩ هـ / ١٥٩٠ م ومعاصره داوود الدغوي ، والزموري المتوفى سنة ١٠٠١ هـ / ١٥٩٢ م ومحمد بن عبد الواحد الحسني وأخيه أحمد المتوفين سنة ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م وعلى بن منصور الشيطمي المتوفى سنة ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م والزهروني المتوفى سنة ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م ومحمد بن علي الفشتالي المتوفى سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م وأحمد بن القاضي صاحب درة الحجال المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦ م وعبد العزيز الفشتالي وعلى بن أحمد الشامي المتوفين سنة ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢ م ومحمد الوجدي الغمادي المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م وابن عاشر المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠ م وأبي عبد الله المكلاتي المتوفى بعد سنة ١٠٤٩ هـ / ١٦٣٩ م ومحمد المساوي الدلائي المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩ م والطيب بن المساوي المتوفى سنة ١٠٧٧ هـ / ١٦٦٦ م . ومن ذكر أيضا في عصر الدولة السعدية عبد الواحد الحميدي سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م وعبد الواحد السجلماسي مفتي الحضرة أيام المنصور سنة ٩٣٣ هـ / ١٥٢٧ م ومحمد بن عمر الشاوي سنة ٩٤٣ هـ / ١٥٣٧ م وإدريس بن راشد الحسني سنة ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م ومحمد بن يعقوب الآيسي سنة ٩٦٦ هـ / ١٥٥٩ م

وأبى على المسفيوى سنة ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م ويسوق المقرئ أسماء طائفة كبيرة من الشعراء فى كتابه : روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس ، ومنهم من تقدم ذكره آنفا مثل عبد العزيز الفشتالى والهوزالى وابن القاضى ، ومن لم يتقدم ذكره أحمد بن الغرديس التغلبى وأحمد بن محمد الآيسى ومحمد بن عبد العزيز الفشتالى وأحمد المرید المراكشى وأبو القاسم الوزير الفسائى وعلى بن عمران السلاسى ومحمد بن رضوان النجارى وعبد العزيز الجيار والحسن بن يوسف الزياتى .

وترعى الدولة العلوية بدورها الحركتين العلمية والأدبية ، ومن الشعراء لعهداها محمد بن محمد بن أبى بكر الدلائى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م وأحمد الدغوغى معاصره ، وعبد الرحمن بن القاضى المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م وأبو سالم العياشى المتوفى سنة ١٠٩٠ هـ / ١٠٧٩ م والرودانى المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٣ م وعبد الرحمن الفاسى المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٥ م والحسن اليوسى الصوفى المتوفى سنة ١١٠٢ هـ / ١٦٩٢ م ومحمد البوعنائى المتوفى بعد سنة ١١٠١ هـ / ١٦٨٩ م وأحمد بن الحاج المتوفى سنة ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧ م وعبد السلام القادري النسابة المتوفى سنة ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م ومحمد بن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م وأحمد بن عبد القادر التاستاوى المتوفى سنة ١١٢٧ هـ / ١٧١٥ م ومحمد بن الطيب العلمى المتوفى سنة ١١٣٤ هـ / ١٧٢١ م والحسن بن رحال المعدائى المتوفى سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢٨ م وعبد القادر بن شقرون المتوفى بعد سنة ١١٤٠ هـ / ١١٤١ هـ / ١٧٢٩ م ومحمد بن زكرى المتوفى سنة ١١٤٤ هـ / ١٧٣١ م وعلى مصباح الزرويلى المتوفى سنة ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م وعبد الوهاب أدراق المتوفى سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م وعبد المجيد الزبادى المتوفى سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٥٠ م ومحمد بن الطيب الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ / ١٧٥٦ م وأحمد الهلالى السجلماسى المتوفى سنة ١١٧٥ هـ / ١٧٦١ م وأبو مدين الفاسى المتوفى سنة ١١٨١ هـ / ١٧٦٧ م وابن الونان المتوفى سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م ومحمد بن الطيب القادري المتوفى بنفس السنة وأبو حفص عمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م والتهامى بن الطيب أمغار وأحمد بن المهدي الغزال المتوفيان سنة ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م والتاودى بن سودة المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م ومحمد بن عثمان المكناسى المتوفى سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م ومحمد الطيب بن كيران المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م ومحمد الرهونى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م ومحمد بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م ومحمد بن عبد السلام ابن ناصر المتوفى سنة ١٢٣٩ هـ / ١٨٢٤ م والعربى المسارى المتوفى سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٥ م وابن عمرو الرباطى المتوفى سنة ١٢٤٣ هـ / ١٨٢٧ م .

شعراء الموشحات والأزجال (أ) شعراء الموشحات

أخذت تنشأ - منذ عصر دولة المرابطين - علاقات أدبية بين الأندلس وبين المغرب الأقصى وقدم من الأندلس إلى دياره بعض شعراء الأندلس بحثا عن رعاة لشعرهم ، وكان بينهم غير وشاح ، وأول وشاح أم تلك الديار على بن عبد الغنى الحصرى القيروانى الكفيف المهاجر إلى الأندلس منذ سنة ٤٥٠ للهجرة فقد عبر الزقاق ثانية إلى طنجة سنة ٤٨٣ وأمضى بها الشطر الأخير من حياته وكان وشاحا وشاعرا بارعا فالتف حوله كثيرون من شباب طنجة ينشدونهم أشعاره وموشحاته وقد أنشد الصفدى إحداها فى كتابه : « توشيح التوشيح » . وأوغل بعده ابن اللبانة الوشاح المشهور المتوفى سنة ٥٠٧ للهجرة فى ديار المغرب حتى بجاية فى الجزائر ونزل على أميرها باديس الحمادى (٤٩٨ هـ) ومدحه بموشحة بديعة أنشدها صاحب فوات الوفيات فى ترجمته . وأهم منه ابن بقى الوشاح الأندلسى نزىل سلا - بجوار الرباط على المحيط - على بنى عشرة قضاتها ، وكانوا يحورا فيضة فى الجود فغمروه بعطايهم وخاصة يحيى بن على بن القاسم وأخويه أحمد ويوسف ، وله فيهم موشحات كثيرة ، إذ أقام لديهم مددا متطاولة . وظل وراء هؤلاء الوشاحين الراحلين أو المهاجرين وشاحون كثيرون فى الأندلس يهدون موشحاتهم إلى حكامها من الأمراء المرابطين مثل ابن باجة المتفلسف وموشحاته البديعة فى أبى بكر بن تيفلويت المرابطى وإلى سرقسطة .

وعلى هذا النحو أخذت تتوثق الصلة بين الوشاحين الأندلسيين والشباب المغربى ، فإذا من هؤلاء الشباب من يعكف على موشحات الحصرى وابن بقى وابن باجة وأضرابهم حتى تمثل عذوبة النغم فيها وحسن اختيار الألفاظ وأخذ ينشئ على غرارها موشحات مغربية تفيض نعومة وسلاسة وحلاوة جرس ، ولم يتحقق ذلك تولا فى عصر المرابطين القصير ، إنما حدث منذ أول عصر الموحدىن التالى لعصرهم على لسان ابن غرلة ، وسنفرد له ترجمة ، وتلاه غير وشاح مثل أبى حفص عمر السلمى المتوفى سنة ٦٠٢ غير أنه لم تؤثر له موشحة . وجاء بعده فى العصر أبى عبد الله محمد بن أحمد بن الصباغ الجذامى وجميع موشحاته نبوية فى مديح الرسول ﷺ ، وسنخصه بترجمة - وثلثى أواخر عصر المرينيين زمن الوطاسيين بوشاح بارع هو ابن سعيد عثمان المكناسى ، وله موشحة نبوية بديعة أنشدها ابن القاضى فى كتابه عن الخليفة المنصور والمقرى فى الجزء الثانى من أزهار الرياض ، يستهلها بقوله^(١) :

(١) انظر المتقى المنصور على مآثر الخليفة المنصور ص ٨٢١ وأزهار الرياض ٢٢٩/٢ .

يا عَرِيبَ الحَيِّ مِنْ حَيِّ الحِمَى أَنْتُمْ عِيْدِي وَأَنْتُمْ غُرْسِي
وهو استهلال رائع لما سيتلوه من المديح النبوى وقد عارض بها موشحتين قفلهما سيني
لابن سهل وابن الخطيب ، وهما بالترتيب : هل درى ظلى الحمى - وجادك الغيث . وفى
نهاية الموشحة يقول :

هَمْتُ فِي أَطْلَالِ لَيْلِي وَأَنَا لَيْسَ فِي الْأَطْلَالِ لِي مِنْ أَرْبِ
مَا مَرَادِي رَامَةً وَالْمُنْحَنَى لَا وَلَا لَيْلِي وَسُعْدَى مَطْلَبِي
إِنَّمَا سُؤْلُ وَقْصَدِي وَالْمُنَى سَيِّدُ الْعُجْمِ وَتَاجُ الْعَرَبِ
أَحْمَدُ الْمُخْتَارُ طَهْ مَنْ سَمَا الشَّرِيفُ بْنُ الشَّرِيفِ الْكَيْسِ
خَاتَمُ الرُّسُلِ الْكَرِيمِ الْمُتَمَى طَاهِرُ الْأَصْلِ زَكِيُّ النَّفْسِ

فهو إن هام صباية بأطلال ليلي ليس له من مأرب فيها ولا فى تغنيه برامة والمنحنى حيث
اللقاء المأمول ولا مطلبه ليل ولا سعدى ولا غيرهما ممن يذكرهن إنما سؤله وقصده وكل مناه
رسول الله سيد العجم وتاج العرب . والموشح بالغ الروعة ، ويذكر له الأستاذ ابن تاووت
موشحا على غراره ختمه بهذا الابتهاال لربه :

طامعٌ فى رحمةِ الله وما خاب عَبْدٌ طامعٌ لم يَنَاسِ
يا إلهى جُدْ عَلَيْنَا كَرَمًا يا كريمًا قبلَ أَخْذِ الْأَنْفَسِ

وما من مسلم إلا ويطمع فى رحمة الله الغفور الرحيم .

ويكثر الوشاحون فى عصر السعديين ، وفى مقدمتهم الخليفة المنصور الذهبي ، وكان
واسع الثقافة عالما مؤلفا ، كما كان أديبا شاعرا ، وازدهر العلم والأدب فى المغرب الأقصى
بأيامه ، واستحالت مجالسه إلى مناظرات علمية متعمقة ومساجلات شعرية مع وفرة جوائزه
وعطاياه ، وينوه المؤرخون غربا وشرقا به ، وعليه قصّر ابن القاضى كتابه : المنتقى المقتصر
على مآثر الخليفة المنصور تحدث فيه عن نسبه وحسبه وشيوخه وخلافته وسياسته وشمائله
الحميدة وتعظيمه الميلاد النبوى وغزواته وعلو همته ، ويلم من حين إلى حين ببعض أشعاره ،
ويذكر أن له موشحات كثيرة ، وينشد له موشحة ، يقول المنصور الذهبي فى غصنها الأخير^(١) :

قُلْتُ لَهُ وَقَدْ نَهَدْتُ وَجَدْتُ فى حَرْبِي^(٢)
وَغَلَبَ الظُّبَى الْأَسَدُ فَفَازَ بِالْغَلَبِ
الشمسُ بُرْجُهَا الْأَسَدُ فَاسْعَ إِلَى قَلْبِي

وهو يستغل ما يقوله الفلكيون من أن برج الشمس الأسد ، فيقول لصاحبه وقد اكتمل

(٢) نهدت الجارية : اكتمل شبابها .

(١) المنتقى ص ٦٦٢ .

لها شبابها وجدت في حربه غلب الظبي الأسد ، إذ الظبي شمس سنا جمالا ، ولا بد أن تحل الشمس في برجها برج الأسد ، وواضح أنه يكنى عنها بالظبي وعنه بالأسد نظرفا . وكان أحمد بن القاضي وشاحا ، أنشد له المقرئ في ترجمته بكتابه : « روضة الآس العاطرة الأنفاس » موشحا نبويا ، استهله بقوله (١) :

لا هتزاز البان وقت السحر هامت الأرواح
وقيان الطير فوق الشجر تجلب الأفرارح
يا شقيق الروح هات القدحا من دنان الحان
قهوة تكسب قلبي الفرخا تطرب النشوان
كل من دارت عليه شطحا من يدى وسنان (٢)

وواضح أنه استهل المدحة النبوية بالحديث عن الطبيعة الفاتنة وقت السحر وقد هامت بها الأرواح ، والطير فوق الشجر تصدح بأغان تجلب الأفرارح . ويلتفت إلى ساقى الخمر الصوفية في السحر يطلب إليه أن يناوله قدحا دهاقا منها يشيع في قلبه الفرخ والبهجة ، وكل من دارت عليه كأنما يغيب عن نفسه فيشطح شطحات متوالية . ويتجه في الغصن الأخير من الموشح للرسول منشدا :

يا رسول الله غوث ومدد يا منيع الجار
أنت - والله - الكريم المعتمد لنزع الدار
كن شفيعي يا نبيا لا يرَد إنك المختار

وهو يسأل الرسول استغاثة ومددا لا ينقطع ، إذ هو الغيث المدرار ، ويضرع أن يكون شفيعه ، ويشير إلى أن شفاعته في أمته يوم الحشر لا ترد . ونمضي إلى عصر العلويين فلتقى بوشاح بارع هو ابن زاكور وسنفرد له ترجمة ، ويلقانا بعده محمد بن الطيب العلمى تلميذه ، وموشحاته تموج بالعدوثة ، غير أنه اتجه بها نحو الخمر والمجون . وحرى بنا أن نتوقف قليلا للحديث عن ابن غرلة وابن الصباغ وابن زاكور .

ابن (٣) غرلة

لسنا نعرف شيئا عن نشأته ، إنما نفاجأ به في عصر عبد المؤمن (٥٢٤هـ / ١١٣٠م - ٥٥٨هـ / ١١٦٣م) ، وأغلب الظن أنه عاش شطرا من حياته في عصر المرابطين ، وهو أول مغربي تمثل الموشحات والأزجال ، ويقول صفى الدين الحلبي في كتابه : « العاقل الحالى » إنه

الحلى تحقيق د . حسين نصار ، نشر هيئة الكتاب (راجع

(١) روضة الآس ص ٢٦٣ .

الفهرس) . وانظر موشحته في النبوغ المغربي ٣/٢٢٠

(٢) وسنان : فاطر الطرف .

(٣) انظر في ابن غرلة كتاب العاقل الحالى لصفى الدين

كان ينظم الموشح والزجل والمزمن فى الفنَّين أى أنه كان يلحن أحيانا فى الموشح ويعرب فى الزجل ، والمزمن من الزنمة وهو المستلحق بالقوم ، فالموشح والزجل المزمان كل منهما مستلحق بأصله . ويقول صفى الدين إنه كان يلحن أحيانا فى الموشح ويعرب فى الزجل قصدا منه واستهتارا ، ويقول : إذ القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السبك . وكان ابن سناء الملك يعيب عليه ذلك ، ولهذا لم يثبت شيئا من موشحاته فى كتابه : « دار الطراز » . ويقول صفى الدين مسترسلا : ومن موشحاته المزنمة الموشحة الطنانة الموسومة باسم « العروس » وفيها يصور عشقه لرُميلة أخت عبد المؤمن الموحدى خليفة الموحدى ، وقد قتله بسببها لما وقع فى نفسه من مطلعها وما يليه من اجتماعه بها . ويقال إنه كان حسن الصورة جليل القدر ذا عشيرة ، وكانت هى أيضا جليلة القدر جميلة الخلق فصيحة تنظم الأزجال الرائقة الفائقة ، وينشد صفى الدين مطلع الموشحة وما يليه على هذه الشاكلة :

مَنْ يَصِيد صَيْدًا	فليكن كما صَيِّدَى
صَيِّدَى الْغَزَالَةِ	من مراتع الأسد
كَيْفَ لَا أَصُولُ	وَأَقْتَنَصْتُ وَخْشِيَّةً
ظَلِيَّةً تَجُولُ	فِي رِدَا سَوْسِيَّةٍ
صَاغَهَا الْجَلِيلُ	فَهِى شَيْه حَوْرِيَّةٍ
تَنْشَى رُويِدَا	إِذ تَمِيسُ فِي الْبُرْدِ
تَعْجِنُ الْغِلَالَةَ	وَالرُّدَا مَعَ النَّهْدِ
رُبَّ ذَاتٍ لَيْلَهُ	زُرْنَهَا وَقَدْ نَامَتْ
وَالرَّقِيبُ فِي غَفْلَةٍ	وَالنَّجُومُ قَدْ مَالَتْ
رُمْتُ مِنْهَا قُبْلَهُ	عِنْدَ ضَمْنِهَا قَالَتْ
فَرَّ قَرٌّ وَإِهْدَا	لَا تَكُنْ مُتَعَدَّى
تَكْسِرُ النَّبَالَ ^(١)	وَتَفْرُطُ الْعَقْدَ

وواضح فى الموشح العذوبة والسلاسة وصفاء الألفاظ وحسن انتخابها .

وواضح أيضا ما فى القفل الأخير من لحن فى شطريه الثانى والرابع : « لا تكن متعدى - وتفراط العقد » والأصل : « لا تكن متعديا - وتفراط العقد » بفتح الدال ، وهو لذلك موشح مزمن ملحق بالموشحات المعربة . ويقال إن ابن غرله حين قدم ليقتل نظر فى الناس من حوله وارتجل فقرة أنشدتها من نفس وزن هذا الموشح يستنجد بعشيرته لتأخذ بثأره قائلا :

(١) النبلا : الأساور بالمغربية الدارجة .

خَذُّهَا الْأَسِيلُ بَدَتْ مِنْهُ أَتَوَارُ
طَرَفُهَا الْكَحِيلُ سَلَّ مِنْهُ بَتَارُ
هَا أَنَا الْقَتِيلُ فَهَلْ يُؤْخَذُ الثَّارُ

قَدْ أُسِرْتُ عَبْدًا وَلَمْ أَكُنْ بِالْعَبْدِ
مُتُّ لَا عَالَهُ فَاطْلُبُوا دُمِي بَعْدِي

وفى كتاب العذارى المائسات فى الأزجال والموشحات لفيليب الخازن موشح لابن نباتة ص ٧ وقيل إنه لابن غرلة وموشح ثان لابن غرلة ص ٢٣ وقيل إنه لصدر الدين بن الوكيل وموشح ثالث لأحمد بن حسن الموصلى ص ٦١ وقيل إنه لابن غرلة . والإجماع منعقد على أن له موشح العروس السالف ، وهو يصور مهارته فى اصطفاء اللفظ العذب والملاءمة بينه وبين غيره فى حسن الجرس وحلاوة النغم .

ابن الصباغ^(١)

يقول المقرئ فى الجزء الثانى من أزهار الرياض : « هو الشيخ الإمام الصالح الزكى الصوفى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصباغ الجذامى » ويذكر المقرئ أنه قرأ له موشحات فى كتاب ألفه بعض الأئمة ورفعها للسلطان المرتضى الموحدى (٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م - ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) وأكثر المؤلف فيه من موشحاته وأشعاره فانتخب المقرئ منها غرراً من الموشحات وهى اثنا عشرة موشحة وقصيدتين ومخمساً وجميعها فى المديح النبوى وآخر ما أورد له قوله :

تَرَكْتُ امْتِدَاخَ الْعَالَمِينَ وَلُذْتُ مِنْ مَدَائِحِ خَيْرِ الْخَلْقِ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى
سَأَجْعَلُهَا كَهْفِي وَحِصْنِي وَمَلْجَأِي لَعَلِّي بِالْأَمْدَاخِ أُسْتَوْجَبَ الْعِتْقَى

وموشحاته وقصائده فى الذروة من المديح النبوى ، وهو يث فيها هيأما ملتاعاً لأنه لا يستطيع المشول فى حضرة الرسول ﷺ وزيارة قبره الشريف واكتحال عينيه بنوره . ويشكو شكوى مرة من البعد عن محبوبه ويأمل دائماً أملاً حاراً فى القرب منه ولقائه كما يأمل فى شفاعته من عذاب النار التى لا تطاق . ودائماً يتمنى وقفة فى ذلك الحمى وتلك الربوع ، ودائماً يتجدد شوقه وتتجدد صابته ويتجدد هيأه ، ويرسل أناته وزفراته ولوعاته ودموعه المنهمرة ، يقول فى مطلع أولى موشحاته :

أَلَفَ الْمُضْنَى الشُّجُونَا وَارْتَضَى الْأَحْزَانَ دِينَا
فَوْقَ صَفْحِ الْوَجْنَتَيْنِ أَرْسَلَ الدَّمْعَ الْمُتُونَا

(١) انظر فى ابن الصباغ وموشحاته أزهار الرياض ٢٣٠/٢ وما بعدها .

يَقْطَعُ الْأَيَّامَ حُزْنًا وَبُكَاءَ وَعَوِيلًا
فَارْحَمُوا صَبًّا مُعْنًى قَلْبَهُ يُذَكِّي غَلِيلًا
مُلْهَبَ الْأَحْشَاءِ مُضْنًى بِالنُّورِ أَضْحَى عَلِيلًا
ذَابَ شَوْقًا وَحِينًا وَسَقَامًا وَأَتِينًا
وَشُؤْنُ الْمُقْلَتَيْنِ تَسْكَبُ الدَّمْعُ الْمَعِينَا^(١)

ومنذ ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد اعتاد بعض الشعراء الذين نظموا في الخمر والمجون أن ينظموا بعض زهديات مكفرة عن أشعارهم الماجنة ، وصنع ذلك بعض الوشاحين ، ونرى ابن الصباغ ومعاصره ابن عربى يختمان بعض موشحاتهما الدينية بخرجات لموشحات ماجنة نظمها بعض الوشاحين ، ونفس هذه الموشحة الأولى لابن الصباغ ختمها بقوله :

وَبَلَيْنَا وَابْتَلَيْنَا وَإِشْ يَقُولُ النَّاسُ فِينَا
قُمْ بِنَا يَا نَوْرَ عَيْنِي نَجْعَلُ الشُّكَّ يَقِينَا

وهذه الخرجة لموشح ابن الصباغ هي نفس خرجة ابن بقى للموشحة الثامنة في جيش التوشيح وهي موشحة ماجنة وفيها يقول ابن بقى في أول أغصانها :

قَمْ بِنَا نَجْلُو الْكُوسَا تَحْتَ أَظْلَالِ السَّحَابِ
نَتْعَاطَاهَا عَرُوسًا حَلِيلَهَا دُرُّ الْحَبَابِ
قَهْوَةً تُعْطَى النُّفُوسَا عَزَّ أَيَّامُ الشَّبَابِ

وكان ابن الصباغ يريد أن يكفر لابن بقى عن موشحته باستعارته لخرجتها ، ولعله يريد أيضا أن يلفت عنها الشباب وقد دارت في أفواههم إلى موشحة نبوية لعلها تدور مثلها على شفاههم . وموشحته الثانية في التشوق إلى مكة وطيبة على ساكنها الصلاة والسلام . ختمها بخرجة استعارها من موشحة لابن خزر البجائي منشدا كما يقول عند المقام النبوي :

تَغْرُ الزَّمَانِ الْمَوَافِقُ حَيَّاكَ مِنْهُ بِإِتْسَامِ

وكان نزول ابن اللبانة الوشاح الأندلسي ببجاية لم يذهب هذرا ، فقد نشأ بها - فيما بعد - ابن خزر على غواره . وكما أن ابن خزر نشأ على غرار ابن اللبانة فإن ابن الصباغ نشأ - في رأينا - على غرار ابن بقى الذى أقام طويلا في سلا والمغرب الأقصى ، وسنراه ينظم موشحات مكفرة عن بعض موشحات أخرى . ولم يوضح المقرئ هل ابن الصباغ مغربى أو أندلسى ويؤكد أنه مغربى أن كسب التراجم والموشحات الأندلسية لم تذكره ، ونفس تكفيره عن موشحة لابن خزر البجائي يدل أو يؤكد أنه مغربى ، وموشحاته إنما عُرِفَتْ في مراکش بتقديمها للمرتضى الموحدى . وتدل خاتمة موشحته الثالثة أنها مكفرة عن موشحة لابن بقى في التغنى

(١) شئون المعين : مجارى الدمع . المعين : السائل الغزير .

بمديح بنى عشرة قضائها وخاصة يوسف بن القاسم بن عشرة . والموشحة الخامسة مكفرة أيضا لموشحة لابن بقى جعل خرجتها خاتمة لموشحة له على هذا النمط :

ليتني رَمَلَهُ على شَطِّ الْبَحْرِ يا ابني أو أطوم^(١)
وترى عينيّ مذ تقلع سَحَر لبلاد الروم

والخرجة ذكر أولها في نهاية موشحة ابن الصباغ ، وكأن كاتب النسخة لم يعن باستكمالها وهي كاملة في موشحة دينية مكفرة عند ابن عربي^(٢) - وبالمثل الموشحة السادسة خاتمتها مشتركة عند ابن الصباغ وابن عربي^(٣) وتجرى على هذه الصورة :

جَنَانُ يا جَنَانُ اجْزِرْ مِنَ البُسْتَانِ اليَاسَمِينِ
وخلّ الرِّيحَانُ بحرممة الرّحْمَنِ للعاشقين

وقال الدكتور سيد غازي إنها خرجة لابن بقى في إحدى موشحاته^(٤) . واجتماع ابن الصباغ وابن عربي في اقتباس هاتين الخرجتين من ابن بقى قد يدل على أن أحدهما حاكى صاحبه . وخاتمة الموشح التاسع عند ابن الصباغ فاتحة لموشحة ابن باجة في مديح أبي بكر بن تينلويت حاكم سرقسطة المرابطي :

جَرَّرَ الذَّيْلَ أَيْمًا جَرًّا وصل الشُّكْرَ منك بالشُّكْرِ

والشطر الثاني في الأصل : « وصل السكر منك بالسكر » وعدله ابن الصباغ ليتلاءم مع موشحه النبوي . واستعار ابن الصباغ خاتمة الموشحة الثانية عشرة الأخيرة من مطلع زجل للزجال المشهور البعيع مع شيء من التعديل على هذه الشاكلة :

يا فلانُ إن زُرْتَ جِيّ إفتل اذنو بالرُّسَيْلا
ليشْ أخذ عُنق الخُشَيْفِ وسَرَقَ فَمَّ الحُجَيْلا

وأصل المطلع عند البعيع :

يا ليتني إن رِبْتُ حبيبي إفتل اذنو بالرُّسَيْلا
ليشْ أخذ عُنق الغَزِيلِ وسَرَقَ فَمَّ الحُجَيْلا

والرُّسَيْلا هي الرُّسَيْلة تصغير رِسْلة أى تؤدة وتمهل ، يريد أن يعرك أذن حبيبه في ترفق معاتباً له ، والخشف ولد الظبية والحجلة طائر في حجم الحمام . والموشحات حب وهيام

(١) أطوم : سلخفة . (٣) راجع ديوان ابن عربي ص ٨٦ .

(٢) انظر ديوان ابن عربي ص ١٢١ وكتاب في أصول (٤) انظر في أصول التوشيح ص ١١٠ .

توشيح الدكتور سيد غازي ص ١٠٨ .

بالرسول صلى الله عليه وسلم وصباة استحالت عند ابن الصياغ تراويل بديعة ، إذ استقر حب الرسول في قلبه واستأثر بكل ما فيه من شعور وعاطفة وهوى .

ابن^(١) زاكور

هو أبو عبد الله محمد بن زاكور الفاسي ، ولد حوالي منتصف القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى سنة ١١٢٠ هـ/ ١٧٠٨ م وأكب على الأدب والعلوم العربية منذ نعومة أظفاره ، وتفتحت شاعريته ومواهبه الأدبية مبكرة ، ولم يلبث أن أصبح إمام الشعراء والكتاب فى عصره ، ولم يقف بشعره عند القصيد فقد نظم كثيرا من الموشحات ، ولذلك سمي ديوانه : « الروض الأريض فى بديع التوشيح ومتقى القريض » ، وله أعمال أدبية متعددة منها شرح على ديوان الحماسة سماه عنوان النفاسة ، وشرح على قلائد العقيان للفتح بن خاقان باسم شرح ما خفى من القلائد وشرح على لامية العرب . ومن موشحاته موشح غزلى مطلعته :

مَنْ عَلَّمَ الْغَزْلَانَ الْفَتَكَ بِاللَّيْلِ الْجَرَى
وَسَلَّطَ الْعَيْنَانِ عَلَى قُلُوبِ الْبَشَرِ

يا ضرة الشمس الله فى الصب الكيب
يا منية النفس هجر لك للنفس مذيب
حدثنى حدسى أنك للصب سليب^(٢)

عارض بهذا الموشح الغزلى موشحا لابن سهل ، وقد جعل مطلعته : « ليل الهوى يقظان » خرجة لموشحه ، وهو فى الموشح جميعه كما فى هذا المطلع يختار اللفظ السهل الذى يعجب ويروق دون تكلف أو تصنع . ويقول متغزلا فى مطلع موشحة أخرى :

أدر الكاسات من خمر اللعس	يا لها من راح	تحكى الجئنار ^(٣)
واسقيها خمرة تجلو النفس	علنى أرتاح	من حر الأوار ^(٤)
بأبى ظنى رمانى بسهام	ريشها الأهداب	تبرى الأفده ^(٥)
مُرُق القلب الكليم المستهام	إذ رنا واتساب	سيف جرده ^(٦)
عنبرى الخال مسكى الخيام	يدخل الألباب	در نضده

(٣) اللعس : سمة جميلة فى باطن الشفة . الجئنار : زهر الرمان .
(٤) أوار الحب والنار : شدتهما .
(٥) تبرى : تمتعت .
(٦) الكليم : الجريح .

(١) راجع فى ترجمة ابن زاكور النبوغ المغربى فى الأدب العربى ٣٢٥/١ وقد نشر الأستاذ عبد الله كتون منتحيا من ديوانه وانظر فيه وفى موشحاته الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ محمد بن تاروت ٧٧٩/٣ ركنون فى النبوغ المغربى ٣٢٥/٣ وما بعدها .
(٢) حدسى : ظنى وفراسى .

هَمْتُ وَجداً من سناه المقتبسُ من سَنَا الإصباح أو بدر أنارُ
لاح حين انقَرَّ ثَغَرُ كالقَبَسُ أزهرُ وضاح أذكى زَند نازُ^(١)

والكلمات سلسلة حلوة تلذ الألسنة حين تنطق بها والآذان حين تصيخ إليها لرشاقتهما من جهة ولما تشتمل عليه من تصاوير ممتعة من جهة ثانية . وله فى مطلع موشحة يصف فيها الربيع :

قد اكسى العريان	من مائس الأغصان	بالسُّندسِ
وطرَّزَ البستان	بالوَرْدِ والريَّحانِ	والنَّرجسِ
هَبَّتْ به الأزهار	بنسمة الأسحار	من الوَسَنِ
وهاجت الأطيَّار	برائق الأشعار	أم الحُسَنِ
تسبَّح الجبَّارُ	الواحد القهار	مولى المَنَنِ

والشطور قصيرة وقصرها يزيد سلاسة ألفاظها ونعومتها جمالا وحسنا ، ودائما تلقانا فى موشحاته هذه اللغة العذبة المصفاة المنتقاة ، إذ كان يعرف كيف ينتخب ألفاظه وكيف يلائم بينها فى الجرس الموسيقى ملاءمات ممتعة .

(ب) شعراء الأزجال

الأزجال جمع زجل وهو فى اللغة التطريب وسمى به الأندلسيون الفن الشعرى العامى المقابل للموشحة ، وقد نشأ بعدها فى الأندلس بنحو قرنين ، حتى إذا كان عصر المرابطين كان الزجل قد استوى على سوقه وأصبح له زجالوه المشهورون كما للموشحات وشاحوها المشهورون ، ويبدو أنه دخل المغرب الأقصى مع الموشحات ، إذ يذكر صفى الدين الخلى عن أول وشاح مغربى مشهور ، وهو ابن غُرْلَه ، أنه كان ينظم الموشح والزجل كما مر بنا ، ويقول عن رُمَيْلة محبوبته أخت عبد المؤمن إنها كانت تنظم الزجل ، ويذكر لها مطلقا فى زجل نظمته فى ابن غرلة قائلة :

مَشَى السَّهْرُ حيرانَ حتى رأى إنسانَ عيني وَقَفَ

ويتحدث ابن خلدون^(٢) فى مقدمته عن الزجل فى الأندلس وأعلامه ، ويستطرد إلى الحديث عنه فى المغرب الأقصى فيقول إن أهله استحدثوا فنا منه كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية (يريد العامية) وسموه عروض البلد ويذكر أن أول من أشاعه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ، وسنفر له ترجمة ، ويقول ابن خلدون إن المغاربة ولعوا به وجعلوه أنواعا ، منها المزدوج والملمعة والغزل ، ويذكر من كبار زجاليهم ابن شجاع التازى

(١) أزهر : مضىء . وضاح : مشرق . أذكى : أوقد . الزند : الحجر أو العود الذى يقدح به النار .
(٢) مقدمة ابن خلدون (طبع دار المعارف) ص ١٣٥٧ .

وستترجم له ، ويذكر منهم أيضا الكفيف الزرهوني المكناسى ويقول إنه أبدع فى مذاهب هذا الفن ، ويذكر له زجلا فى رحلة السلطان أبى الحسن المرينى بجيشه إلى فتح إفريقية يريد أن يضم المغرب بعضه إلى بعض فى وحدة مغربية ، وفتحها ونزل تونس ولم يلبث أعراب بنى سليم وإخوتهم من بنى هلال أن نصبوا لجيشه شركا فى القيروان ودارت عليه الدوائر وعمى أمره على شعبه ، وانبرى الكفيف الزرهوني يعيب عليه فى زجله غزوته إلى إفريقية التونسية وما كان من هزيمة الجيش فى القيروان ، ويعزى الشعب عنها بما وقع لغيرهم من الشعوب ، وفيه يقول^(١) :

عسكرُ فاس المنيرة الغاراً	وين سارت بو عزائم السلطان
أحجاجاً تخللوا الصحرا	ودوا سرح البلاد مع السكان ^(٢)
عن جيش الغرب جيت نسالكم	الملوف فى إفريقيا السودا
لو كان ما بين تونس الغربا	وبلاد الغرب سد الاسكندر
لابد للطير كان يجي ببا	أو ياتي الرخ عنهم بفرذ خير
ما اغوصها من أمور وما شرا	لو تقرأ كل يوم علي الويدان ^(٣)
لجرت بالدم وانصدع حجرا	وهوت الأجراف وجفت الغدران

وهو ييكى عسكر فاس الغراء وتغير السلطان ويسأل الحجاج الذين جابوا الصحارى عن الجيش التالف فى إفريقية التونسية السوداء ويقول لو كان بين تونس وبلاد المغرب الأقصى سد الإسكندر أو سد يأجوج ومأجوج لحمل الطير الخبر عن هذا الجيش المرينى الذى انبهم أمره ، وما أصعبها وشرها من أمور لو تقرأ على الآذان لجرت العيون بالدم وتشققت الأحجار وهوت أجراف المضاب والجبال وجفت الغدران فيالهل المصاب ويا لفداحة الفاجعة المؤلمة . ولم يرزق المغرب الأقصى فى هذا العصر الوسيط الذى نعتى بدرسه برجال كبير بعد الكفيف الزرهوني ، وحرى بنا أن نترجم لابن عمير وابن شجاع التازى .

ابن^(٤) عمير

ليس بين أيدينا عن حياة ابن عمير إلا ما ذكره ابن خلدون فى مقدمته إذ قال : إنه رجل من أهل الأندلس نزل بفاس واستحدث لم فنا من الشعر فى أعاريض مزدوجة كالמושح نظموا فيه بلغتهم الحضرية واستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الإعراب الذى ليس من شأنهم وكثر شيوعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ، ونظموا بجانب المزدوج أنواعا

(١) المقدمة ص ١٣٦٠ وانظر النوغ الغربى ٣/ ٣٣٧ .

(٢) ردوا : أرسلوا . السرح : الزروع ودوابها .

(٣) الويدان : يريد الآذان .

(٤) انظر فى ابن عمير العاقل الحالى (راجع الفهرس)

ومقدمة ابن خلدون ص ١٣٥٧ وما بعدها .

أخرى ، وكلها صور من الأزجال وأشكال . ونجد المصادر التاريخية والأدبية لا تعنى بابن عمير إلا ما كان من صفى الدين الحلى فقد ذكره مرارا فى كتابه العاقل الخالى ، وذكر مطالع خمسة أزجال له وجزءا من زجل ليس مطالعا ونعتقد أنه كان أمامه ديوان ابن عمير الزجلى وأخذ منه الأمثلة التى ضمنها كتابه ، ومن مطالعه التى ذكرها فى ص ٣٢ :

أنكرتُ شَيْبَى مَنْ بُلِيَتْ بِبِهَا كلٌّ من عاش يشيبُ
إنما هى ملاححة البستان بالنَّوَّارِ العجيبُ

ولاحظ صفى الدين أنه خفف الواو فى كلمة « النّوار » فلم ينطقها مشددة كما فى أصلها ، بل نطقها مفتوحة مخففة . ومن مطالع أزجاله التى أنشدها له فى ص ٥٦ قوله :

يا حبيبِ قلبى تعطفُ بعض هذا الهجر يَكُنَّا
دموغُ عيني ما تَرَقَّا ولهيبُ قلبى ما يطفأ

ولاحظ صفى الدين أن كلمة يَكُنَّا محرفة عن « يكفى » بقلب الياء ألفا لتماثل الألف فى كلمة « يطفأ » . وأنشد ابن خلدون له زجلا طويلا لعله مما سماه عروض البلد يقول فى مطالعه :

أبكاني بشاطى النهر نوح الحمام على الغصن فى البستان قريب الصباح
وكفَّ السحر تمحو مداد الظلام وماء الندى يجرى بشجر الأقاخ
باكرت الرياض والطلل فيه افتراق سرّ الجواهر فى نحور الجوار
ودمغ النواير ينهرق انهرق يحاكي ثعابين حلقت بالثمار
لوروا بالغصون خلخال على كل ساق ودار الجميع بالروض دور السوار
وأيدى الندى تخرق جيوب الكمام وتحمل نسيم المسك عنها رياح
وعاج الضيا يطلى بمسك الغمام وجرّ النسيم ذيلها عليها وفاح

والزجل مكثف بصور فريدة من ابتكار ابن عمير ، فمداد الظلام الأسود يمحوه كف السحر الأبيض ، ويشبه الشعراء الأفحوان بالشجر فيضيف ابن عمير أن ماء الندى يجرى فيه ، ويقول باكرت الرياض والطلل يتساقط والجواهر كأنها مسرورة بمكانها من نحور الجوارى الفاتنات ، والسواقى تذرف الدمع مدرارا وكأنما يحاكي الماء فى قنواته أفاعى تريد أن تحلق بالثمار وقد استوت الغصون خلاخيل على سيقان الأشجار ، ودار كل ذلك فى الروض دور السوار ، وينفذ إلى تصوير مبتكر فأيدى الندى فى الصباح الباكر كأنما تخرق كمام الزهر بل جيوبه ، وتحمل عنها الرياح نسيم المسك العاطر ، وأخذ الضياء يعمه الغمام ، أو كما يقول ، يطلى بمسك الغمام ، وجرّ النسيم ذيل رده عليه وفاح وسطعت رائحته سطوعا شديدا . وتمتلىء بقية الزجل بمثل هذه الصور البديعة فى حوار رائع بين ابن عمير والحمام . وبحق

كما يقول ابن خلدون استحسّن أهل فاس أزجال ابن عمير وشغفوا بها وفتنوا فتنة شديدة ومضوا ينظّمون على نهجه وطريقته .

ابن^(١) شجاع التازي

لم يذكر عنه ابن خلدون شيئا إلا أنه من فحول الزجاليين بالمغرب الأقصى وقال إنه من أهل تازا ثم أنشد له زجلين ، والزجل الأول أشبه بنقد اجتماعي ، وفيه يقول :

المال زينة الدنيا وعزّ النفوس	ينهى وجوهاً ليست هي بأهيا
فها كل من هو كبير الفلوس	ولؤه الكلام والرّبة العاليا
يكبروا من كثر ماله ولو كان صغير	وينصغروا عزيز القوم إذا يفتقر
حتى يلتقي من هو في قومه كبير	بمن لا أصل عندو ولا لو خطر
أدى صارت الأذئاب أمام الرءوس	وصار يستمدّ السواد من الساقيا
ضعف الناس عمل ذا أو فساد الزمان	ما نذريو على من نكثروا ذا العتاب
أدى صار فلان اليوم يصبح بوفلان	ولو ريت وكيف حتى يرّد الجواب

وواضح أنه يقول إن الموازين الاجتماعية اختلت ، فأصبح المال هو كل شيء : زينة الدنيا وعزّ النفوس حتى ليضفى البهاء على الوجوه غير البهية ، وها أنت ترى الناس يقدمون الثرى في الكلام ويولونه الرتبة العليا ويكبرونه ولو كان صغيراً وينصغرون عزيز القوم إذا افتقر ، حتى اختلطت المقاييس وأصبح كبير القوم يقرن بمن لا أصل له ولا خطر من الأثرياء ، وبذلك تقدمت الأذئاب الرءوس وتُرى حل هذا من ضعف الناس أمام الثراء أم من فساد الزمان ، لقد أصبح من لم يكن له لقباً يمنح الألقاب ويقال له أبو فلان إجلالا وتوقيرا ، وقد امتلأ غرورا حتى إنه لا يرد الجواب . والزجل الثاني الذي ذكره ابن خلدون موضوعه الغزل ، ويستهلّه على هذه الصورة :

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان	اهل يا فلان لا يلعب الحسن بيل
ما منهم مليح عاهد إلا وخان	قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
يتيهوا على العشاق ويتمنوا	يتعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وان واصلوا من حينهم يقطعوا	وان عاهدوا خاتوا على كل حال
ومهدت لـ من وسط قلبي مكان	وقلت لقلبي اكرم لمن حلّ فيك
وهون عليك ما يعتربك من هوان	فلا بد من هول الهوى يعتربك

وما بعدها والنويع المغربي ص ٣٣٥ وما بعدها .

(١) انظر في ابن شجاع مقدمة ابن خلدون ص ١٣٥٨

وهو يدعو في أول زجله إلى البعد عن الحسان الملاح لأنهن يخنن من يعاهدنه ولا يجسن أنفسهن على من يصفيهن الود ، ودائما يتهن على عشاقهن ويتمنن ويجدن متاعا في تقطيع قلوبهم ، وإن اصلوا لم يلين أن يهجرن ، ولا عهد لمن ولا أمان . ومع كل هذه النصائح يقول إن واحدة منهن صبت قلبه حبا وهياما وأوصى بها قلبه حتى لو أذاقته حوانا بعد حوان !

٣

شعراء المديح

المديح من أقدم موضوعات الشعر العربي ، وهو يحمل أمجاد الأمة على مر التاريخ ، ونراه دائما على ألسنة الشعراء في كل قطر وعصر يتغنون بالأمجاد التي يحققها الخلفاء والحكام ، ونراه في المغرب الأقصى منذ نشأت دولة الأدارسة ، وفيهم يقول - كما عند أبي عبيد البكري - إبراهيم بن أيوب من نكور في الشمال الشرقي للمغرب الأقصى على المتوسط ، ولعلها في إدريس الثاني :

أيا أملى الذى أبغى وسولى ودنيائى التى أرجو ودينى
أأحرّم من يمينك رى نفسى ورزق الخلق من تلك اليمين
ويُحجّب عن جبينك طرف لخطى ونور الأرض من ذاك الجبين
وقد جبت المهامة من نكور إليك بكل ناجية أمون^(١)

وابن أيوب لا يمدح فحسب ، بل يبالغ في مديحه ، إذ يجعل نور الأرض - فى المشارق والمغارب - يستمد من جبين ممدوحه الإدريسي . ونمضى بعد الأدارسة فى عصر أمراء الطوائف ولا نجد إلا شظايا متناثرة من بعض المدايح ، ونجد ابن القابلة السبتي يمدح قائدا ولعله من قواد المرابطين فى أول دولتهم ، ولم يبق من مدحته إلا ما أنشده ابن بسام فى الذخيرة من قوله فى بعض انتصاراته ووصفه لقتلاه^(٢) :

تركهم نهب الغلاة ووحشها شعورهم شغت وأوجههم غير
تظل سياح الطير عاكفة بهم على جثث قد سل أنفسها الذعر
وقد عوضتهم من قبور حواصلها فبا من رأى ميتا يطير به قبر

وهو يقول إن أرواحهم لم تسلبها السيوف ، وإنما سلها الذعر من الممدوح وجيشه قبل السيوف ويقول إن الطير عاكفة على أجسادهم تأكلهم أكلا لئما ، وكأنما لم يعد التراب

(١) المهامة : القفار والغلوات . ناجية : ناقة سريعة . (٢) الذخيرة ٣٨١/١/٤ .

أمون : لا تعثر ولا تقتر .

قبورهم ، بل أصبحت قبورهم حواصل الطير. ويقول الحصرى نزيل سبتة يصف بأس المرابطين وشجاعتهم :

بنو الحربِ غَدَّتْهم لِبَانٌ تُدِيها وما استعذبوا منهم إلا العلاقما^(١)
يَحْثُونَ لِلْهَيْجَاءِ جُرُودًا سَلَاهِيَا وَيَنْضُونَ فِي الْبِيدَاءِ بُزْلًا صَلَادِمَا^(٢)
إِذَا طَعَنُوا بِالسَّمْهَرِيَّةِ خِلْتَهُم ضِرَاعُهُمْ تُغْرِى بِالْقُلُوبِ أَرَاقِمَا^(٣)
وَإِنْ كَرَّ مِنْهُمْ ذُو لُثَامٍ مَصْمَمٌ غَدَا لِقَمِ الْهَيْجَاءِ بِالسَّيْفِ لَأْتِمَا^(٤)

والحصرى يقول عن المرابطين إنهم بنو الحرب رضعوا لبان ثديها ، مستعذبن منها العلاقم وأشدّها مرارة كناية عن حسن بلائهم فى الحروب الضارية ، وإنهم ليحثون لها خيلا جرّدا مقدّمة ويضنون فى البوادي إيلّا متينة صلبة ، وإنك لترى الرماح فى أيديهم يدسونها - كأنها أفاع - فى قلوب أعدائهم ، وإنك لترى المثلث منهم إذا صمم وكرّ كأنما يريد أن يتقبّل الحرب بسيفه ، الذى يستأثر منه بكل مشاعره . وأنشد المقرئ فى الجزء الرابع من أزهار الرياض للقاضى عياض السبتي مقطوعة بديعة يهنئ بها - كما نصّ - على بن يوسف بن تاشفين بزفاف ولى عهده تاشفين على عروسه منشدا :

لِيَهْنِ الْعَلَا أَنْ زُفَّتِ الشَّمْسُ لِلْبَدْرِ وَحَلَّى جَيْدَ الْمَلِكِ بِالْأَنْجَمِ الزُّهْرِ
وَقَرَّتْ عَيُونُ الْمَجْدِ أَيْةَ قِرَّةٍ يَوْمَ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الدَّهْرِ
لَذَنْ سَاعَةً أَفْضَتْ إِلَى كُلِّ بَغِيَةٍ كَمَا اعْتَلَقَ الْغَوَاصُ بِالْدَّرَةِ الْبَكْرِ
قِرَانٌ كَلَا السَّعْدَيْنِ فِيهِ تَلَاقِيَا كَمَا يَلْتَقَى فِي الْمَقْلَةِ الشَّقَرُ بِالشَّقْرِ
لِتَجْرَ الْمُنَى فِي حَلْبَتَيْهِ مُعَذَّةً فَحَقَّ لَهَا فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَنْ تَجْرَى^(٥)
بِسَعْدِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ تَطْلَعَتْ أَسَارِيرُهُ تَنْدَى بِمَائَةِ الْبَشْرِ^(٦)
تَمْنَاهُ نَجْلُ الْمَلِكِ حَظًا مُمْتَعًا بَعِزٌّ إِلَى عِزٍّ وَقَدَرٌ إِلَى قَدَرٍ

وهو يقول : لتهنأ العلا فقد زُفَّتِ الشمس الساطعة إلى البدر المنير ، وزين جيد الملك بالأنجم المتألّفة ، وأصبح المجد قرير العين بيوم زفاف تسامى على الدهر ، حين أتاحت لولى العهد كل أمنية ، وظفر بها ظفر الغواص بالدرّة اليّيمة ، وإنه لقران تلاقى فيه سعدان كما يتلاقى فى العين الجفنان ، وتجرّ المنى فى حلبيته وتمرح ما شاء لها المرح ، فذلك سعد أمير المسلمين ، وتلك أساريه يترقرق فيها رونق البشر ، وهو كل ما كان يتمناه نجله حظا سعيدا هائلا بعزّ

- (١) العلاقم : جمع علقم : شديد المرارة .
(٢) جرّدا : قوية . سلاهيا : طويلة . ينضون : يهزلون . بزلا : إيلّا ناضجة متينة . صلادم : صلبة .
(٣) السمهرية جمع سمهرى : الرمح . ضراغم : أسد .
(٤) أراقم : جمع أرقم : أحبّ الحيات والأفاعى .
(٥) ذو لثام : كان المرابطون يضعون لثاما على وجوههم ، ولذلك سموا المثلثين . لائما : مقبلا .
(٦) أساريره الوجه : محاسنه . مائة : رونق .

إلى عز وتجلة إلى تجلة . وترمز هذه المقطوعة إلى ما أصاب الشعر المغربي من نهضة منذ عصر المرابطين ، واسترجع لابن زنباع أحد شعرائه . ونمضى إلى عصر الموحدين وملتقى بابن حبوس شاعر عبد المؤمن والجراوى شاعر يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور وحفيده الناصر ، وسنفرد لكل منهما ترجمة . كان عبد المؤمن قد استوزر أبا جعفر بن عطية واستكتبه ، ثم جرت له محنة معه فرج به فى حياض السجون وقتله ، وأرسل إليه ، وهو سجين يستعطفه ، أبياتا شعرية افتتحها بقوله^(١) :

عطفا علينا أمير المؤمنين فقد	بان العزاء لفرط البث والحزن
قد صادفتنا سهام كلها غرض	ورحمة منكم أوفى من الجن ^(٢)
من جاء عندكم يسعى على ثقة	بنصره لم يخف بطشا من الزمن
أنتم بذلتهم حياة الخلق كلهم	من دون من عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من أحييت مكارمكم	كلنا الحياتين من نفس ومن بدن
وصيبة كفراخ الورق من صغر	لم يألفوا النوح فى فرع ولا فن ^(٣)
قد أوجدتهم أيام منك سابغة	والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

وهى أبيات تلين القلوب القاسية وتملؤها رحمة وبرا وإشفاقا ، ولكن قلب عبد المؤمن لم يلب له ولا أخذته فيه رافة ولا رحمة ، وظل غاضبا عليه حتى أذاقه حتفه . وكان ابنه يوسف محبوبا من شعبه وكان عالما واسع المعرفة وقرب المتفلسفة والشعراء منه ، ولأبى حفص عمر السلمى مدحة طويلة فيه أنشدها المقرئ فى أزهار الرياض استهلها بقوله^(٤) :

الله حببك والسبع الحواميم	تغزو بها سبعة وهى الأقاليم
سبع المثاني التى لله قمت بها	عليك من سيرها نصر وتقديم
وأنت بالسور السبع الطوال على	كل السورى حاكم بالله محكوم

ولعل يوسف كان أمضى من حكمه سبع سنوات ، فخال الله يرعاه والسور الحواميم السبع كأنما يغزو بها العالم وأقاليمه السبعة كما كان يظن الجغرافيون حينئذ ، والسبع المثاني وهى سورة الفاتحة التى لا يزال يقوم بها مصليا لربه وداعيا تحفظه وتكفل له النصر والتأييد . وتؤكد السور السبع الطوال : البقرة ، وتالياتها حتى التوبة أنك محكوم وحاكم بكتاب الله وما جاء فيه من الإخاء بين المسلمين والمساواة والعدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه . ومضى عمر السلمى فى قصيدته يسترسل فى بيان تعمق يوسف فى العلم وتدفق الخير على رعيته من يده ، ويقول مبالغا إن الشرق والغرب والبحر والبر من سهل وجبل يدين له ، ويشيد بعلمه وكرمه

(١) النبوغ المغربى ١٦٦/٢ .

(٢) الجن جمع جنة : الوقاية .

(٣) الورق : الحمام . فن : غصن .

(٤) أزهار الرياض ٣٦٢/٢ .

وإقدامه فى الحرب وشدته على العصاة ، ويختم القصيدة بمبالغات طالبا إلى سامعيه أن يجثوا على الرُكب إعظاما ليوسف . وبحق يمجّد انتصار يعقوب بن يوسف فى موقعة الأرك التى سحق فيها نصارى الإِسبان ومزق جموعهم تمزيقا ، وكان حريا بابن سعيد أن ينشد القصيدة كاملة فى كتابه الغصون الياينة ، وما أنشده قوله ليعقوب^(١) :

أطاعتك الذُّوابِلُ والشُّفَارُ ولبيّ أُمَرَكَ الفُلُكُ المِدارُ^(٢)
ببشرى مثل ما ابتهجتَ رياضُ وسَعِدَ مثلما وضح النهارُ
وفتح مثلما انفتحتَ كِمَامُ وشَقَّتْ عن صدور مَهْمَا صَدَارُ^(٣)
وَأَمَالٍ كما مُدَّتْ ظِلَالُ وأَفْعَالٍ كما مُدَّتْ بِحَارُ
وأَعْلَامُ بنصرك خافقاتِ لها فى كُلِّ جَوٍّ مستطارُ
ليَهْنِيءَ أرضَ أُنْدَلُسٍ بِدورُ من السَّرَّاءِ ليس لها سِرارُ^(٤)

وهو نصر عظيم فى الأرك طَوْقَ يعقوب بمجد وفخر لا يماثلهما فخر ومجد . وكانت دولة الموحدين دولة ظاهرية كما مر بنا فى الفصل الثانى ، وكانوا يدعون إلى المذهب الظاهرى وإلى نبد كتب الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، ويسمونها كتب الفروع . ولا نصل إلى عصر يعقوب حتى تبلغ هذه الثورة على كتب المذاهب الأربعة الكبرى غابتها فيأمر بإحراقها بعد أن يجرد ما فيها من آى القرآن والأحاديث النبوية وأن يُحْمَلَ الناس على الظاهر من الذكر الحكيم والحديث الشريف ، وينوه بذلك غير شاعر فى مدحيه ، من ذلك قول قاضى قضاته أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان كما جاء فى الغصون الياينة لابن سعيد^(٥) :

نُصِرْتُمْ لَأَنَ الحَقِّ أَنَ ظَهْرُهُ وناصِرُهُ فى الله ما كان يُخْذَلُ
قطعتم فروعا قد أضرَّتْ بأصلها ألا هكذا من كان بالعدل يَشْمَلُ

والأصل الذى يقصده هو القرآن والحديث النبوى الذى يأخذ بهما الظاهرية . ويقول ابن سعيد فى الغصون الياينة إن لابن الياسمين قصيدة منصورية يذكر فيها قَطْعَ المنصور الاشتغال بكتب الفروع أى كتب المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى والافتصار على ما ثبت من الأحاديث النبوية ، وينشد منها قوله^(٦) :

أَسَيَّلْنَا قَدَ وَرْدَتِمْ بِنَا مواردُ كُنَّا عَلَيْهَا نَحْمُومُ
نِذْتِمْ مَقَالَةَ هَذَا وَذَا فزال المِرَاءُ وَقَلَّ الْخَصْمُومُ

(٤) السرار : آخر ليلة فى الشهر يريد أنها بدور منيرة من المسرة والرخاء لا يعقبها أى ظلام .

(٥) الغصون الياينة ص ٣٠ .

(٦) الغصون الياينة ص ٤٧ .

(١) الغصون الياينة فى محاسن شعراء المائة السابعة ص ٩٦ .

(٢) الذُّوابِلُ والشُّفَارُ : الرماح والسيوف .

(٣) الصدار : ما تلبسه المرأة على صدرها .

وَأَتَيْتُمْ قَوْلَ مَنْ لَفْظُهُ
فَلَا زِلْمٌ لَكُمْ أَلْهَدَى
هو الشَّرْعُ والحق منه يقوم
وإحياء دارسِ درسِ العلوم

وهو يشير إلى ما كان قد أمر به يعقوب الفقهاء في أيامه من جمع الأحاديث الصحيحة من مصنفات عشرة ، هي كتب الصحاح ماعدا ابن ماجة والموطأ وسنن البزار ومسنند ابن أبي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي ، فجمعوها له فكان يملئها بنفسه على الطلبة ويجعل لمن حفظها مكافأة سنية .

ونمضى إلى عصر المرينين وأول شاعر كبير نلتقى به في عهدهم مالك بن المرحل ، وهو شاعر أهم سلاطينها في أوائل عهدها يعقوب بن عبد الحق (٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م - ٦٨٥ هـ / ١٢٨٧ م) وله يهنته بافتتاحه مدينة مراکش^(١) سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م :

فَتَحَّ تَبَسَّمَ الْأَكْوَانُ عَنْهُ فَمَا
رَأَيْتُ أَمْلَحَ مِنْهُ مَبْسِمًا وَقَمًا
فَتَحَّ كَمَا فَتَحَ الْبِسْتَانُ زَهْرَتَهُ
وَرَجَّعَ الطَّيْرُ فِي أَفْئَانِهِ نَغْمًا
فَتَحَّ كَمَا انْشَقَّ صَبْحٌ فِي قَمِيصٍ دُجَى
وَطَرَفَ الْبَرْقُ فِي أَرْذَانِهِ عِلْمًا
أَضْحَتْ لَهُ جَنَّةُ الرُّضْوَانِ قَدْ فُتِحَتْ
أَبْوَابُهَا وَفَوَادُ الدُّنْيَا قَدْ نَعِمًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ هَذَا مَا وَعَدْتَنِي بِهِ
يَا خَيْرَ مَنْ وَلَّى الدُّنْيَا وَمَنْ حَكَمًا
لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدًا كَانَ وَعْدُهُ
فَاشْكُرْ يَضَاعِفُ لَكَ الْحِطُّ الَّذِي قُسِمًا
سَبْحَانَ مَنْ بِجَمِيعِ الْفَضْلِ أَفْرَدَهُ
وَمَنْ حَبَّاهُ السَّجَايَا الْغُرَّ وَالشُّيَمَا

وهو يمجّد فتح يعقوب المريني لمراكش مدينة المغرب الأقصى الكبرى أعظم تمجيد ، فقد ابتسمت لفتحها الأكوان ، كما يتفتح البستان المونق عن زهراته ، والطير تصدح مبتهجة على أغصانه وكأنما فتحت له أبواب الفردوس ، ونعم فؤاد الدين بهذا النعيم العظيم . والشاعر يحمّد الله أن تحقّق ليعقوب كل مأمله من ربه ، مما لا يسعه معه إلا مضاعفة الشكر ، والله جلّ في علاه جدير بكل حمد إذ أفردّه بكل فضل وجباه بكل سجية وشيمة شريفة . ويعقوب من سلاطين المسلمين الذين يستحقون هذا الثناء لا بفتحهم مراکش ، ولكن لأنه رصد نفسه وجيشه المغربي لجهاد نصارى الإسبان ، وقد جاز لهم بجيشه الزقاق أربع مرات : سنة أربع وستين وسبع وسبعين وإحدى وثمانين وأربع وثمانين قبل وفاته بعام واحد ، وفي كل مرة كان يسحقهم سحقاً ، وبذلك أعز الإسلام والمسلمين في غرناطة والعدوة الأندلسية ، وكان كل ما يغنمه يقدّمه لسلاطينها من بنى الأحمر بنفس راضية . وكان يسمى بالسلطان المجاهد والمملك العابد لربه . وللقاضي أبي عبد الله القسطلاني يستمنح^(٢) أبا عنان (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ) :

(٢) النبوغ المغربي ٢٢٠/٣

(١) انظر النبوغ المغربي ٢١٢/٣ .

أَيَا إِمَامًا نَدَى كَفَيْهِ قَدْ وَكَّفَا
وَكَيْفَ أَصْرَفُ وَجْهَ الْقَصْدِ عَنْ مَلِكٍ
مَا إِنْ شَكُوتُ بِمَا أَضْنَى تَطْلُبُهُ
وَلَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مَتَهَى أَمَلِي
فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ تَجْدِيدُ عَارِفَةٍ
وَلَيْسَ مِمَّنْ يَرَى أَنْ لَا يُتِيحَ يَدًا
حَسْبِي اعْتَصَامِي بِحَبْلِ مِنْكُمْ وَكَفَى
مَا صَدَّ عَنِّي سَنًا بِشِيرٍ وَلَا صَرَفًا
إِلَّا وَجَدْتُ بِهِ لِي مِنْ ضَنَائِي شِفَا
إِلَّا قَضَى وَطَرًا مِنْهُ وَمَا وَقَفَا^(١)
مَهْمَا انْقَضَتْ هَذِهِ لِهَذِهِ انْتَفَا^(٢)
حَتَّى يَقَامَ لَهُ بِشَكْرِ مَا سَلَفَا

وهو يقول لأبي عنان إن ندى كفيك قد سال وفاض على جميع الناس ، وحسبى أنى
أعتصم منك بعهد ومودة باقية ، ولن أنصرف عن قصدك وكيف أنصرف وأنت دائما تلقانى
ببشر وترحاب وما شكوت ضنا إلا شفيتنى منه ، ولا أملت فيك أملا إلا حققت لى شطرا
منه ، وفى كل يوم يتجدد منك عارفة وإحسان وما ينقضى إحسان حتى تستأنف إحسانا آخر ،
وإنك لتقدم أفضالك غير منتظر على فضل شكرا . وسنفرد لأحمد بن عبد المنان شاعر أبى عنان
ترجمة . ولحمد بن أحمد الشوكي يمدح أبا فارس المريني قائلا^(٣) :

هُوَ الْإِمَامُ الَّذِي مِنْ أُمِّ سَاحَتِهِ
وَمَنْ تَخَلَّفَ جَهْلًا عَنْ إِبَاجَتِهِ
قُلْ لِلَّذِي عَنْهُ أَقْصَتْ جَرَائِمُهُ
زُرْ حَضْرَةَ الْمَلِكِ الْمَيْمُونِ طَالِعُهُ
فَطَبِيعُهُ الصَّفْحُ وَالْمَعْرُوفُ شِمَّتُهُ
جَادَتْ عَلَيْهَا بِجَدَوَاهَا أُنَامَلُهُ^(٤)
سَارَتْ إِلَيْهِ عَلَى عِلْمٍ صَوَاهِلُهُ^(٥)
وَعَقَلَتْهُ عَنِ الْعَلْيَا مَعَاقِلُهُ^(٦)
تَحْظَى بِمَا أَنْتَ فِي ذُنْيَاكَ آمَلُهُ
وَالْحَلْمُ وَالصُّونُ وَالتَّقْوَى شِمَائِلُهُ

فهو الإمام الذى يغمر من يقصده بعطاياه ، والجاهل هو الذى يتخلف عن إجابته فتغزوه
خيوله وجيوشه ، وما أخرى من أبعدته عنه جرائمه وحبسته عن العلياء من الصلة به معاقله أن
تبتسم له الدنيا وتحقق له آماله إذ طبعه الصفح والغفران وشيمته زرعُ المعروف والحلم والصيانة
والتقوى ومخافة الله .

وإذا انتقلنا إلى عصر السعديين التقينا بمعركة كبرى بينهم وبين البرتغاليين فى وادى
المخازن بقرب مدينة القصر الكبير سنة ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م وكان يقود جيش البرتغاليين
ملكهم سباستيان وكان السلطان عبد الملك السعدى مريضا وحضر المعركة أخوه أحمد ،
ومن قاتل كان الجيش البرتغالى ثمانين ألفا ومن قاتل كان مائة ألف ، أسير أكثرهم ، وقتل
ملكهم فى المعركة وتوفى السلطان عبد الملك وتولى أخوه أحمد الملقب بالمتصور الذهبى .

(٤) أم : قصد . جدواها : عطايها .

(٥) صواهله : خيله .

(٦) عقلة : حبسته .

(١) وطرا : مأريا .

(٢) عارفة : مكرمة . انتنف : استأنف .

(٣) البيوغ المغربى ٢٢١/٣ .

وللشعراء في هذه المعركة والإشادة ببطولة المنصور فيها قصائد كثيرة ، منها قصيدة داود بن عبد المنعم الدغوري ، وفيها يقول^(١) :

جَنَّا النَصْرَ مَا بَيْنَ الظُّبَا وَالْكُنَائِنِ عَلَى سَابِقَاتِ الْمَذَكِيَّاتِ الصَّوَّافِنِ^(٢)
وَمَاذَا يَفِيدُ الْجَيْشُ إِنْ كَانَ رُبُّهُ كَسَيْسَ طِيَّانٍ عِنْدَ وَادِي الْمَخَازِنِ
يُسْرَبُ نَحْوَ الْمَغْرِبَيْنِ جَنُودُهُ كَمَثَلِ الدَّبَا عَنْ مَخَارِطِ السَّفَائِنِ^(٣)
وَحَيْمٌ فِي تِلْكَ الْجِهَاتِ وَعَيْنُهُ لِمَرَّاكُشٍ الْحَمْرَاءِ لَا لَتَطَاوِنِ
وَشَبَّتْ لَطَى الْهَيْجَاءِ لَيْسَ وَقُودُهَا سِوَى أَنْفُسِ الشَّجْعَانِ وَسُطَى الْمِيَادِنِ
وَذَلِكَ يَوْمٌ مِثْلَ بَدْرٍ وَصِنُوهُ حَتَّى بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ الْمِيَامِنِ
لَقَدْ ذَاقَ فِيهِ الْبُرْدُ قِيزَ مِنَ الرَّدَى جِزَاءَ مَنَاحِيصٍ خَزَايَا مَلَاعِنِ^(٤)

وهو يقول إن ثمار النصر دائما تجلبها السيوف وكنائن السهام على سابقات الخيل الفتية القارحة ، ولكن ماذا يفيد الجيش إن كان قائده مثل سباستيان عند وادي المخازن ، وقد ظل يدفع بجنود مثل الدبا أو الجراد من السفن مآخرات المحيط ، وخيم في تلك الجهات وعينه على المدينة الكبرى مراکش لا على تطوان أو غيرها . وشبت المعركة وقودها البرتغاليون وإنه ليوم نصر عظيم للمسلمين كيوم بدر وصنوه يوم حنين ، وذاق البرتغاليون فيه من الموت أصنافا عقابا وتنكيلا لمناحيص مستخزين . ومعركة ثانية كبرى خاضتها جيوش المنصور الذهبي لكن لا في الشمال، وإنما في الجنوب ببلاد السودان ، فقد أمر سنة تسعمائة وثمان وتسعين بتجهيز جيش لغزو بلاد السودان ، ففتحها واستولى على إقليم توات في الجنوب الشرقي للمغرب وإقليم تيجورارين شمالي إقليم توات، وغير ذلك من البلاد ، وتوغل في السودان وألقى في حجره بذهب كثير أثرت به الدولة، وفي هذا الفتح يقول الشيطمي^(٥) أحد قواد المنصور :

سَهْمٌ مِنَ الْغَرْبِ قَدْ أَصْحَى الْأَسَاوِدَ إِذْ صَمُّوا وَهَمَّ حَيْثُ بَحْرُ النَّيْلِ مَرُورُ^(٦)
وَحِينَ صَمُّوا عَنِ الْإِنْذَارِ أَسْمَعَهُمْ صَوَاعِقًا يَبْدَاهَا الْمَوْتُ مَعْقُودُ
تَرَاهُ يَنْفُثُ مِنْ أَفْوَاهِهَا بَرْدًا يَنْقُضُ حَيْثُ فَوَادِ الْقِرْنِ مَرْصُودُ^(٧)
مَدَافِعُ أَبْطَلَتْ لِلْسُّودِ حِكْمَتَهَا فَلَمْ يُفَيْدْ مَعَهَا نَفْثٌ وَتَعْقِيدُ^(٨)
وَمَا اسْتَقَامُوا إِلَى أَنْ جُرِّدَتْ لَهُمْ بَيْضٌ وَأُشْرِعَتِ السُّمُرُ الْأُمَالِيدُ^(٩)

(٥) الوافي بالأدب العربي لابن تاريت الطنجي ٦٧٨/٣ .

(٦) أصحى : أصاب إصابة قاتلة . صموا : لم يسمعوا .

(٧) بردا : يريد الشاعر بارودا .

(٨) النفث والتعقيد يراد بهما تعاوذا السحر .

(٩) بيض : سيوف . سمر أماليد : رماح لبنة فاتكة .

(١) النوغ المغربي ٤٣/٣ .

(٢) جنا : ثمة . الظبا : السيوف . الكنائن جمع

كنانة : وعاء السهام . المذكيات : الخيل القارحة .

الصوافن جمع صافن : يريد المتأهية للحرب .

(٣) الدبا : الجراد . مخارت السفينة : شقت الماء .

(٤) البردقيز : البرتغاليون .

والشيظمي يتصور كأن سهما انصبَّ من المغرب فقضى على السودانيين إذ أصابهم - وهم حاشدون على نهر النيل - ما يشبه الصمم ، فلم يسمِعوا إنذار المدافع المدوى وما تنفث من أفواهاها من قذائف قاتلة ، مدافع أبطلت للسود حكمتهم فلم ينفعهم نفث ولا تعويذات ، وسرعان ما قوَّمتهم السيوف والرماح واستلموا خانعين . وشعراء المنصور كثيرون وسترجم لشاعريه الحوزالى وأحمد بن القاضى .

واستولى المنصور على مدينة أصيلا من أيدي البرتغاليين ، وهنأه بذلك الشعراء ، ويتوفى ويتنازع أولاده بعده على الحكم ، ويتنازل أحدهم - وهو المأمون - عن مدينة العرائش ، لإسبان وأسسوا لهم بالقرب منها مدينة المهديّة . واستولوا على سبتة وطنجة من أيدي البرتغاليين كما استولوا على الجديدة وأزمور ، وتعلّق أمل الناس بالمتصوفة فى مقاومة البرتغاليين والإسبان ، وانتعشت الزاوية الدلالية فى تادلة إلى أن دمرها السلطان العلوى الرشيد سنة ١٠٧٩ هـ/١٦٦٩ م ونقل شيوخها وفى مقدمتهم شاعرها الكبير اليوسى إلى فاس . وأهم من هذه الزاوية وشيوخها فى مقاومة الإسبان الشيخ الصوفى أبو عبد الله محمد العياشى الذى تصدّى - ومعه جماعات الفدائيين المجاهدين - لإسبان ، فخلص منهم مدن العرائش وأزمور والجديدة وتوفى سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٢ م واستولى الخضر غيلان أحد رجاله - فيما بعد - على مدينة القصر الكبير . وفى العياشى يقول أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاّتى مصورا حبة الشعب له لجهاد أعدائه وأعداء الدين الحنيف^(١) :

حديثُ العلا عنكم يسيرُ به الركبُ	وينقله فى صُحْبِهِ الشَّرْقُ والغَرْبُ
وحُبُّكُمْ فَرَضٌ على كُلِّ مسلمٍ	تُقالُ بِهِ الزُّلْفَى من الله والقُرْبُ
وأنت رفيعٌ من أصولٍ رفيعةٍ	نجومٌ اللداجى فى الأنام لها سِرْبُ ^(٢)
سمى رسولُ الله ناصِرُ دينِهِ	تجلّى بكم عن أَفْقِهِ الشُّكُّ والرَّيْبُ

وكما تغنى الشعراء طويلا فى العهد السعدى بانتصارات المنصور الذهبى كذلك تغنوا فى العصر العلوى بانتصارات السلطان إسماعيل العلوى (١٠٨٤هـ/١٦٧٢م - ١١٣٩ هـ/١٧٢٧م) فقد استرد المهديّة من الإسبان سنة ١٠٩١هـ/١٦٨١م وطنجة من الإنجليز سنة ١٠٩٥هـ/١٦٨٤م والعرائش من الإسبان سنة ١١١١هـ/١٦٩٩م وأصيلا سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م . وكان لاسترداد العرائش فرحة كبيرة فى قلوب الشعب إذ كانوا من شدة الحزن والأسى لاستيلاء الإسبان عليها أن لبسوا الأحذية السود ، ولم يخلعوها من أرجلهم إلى أن استردها السلطان إسماعيل فلبسوا الأحذية الصفر . وأُخذت مدينة العرائش وما تم من استعادتها على يد السلطان إسماعيل محورا

(٢) سرب : جماعة .

(١) الوافى لابن تاويت ٧٢٩/٣ .

تدور من حوله مدائح وتهنئاته ، من ذلك تهنئة لفتى فاس عبد الواحد البوعناني وسنخصه بكلمة . واستثارة عبد السلام جسوس إسماعيل حتى يسترد سبته من يد الإسبان كما استرد العرائش ، يقول^(١) :

رفعتُ منازلُ سبَّيةٍ أقوالها تشكو إليكم بالذى قد حالها
فلقد قضيتُم للعرائش حاجةً مع طنجيةٍ فاقضوا لذي آمالها
إن لم تكونوا آخذين بثارها من ذا يَفكُ من الوثاق جبالها
فابعث لها أهلَ الشجاعة عاجلا حتى تراهم نازلين جبالها

وليوسف بن محمد الشوذري أرجوزة صور فيها معركة العرائش مشيدا فيها ببطولات المجاهدين ، ومن قوله في وصف الخطة الحربية^(٢) :

قد حلَّ نصفُ الجيشِ أرضَ الساحلِ مقابل المرسى لمنع الداحلِ
ونصفه حلَّ على سورِ البلادِ طوقها بأسرها طوقَ القِلادِ
لما رأى الكفارُ ما أذهلهم وشدة الأمر العظيم هالهم
وكان بالمرسى مراكبُ لهم موثوقة دارت بها جبالهم
ارتقبوا الليل وقد جنَّ الظلام واختلسوا في زورقٍ مثل السهام

وهو يقول إنهم فروا ليلة خلصة في زوارق حملتهم في الظلام الدامس المعتم إلى سفنهم ، فطاروا بها إلى المحيط فارين من وجه الموت المرعب المخيف . وحرى بنا أن نترجم لمن وعدنا بالترجمة لهم .

ابن زنباع^(٣)

من أهل طنجة كما يقول القلقشندي ، اختلف إلى الكتاب حتى حفظ القرآن ، ثم شغل بحلقات العلماء حتى أتقن العلوم الدينية والعربية وعلومها البيانية واللغوية ، وترجم له الفتح بن خاقان في القلائد ، ومن قوله في التعريف به : « حوى العلوم وحازها ، وتحقق حقائق العرب ومجازها ، وروى قصائدها وأرجازها » وأضاف أنه عالم بالطب « موفق العلاج » ، واضح المنهاج . وقد يفهم من ذلك أنه توسع في الاطلاع على علوم الأوائل واختار منها الطب فتعمقه كما تعمق الفقه والدراسات الدينية مما جعل دولة المرابطين تختاره قاضيا بطنجة كما اختارت

تأريث ٣١/١ وما بعدها والربويع المغربي للأستاذ عبد الله
كنون ١٠١/١ والتعريف بالقاضي عياض لابنه محمد ،
تحقيق د . بنشركة (طبع الرباط) .

(١) الوافي ٨٤١/٣ .

(٢) الوافي ٨٤٥/٣ .

(٣) انظر في ترجمة ابن زنباع وشعره القلائد (طبع
تونس) ص ٢٥٩ وصبح الأعشى والوافي للأستاذ ابن

صديقه عياضا قاضيا في سبته . وحكى ابن القاضى عياض فى كتابه الذى قصره على التعريف بأبيه أن أبا الحسن بن زبناح كان بينه وبين أبيه فى الشبية إخاء كبير ، وفى الكبر وقع بينهما تقاطع إذ بلغ عياضا عنه كلام ساء ، فعاتبه واعترف ابن زبناح بالفضل له . وفى ذلك ما يدل - من بعض الوجوه - على حسن خلقه . وربما نقله المرابطون قاضيا ر بعض المدن الأندلسية مما جعله يقترب من المارك التى سجل فيها قوادهم انتصارات ضخمة على نصارى الإسبان ، ومن قوادهم العظام : سير بن أبى بكر وابن عائشة أخو أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وأخوه تميم ومحمد بن الحاج وابن فاطمة أبو محمد عبد الله ومزدلى ، ولكل منهم جهاد وفتوحات عظيمة ، ويقول ابن زبناح مجددا بطلا من هؤلاء الأبطال لدولة المرابطين منوها بفتح تم على يده :

لذا تُصان السيوفُ فى الخِلَلِ	ويفخر الخطُّ بالقَنَا الذُّبُلِ ^(١)
وتُكرَّمُ الخيلُ فى مرابضها	بر الفتاة العُروب بالرجل ^(٢)
ويُقَطَّفُ النِّعُ كالحواجب أو	أُخْتَى وتُمَيَّى السهام كالملقل ^(٣)
ويؤثر الشرَّة الكمى إذا	خُير بين الدروع والحُلل ^(٤)
فَتَحَّ به أثارت البلاد كما	أشرفت المقربات بالنهل ^(٥)
هذت له الروم هذة ملأت	قلوب أبطالهم من الوجَل ^(٦)
فما أطاقوا الولوج فى نفق	وما أطاقوا الصعود فى جبل ^(٧)
كأنهم والرماسح تحفزهم	جرى فضال سلكن فى الوحل ^(٨)

وهو يقول لمثل هذا النصر تصان السيوف فى أغمدها ، ويفخر الخط برمache الفتاة ، وتكرم الخيل فى مرابطها ، بر الفتاة الكريمة بالرجل المحتاج لمعرفها وبرها ، وتُقَطَّفُ أعواد شجر النبع اللينة حتى تصبح قسيًا كأقواس الحواجب ، وترقق السهام وتسدد إلى صدور الأعداء كما تسدد سهام الأعين الفاتنة إلى القلوب ، ولمثل هذا النصر يؤثر الشجاع حمية الحرب وهولها إذا خُير بين الدرع والحلة الفاخرة ، فإن الدرع فى نظره أكثر نفاسة ، وإنه لفتح ميين أدركت

-
- (١) الخلل جمع خلة : غمد السيف . الخط : أرض كانت تسب إليها الرماح الخطية . القنا : الرماح . الذبل : الحادة .
(٢) مرابضها : أماكن مقامها . العروب : الجميلة الأصلية .
(٣) النبع : شجر تقطف غصون منه لينة كالحواجب . تمهي : ترقق منها السهام وتسدد .
(٤) الشرَّة : شدة الحرب وشدة القتال . الكمى : الشجاع .
(٥) أثارت البلاد : أدركت لها ثارها . المقربات : الخيل العطشى طوال ليلة . النهل : الشرب الأول .
(٦) الوجل : الفرع .
(٧) الولوج : الدخول .
(٨) فضال جمع فضيل : ولد الناقة أو البقرة .

به للبلاد ثأرها من أعدائها ، وإنها لتستشرف به فتوحا متوالية كما تستشرف الخيل الكريمة التي ظلت تعدو ليلة طويلة ظامئة إلى الماء أنها ستنهل منه إذ تراه فجأة أمامها ، ولقد سحِق الروم سحقاً ملاً قلوب أبطالهم بالوجل والفرع فما استطاعوا الدخول في نفق ولا الصعود في جبل حتى لكأنهم فصال أو أولاد نوق يسيرون في وحل ، ولا يستطيعون السير ، بل يتعثرون ويقعون بالعشرات في شباك الأسر . وبطولة ثانية صورها لمعركة أخرى من معارك الماريطين ، وفيها يقول :

سَلَّ الحَرْبُ عَنْهُمْ وَالسَّيْفُ جَدَاوِلٌ	تَدْفُقُ وَالْأَرْمَاحُ رُقْطٌ تَنْضِضُ ^(١)
وَبِالْأَرْضِ - مِنْ وَقَعِ الْجِيَادُ - تَمُدُّ	وَلَكِنَّه - فِيمَا تَرُومُ - تَقْبُضُ
وَبِالْأَفْقِ لِلنَّعْمِ الْمَثَارِ سَحَابٌ	مَوَاحِضُ لَكِنْ بِالصَّوَاعِقِ تَمْخَضُ ^(٢)
وَقَدْ سَهِكَتْ تَحْتَ الْحَدِيدِ مِنَ الصَّدَا	جِسْمٌ بِمَا عُلَّتْ مِنَ الْمَسْكِ تُرْحَضُ ^(٣)
وَأَشْرَفَتِ الْبَيْضُ الرِّقَاقُ عَلَى الطَّلِي	لَتَكْرَعُ فِيهَا وَالرَّءُوسُ تَخْفَضُ ^(٤)
فَلَسْتُ تَرَى إِلَّا دِمَاءً مَرَاقَةً	تَخَاضُ إِلَى أَكْبَادِ قَوْمٍ تَخْضُخُ ^(٥)

وابن زنباع يقول سل الحرب عن شجاعة الماريطين وبأسهم ، والسيوف في أيديهم كأنها جداول تدفق بالدماء ، والرماح تلوكها وتستحيل رقطا ملطخة بها ، والأرض تحت حوافر خيلهم كأنها تتمدد ، وهي في الواقع تطوى طيا ، وبالأفق للغبار المثار سحائب حوامل صواعق مهلكة من الأسلحة والعتاد الحربي وقد تغيرت أجسام الأبطال تحت الحديد من الصدا بما تغسل به من المسك مرارا ، وفي أيديهم السيوف وقد سلت على أعناق الأعداء كأنما تريد أن ترتوى منها بينما تهوى الرؤوس إلى الحضيض ، فلست ترى إلا أنهارا من الدماء تُقْتَحِمُ إلى أكباد الأعداء .

وكان حريا بالفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان أن يضيف في ترجمة ابن زنباع إلى هاتين البطولتين للماريطين ما وصفه من بطولات أخرى لهم في الأندلس ، وعلى الأقل كان ينبغي أن يورد قصيدتي البطولتين اللتين ذكرهما كاملتين وأن يذكر القائدين اللذين يمدحهما ابن زنباع بقصيدتيه وموقعيهما الحربيتين ، وسنلتقي بابن زنباع في عرضنا لأشعار الغزل والطبيعة لتتضح شخصيته الشعرية .

- (١) رقط : جمع أرقط : ما كان بلونه بقع مثل النمر .
تنضض : تلوك .
(٢) النعم : غار الحرب . مواخض : حوامل .
تمخض : غمط .
(٣) سهك الشيء : تغيرت رائحته . علت : شرب .
الثاني بعد النهل . ترحض : تغسل .
(٤) البيض الرقاق : السيوف . الطلي : الأعناق .
كرع : شرب .
(٥) مراقة : سائلة . تخاض : تقتحم . تخضخض : نخوض في أكبادهم

هو أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن حبّوس ، ولد بفاس سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م وبها منشؤه ومرياه في الكتابيب وحلقات العلماء ومجالس الأدباء ، حتى أصبح متفنا في الكلام واللغة والبيان ، وتفتحت شاعريته مبكرة في صباه ، ورحل إلى تلمسان وظل بها فترة ، وعاد إلى مراكش في عهد المرابطين وأصبح في طليعة شعرائهم ، وندت منه ترّهات جعلته يرح مراكش إلى الأندلس ويظل بها إلى أن علا نجم عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين واستولى على مراكش سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م فعاد إليها واستوطنها ، ولزم الدروس التي كان يلقيها عبد المؤمن على طلابه وأتباعه ، وألقى بين يديه قصيدة أنشدتها صاحب نظم الجمان لعلها أولى مدائحه له ، وفيها يقول :

بخليفة المهدي سیدنا اغتدى	نهج العلوم معبداً ومذلاً
وافيتُ حضرته المقدس ترّثها	فاذا الذي أبصرتُ لن يتخيلاً
وسمعتُ كلّ مذاهب الحق التي	ما إن ترّى عن مُقتضاها معدلاً
وبصرتُ بالطوسي يفهُقُ حوله	وأبى المعالي مُجَمِّلاً ومفصلاً
فالحق بحضرته السنية واستمع	للقول واحذر - ويك - أن تنقولا
فيها كمال الدين والدنيا معاً	وسعادة الأرواح في أن تكملا

وهو يقول إن نهج العلوم أصبح ممهداً ومذلاً بفضل عبد المؤمن خليفة المهدي ، ويصف حضرته بأن ترايبها مقدس ، وأن ما رآه بها من علم عبد المؤمن أوسع من أن يحيط به خيال ، ويقول إنه سمع منه كل مذاهب الحق من دعوة الموحدين التي لا يجوز العدول عن مذاهبها ومبادئها ، وكأنما بصر بالغازي الطوسي وبيانه الغزير الرائع وبأبي المعالي الجويني إمام الحرمين وفكره الثاقب ، فالحق به وبحضرته ودعوته التي تحقق لك كمال الدين والدنيا معاً .

وبذلك لم يكن مادحا لعبد المؤمن فحسب ، بل كان أيضاً داعية لمبادئ الموحدين ودعوتهم ، فهو شاعره ، وهو داعيته ، وكان عبد المؤمن يشغف بشعره ، فلزمه في حركاته وسكناته ، وإن سار كان في ركابه ، على نحو ما نراه معه في فتحه لبجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وله في حصار عبد المؤمن لها جيمية يقول في مطلعها مخاطباً حاكمها الحمادي يحيى بن العزيز :

(١) كوديرا (رقم ١٠٥٥ والمطرب لابن دحية ص ١٩٩ والمُنْ بالإمامة لابن صاحب الصلاة (طبع بيروت) ص ٧١ والوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى للأستاذ ابن تاويت ٩١/١ - ١١٥ والنبوغ المغربي للأستاذ كون ١٧٦/١ ، ٢٣/٣ ، ١٩٦ .

(١) انظر في ترجمة ابن حبوس وأشعاره الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي ٢٩٣/١/٨ ، وزاد المسافر لصفوان ونظم الجمان لابن التطان تحقيق د . محمود مكي (طبع بيروت) ص ١٧٤ والمعجب للمراكشي (طبع القاهرة) ص ٢٨٢ والتكملة لابن الأبار (طبعة

شُدَّتْ إِلَيْكَ عَلَى الرِّيحِ سَرُوجُ أَيْنَ الْفَرَارُ بِأَهْلِكُمْ يَاجُوجُ

ثم اتجه بالخطاب إلى عبد المؤمن فقال :

عصفتْ بدعوتك الرياح المَوجُ وسطا بأمرِكَ ذابلٌ ووشيجٌ^(١)
وتقدّمتك إلى العدو مهابةٌ يشقى بها في سده ماجوج

وهو يشير بياجوج وماجوج إلى ما جاء في سورة الكهف عن يأجوج ومأجوج وأنها مفسدون في الأرض وأن قومهم لجنو إلى ذى القرنين ليرفع عنهم فسادهم ، يقول جلُّ شأنه : ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ وكأن إفسادا كبيرا حلَّ ببجاية جعل أهلها يستغيثون بعبد المؤمن ليرفع عنهم هذا الإفساد الذميم ، ويسمى الشاعر يحيى بن العزيز تارة باسم يأجوج وتارة باسم مأجوج . ويفتح عبد المؤمن ببجاية ، ويعود إلى عاصمته مراکش ، ويستقبل في شهر شوال سنة ٥٥٢ مصحف عثمان الذى أمر بنقله من قرطبة إلى مراکش ، ويمتدحه ابن حيّوس بهذه المناسبة منشدا من قصيدة :

سيشكر المصحفُ إكبابكم	عليه إذ أوجده الفقدُ
مصحف ذى التورين عثمان ما	كان لكم عن صونه بُدُ
ما اختار شيئا مؤنسا غيره	حين أتى - واقرب - الوعدُ
أوسعتم الدنيا أطراحا وما	كان لكم إلا به وجُدُ
يحنو عليه العطف منكم ولا	يغبه الإشفاق والودُ
ألبستموه جليّة لم يكن	يسمح للكف بها الزندُ

وهو يبالغ إذ يقول إن المصحف سيشكر له عنايته به ونقله إلى مراکش لصونه خشية فقده ، وهو مصحف عثمان الذى استشهد وهو بين يديه يتلو فيه ، وقد اتخذه مؤنسه فى اللحظات الأخيرة من حياته وإنكم لتشفقون به أكبر الشغف . ودفعته مبالغاته فى مدح عبد المؤمن إلى أن يقول إنه يحنو على المصحف بعطفه ، ودائما يوده ويشفق عليه . وله فى المصحف أخرى زاد فيها من مثل هذه المبالغات وأفرط ، وأشار ابن حبّوس فى البيت الأخير إلى تجديد عبد المؤمن لدفتى المصحف وتحليتهما بالجواهر النفيسة بحيث لم تعد الكف الواحدة تستطيع حمله . وكان النورمان قد استولوا على المهديّة وطرابلس واستغاث

(١) ذابل : سيف . وشيج : رمح .

أهلها بعد المؤمن فلّباهم بجيش جرار قلّم به أظفار أمراء الجزائر وإفريقية التونسية الخارجين عليه وفتح المهديّة سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م وطرّد النورمان منها ومن سواحل إفريقية التونسية وطرابلس . ويهتته ابن حبوس بفتح المهديّة مقارنا في مطلعها بين المهدي العبيدي الذي بناها واختار لها لوقت بنائها برج الأسد وبين عبد المؤمن الذي خلصها من النورمان :

بطالع الأسد اختطّ البناء بها لكنك الأسد الدّامي الأظافر

ويقول ابن عبد الملك في الذيل والتكملة : « بعد انصراف عبد المؤمن من فتح المهديّة سنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م فارقه ابن حبوس وعاد إلى مسقط رأسه فاس فاستوطنها » ويبدو أنه كان يرحل إليه من فاس مادحا بمثل قوله في إحدى مدائحه :

أمير المؤمنين لقد أضاء ال زمان بنور عدلك واستنارا
لكم شرقا البلاد ومغربها وأمركم مع الفلك استدارا
ومن قد فرّ عنكم من عدو فنحوكم إذا يبغي الفرارا
ولو خوفتم أعلام رضى لما سكنت ولا وجدت قرارا

والمبالغة واضحة في الأبيات ، فالفلك يجرى طوع أمره ، ومن فرّ عنكم لا بد أن يفر إليكم إذ تملكون عليه جميع مسالكه ، وحتى لو خوف عبد المؤمن جبال رضوى الراسخة في المدينة من قديم ما استقرت ولا وجدت لها قرارا . وصاحب المعجب محق حين يرى عنده هذه المبالغات المفرطة فيشبهه بابن هانيء في مديح المعز الفاطمي وما يضمّنه من تهويلات وقعقات . ونراه يرافق عبد المؤمن في أواخر سنة ٥٥٥ حين عبر الزقاق من سبتة إلى مرفأ جبل طارق ، واحتفل الناس بقدوم عيد المؤمن احتفالا عظيما ، ولما أذن للشعراء بالإنشاد بين يديه أنشده شعراء كثيرون أندلسيون ومغاربة وفي مقدمتهم ابن حبوس : ومن قوله في قصيدته :

بلغ الزمان بهديكم ما أملا وتعلّمت أيامه أن تعدّلا
وبحسبه أن كان شيئا قابلا وجد الهداية صورة فتشكّلا
ولأنتم الحق الذي لا يُمتري فيه وليس بجائر أن يُجهلا
ولأنتم سيرُ الإله وأمركم ملأ العوالم مجملا ومفصّلا
عزّلت ولاية الحس عن إدراكه فهو المنزّه حسبه أن يعقلا

ولو أننا لم نعرف ناظم هذا الشعر ومددحه وسمعناه لظننا أنه ابن هانيء يمدح المعز الفاطمي لهاديته للزمان وتشكيله له مع العدالة ، وإنه للحق الذي لا شك فيه بل سر الإله ، وأمره يملأ العالم وإنه ليعز على الحس أن يدرك كنهه إنما يدركه العقل . وأنشد له ابن عبد الملك قصيدة في دعوة الموحدين والزهد والتمسك به ، وفيها هاجم الفلاسفة والمتفلسفة ، وله أشعار بديعة في الوصايا والأمثال وذم الزمان والاعتبار ، وعاش حتى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م .

هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى ، من قبيلة جراوة بتادلة ، سكن مدينة فاس ، سسوه ومرباه ، ويقول ابن خلكان : كان نهاية فى حفظ الأشعار القديمة والمحدثة ، وجمع كتابا يشتمل على فنون الشعر سماه صفوة الأدب وديوان العرب ، وهو عند أهل المغرب كحماسة أبى تمام عند أهل المشرق ، وكان شاعرا نابها مدح بشعره عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب وابنه الناصر ، توفى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م . وقد اتصل بعبد المؤمن منذ سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٩ م إذ نراه يكتب على لسانه قصيدة بحث فيها الأعراب الهلالية لتلبية دعوة عبد المؤمن لجهاد نصارى الأندلس استهلها بقوله :

أحاطت بغايات العُلا والمفاخر
على قدم الدنيا هلالُ بن عامرٍ
وشارك الأعراب فى حروب الأندلس وجاءت عبد المؤمن البشرى بتحرير بطليوس واستردادها من ابن الرنك وهناه الجراوى بقصيدة طويلة مطلعها :

نصرٌ بكل سعادةٍ مقرونٌ
نالت به الدنيا المنأ والدينُ
ويفتح عبد المؤمن المهدي مستردا لها من أيدي النورمان بعد أن ظلوا فيها وفى ساحلها اثنى عشر عاما طوالا ، ويهنته الجراوى بتائية يقول فيها :

أهنا إمامُ الهدى فالعدلُ منبسطٌ
والذين منتظمٌ والكفر أشتاتٌ
ويقتصر جيش عبد المؤمن ومن معه من كتائب الأعراب فى السنة التالية على نصارى الإسبان فى موقعة فحس بلتون ، ويهنته الجراوى برائية وفيها يقول :

أعليت دين الواحد القهارِ
بالمشرفة والقنا الخطارِ^(٢)
لوراء موسى ما فعلت وطارق
زريا بما لحما من الآثارِ^(٣)
أتممت ما قد أكلوه فئاتهم
من نصر دين الواحد القهارِ
يعراب خيل فوقهن أعارب
من كل مقتحم على الأخطارِ

وهو يبالغ مبالغة مفرطة حين يعلى عبد المؤمن على موسى بن نصير وطارق بن زياد فاتحى الأندلس العظيمين ، وإنما سقنا الأبيات لنثبت معها البيت الرابع الشاهد على اشتراك الهلالية فى حرب الأندلس المظفرة أيام عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب كما مررنا فى غير هذا الموضع . ويصبح الجراوى شاعر يوسف بن عبد المؤمن الحظي لديه ، وكان لا يرح مجلسه ،

(١) انظر فى الجراوى وترجمته وشعره البيان المغرب لابن عذارى وابن خلكان ١٢/٧ ، ١٣٦ وزاد المسافر والغصون البانعة والمن بالإمامة لابن صاحب الصلاة ، وراجع الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ ابن تاروت ١١٦/١ وما بعدها والنبوغ المغربى ١٧٩/١ ،

(٢) القنا الخطار : الرماح شديدة الطعن. المشرفة: السيوف.

(٣) راء : رأى .

ونراه فى ركه حين جاز إلى الأندلس سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٩ م وكان قد جمع جموعه يريد منازل محمد بن سعد بن مردنيس ، ونزله أخوه عثمان صاحب غرناطة وتوفى ، فباع أبنائه يوسف وانتهت ثورته . ونرى الجراوى يمدحه فى هذه الأثناء بقصيدتين يقول فى إحداهما مشيراً إلى التمردين عليه :

تال المارقين بكل أرض
ولا طارت - ولا نقلت - خطاها
ويقول فى الثانية :

لو كانت الجوزاء من أعدائى لم تنج من غاراته الجوزاء
وكانت آخر معارك جيش الموحدين فى الأندلس لعهد يوسف معركة البيوج فرناندو بن ألفونس سنة ٥٦٩ وفيها كان النصر لحليف الموحدين ووقف الجراوى بين يدي يوسف ينشده مدحة طنانة ، وفيها يقول :

عن أمركم يتصرف الثقلان
وبما يسوء عدوكم ويسركم
جاهدتم فى الله حق جهاد
وتركتم أرض العدى وقلوبهم
وغزاهم الدين الحنيفى الذى
وتنصركم يتعاقب الملوان^(١)
تتحرك الأفلاك فى الدوران
ونهبتم بحماية الإيمان
فى غاية الرجفان والخفقان
كيب الظهور له على الأديان

والبيتان الأولان من نوع مغالة ابن هاتى فى المعز الفاطمى ومديح ابن حبوس فى عبد المؤمن
مما مر بنا وأشرنا إليه . وهو يصفى على يعقوب - كما أضفى على أبيه يوسف وجده عبد المؤمن -
غير قليل من القدسية وقد مدحه مرارا حين انتصر أسطوله على ابن غانية فى بجاية ، وحين
واقعه جيشه وهزمه ، وحين فتح قفصة جنوبى إفريقية التونسية ، وحين قضى على بعض الثوار .
وفى سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م استرد يعقوب مدينة شلب بغربى الأندلس ، وعاد يعقوب إلى
عاصمته مراكش ، وهناه الشعراء بهذا النصر المين ، وأنشده الجراوى قصيدة يقول فيها :

إياب الإمام حياة الأمم
وجاد به الأرض صوب الحيا
فشكرا لخيلى وفلك دنت
إذا حل فى بلدة أمرعت
وقام بأقطارها عدله
سك الدهر عن بطشه بالعدا
توالى السرور به وانتظم
وجلى الظلام به بدر تم^(٢)
بمستأصل الظلم ماحى الظلم
فطاب جناها وفاح المشم^(٣)
وصوب نداءه مقام الديم^(٤)
تجيب من وراء الدروب العجم

(١) الثقلان : الإنس والجن . الملوان : الليل والنهار .
(٢) صوب الحيا : انسكاب الغيث . بدرتم : البدر فى
سكونه .
(٣) أمرعت : أخضت . جناها : ثمرها . المشم : الشذا .
(٤) نداء : كرمه . الديم جمع ديمة : المطر يطول فى

سكونه .

وإياب يعقوب - فى رأى الجراوى - ليس حياة لشعبه فقط ، بل هو حياة الأمم جميعا ، إذ يجود الأرض غيث منهمر ، ويضيء الظلام بدر فى اكتماله ، فشكرا للسفن التى عبرت بها المجاز وللخيل التى حملت لا مستأصل الظلم وناشر العدل فحسب ، بل أيضا من يمحو الظلام بنوره ، وإن البلاد لتخصب وتطيب وتفرح شذاها حين يحل فيها ، ويتشر العدل الذى لا تطيب حياة الناس بدونه ويعم الكرم الفياض . وسل الدهر عن قهره للأعداء تجبك من وراء الدروب جموع إسبانيا متوجعة مما يذيقها من البطش الشديد . ولم يلبث نصارى الإيبان أن توجعوا توجعا ألما سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م فإن ألفونس الثامن ملك قشتالة علم أن يعقوب يعد لمعركة كبرى استنفر فيها المغاربة وأعراب الحلالية وأهل الأندلس فاستصرخ البابا وملوك أوروبا وحشد جموعه عند حصن يسمى الأرك بين قرطبة وطليلة . وسحق جيش يعقوب تلك الجموع سحقا ذريعا ، وفر ألفونس على وجهه لا يلوى حتى طليلة ، وكان نصرا عظيما أعاد للذاكرة موقعة الزلاقة وبطلها يوسف بن تاشفين وتغنى الشعراء بها وببطلها يعقوب طويلا ، وللجراوى فيها قصيدتان يقول فى أولهما :

هو الفتح أعيا وصفه النظم والنثر	وعمت جميع المسلمين به البشرى
وأنجد فى الدنيا وغار حديثه	فراقت به حسنا وطابت به نشر ^(١)
تميز بالأحجال والغرر التى	أقل سناها ينهر الشمس والبدر ^(٢)
لقد أورد الأذفونش شيعته الردى	وساقهم جهلا إلى البطشة الكبرى ^(٣)
حكى فعل إبليس بأصحابه الألى	تبرا منهم حين أوردتهم بدرا
فدارت رضى الهيجا عليهم فأصبحوا	هشما طحينا فى مهب الصبا يذرى ^(٤)
يطير بأشلاء لم كل قشعم	فما شئت من نسر غدا بطنه قبرا ^(٥)
يؤمن الإمام الصالح المصلح الرضا	نضا سيفه الإسلام فاستأصل الكفرا ^(٦)

والجراوى يقول إنه فتح أعظم من أن يحيط بوصفه شعر ونثر وقد عمت به البشرى والفرحة جميع المسلمين وملأت تباشيره الدنيا بهضابها وسهولها فازدانت به حسنا وطابت نشرها وعطرا ، وإنه لفتح محجل أغر يهبر ضوءه الشمس والقمر ، فقد أورد ألفونس ملك قشتالة وطليلة أنصاره مورد الردى والهلاك ، ودفعهم دفعا إلى البطشة الكبرى ، فذاقوا ما ذاقته قريش يوم بدر ، إذ دارت رضى الحرب على جثثهم وأصبحوا أشلاء وطحينا تذروه الرياح ، وشبت منهم الضباع والسباع ، وغدت بطون النسور لأشلائهم قبورا طائرة . وكل ذلك ييمن طالع

(١) أنجد وغار : ملأ المرتفعات والسهول . نشر : (٣) الردى : الهلاك .

واتحة عطرة . (٤) الهيجا : الحرب . يذرى : يطير فى الهواء .

(٢) الأحجال : بياض فى السيقان . الغرر : بياض فى

(٥) قشعم : نسر مسن . (٦) نضا : سل .

الإمام يعقوب الصالح المصلح الرضا المرضى الذى سلَّ الإسلامُ سيفه فاستأصل به الكفر من جذوره وكاد لا يبقى منه باقية .

ويتوفى البطل المغوار يعقوب سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م ويخلفه ابنه الناصر لدين الله ، وتؤخذ له البيعة فيهنته الجراوى بقصيدة طويلة ، يقول فيها :

هَيَّيْعةً أَحْيَا إِلَهَهُ بِهَا الْوَرَى وَحَمَاً بِهَا دِينَ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى

وهو دائماً يردُّد فيه وفى آياته أن الله اختارهم ليتكامل للدنيا وجودها وللناس حياتهم بما يشيرون فيها من العدل والكرم الفياض ، ودائماً يردُّد أنهم حماة الدين الخنيف وأن الدهر يصدع لمشيئتهم . ويستول الناصر على ميورقة من يد ابن غانية فيهنته بقصيدة مطلعها :

لَكَ النَّصْرُ حَزْبٌ وَالْمَقَادِيرُ أَعْوَانُ فَحَسْبُ أَعَادِيكَ اتَّقِيَاذُ وَإِذْعَانُ

كما يهنته بقصيدة أخرى حين استولى على منورقة ، وظل يمدحه إلى وفاته سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م .

ابن عبد(١) المَنَّان

هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد المَنَّان الأنصارى الخزرجى ، من أهل مكناس ، تفتحت مواهبه الأدبية مبكرة ، فجرى الشعر على لسانه ، واستخلصه لنفسه السلطان أبو عنان المربنى (٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م - ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م) فاتخذته كاتبه فى الدواوين كما اتخذه شاعره ، وله فيه مدائح بديعة ، وكتب بعده للسلطين : أبى بكر السعيد لمدة عام فعمه أبى سالم إبراهيم بن أبى الحسن فأخيه تاشفين سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م فأبى زيان سنة ٧٦٣ فعمه عبد العزيز سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧ م وابنه أبى زيان سنة ٧٧٤ فأبى العباس أحمد المستنصر سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م وظل يعمل مع السلطين حتى وفاته سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م . ونوه به وبشعره ونثره كل من ترجموا له ، من ذلك ما نقله الأستاذ ابن تاويت من وصف تلميذه ابن جابر الغسانى له بقوله : « رافع راية الأدب والشعر فى عصره ، القدوة الأخطل ، المتفنن الأكمل ، كاتب الخلافة العلية ، المخصوص لديها بالمزايا السنية » . ويبدو أن أهم مدائحه إنما كانت فى السلطان أبى عنان ، ونراه حين قضى على أحد الثوار وثورته قضاء مبرما ، يقول من قصيدة طويلة يهنته فيها بالنصر وعيد الأضحى معا :

القاضى ١٢٤/١ وأيضاً درة المجال ٥٣/١ والنبوغ
المغربى ٢٣٨/١ ١١٤/٣ ، ١١٥ ، ٢١٦ ، والوافى
بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٤٩٣/٢ .

(١) انظر فى ابن عبد المَنَّان وترجمته وشعره كتاب نثر
فرائد النجمان لابن الأحمر (طبع دمشق) ص ٣٤٨
رجدوة الاقتباس فيمن خلَّ من الأعلام مدينة فاس لابن

ملكُ ملوكِ الأرض أوحدها الذى
غمامُ الندى المطالِ والجوُّ أغبرُ
إذا ما تراءى البدرُ يومًا ووجهه
لعمري لقد زنتِ الخلافةَ فاغتدت
وراقَتْ بك الدنيا جمالاً وبهجةً
وهنتَ عيدَ النحرِ والفتحِ إنه
بقيتَ لدين الله ردءاً وعصمةً
به علتِ العلياءُ وافتخرَ الفخرُ
وليثُ الفدا والبيضُ قانيةً حُمُرُ
تَحَيَّرَتِ الأبصارُ أيُّهما البدرُ
يقصُرُ عن أوصافها النظمُ والنثرُ
فاظلامها صُبَّحَ وإصباحها بَشُرُ
لك العيدُ منه والعدا لهم النحرُ
فما غيرُ عليكِ الزمانُ له ذخرُ

وهو يجعل أبا عنان ملك الملوك الذى سمى به العلياء وافتخر الفخر ، إنه غمام الكرم المنهمر فى الأيام المجدية ، والليث المفدى والسيوف ملطخة بالدم القانى . وحين يطلع على الناس هو والبدر تحار الأبصار أيهما البدر الساطع ، وقد زان الخلافة حتى أصبح كل مدح شعرا ونثرا يقصر عن وصفه لها . وحسنت بك الدنيا وازدانت حتى غدا ظلامها صباحا وصباحها طيبا ذكيا ، وإن الله ليزف لك الفتح والنصر المبين بينما يقدم لأعدائك النحر والذبح ، ويدعو له أن يظل معينا وعصمة للدين الخفيف ، ويظل الزمان له ذخرا مطيعا . وفى إحدى مدائحه يصف الساعة التى نصبها أبو عنان على واجهة مدرسته بفاس . وأهم منها قصيدته التى مدحه بها ووصف فيها صراع الأسد مع ثور أمامه ، وكان يُعقد لذلك حفل كبير ، وفيه ينازل الأسد ثورا حتى إذا خيف على الثور منه أن يصصره تصدى له مخاتل فى أكرة مستديرة من خشب معدة لذلك يحركها شخص فى وسطها ، وفى يمينه حديدة يطعن بها الأسد حين يهجم عليه طعنات متوالية ، ويتعلق بها الأسد يريد أن يظفر بهذا المخاتل ، فتدور به مع الأكرة وتجهز عليه . والقصيدة طويلة ويصف فيها ابن عبد المنان صيد الأسد فى الفلاة وإحضاره لمنازلة الثور ، وهو يكثر فيها من الألفاظ الغريبة على عادة شعراء المقصورات منذ منشئها ابن دريد ، وخاصة فى وصفه للثور والأسد والمخاتل وأكرته وما نشب حينئذ من عراك عنيف ، ونذكر بعض أبياته فى المنازلة بين الثور والأسد إذ يقول :

ومدربُ السروقين أصفرُ فاقعُ
ما زال يدعو للترال أسامةُ
ولقد أراه مكان مضرعه وقد
وعدا له والظنُّ يقضى أن يُرى
راقِ النواظرَ نضرةً لما بدا^(١)
ولقد أشار بظلفه لما دعا^(٢)
أومى بساحِ القصرِ ينكتُ فى الثرى^(٣)
وقد اعتلاه فكان عكسا ما قضى
جالتُ عليه صدمةٌ من حارثٍ
تنسيك صدمة حارثٍ يوم الوغى^(٤)

(١) الروقيين : القرنيين .

(٢) أسامة : من أسماء الأسد وألقابه .

(٣) ينكت : ينقض الثرى بجافره .

(٤) حارث : من أسماء الأسد - الوغى : الحرب .

أعجب بها من صدمة قد عفرت لبد الهزبر وأوهنت منه القوى^(١)

وهو يشيد بقرنى الثور المدرين على الطعن وشدته ، ويقول إنه راق النواظر بلونه الأصفر الفاقع وما إن رأى الأسد حتى أخذ ينكت الأرض بظلفه استعدادا للنزال . ويخال الشاعر كأنما يشير بذلك إلى المكان الذى سيُضْرَعُ فيه الأسد فى ساحة المعركة أمام قصر أبى عنان ، ويصدم الأسد الثور صدمة شديدة تنسيك صدمة البطل حارث يوم الحرب الضارية ، وما أعجبها من صدمة ، فقد عفرت لشدتها لبد الأسد وأوهنت قواه لصلابة الثور ومثانة بنيانه . ويعرض علينا نزال المختل فى أكرته للأسد ، قائلا :

وَضُبَّارِمِ رَحْبِ اللَّبَانِ تُقْلُهُ	صُهْبٌ مَتِينٌ خَلَقُهَا عَيْلُ الشَّوَى ^(٢)
يَفْتَرُ عَنْ نَابٍ كَأَطْرَافِ الْقَنَا	بَيْضًا وَيَنْضُو مِخْلَبًا حَادًّا الشَّبَا ^(٣)
وَمُخَاتَلٍ فِي جَوْفِ دَائِرَةِ طُوتٍ	أَضْلَاعُهَا مِنْهُ عَلَى شَهْمٍ فَتَى
يَحْكِي بِهَا رَأً أَبْيَضَةً سَبَبٌ	لَمْ تَنْفَرِجْ عَنْهُ فَأَنْفَذَهَا كُورَى ^(٤)
يَمْشِي الْهُوْنِيُّ وَسَطَهَا فَتَقْلُهُ	عَدُوًّا وَمَا إِنْ تَشْتَكِي أَلَمَ الْوَجَى ^(٥)
حَسِبَ الْغَضَنْفَرُ مُرْتَفَاحًا كَعْبَةً	فَدَنَّا يَطِيلُ بِهَا الطَّوْفُ وَقَدْ سَعَى ^(٦)
أَمْسَى صَرِيحًا وَالدَّمَاءُ سَلَافَةً	أَتْرَاهُ سَكْرًا مَالٍ مِنْ تِلْكَ الطَّلَا ^(٧)

وهو يصور الأسد بأنه واسع الصدر تحمله قوائم صهباء مفتولة الأطراف متينة ، ويفتر فمه عن ناب كأطراف القنا فى شدة الطعن ويسلّ مخلبا حادّ الشبابة كأطراف السيوف وأسلها الفاتك . وينازله فتى شجاع داخل أكرة يحكى بها ولد نعام فى بيضة بفلاة لم تفرج عنه ، فأنفذ بها كورى وثقوبا - ويظل يمشى بها فى تودة - وهى تحمله فى قوة لا تشتكى عرجا ولا ألما ، وكأنما يحسبها الأسد كعبة يريد أن يطوف بها ويسعى ، ويعلق بخديده فتاها . وما تزال تمزق جسده حتى تصرعه ، ويغرق فى دمائه . ونقد القصيدة الأستاذ محمد بن تاويت ، وأعلى عليها مدائح أخرى لابن عبد المنان، وربما كان موضوع القصيدة ، وهو وصف المصارعة بين الثور والأسد، هو الذى أدّى إلى وجوه النقد التى لاحظها الأستاذ ابن تاويت . على أنه يذكر لابن عبد المنان أنه الشاعر المغربى الوحيد الذى وصف لنا هذه المنازلة بين الثور والأسد ، والتى تعد هى وأخواتها فى غرناطة أما لمصارعة الثيران المعروفة لهذا العصر فى إسبانيا . ولابن عبد المنان وراء مدائحه الرائعة غزليات ومولديات بديعة .

(١) الخزير : أيضا من أسماء الأسد .

(٢) ضبارم : من أسماء الأسد - رحب اللبان : واسع

الصدر . عيل الشوى : مفتول الأطراف .

(٣) ينضو : يسلّ . الشبا : الطرف .

(٤) الرأل : ولد النعام . السبب : الفلاة .

(٥) تقله : تحمله . الوجى : العرج .

(٦) الغضنفر : من أسماء الأسد .

(٧) الطلا : الخمر .

هو محمد بن على الهوزالى شارح ديوان المتنبي الملقب بالنابغة ، ترجم المقرئ فى كتابه « روضة الآس » لأبيه على وقال إنه من كتاب الإنشاء بالحضرة الفاسية وبيته بيت صلاح ودين ، وأنشد نبذة من أشعاره ، وكأنه ررث ابنه محمدا الشعر ، وقد أكب فى شبابه على كتب الفقه والشعر ، ولم يلبث أن أصبح من قضاة الدولة السعدية كما أصبح شاعر خليفتهما المنصور ، ومن تعريف درة الحجال به : « الأديب الناظم النائر نابغة زمانه ، أخذ عن أبى العباس المنجور ، وله معرفة بالبيان والنحو وله نظم رائق ، وهو قاضى سكتاتة » وذكره عبد العزيز الفشتالى فى كتابه المناهل مرارا ، ويقول عنه : « صاحبنا الفقيه القاضى شاعر الدولة مفتى الحضرة » ويقول عنه محمد بن عيسى الصنهاجى فى مقامته التى عرف فيها بأداء عصره : « أخو علقمة وليد ، وذو المقول المحيى المبد ، جزائه فى وصف المهامه والقفار وذكر المُرْخ والعقار ، وعلى ذلك فرمحه فى المدح مقوم الأنابيب ، لا يقصر فيه عن ابن الحسين (المتنبي) وحبيب (أبى تمام) » . وابن عيسى يرفعه إلى مرتبة عليّة فى الشعر ، فهو أخو علقمة الشاعر الجاهلى الفحل وليد أحد شعراء المعلقات ، وشعره يرفع ويضع أو كما يقول يحيى ويبيد ، وأساليبه فيه جزلة رصينة ويتعلق بوصف الفيافى والقفار ، ورمحه لذلك فى الشعر رح متين لا يقصر فيه عن شاعرى العصر العباسى الكبيرين المتنبي وحبيب . وجمهور شعره فى مديح المنصور ، ويستهلّه بوصف بطولته فى واقعة وادى المخازن المشهورة ضد البرتغاليين التى مرت بنا وكانوا نحو مائة ألف - فيما يقال - فسحقهم جيشه المغربى بين قتيل وأسير بحيث كاد أن لا يتجو منهم أحد ، ويصور المنصور فى المعركة وهو يصول ويجول مجندلاً للبرتغاليين ومنظما لكتائب جيشه قائلا :

وقد سَفَرَتْ بَيْنَ الكُماة المداعس^(٢)
كما رَئَسَ المرجانَ فى السلك رابِس^(٣)
بها الشُّركُ حتى آخر الدهر تاعسُ
عيدُ العَصَا ما ناسَ فى الأرض نائس^(٤)
برمتهم صُلْبائهم والكنائسُ
فتخرس فى الأديار تلك النواقر^(٥)

لعمرك لا أنساه يوما شهدته
يرئس للإقدام كل كتيبة
وحسبك فى وادى المخازن وقعة
بها عرفتُ أبناء عيص بأنهم
فدانوا له حتى توقّع بطشه
فلا زالت التلثيث تُقرعُ باسمه

(٢) الكماة : الشجعان . المداعس جمع مدعس . الرمح الغليظ الحاد

(٣) يرئس : ينظم ويرتب .

(٤) أبناء عيص : يريد البرتغاليين . عيد العصا : مسترقون أزلّاء . نائس : متحرك .

(٥) التلثيث : يريد عقيدة التلثيث عند الصارى .

(١) انظر فى ترجمة الهوزالى وأشعاره كتاب الدرة لابن القاضى ٢٣٣/٢ وكتابه المتقى ص ٦٧٢ وما بعدها والمناهل للفشتالى نشر كتون فى صفحات مختلفة (انظر الفهرس) والسوغ المغربى لكتون ٢٦٣/١ و ٢٢٣/٣ والوافى لابن تاروت ٦٥٥/٣ ، ٦٧٢/٣ والحركة الفكرية فى عهد السعديين لحجى ٤٠٨/٢ .

وللهوزالى فى هذه الموقعة التى أذاعت وأشاعت بطولة المنصور فى حرب البرتغاليين غير قصيدة يمجّد فيها تلك البطولة من مثل قوله فى قصيدة عينية :

لَمْ يَأَلْ بِسِتْيَانُ فِى اسْتِصْرَاحِهِ	صَهَبَ الْأَعَاجِمُ مِنْ بِلَادِ شُسُوعٍ ^(١)
فَتَجَشَّمُوا الْبَحْرَ الْحَيْطُ وَمَا ذَرَوْا	بِمَحِيطٍ بِحَرٍّ مِنْ عَوَالٍ شُرُوعٍ ^(٢)
وَكُتَائِبُ حَنْتِهِ مَنْصُورِيَّةٌ	تَنْقَادُ بِالْأَسَدِ الْغَضَابِ الْجَوْعِ
صَبَّتْ عَلَى الْكُفَّارِ - صَبًّا - عَارِضًا	هَطَلًا وَلَكِنْ بِالسُّمُومِ النَّفْعِ ^(٣)
فَتَرَكْنَ عِبَادَ الْمَسِيحِ كَأَنَّهُمْ	أَعْجَازُ نَخْلٍ بِالسِّيُولِ مَقْلَعِ
لَا زِلَتْ فِى أَفْسَقِ الْخِلَافَةِ نِيرًا	تَخْتَالُ بَيْنَ كَوَاكِبِ لَكَ خُضْعِ

والهوزالى يذكر أن ملك البرتغال « بستيان » ما زال يستصرخ الأعاجم من البلاد الأوربية الشاسعة ، ولّبوه متجشمين المحيط الأطلسى إلى وادى المخازن ، وما دروا أنهم سقطوا فى محيط من رماح شرع مسددة ، تحفه كتائب المنصور يقودها أسد غضاب جوع تريد أن تقضمهم قضمًا ، صبت عليهم سحبًا هطلا من الرماح والسيوف ، شربوا منه سما ناعقا قاتلا ، وإن ساحة الحرب لثمتلى بقتلى عباد المسيح ، وكأنهم أعجاز نخل رمت بها سيول غريبة ، ويدعو للخليفة أن لا يزال بدرا ساطعا تحف به الكواكب من قواده وكأته . وبعد هذه الموقعة باثنتى عشرة سنة عام ٦٩٨ هـ جهز المنصور السعدى جيشا ضخما - كما مر بنا - لغزو السودان ، واستولى على إقليم توات وأقاليم أخرى وجاءته سيول من الذهب كان لها أثر بعيد فى انتعاش البلاد اقتصاديا لعهد ، ويهتئ الهوزالى المنصور بهذا الفتح العظيم منشدا فى وصف كتائبه :

غَدَتْ تَحْمِلُ الْمَوْتَ الزُّوَامُ بِحُوطِهَا	وَيَكْنُفُهَا يُمْنٌ يَشِيعُهُ نَصْرُ ^(٤)
فَحَلَّتْ بِأَرْضِ السُّودِ لَمْ يَفْنِ عَزَمَهَا	مَهَالِكُ صَدَّ عَنْ مَسَالِكِهَا الذَّعْرُ
لَقَدْ ذَكَرَ الْحَبْشَانُ مِنْ وَقَعِهَا بِهِمْ	وَقِيعَةً يَوْمِ الْفِيلِ لَوْ يَنْفَعُ الذِّكْرُ
هَنِيئًا أَسِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ قَضَى	عَلَى كُلِّ مِنْ نَاوَاكِ أَسْيَافُكَ الْبِئْرُ ^(٥)
وَدُمَّ لِفَتْوحٍ يُسْتَحْتُ لِنَيْلِهَا	إِلَى كُلِّ قُطْرٍ مِنْكَ ذُو لَجْبٍ مَجْرُ ^(٦)

وهو يصور الكتائب تحمل إلى السودان الموت العاجل السريع يحوطها اليمن ويشيعها النصر ، وقد مضت فى هذه البلاد السودانية ومسالكتها الوعرة المخيفة لا يصد عزمها أى مهالك أو معوقات ، وهى وقائع لا شك أن السودانيين - أو الأحباش كما يقول - يذكرون وقعة الفيلة حين وجهها أبرهة إلى مكة والكعبة ، فأرسل الله عليهم طيرا ترميهم بحجارة من سجيل فقتل حين وجهها أبرهة إلى مكة والكعبة ، فأرسل الله عليهم طيرا ترميهم بحجارة من سجيل فقتل

- | | |
|---|-------------------------------------|
| (١) بستيان : سياستيان : ملك البرتغاليين . | (٤) الموت الزوام : العاجل السريع . |
| (٢) عوال : رماح . شرع : مسددة . | (٥) البئر : الحادة القاطعة . |
| (٣) عارضا : سحبًا . السوموم النفع : المهلكة . | (٦) ذو لجب مجر : جيش كثيف ذو ضجيج . |

عليهم قضاء مبرما ، وبالمثل قضى جيش المنصور على كل ما التقى به من جيوش السودانيين . ويهنيء المنصور بانتصار كُماته وفرساته ، ويدعوله أن تدوم مثل هذه الفتوح العظيمة بما يوجه إليها من جيوشه الباسلة . وما يترك الحوزاى حادثة فى عهد المنصور إلا وينشده فيها قصيدة غراء ، كما لا ينزل به مرض ويشفى منه إلا ويسارع بتهنئته ، وهو بحق يعد شاعر المنصور السعدى فى عصره إلى وفاته سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٤ م .

أحمد^(١) بن القاضى

هو أحمد بن محمد بن أبى العافية المشهور بابن القاضى ، من بيت علم وأدب ، ولد سنة ٩٦٠ للهجرة ، وحفظ القرآن الكريم مثل لداته ، وأكب على حلقات العلماء ببلدته فاس ينهل من حلقاتهم العلوم المختلفة من فقه ونحو ولغة وعروض وأدب وتاريخ وحساب وهندسة ومنطق وبلاغة ، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ولقاء مشيخة العلوم والتلقى عن أئمتها ، ونزل مصر وأقام بها فترة يأخذ عن علمائها ويحمل إجازاتهم ، وعاد إلى المغرب ورجع إلى مستقره بناس ، ثم وفد على مراکش ، وأثنى عليه للمنصور الذهبى عبد العزيز الفشتالى وغيره من حاشيته فألحقه بحضرته . وفى سنة ٩٩٤ عاودته فكرة الرحلة إلى المشرق لينشر به مآثر المنصور ومفاخره وفتوحه ، واستأذنه فى ذلك فأذن له ، ورأى أن يسلك طريق البحر المتوسط من تطوان ، ولم يلبث أن اعترضه هو ومن معه قراصنة الإسبان فأسروهم ، ونقلوه إلى مالطة وظل بها أسيرا نحو عام فى بلاء عظيم من الجوع والبرد والتكليف بما لا يطاق . وعلم بأسره المنصور . فكتب إلى حاكم تطوان كى يعمل على فدائه ، وافتداه بمال كثير ، وعاد إلى حضرة المنصور وهو يحمل له هذا الجميل العظيم ، وأداه نبه إلى أن يكتب عنه كتابه : « المتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور » وهو سيرة له رائعة ، نشرت فى مجلدين بتحقيق الأستاذ محمد زروق ولم يكتف بذلك ، فقد ألف لخزائنه كتاب درة الحجال فى أسماء الرجال ذيل به على كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان حتى زمنه ، وأيضا كتاب جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس . وقد استقصى الأستاذ زروق مؤلفاته فى مختلف العلوم والفنون وبدأها بمجموعة كتب التاريخ والتراجم وتلاها بمجموعة ثانية فى مؤلفاته فى الفقه ومجموعة ثالثة فى مؤلفاته فى الحساب والهندسة ومجموعة رابعة بمؤلفاته فى المنطق . وجعله بصره بالفقه يتولى القضاء ملازما حضرة المنصور طوال حكمه حتى سنة ١٠١٢ للهجرة ، وتفرغ بعد ذلك للتدريس حتى وفاته سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٦ م وكما كان

وراجع المصادر الكثيرة التى ذكرها الأستاذ زروق فى دراسته له التى قدم بها تحقيقه للمتنفى وانظر انوائى بالأدب . العربى فى المغرب الأقصى ٧٠٦/٣ .

(١) انظر فى ترجمة ابن القاضى وأشعاره روضة الآس للمقرئ ص ٢٣٩ ونشر المثانى ٢١٣/١ وصفوة من انتشر ص ٧٧ ومناهل الصفا للفشتالى بتحقيق كنون

عالما بفنون كثيرة كان شاعرا ، وخصَّ المنصور الذهبي بكثير من شعره منذ أن كان في الأسر ،
إذ أرسل إليه قصيدة حيثذ ، يستعطفه بها لتخليصه من أسره ، وفيها يقول :

بحق الذى أولاك ملكا فنَجّنى من الملك يا قَصْدَ الأسير المكبَّل
وكنْ يا إمام العدل فى عونِ خائِر أسير كسير ذى جناحٍ منذل

ومنذ عاد ابن القاضى إلى حضرة المنصور الذهبي ، وهو يلزمه ويقدم له مدائحه فى كل
نصر لجيوشه وكل مناسبة . وكانت وقعة وادى المخازن لا تبرح ذاكرة البرتغاليين وكانوا
لا يزالون يحتلون مدينة أصيلا على المحيط ، وأحسوا أن المنصور يريد الاستيلاء عليها ، فخشوا
أن يواقعوه فيحدث لهم ما حدث فى وادى المخازن من تمزيقهم كل ممزق ، قرأوا أن ينسحبوا
منها ويتركوها للمنصور . ويهتته ابن القاضى بهذا الفتح الذى أتاه دون أى حرب ودون أن
يُسَلَّ سيف وتراق الدماء ، يقول :

يا أيها المنصورُ أبشِرْ بالعلا اللهُ بَلَّغَ فى العِدا المأمولا
أنضاكمُ سيفا لحف عِدائِهِ وبكم غدا سيفُ الرِّدى مفلولا
وهزمتُمُ الشُّركَ المبين بعزمكم من غير ما سيفُ يُرى مسلولا
وأذبتُمُ كَيْدَ الخيِّث مهابةً وفتحتمُ آرامه أصيلا
وغدت من الناقوس صِفْرا بَلَقْما يُتلى بها قرآننا ترتيلا
أبشِرْ لواء الفتح معقوداً لكم واشكُرْ إلهك بُكْرةً وأصيلا

وهو يشير المنصور بمعال لا تنتهى ، فالله حافظه ويلغته فى عِداه كل ما يأمل من نصر
وفتح ، وقد منحكم سيفا لحف الأعداء ، وفلَّ لكم سيف الردى والهلاك فهزمتُمُ الشُّركَ
بعزمكم دون سيف سلتموه ، وذاب كيد الخيِّث الصليبي مهابةً ، ففتحتم عقر داره : أصيلا
وأصبحتُ خلاء من ناقوس النصارى ترتلُ فيها آى القرآن ترتيلا . ويفتح المنصور فتحه العظيم
فى السودان سنة ٩٩٨ للهجرة ، ويهتته بهذا الفتح فى قصيدة طويلة ، وفيها ينشد :

بشارك بِالْفَتْحِ المبين المتاح قَطَفْتَهُ بَيْنَ القَنَا والصُّفاحِ
ولَيْسَ لَكَ النَّصْرُ الذى حُرِّتَ دون الملوك فى مغائى الكفاحِ
واسْعَدْتُ فقد دانتُ ملوك الورى لما رَأَتْ فى الانقياد النجاحِ
والطاهرُ المنصور من هاشم واسطَةُ العقد وبجرُ السماحِ
رُجَّتْ بلادُ السود من جُنْدِهِ وافتتحتُ بالسيفِ أىَّ افتتاحِ
فتحٌ مبینٌ هو تاريخُه ينمو على الأرضِ مديدَ الجَنَاحِ
لا زالتِ الأفطسارُ تَعنو لكم من سَعْدكم طسولُ المَدَا تُسْتَباحِ

وهو يهنيء المنصور بالنصر الذى قطفه بأسلحته من الرماح والسيوف وحازه من دون الملوك فى منازل الكفاح ، وإته لحرى أن يسعد فقد دانت له الملوك وألقت له عن يد صاغرة ، وإته للطاهر المنصور من ذرية هاشم وبيته النبوى ، وإته لجوهره العقد الفريدة وبحر السماح وغيته المدرار ، وإته لفتح سيظل ينمو ويمد جناحه فيشمل كل ما حول المغرب الأقصى من الديار ، ويدعو له أن تظل الأقطار تفتح أبوابها لجيوشه طوال الدهر لسعده العظيم الذى لا يحده . وقد أشار فى الآيات إلى أن المنصور من بيت بنى هاشم بيت النبوة ، وهو يردد ذلك فى مدائحه مرارا وتكرارا بمثل قوله :

الملك أصبح ثابت الأساس . بابن النبى الطاهر الأنفاس .
يروى أحاديث العلا عن مرسل . طهرت خلائقه من الأدناس .

وكانت الأسرة السعدية تنتسب إلى الرسول الطاهر ، فمضى يديء فى هذا النسب الشريف ويعيد منوها ومشيدا بصور مختلفة .

الدغوغى^(١)

هو أبو العباس أحمد الدغوغى ، من شعراء الزاوية الدلائية فى القرن الحادى عشر الهجرى ، ومراً بنا فى الفصل الأول أنه أسس هذه الزاوية فى بادية تادلة أبو بكر الدلائى سنة ٩٧٤ هـ / ١٥٦٧ م وأن محمدا ابنه نهض بها إذا استكثر فيها من عمارة الدور والدكاكين وسائر المرافق ووقف على شيوخها وطلابها ما يكفيهم من مئونة . وأمها كثيرون من علماء المغرب يدرسون فيها ويتحلق من حولهم الطلاب ، وسرعان ما أصبحت مركزا كبيرا من مراكز الثقافة والأدب ، ولولا تعرضها لمسائل السياسة لظل لها فى الأدب وشئون الثقافة دور مهم ، إذ قضى عليها المولى رشيد وهدم عمارتها سنة ١٠٧٩ للهجرة ونقل شيوخها وعلماءها إلى فاس . والمهم أن محمد بن أبى بكر الدلائى مؤسسها الحقيقى كان يحفُّ به كثيرون من الشعراء فى مقدمتهم أحمد الدغوغى الذى قصر عليه جمهور أشعاره ، حتى ليصبح شاعره الرسمى الذى ينطق باسمه فى مواقفه العلمية وجهاده نصرة للدين الحنيف ، ويصوره زعيماً دينياً آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، وكان لوعظه أصداء بعيدة فى القبائل المتباعدة إذ تستجيب له مذبذبة مستشعرة له الولاء ، ولدعاته الذين ينهونهم عن اقتراف الآثام والتوبة منها والعمل الصالح . وللدغوغى يمدحه :

(١) انظر فى الدغوغى وترجمته وأشعاره كتاب الشعر الدلائى لعبد الجواد السقاط « طبع الرباط » وراجع فى الزاوية الدلائية كتاب الدكتور حجي عنها (طبع الرباط) .

يا أحلمَ الحلماءَ أحزمهم إذا ما الرأى رُدُّ إلى مشورة حازم
 صلِّ واغْلظَنَّ في الله واسطُ مجاهدا صلِّ واغْلظَنَّ في الله واسطُ مجاهدا
 واقطعْ جبالَ خيالٍ كلِّ معارضٍ واقطعْ جبالَ خيالٍ كلِّ معارضٍ
 فالام ترح في الضلال قبائل فالام ترح في الضلال قبائل
 وإلى سيادتكَ السنيَّة ينتهى وإلى سيادتكَ السنيَّة ينتهى
 والدينُ أنتَ إمامه ورئيسه والدينُ أنتَ إمامه ورئيسه

والدغوى يصور محمد بن أبى بكر حليما فهو لا يأخذ أتباعه والقبائل من حوله بالشدة ، ويقول له لك أن تصول وتجول وتغلظ في الدعوة لله وتقهّر خصومها بحسام عزمك الحاد وتُنقِصَ على كل معارض لك ومعاند للحق لا يذعن له . ويحمل على القبائل الخارجة عن ولائه التي لا ترح مهالك الضلال ، الأعجمية منها والمهملّة التي لا يصلها دعائه ، وينوه بسيادته السنية وعلمه وإمامته وطاعة الدهر له كيفما أمره . وثار في الصحراء أبو الحسن السملالى وعاث فيها فساداً ، ففرغ إليه كبراؤها وسادتها يستنجدون به لإحباط ثورته ، ففكر فى جمع جيش لحربه ثم عدل عن ذلك إلى طريق الوعظ والإرشاد حتى لاتراق دماء المسلمين ، واستجاب لدعائه السملالى وحُقنت الدماء ، فأنشده الدغوى قصيدة منوها بصنيعه ، وفيها يقول :

كم ولِدَةٍ لولاكمْ فى بلدَةٍ يَتَمَتُّ وغودرتِ المواطن عاقِبَةٌ
 ولكم بكمِ عمرتِ مواطنٌ طالما أقوتْ وتألّفتها الذئابُ العاويّةُ
 هذا لسان الحق ينشد إنما شمسُ الهدى للمهتدين دِلايَه
 بكريةُ الأبراج مشرقُ سعدِها بمحمدىُّ الرشد غرباً باقيةُ
 ولعلمه ولعلمه ولحكمه وحكمه حِكْمٌ تفوق الحصر لا متناهيةُ

وهو يصف محمد بن أبى بكر الدلائى بأنه دائماً يحمى الصغار الأبرياء من حرب آبائهم ولولاه لتيّموا وأصبحت المواطن خالية من آبائهم ، وكَم به عمرت بلاد ومواطن كانت تُقفر فى عهد غيره وتسكنها الذئاب العاوية ، وإن لسان الحق لينشد إن شمس الهدى للناس جميعاً دلالية الوطن بكريّة الأبراج ، مشرقها دائماً فى المغرب أو الغرب بمحمد بن أبى بكر ، وينوه بعلمه وحلمه وعدالة حكمه . خلال وشمائل تفوق الحصر لا متناهية . ودائماً ينوه بكرمه وجوده وأنه غيث مدرار بمثل قوله :

يا مَنْ إذا تربتْ يميني كان لى نَشْرُ ثناه غِنْيٌ فلست أَعولُ^(١)
 ما المالُ من أُمْلِ إليك أُمالنى حَسْبى رضاك فهل إليه وصول
 فرضاك كل غنيمَةٍ فى ضمّنه حتى الثراء به رضاك كفيْلُ

(١) أعول : أفقر .

ولقد أفادني الفصاحة جودكم وأنا امرؤٌ حَصِرُ اللسان كَلِيلُ
فَعَجَزْتُ عن نطقي بحسن كَمَالِكُمْ وكذا سوى فما عساه يقول

والقطعة تصوره مريدا وتلميذا لشيوخه محمد بن أبي بكر ، وإنه ليشعر في عمق حين يعول
ويفتقر أن ثناءه على شيخه غنى ما بعده غنى ولا ثراء ، ويعلم أنه يمدحه لا لعطاياه ، وإنما
طلبا لرضاه ، فرضاه كل ما يريد من غنمه ، وإنه ليحمل إليه ثراء ما بعده ثراء ، كما يعلن أن
جود ابن أبي بكر هو الذي حل عقدة لسانه وكان عَيًّا قليلا فأصبح فصيحاً ، ومع ذلك فإنه
يعجز عن بيان كمال أستاذه ، بل إنه كمال لا يستطيع هو ولا غيره تصويره . وكان ابن أبي بكر
يختص صحيح البخاري مرة كل عام ، ويحتفل بهذه المناسبة ، وينشده الشعراء مدائح مختلفة ،
وينشده الدغوي في أحد احتفالاته :

نال البخاريُّ منه	سَبَّحاً وَغَوْصاً مَرَامَةً
فَنَابَ فِي السَّبْحِ عَنْهُ	وَقَامَ غَوْصاً مَقَامَةً
أَكْرَمَ بِسَوْقٍ بَدِيعٍ	لِلْمَكْرَمَاتِ أَقَامَهُ
فِيهِ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ	وَقَفْنَا إِذَا الْغَيْرُ سَامَهُ
فَجَوْهَرُ الْفَضْلِ فَرْدٌ	تَأْتِي الْمَعَالِي اقْتِسَامَهُ

وهو يقول إن صحيح البخاري حظي منه بسبح في أحاديثه وغوص ما يماثلهما سبح
وغوص ، ويقول إنه أقام للمكرمات سوقاً عظيمة ، جعلت الثناء وقفاً عليه دون غيره ممن قد
يتغيه ، إذ جوهر الفضل فرد ، وتألي المعالي أن يكون قسمة بينه وبين سواه . وعلى هذا النحو
كان الدغوي شاعر محمد بن أبي بكر وداعيته ولسانه الناطق عن ميوله وأهوائه .

البوعناني^(١)

هو عبد الواحد بن محمد البوعناني مفتي فاس في عهد المولى إسماعيل العلوي
(١٠٨٤ - ١٦٧٢ هـ / ١١٣٩ - ١٧٢٧ م) وهو يعد أهم حكام الدولة العلوية ، وفي
عهده نهض المغرب الأقصى نهضة ثقافية وأدبية ، واستعادت البلاد ذكرى واقعة وادي
المخازن ضد البرتغاليين في أوائل العهد السعدي إذ آذن المحتلين الأوربيين للبلدان المغربية
بحرب تسحق ضلوعهم سحقاً . وأخذت تلك البلاد تسقط في حجره وحجر المغاربة واحدة
تلو أخرى ، وكان أول ما حازه منها - كما تقدّم - المهدية سنة ١٠٩١ هـ / ١٦٨١ م وتلتها
طنجة سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م ثم حاز العرائش سنة ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م واستدار العام
فحاز أصيلاً ، وكان حريّاً أن يواكب هذه الفتوح قصائد حماسية وملحمية كثيرة . وربما

كان خير ما نظم فيها مدحة للبرعاني يشيد فيها بفتح المولى إسماعيل لمدينة العرائش ، وهو يفتحها بقوله :

ألا أبشر بهذا الفتح نورُ قد انتظمت بعزمكم الأمور
وطير السعد نادى حيث غنى قد اتشاحت بفتحكم الصدور
وقد واقتكم الخيرات طراً وطاب العيش واتصل السرور
وجاهدتكم وقاتلتكم فأنتم لدين الله أقمار تنير
وأطلعتم صوارمكم نجوماً لدى هيجاء صاحبها كفور
وأنت البدر يوم السلم حسناً وفي يوم الوغى الأسد المصور^(١)

والشاعر فرح بهذا الفتح المبين ، حتى ليراه نوراً يغمر سناه البلاد والعباد ، وكل شيء من حوله فرح ، فالطير تنغى ، وقد اتشاحت الصدور بما وضع عنها إسماعيل من أثقال كانت تعاني منها عناء شديداً ، وأى أثقال أشد من احتلال الوطن واعتصار طيبات الرزق فيه ، وقد ردت إلى أهلها وطاب العيش واتصل السرور بفتح العرائش وفتح طنجة والمهدية قبلها ، وقد جاهدتم أصحاب الصليب ، وانتصرتهم لدين الله الخفيف ، وكأنكم أقمار تشع من حولها أضواء منيرة ، وكأنما سيوفكم نجوم تحف بكم ، وإنك للبدر المنير في السلم حسناً وفي الحرب الأسد المصور ، ويمضى منشداً :

وفي ثغر العرائش قد تبدى لقدركم على الشئرى الظهور
قهزتهم بأبطال عظام على الهيجاء كلهم جصور
وكم رأس من الكفار أمسى قطيع الرأس مجرورا يخور^(٢)
وكم أسرى وكم قتلى بأرض وكم جرحى دماؤهم تفور^(٣)
تمر بها الطيور فتنتفيها ويات الذئب وهو لها شكور
وأضحى الناس كلهم نشاوى على طرب وما شربت خمور

وهو يقول للمولى إسماعيل لقد بدا واتضح لقدركم في ثغر العرائش النصر المبين ، فقد قهرتم العدو بالمغاربة الأبطال ممن تدربوا على الحروب ، فكلهم جصور على القتال لا يتخاذل أبداً ، وكم رئيس من الكفار أمسى مقطوع الرأس أو مجرورا يتخبط في دمه صائحا ، وإن الأسرى والقتلى لأكثر من أن تحصى سوى الجرحى ودمائهم المتدفقة ، ولكأنك أقمت للطير مأدبة تنخير منها غذاءها ، وقد تجمعت عليها الذئاب ، وهي تعوى كأنها تشكرك ، وأضحى الناس

(١) المصور : تتدفق .

(٢) المصور : المقترس .
(٣) رأس : يريد رئيسا . يخور : يصيح .

تشاوى من الفرحة بهذا النصر لا من خمر ذاقوها ، ولكن من نصر تفوق نشوته نشوة الخمر
فرحا وسرورا . ويقول :

فبُشِّرَاكُم بهذا الفتح نورٌ وبشِّرَاكُم بِمَا منُ الغفورُ
به زادتْ مآثرُكُم علوًّا وقد عظمتْ به لَكُمُ الأجورُ
ألا يا أهل سبته قد أناكُم بسيف الله سلطان وقورُ
إذا ما جاء سبته في عشيٍّ تُزَفُّ له إذا كان البكورُ
ووهْرانٌ تنادى كل يومٍ متى يأتى الإمام متى يزورُ
فيهزمكم ويقتلكم ويسبي وسيفُ الحق في يده ينور^(١)

وهو يشير المولى إسماعيل بأن هذا الفتح نور من عليكم به الله الغفور فزاد مآثركم وأمجادكم
سما ، وعظم لكم به الأجر والثواب ، وكانت سبته لما تفتح ، فشر بها تهب في وجه الإسبان
مهددة لهم بالمولى إسماعيل وما يحمل من سيف الله الذى لا يفلأبدا ، وكأنما حين يأتيها مساء
تُزَفُّ إليه بكورا منكلا بالختلين لما من الإسبان وبالمثل وهران وكانوا قد استولوا عليها ، تناديه
صباح مساء كى يهزمهم ويقتلهم بسيف الله الذى لا يزال يضيء في يده ، ويختم قصيدته
بقوله :

أيا مولاي قم وانهض وشمر لأندلس فأت لها الأميرُ
وجاهدْهم وحارنْهم وفرق جموعهم فربكم النصير
ولا يمنع بفضل الله منها كما قد قيل بر أو بحور
بقرطبة تنال المجد طرا ويأتى العز والملك الكبير

وتصور هذه الأبيات مدى طموح البوعناني حين رأى فتوح المولى إسماعيل تتوالى فيحته
لا على أخذ سبته ووهْران فحسب ، بل أيضا على استرداد الأندلس حيث ينال العز والمجد طرا
بعودة قرطبة إلى حمى العرب والعروبة .

٤

شعراء الفخر والمجاء (أ) الفخر

الفخر من أغراض الشعر العربى القديمة منذ الجاهلية ، وقد ظل حيا فيه على توالى العصور ،
والشاعر يفخر فيه بشمائله الرفيعة الفردية من المروءة والكرم والوفاء وما يعاثل ذلك وبخصيته
القبلية والقومية وبشجاعته وبسالته الحربية . ونراه على ألسنة شعراء المغرب الأقصى منذ ابن زبياع

(١) ينور : يضيء وينير .

فى عصر المرابطين ، وهو ينتخر فى بعض غزله لصاحبه بأنه يمتنى من حمير وأنهم سيأخذون منها بثأره ويصور لها بأسهم فى الحرب . ويأخذ الفخر عند شاعر الموحدين : ابن جُبوس شكل نصائح يوصى بها الشعراء بل معاصريه جميعا أن يمتثلوها ليصنّوا بها مروءتهم ، ويتخذوها شعارات ترسم لهم مثالية خلقية كريمة من مثل قوله^(١) :

رَدِّ الطَّرْقَ حَتَّى تَوَافَى النَّمِيرَا فَرَبُّ عَسِيرٍ أَسَاحَ الْيَسِيرَا^(٢)
وَأَرْسَلْ قُلُوصَكَ طَوْرَا شَمَالَا وَطَوْرَا جَنُوبَا وَطَوْرَا دَبُورَا^(٣)
وَطِرْ حَيْثَ أَنْتَ قَوَى الْجَنَا حَ لَا عَذَرَ عِنْدَكَ أَنْ لَا تَطِيرَا
وَلَا تَقْعَسَنَّ وَأَنْتَ السَّلِي سَمُ حَيْثَ تَضَاهَى الْمَهِيضَ الْكَسِيرَا
وَذُو الْعَجْزُ يَرْضَعُ ثَدْيًا حَدُورَا وَذُو الْعِزْمُ يَرْضَعُ ثَدْيًا دُرُورَا^(٤)

وأول شعار رسمه للشخص كى يحصل على ما يريد مهما يكن عسيرا صعبا أن يتحمل شرب الماء العكر حتى يصل إلى ما يريد من الماء العذب الصافى وشعار ثان أن يرسل ناقته شمالا وجنوبا وفى كل اتجاه حتى يتحقق له أمله ، فلايد له من العناء ولايد له من الضرب على أبواب الآمال حتى تنفتح على مصاريحها ، ولايد له من الطيران بعيدا فى آفاق الدنيا حتى يقع على ما يتمناه ، وعيب أن تكون أجنحته قوية ولا يطير شأن المهيب الكسير ، فالآمال إنما تؤخذ مغالبة وعزما مضطرا ، وكأنما العاجز فى الدنيا يرضع ثديا شحيحا ، بينما القادر المملوء إرادة وعزيمة يرضع ثديا دارا له بكل ما يريده من دنياه . ويقول القاضى أبو حفص عمر بن عمر السلمى المتوفى سنة ٦٠٤ للهجرة^(٥) :

نَهَانِي جِلْمِي فَلَا أَظْلُمُ وَعَزَّ مَكَائِي فَلَا أَظْلُمُ
وَلَأَبْدُ مِنْ حَاسِدٍ قَلْبُهُ بَنُورٍ مَآثِرُنَا مُظْلِمُ
رَحِمْتُ حَسُودِي عَلَى أَنَّهُ يَقَاسِي الْعَذَابَ وَمَا يَرْحَمُ
هَجَانَا اقْتِرَاءَ وَلَسْنَا كَمَا يَقُولُ وَلَكِنْ كَمَا يَعْلَمُ

والقطعة ردُّ بها على بعض من آذاه بهجائه ، وكان كبير النفس ، فردَّ عليه بما يتفق مع شخصيته وسمو نفسه ، فقال إن مروءته وحلمه يمنعه من أن يظلم أحدا وإن ما له من سمو المكانة يمنع أن يتعرض شخص له بظلم أو هجاء ، ولا يسلم مثله من حاسد يحسده على مآثره ومكارمه ، وإنه ليرحم حاسديه لما يقاسون من عذاب الحسد وما يصيبهم به من الكمد ، ويقول إن حاسده يهجوه اقتراء . وضمن ذلك سخرية لاذعة إذ قال إنه ليس كما يقول حاسده

(٤) حدورا : شحيحا .

(١) النبوغ المغربى ٧١٧/٣ والوافى ١١١/١ .

(٥) النبوغ المغربى ٧١٨/٣ .

(٢) الطرق : الماء العكر . النمير : الماء الصافى .

(٣) الدبور : ربح تهب من الغرب . القلوص : الناقة .

ولكنه كما يعلم من منزلته الرفيعة . ويقول أبو العباس أحمد بن علي الملياني رئيس ديوان الإنشاء في عهد السلطان أبي يعقوب المريني^(١) :

والفضل ما اشتملت عليه ثيابي	والزهر ما أهداه غصن يراعتي
والمسك ما أهداه نفس كتابي ^(٢)	والمجد يمنع أن يزاحم موردی
والعزم يأبى أن يضام جنائي	وإذا حمدت صنعة جازيتها
بجميل شكرى أو جزيل ثوابي	وإذا عقدت مودة أجريتها
مجرى طعامي من دمي وشرابي	وإذا طلبت من الفراقد والسها
ثأرا فأوشك أن أنال طلاي	

وهو فخر يصور نفسا نبيلة إلى أقصى حد ، نفسا تستشعر العز كأنما ضرب الشاعر عليه قباه فأصبح ملازما له لا يغادره ، ومثله الفضل الجاثم في ثيابه ، أما الزهر وشذاه فما تكتبه يراعته أو قلمه من الشعر ، وأما المسك وعطره فما يكتبه من رسائله البليغة ، وإن المجد ليقف حائلا لمن يريد أن يزاحمه في مورده العذب ، ويأبى العزم أن يصاب جنابه بأى ضيم وإذا قدم له شخص صنعة أو جميلا جازاه بشكره أو بثوابه الجزيل ، وإذا عقد مودة لشخص جرت في دمه مجرى طعامه وشرابه . وهى صورة بديعة . وإذا طلب من الكواكب ثأرا نال مطلبه سريعا . ويقول أبو علي اليوسى الدلائى المتوفى سنة ١١٠٢ للهجرة^(٣) :

إنا أناس لست تبصرنا	نحني الطعّم التي تزرى ^(٤)
يعرى الفتى ويجوع وهو يرى	متجملا بالصبر والبشر
والحرّة الشماء ربّما	جاعت ولم ترضع على أجر ^(٥)
والحرّ ليس حياته بسوى	عزّ الجناب ورفعة القدر
لا بالطعام ولا الشراب ولا	استلقائهم بأرائك وثر ^(٦)

فهو من قوم لا يتحينون المطاعم التي تزرى بمن يطعمها، وإن الفتى منهم ليعرى ويجوع ومع غرّيه وجوعه يرى مُزدانا بالصبر متحليا بالبشر ، ومثله الحرّة ترى شماء متسامية وتجوع ولا تأكل بتدبيرها فذلك موت زوام ، والحر مثلها يستشعر العزة ورفعة القدر فهما متاعه من دنياه لا الطعام ولا الشراب ولا المقاعد الوثيرة . ولعمر^(٧) الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٥ م :

(١) النبوغ المغربي ٤٢/٣ .
(٢) نفس : مداد .
(٣) النبوغ ١٦٧/٣ .
(٤) الطعام جمع طعمة : ما يطعم .
(٥) الشماء : المترفة المتسامية .
(٦) أرائك وثر : مقاعد مترفة .
(٧) النبوغ المغربي ٤٩/٣ والحياة الأدبية فى المغرب للدكتور محمد الأخضر ص ٣١١ .

قل لمن يَعْلُو على النا سر بآباء سَراة
ليس من شأني فَعَارٌ بعظامِ ناخراتِ
ما فَعَارُ المرء إلا بعلومِ زاخراتِ
وسجايًا ومزايًا وحياتِ وافراتِ

وهو يقول إن الفخر الحقيقي لا يكون بالانتساب إلى الآباء والأجداد الرؤساء والعظام البالية في المقابر ، وإنما يكون بما وعى المرء وتعمقه من العلوم وبخصاله الحميدة وما منحه الله من الهبات الوافرة ، ويقول ابن زكري الولتى حاثًا على اقتحام الصعاب في طلب المجد^(١) :

المجدُ حيث مدارُ السبعة الشُّهْبِ هيهات يدركه مَنْ لم يكن بأبى
وهمة المرء لا تعدو بصيرته يقدر نظرته يسمو إلى الطلبِ
كلُّ له أربٌ لكنْ أخو قِصْرِ فى الهمِّ ليس له فى الجِدِّ من أربِ
إن كان لا بد للإنسان من أملٍ فليأمل المجدَ فوق السبعة الشُّهْبِ

وهو يقول إن المجد ليس شيئًا هينًا ، بل هو شيء فى منتهى الصعوبة ، وعلى طالبه أن يعرف أنه لا بد له من الطيران فيه والصعود حتى يبلغ الكواكب السَّيَّارة السبعة ، ويقول الشاعر إنه لا يدركها من لا يشعر بشمم وإياء لا حد لهما . ويذكر أن كل شخص يحصل فى دنياه على ما يطلبه بقدر همته ، ويقول إن مَنْ همته قصيرة لا يتألم مأربًا كبيرًا ، وإذا كان كل إنسان له أمل لا يزال يتمناه ، فَلتَسْمُ نفسه ويأمل المجد لا فى الأرض ولكن فوق السبعة الشهب . وحسبى بنا أن نتوقف قليلًا عند الشاذلى الدلائى وقصيدة بديعة له فى الفخر .

الشاذلى^(٢)

هو محمد بن أحمد بن الشاذلى المتوفى سنة ١١٣٧ هـ/ ١٧٢٥ م . لم يولد لأبيه فى عهد الراوية الدلائية ، وإنما ولد له بعد خروج أهله وآبائه منها . حفظ القرآن الكريم ، وأكْبُ بعد حفظه له على علوم اللغة من نحو وصرف وعلوم البلاغة المختلفة ، ومضى يتزود بالأدب ، ولم تلبث شاعريته أن استيقظت فيه ، فأخذ ينظم الشعر فى أغراضه المختلفة ، واشتهرت له قصيدة فى الفخر يستهلها بحوار بينه وبين سيدة يمضى على هذه الشاكلة :

ما إنَّ يَعبِكَ فَقَدْ الحُلَى والحُلَى إن أنْت بالهيمِ الشَّمَاء كنت مَلَى
وربُّ جاهلية هَبْتُ تعاتبنى أن كنتُ- عن غَمَرٍ عيشٍ- مؤثِّر الوشَل^(٣)
قالَتْ رأيتُك ذا قولٍ مَجْبُورُهُ أزهى من الرُّوضِ غِبُّ الواكفِ المَطْل^(٤)

القليل.

(١) الوافى ٨٥٦/٣ .

(٤) محبرة : منمحه . غب الواكف المطل : عقب السحاب الممطر .

(٢) انظر فى الشاذلى كتاب الشعر الدلائى (راجع الفهرس) والنبوغ المغربى ٤٧/٣ .
(٣) غمر العيش : رافقه وواسعه. الوشل : الماء الضحل

وفى الملوك له كُفءٌ فأمَّهُمْ حتى يعيدوك ذا خَيْلٍ وذا خَوَلٍ^(١)
ولستُ أصغى وإن لَجْتُ لتعدلَ بي عن منهج الصَّوْنِ بالنُّعْتَابِ والعَدَلِ
وإن من كرمي بُخْلِى بِشَعْرَى عَنْ تَقْرِيطِ ذَى كَرَمٍ أَوْ ذَمِّ ذَى بَخَلٍ

وهو يقول إن الشخص لا يعيه فقد الحل والحلل أو بعبارة أخرى فقد الثراء إذا كان مليئا
بالهمم السامية الرفيعة ، ويقول : رب جاهلة عاتبتني لانصرافي عن رافه العيش واكتفائي بالوشل
القليل منه ، بينما أملك بيانا بليغا أزهى من أزهار الروض عقب السحاب الحاطل ، وتقول فى
الملوك من يستحقه ، فاقصدهم حتى يثروك ويصبح لك خيل وخدم كثيرون . ويقول إنه
لا يصغى لمثل هذه العاتبة مهما لجت وألحت إذ تريد أن تعدل به عن منهج الاحتفاظ بمروءته ،
وإن خلاله الكريمة لترفعه عن مديح الملوك والكرماء وعن هجاء البخلاء الأشحاء ، وما يلبث
أن يعلن لعاذلته قوله :

ولن تَرْنِى مُذِيلاً - ما حييتُ - له فى غير ذكر الوَغَى والأَعْيُنِ النُّجْلِ^(٢)
يَأْتِىَ إِيَّائِى وَأَبَائِى وَيَأْتِى لى مجدٌ أَنَافٍ - ولم يقنع - على زَحَلٍ^(٣)
نفسُ الكريم تعاف الورْدَ يصحبه ذلٌّ على ظمأٍ فى الجوفِ مُشْتَعِلٍ
لو كنت سائلٌ غيرِ الله لم أسألَ غَيْرَ الْمَذَاكِي وَغَيْرِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ^(٤)

وهو يقول لصاحبه إنه لن يتبدل شعره إلا فى الحماسة والحرب الضارية وإلا فى الغزل
بالحسان ذوات الأعين النجل الفاتنة ، وإن آبائى وإيائى يأتين أن أمتهن شعرى وأهنيه فى مديح
أو هجاء ، وبالمثل مجدى الذى بلغ عنان السماء ، وظل فى ارتفاعه حتى أشرف على الكوكب
البعيد : زحل . ويقول إن نفس الكريم تعاف أن يرد على ماء فيه ذل أو ما يشبهه ، مهما كان
ظامئا ومهما كان الظمأ يشتعل فى جوفه . وما يلبث أن يقول إنه لو سأل غير الله لم يسأله
نوالا ولا عطاء ، وإنما يسأله خيلا وسلاحا وسيوفا . ويمضى فى قصيدته منشدا :

لا تَرْضَ بِالْعَيْشِ فى ظِلِّ الْهَوَانِ وَخُضْ لَنَيْلِ عَزِّ غِمَارِ الْمَوْتِ وَالتَّكَلِّ^(٥)
فليس يُدْرِكُ بِالْجَبْنِ الْبَقَاءُ وَلَا الإِقْدَامُ يَقْضِى بما لم يَقْضَ فى الأَزَلِ

وهو يوصى كل من حوله أن لا يرضوا بعيش فى ظل هوان وذل ، وأن يخوضوا فى سبيل
العز غمار الموت وفقد الأهل ، فالبقاء لا يدرك بالجبن ، ونفس الإقدام لا يغير قضاء كُتب
فى الأزل وقُدِّرَ على الإنسان . ويستمر قائلا :

(١) أمهم : اقصدهم . خول : خدم وعبيد .

(٢) أمهم : متبدلا ومهينا . النجل : الواسعة الجميلة .

(٣) أَنَافٍ : أشرف .

(٤) المذاكى : الخيل . البيض والأسل : السيوف والرماح .

(٥) الكل : فقد الأهل والأحبة .

حَلَبْتُ شَطْرِي صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ عَدَمٍ وَمِنْ يَسَارٍ وَمِنْ صَابٍ وَمِنْ عَسَلٍ
فَمَنْ بَطَرْتُ لِإِثْرَاءٍ وَلَا حَسْبِي يَدَتْ بِهِ خَلَّةٌ تَتَابُ مِنْ خَلٍّ^(١)
وَكُنْتُ إِمَّا بَدَأُ لِي مِنْ حَلِيٍّ عَطَلٌ الْفَيْتُ مِنْ حَلِيٍّ فَضْلِي غَيْرَ ذِي عَطَلٍ
وَشَيْءُ الْمَهْنَدِ يَبْدُو فَوْقَ صَفْحَتِهِ يَغْنِيهِ عَنْ شَيْءِ الْأَغْمَادِ وَالْحَلَلِ
وهو يقول إنه طالما جَرَّبَ صُرُوفَ الدَّهْرِ وأحداثه من فقر وغنى ومن مرٍّ وحلو فلم يلحقه
بطر ولا استخفاف لإثراء ولا بداخل في حسبه وشرفه ، وكان إذا أصابه عطل من حَلِيٍّ
الغنى شعر أن حَلِيٍّ فضله يزيته . ويضرب مثلاً لذلك السيف فإن الوشي الذي يزيه يبدو على
صفحته مما يلمع عليها ويبرق لا على غمده وما يزدان به من بعض النقوش . والقصيدة بديعة
في كل ما يتصل بها من الألفاظ والصور والمعاني .

(ب) الهجاء

الهجاء من موضوعات الشعر العربي ، الموعظة في القدم ، وكان أصله لعنات يستنزلها الجاهلي
من آلمته على من يعاديهم من الأفراد أو من يعاديهم مع قبيلته من القبائل والعشائر . وتطور من
اللعنات إلى الذم بالصفات المردولة من مثل البخل والجبن والغدر ، واستحال عند جرير والفرزدق
إلى مناظرات واسعة في أمجاد قيس وتميم وسادتهما ، مما أوضحناه في كتابنا : « التطور
والتجديد في الشعر الأموي » . ومنذ العصر العباسي الأول أخذ الشعراء يتفننون في وصف
المهجو بالدناءة والقدارة ، مع ما قد يذكره عنه الشاعر من فساد الأخلاق والمروق من الدين .
وظل كثيرون من الشعراء - على مر العصور - يكثر من بحيث يمكن تلقيهم بجماعة
الهجائيين ، وقد يفرضونه على حياتهم ويعيشون له ، وهو ما نفتقده عند شعراء المغرب الأقصى ،
إذ كان الشاعر المغربي يلم به في لحظة من لحظات غضبه ثم ينصرف عنه إما رعيًا للذمام
والمواطنة وإما تسامياً بنفسه عنه . ويلتأنا منه في أول الأمر أهاج لبعض من كانوا ينتهون
ويثيرون مع بعض أتباعهم حروباً تدور فيها عليهم الدوائر ، من ذلك قول سعيد بن هشام
المصمودي في هزيمة برغواطة مع متنبئها أبي عفير^(٢) :

قضى قبل التفريق فأخبرينا بقول صادق لا تكذينا
بأمر يراهم خسيروا وضلوا وخابوا لا سقوا ماءً معيناً^(٣)
يقولون النبي أبو عفير فأخزى الله أم الكاذبيننا
ألم تسمع ولم ترَ يوم «بَهْتِ» على آثار خيلهم رَتِيناً^(٤)

(١) بطرت من البطر ، وهو الاستخفاف بالشئ .

(٢) النبوغ المغربي ٢٥١/٣ .

(٣) يهت : مكان المعركة .

(٤) ماء معيناً : من مياه الجنة أولعل الشاعر يريد كل

رَيْنَ الْبَاكِاتِ بِهِمْ تُكَالِي وَعَاوِيَةَ وَمُسْقَطَةَ جَنِينَا^(١)

وهو يعيرهم بيوم « بهت » الذى هزموا فيه مع نبيهم أبى عفير ، ويقول لأهل برغواطة إنهم خسروا وخابوا وضلوا ضلالا مبينا إذ تبعوا متنبئا كذابا من أعداء الله ورسوله ودينه الخفيف ، فأخزاهم الله ، وحرّمهم مياه الجنة المعين الصافى العذب . ولقد كتب الله عليهم حزيمة ساحقة لهم ولنبيهم يوم بهت ، وفرت خيلهم لا بفرسانهم إذ قتلوا شرقتل وإنما بنسائهم يعولن ويبيكن ويندين من فَقَدْنَهُنَّ من الأزواج والأبناء ، وبلغ من حزنهن أن الحوامل منهم لكثرة عويلهن كن يسقطن أجنتهن فزعا ورعبا . وكثيرا ما كان يعدل الهاجى عن هجاء شخص بعينه إلى هجاء قومه أو هجاء بلدته من مثل هجاء الجراوى - وقيل إنها لغيره - بنى غفجوم قومه متوسلا بذلك إلى هجاء أهل فاس وخاصة عشيرة بنى ملجوم إذ يقول^(٢) :

يَا بْنَ السَّبِيلِ إِذَا مَرَرْتَ بِتَادِلَا لَا تَنْزِلَنَّ عَلَى بَنِي غَفْجُومٍ
أَرْضٌ أَغَارَ بِهَا الْعَدُوُّ فَلَنْ تَرَى إِلَّا مَجَاوِبَةَ الصَّدَى لِلْيَوْمِ
قَوْمٌ طَلَوْا ذَكَرَ السَّمَاحَةِ بَيْنَهُمْ لَكِنَّهُمْ نَشَرُوا لَوَاءَ اللَّوْمِ
لَا حَظَّ فِي أَمْوَالِهِمْ وَنَوَالِهِمْ لِلْسَّائِلِ الْعَافِي وَلَا الْخَرُومِ^(٣)
لَا يَمْلِكُونَ إِذَا اسْتَبِيحَ حَرِيمُهُمْ إِلَّا الصَّرَاخَ بِدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ
يَا لَيْتَنِي مِنْ غَيْرِهِمْ وَلَوْ أَنَّنِي مِنْ أَهْلِ فَاسٍ مِنْ بَنِي الْمَلْجُومِ

وهو يقول للضيف الطارق المار بمدينة تادلة لا تفكر فى النزول على بنى غفجوم لبعثهم وشحهم ، وإنها لأرض كريهة خربها الأعداء حتى لا تجد فيها إلا صياح اليوم وأصداءه ، ولقد طلّوا راية السماحة والخلق الكريم بينهم ونشروا لواء اللؤم والدناءة غير مستجيبين لطالب معروف ولا لفقيه محروم . وهم فى غاية الجبن ، حتى إنهم لو استبيح حريمهم ما ثاروا ولا فزعوا إلى حمل السلاح ، بل فزعوا إلى الصراخ يدعون فعل النساء والمظلومين . ويقول ليته لم يكن منهم لما يحملون من هذه المساوىء الذميمة حتى لو كان من أهل فاس وبنى الملجوم اللؤماء ، وهى سخريه لاذعة . وكاد الهجاءون لا يتركون بلدة دون هجاء ، فهم يهجون مراکش ويهجون مدينة القصر الكبير وغيرها من مدن المغرب الأقصى الجميلة . ولم فى الهجاء طرائف ، فمن ذلك هجاء ابن حبّوس شاعر الموحدين لفنه الشعرى قائلا^(٤) :

يَا غَرَابَ الشَّعْرِ لَا طَيْرَ تَ وَمُنَيْتَ الْوَقْعَا
فَإِذَا اسْتَيْقِظَ شَهْنَمٌ قَرِيمٌ زِدَتْ هَجْوَعَا
هَبْكَ لَا تَقْنِصُ عَزَا لِمَ تَقْنِصَتْ الْخَضْوَعَا

(١) تُكَالِي جمع تاكل : فاقدة الزوج أو الولد .

(٢) السائل العافى : طالب المعروف .

(٣) الوافى ١١٠/١ .

(٤) النبوغ العربى ٢٥٣/٣ .

رمت أن ترقى سريعا فتردّيتَ صريعا^(١)
 ربما اصطاد بُغات^(٢) شيئا واصطدتَ جوعا^(٣)
 ولقد غال حبيبا منك ما غال صريعا

وهو يختار للشعر من الطير الغراب الذى كان يتشاءم به العرب ، وكأنه مصدر شؤم كبير ، ولذلك يتمنى له أن تقصر به أجنحته ، فيقع ويطيل المجوع حتى لو استقبله سيد شهم ويعجب أنه لا يقتنص عزا فلماذا يقتنص الخضوع ، مهما أمل معه الرقى السريع إذ سرعان ما يهوى صريعا . وقد يصيد شوير ، بينما لا يصيد الشاعر الكبير سوى الجوع والحرمان ، بل لقد يغتاله المديح كما اغتال أبا تمام الملقب بحبيب ومسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني الشاعرين المبدعين اللذين أضاعا شعرهما فى الثناء على ممدوحيهما . وكان ابن جوس ظريفا فلم يتعرض لشخص بعينه ، وإنما تعرض بعامة للحاسدين والمهجائين والعيّيين الذين يكثرون بين الناس منشد^(٤) :

أعدّ لنايحك عصا وأقضم ما ضيفك حصا^(٥)
 وغمض عينك النجلا ء حتى تُتعتَ الحوصا^(٦)
 وهز لمعشر سيفا وهز لآخرين عصا
 لقد رخص الإخاء وأه سون الأغلاق ما رخصا
 وقد ذهب الوفاء فلا يقول مغالط نقصا

وهو ينصح الشخص أن يعد عصا لكثرة الناجحين حوله الذين ينكرون فضله ، ويقول أطمع من يمضغون لحملك هاجين وذامين حصا ، وغمض عينك البصرة عن أخلاق الناس الذميمة حتى تتعت بالحوص وضيق العين وأنت لا تكاد تبصر شيئا . والناس صنفان : صنف يلقي بالسيف وصنف يلقي بالعصا . ولقد رخص الإخاء حتى ابتذل ولم يعد موجودا وذهب معه الوفاء كاملا دون أوبة . والمالك بن المرحل المرينى المتوفى سنة ٦٩٩ للهجرة قصيدة تصور زواجه بمدينة سبتة من امرأة وصفت له بالجمال والحسن البارع ووجدتها قبيحة بالغة القبح ، ويطيل فى وصف ما قيل له من جمالها الساحر ، وبالمثل فى وصف قبحها وأنها قرعاء حولاء فطساء صماء بكماء عرجاء ، ويقول إنه ولّى هاربا منها حين لاح الصباح ، وهى قصة أراد بها إلى الهزل والمجانة .

(١) ترديت : أظم . ما ضيفك : الذين يمضغونك

ذامين .

(٥) الحوص : الأحوص وهو ضيق مؤخر العين .

(١) ترديت : سقطه .

(٢) البغات : طير صغير .

(٣) النبوغ المغربى ٢٥٢/٣ .

الشعراء والشعر التعليمي

الشعر التعليمي من الموضوعات الشعرية التي ابتكرها الشعراء في العصر العباسي الأول بتأثير اتساع الثقافة ورقى الفكر العربي ، إذ أخذ بعض الشعراء ينظم في التاريخ وبعض العلوم ، وفي مقدمتهم أبان بن عبد الحميد الذي ترجم عن الفارسية قصص كليله ودمنة ، وقد اقترح له هو ومعاصروه نمطا مستحدثا من الشعر هو نمط الشعر المزدوج الذي ينظم مع وزن الرجز ، وتتحد القافية به في شطري كل بيت . وأخذ هذا النمط من الشعر التعليمي يشيع في البلدان العربية منذ القرن السادس ، فنظم به كثير من المتون العلمية ، وألفت لها شروح كثيرة . ولم تبق بلدة عربية إلا وشارك علمائها في نظم هذه المتون وفي وضع شروحها ، وأكثروا من نظم مسائل الفقه والنحو والتصريف . وكان للمغرب الأقصى في ذلك مشاركة خصبة ، ومن كبار الناظمين به لهذا الشعر التعليمي محمد بن أحمد بن غازي من العصر المريني ، وله فيه منظومات تعليمية في التاريخ ومختلف العلوم ، ومنها منظومته المنية في علم الحساب . وكثر هذا الشعر في العصر السعدي ، ونجد المقرئ في كتابه روضة الآس ينشد للشعراء من معاصريه أشعارا تعليمية متنوعة في مسائل العلوم . ولشعراء المغرب الأقصى - في مختلف العصور - شعر كثير في الوصايا والحكم ، ولعمر الناسي المتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة قصيدة في الأمثال والحكم نظمها على مثال لامية العجم ، غير أنه وقف بها عند نحو ستين بيتا ويهمنها في العرض الأدبي لهذا الشعر أن نقف عند منظوماته التاريخية والعامة في الأدب ، ونختار لذلك شاعرين هما عبد العزيز المازوزي وابن الونان .

عبد^(١) العزيز المازوزي

مكناسي الأصل وأكبر منذ نعومة أظفاره على التنقف بالعلوم اللغوية والشعر العربي حتى تفتحت موهبة الشعر فيه ، وقدم إلى المنصور يعقوب المريني فأعجب به وأصبح شاعره ، وهو لا يكتفي بمدح العام له ، بل ينظم فيه وفي أسرته ملاحم تاريخية بارعة ، من ذلك ملحمة الكبرى : « نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك » وهي منظومة تاريخية يعرض فيها التاريخ من أعتق الأزمنة ، حتى زمن يعقوب المريني ، وفي فاتحتها يقول :

الحمد لله مغيث الدين بالملك المنصور من مرين

ولا يلبث أن يقول :

المغربي ٢٣٦/١ ، ٢٩/٣ .

(١) انظر في ترجمة المازوزي وشعره التاريخي الإحاطة لابن الخطيب ٢٠/٤ والوافي ٣٦٥/٢ والنبوغ

سميتها من حسنهما نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك
وأذكرُ الأمر على الترتيب مختصرا بأحسن التقريب
من عهد آدم إلى زماننا أختمها بالغُر من أملاكنا

وهو يمضي في سرد التاريخ منذ أقدم العصور ، حتى إذا وصل إلى دولة بنى مرين ومليكيها
يعقوب المنصور أخذ يفصل الحديث في تاريخه وأحداثه ومجالسه ، وكأنما هو الغاية المبتغاة
من تأليف منظومته ، وفيه يقول :

قد أليس الوقار والسكينة وحل في مكانة مكينه
حتى إذا ما حان وقت الظهر قام إلى بيت الندى والفخر
يبقى إلى وقت صلاة العصر يأتي بقصد نهيه والأمر
فينصف المظلوم ممن ظلمه ولم يزل إلى صلاة العتمة^(١)
وأمن الغرب من الفساد ونشر العدل على العباد
وخضعت مرين تحت قهره وأذعنوا لنهيه وأمره
ورفع الظلم عن الرعية وقمع الطغاة في البرية

وهو يصور يعقوب المنصور المريني يحفّ به الوقار والجلال والسكينة ، ويحل في مرتبة
رفيعة ، حتى إذا حانت صلاة الظهر أسرع إلى مسجده يؤديها ، ويأتي بعد صلاة العصر لإبرام
أوامره ونواهيهِ وإنصاف المظلومين ، ويظل حتى صلاة المغرب ، وقد نشر الأمن في البلاد
وأخلاها من الفساد ، ونشر العدل في الناس ، وخضعت له قبائل مرين وأذعن له ، ورفع
عن الرعية كل ظلم عانت منه وقمع الطغاة الذين ظلموها ظلما فادحا .

وينظم المازوزي قصيدة تاريخية ثانية في المنصور يعقوب وجهاده للإسبان في ديارهم نصرة
لبنى الأحمر أمراء غرناطة ، وقد بدأ هذا الجهاد سنة ٦٦٤ للهجرة إذ عبر الزقاق على رأس قوة
مرينية كما مر بنا في الفصل الأول ونكل بالإسبان ، وعاد إلى هذا الجهاد مرارا سنة ٦٧٧ وسنة
٦٨١ واستولى على بعض حصونهم سنة ٦٨٥ وكان كل ما يحوزه من حصونهم وبلدانهم ،
يقدمه إلى بنى الأحمر في غرناطة متنازلا عنه لهم . فهو لا يجاهد نصارى الإسبان بقصد تكوين
دولة عربية جديدة في الأندلس ، وإنما يجاهد من انتصارا لدينه ، إذ رأى بنى الأحمر يتخاذلون
عن جهادهم وخشى عليهم عواقب هذا التخاذل ، فامتعض للإسلام وأخذ ينزل الإسبان
بجيوشه المرينية ، وينزل بهم ضربات متوالية . والمازوزي يبدأ قصيدته بحمد الله جل في علاه
وتمجيده ، ويستغرق ذلك أربعة عشر بيتا يختمها بنعمته الكبرى على المسلمين بإرساله فيهم
الرسول ﷺ وما خصه به من الإسراء والمعراج ، ويلم بتحريضه لأتباعه على جهاد الكفار ،

(١) العتمة : الظلام .

وينوه بخلفائه الراشدين وبقية العشرة المبشرين بالجنة ومن اقتفوا سيرتهم حين كان الإسلام شامخا ويقول إنه انسحق بعدهم مشيرا إلى إخراج الإسيان للمسلمين من الأندلس ، حتى صار بالمغرب الأقصى غريبا ، إذ استكان سكاته - كما يقول - إلى القعود عن الجهاد ، إلى أن استولى على صولجان الحكم يعقوب المنصور المريني ، فإذا هو ينزل الإسيان بقواته المرينية وقواده من أبنائه وأبناء رعيته نزالا ضاريا طوال عشرين سنة والنصر يواكبه . وهذه القصيدة التاريخية الثانية للملوزي تتغنى بهذه الانتصارات ليعقوب على الإسيان ، وتفصل أحداثها وما غنم يعقوب من الحصون الإسبانية هو وأبنائه وقواده وما أنزلوه بهم من هزائم ساحقة في نحو مائة بيت ، يستهلها الملوزي بقوله في يعقوب ونزاله المتكرر للأعداء :

وَلَمْ يُعْلَمْ جِهَادٌ لِلْأَعْدَى	بِهَذِي الْأَرْضِ يُحْتَسَبُ احْتِسَابَا
إِلَى أَنْ فَتَحَ الرَّحْمَنُ فِيهِ	لِيعْقوبَ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ بَابَا
لِمَوْلَانَا أَمِيرِ الْعَدْلِ مَلِكٌ	بِهِ اتَّسَلَبَتْ يَدُ الْكُفْرِ انْسِلَابَا
وَلَمْ نَرْ قَبْلَهُ فِي الْعَصْرِ مَلِكَا	أَرَانَا فِي الْعِدَا الْعَجَبِ الْعُجَابَا
دَعَا لِلَّهِ دَعْوَةً مُطْمَئِنٌّ	لِمَوْلَاهُ دَعَاءٌ مُسْتَجَابَا
فَلَبَّى اللَّهَ دَعْوَتَهُ وَسَنَى	لَهُ الْحُسْنَى وَجَنَّبَهُ الصَّعَابَا ^(١)
فَجَازَ الْبَحْرَ مُجْتَهِدَا مَرَارَا	يَقُودُ إِلَى الْعِدَا الْخَيْلَ الْعِرَابَا ^(٢)

وكأنني بالملوزي حين نفى أن يكون قد سبق يعقوب جهاد من المغرب الأقصى لنصارى الإسيان إنما يريد أنه لم يحدث جهاد لهم في عهد الدولة المرينية قبله ، إذ نحن نعرف جهاد الموحدين لهم قبل تلك الدولة وما أنزلوا بهم في الأرك وغير الأرك من هزائم ساحقة . ويقول إن الله فتح له في الجهاد بابا بل أبوابا ، ويشيد بعدله ومحقه لجيوش الإسيان محقا ، وكأنما دعا الله أن ينصره واستجاب دعاءه ، فيسر له الحسنى من الفتوح حين جاز الزقاق مرارا للجهاد ، يقود إلى الأعداء الخيل العربية الأصيلة فألبسهم هو وبنوه وقواده ذلا مابعده ذل . ويسترسل في ذكر الوقائع وقواده وكيف أوسعوا بعض بلاد الإسيان حرقا وانتهابا ، ويتحدث عما ساقوه من الغنائم والأسلاب مع الإشادة بיעقوب وبلائه البلاء المستطاب ، ويختم قصيدته مخاطبا بني مرين بقوله :

هَنِيئَا يَا مَرِينُ لَقَدْ عَلِمْتُمْ	عَلَى الْأَمْلَاكِ بَأْسًا وَاتَّجَابَا ^(٣)
وَفَاخِرْتُمْ بِمَوْلَانَا الْبَرَايَا	فَأَعْطَوْكُمْ قِيَادَا وَانْغَلَابَا
أَبْعَدَ الْفَنَسِ وَابْنِ الْفُونَسِ يَنْحَى	رِضَاكُمْ لَا يَخَافُ بِهِ الْعِتَابَا ^(٤)

(١) متى : يسر .

(٢) العراب : الكريمة الأصيلة .

(٣) انتجبا : نجابة واصطفاء .

(٤) يريد ألفونس العاشر وابنه شاتو .

فحزبُ مَرِينِ حَزْبُ اللَّهِ يَحْمِي حَمَى الْإِسْلَامِ لَا يَخْشَى عِقَابًا
إِذَا سَلَّوْا السِّيفَ تَرَى الْأَعَادَى وَقَدْ حَلَّوْا الرِّئْيَ مَدَّتْ رِقَابًا

وهو يعنيء مَرِين بهذا المجد الحزبي الذي سمت به على الأملاك شجاعة واتجابا ، وقد فاخترموهم بسلطانكم يعقوب فاستسلموا لكم مغلوبين على أمرهم ، وهذا ألفونس العاشر وابنه يمدان يديهما للصالح . وإن حزبك لحزب الله الذي يحمي ديار الإسلام ، وبمجرد أن ينزل أعداء الدين يلتصمون الربي هلعا ، ويستسلمون بين قتيل وأسير . وفي شعر الملزوزي - كما رأينا - غير قليل من النصاعة والسلامة ، وقد لبى نداء ربه سنة ٦٩٧ للهجرة .

ابن^(١) الونان

هو أبو العباس أحمد بن محمد الونان الحميري الفاسي من نابهي شعراء العصر العلوي ، تألق اسمه في عصر السلطان محمد بن عبد الله (١١٧١ - ١٢٠٤ هـ) وهو من صفوة السلاطين العلويين نهض بالمغرب الأقصى وطرده البرتغاليين من الجديدة سنة ١١٨٢ هـ/١٧٦٩ م وعنى بالحياة الثقافية والأدبية . ولابن الونان فيه مدائح متعددة ، وكان أبوه مقربا إلى السلطان ، وكان ظريفا فسماه أبا الشمقمق . وأول منظومات ابن الونان فيه أرجوزة سماها الشمقمقية ، ويقال إنه حاول أن يصل إلى السلطان لينشدها ، ولم يتح له ذلك ، فترصد موكبهُ يوما وصعد على ربوة ، ونادى بأعلى صوته عليه :

يَا سَيِّدِي سَيِّطَ النَّبِيَّ أَبُو الشَّمَقْمَقِ أَيْبِي

فطلبه السلطان ، وصحبه معه إلى القصر وأصبح من حاشيته . والشمقمقية أرجوزة في ٢٧ بيتا ، للسلطان محمد منها ٢٧ بيتا ، وبقيتها موسوعة أدبية ، استهلها بالرحلة في مجاهل الصحراء واصفا ركبَ النوق الذي كان فيه ، وظل في أكثر من أربعين بيتا يحاور حاديا طالبا إليه أن لا يكلفها في السير بما لا تطيق جامعا لها في وصفها كثيرا من أوابد اللغة . ويصف صاحبة له في ٢٥ بيتا ويورد في وصفها المادى طائفة من الألفاظ الغريبة ويقول إن لم يظفر بها فسيشن على قومها غارة بفرسان من خير يعرب . ويسترسل في فخره بآبائه وقبيلته اليمنية في نحو خمسة وثلاثين بيتا ، ويفضي إلى طائفة كبيرة من الأمثال والحكم في نحو تسعين بيتا ، وهي لب الأرجوزة ، ولذلك جعلناها من الشعر التعليمي ، ويمدح الشعر وشاعرية أبي الشمقمق ، وكأنما الأرجوزة كانت منتهية في هذا الجزء منها ، ورأى أن يضيف إليها مديحا للسلطان محمد بن عبد الله .

ولا تلاحظ كثرة الألفاظ الغريبة في الأرجوزة فحسب ، فإنها تحمل كثيرا من أمثال العرب

(١) انظر في ترجمة ابن الونان وشعره الوافي ٨٦٢/٣ وما ذكره من مراجع ، مع شرح الشمقمقية لكتون ، وانظرها في البوغ الغربي ١٧٨/٣ .

(١) انظر في ترجمة ابن الونان وشعره الوافي ٨٦٢/٣ وما ذكره من مراجع ، مع شرح الشمقمقية لكتون ، وانظرها في البوغ الغربي ١٧٨/٣ .

القدماء ومن شخصياتهم وشعرائهم وأدبائهم منذ الجاهلية حتى العصر العباسي يكمل بهم المعاني في أبياته . وهو ما جعل أدباء المغرب يهتمون بكتابة شروح لها متعددة ومن أهمها شرح السلاوي وشرح عبد الله كنون ، ونقتبس منها أبياتا سهلة لندل بها على خصب شاعريته فمن ذلك قوله فيمن سماها بُنْي :

تَسْبَى بِشَغْرِ أَشْنَبٍ وَمَرْشَفٍ قَدْ ارْتَوَى مِنْ قَرْقَفٍ مَعْتَقٍ^(١)
وَزَادَ مَسْكُ الْخَالِ وَرَدَّ حَدَّهَا حُسْنًا وَقَدْ عَمَّ بِطَيْبِ عَبَقٍ
وَقَبَّلَتْ أَقْدَامُهَا ذَوَائِبُ سَوْدُ كَقَلْبِ الْعَاشِقِ الْمُحْتَرِقِ
كَمْ أودَعَتْ فِي مَقَلَّتِي مِنْ سَهَرٍ وَأَضْرَمَتْ فِي مَهْجَتِي مِنْ حُرْقٍ
وَلَا يَزَالُ فِي رِيَاضِ حُسْنِهَا يَسْرَحُ فِكْرِي وَيَجُولُ رَمَقِي

فهى تخلص من يراها بضمها الجميل وريقها الذى كأنه من خمر معتقة ، وقد زاد مسك الخال ورد خدورها حسنا بشذاه العبق ، وقبّلت ضفائرها أقدامها وهى شديدة السواد كقلب عاشقها المحترق ، وقد أودعت مقلته سهرا متصلا ، وأضرمت فى مهجته حرقا متقددة ، وإن فكره ليسرح دائما فى رياض حسننها ويجول معه ما بقى من شعوره بالحياة . والقطعة تموج بالصور والأخيلة . ومن قوله فى الأرجوزة مفاخرها :

سَلِّ ابْنَ خَلْدُونٍ عَلَيْنَا فَلْنَا يَبْعِنُ مَاتَرٌ لَمْ تُمَحَقِّ
بِهِمْ فَخَرْتُ ثُمَّ زِدْتُ مُفَخَّرَا بِأَدْبَى الْغَضِّ وَحُسْنِ مَنْطَقَى -
وَزَانَ عِلْمِي أَدْبَى فَلَنْ تَرَى مَنْ شِغْرُهُ كَشَعْرِى الْمُنَمَقِ
فَإِنْ مَدَحْتُ فَمَدِّحِي يُشْتَفَى بِـ كَمَثَلِ الْعَسَلِ الْمُرَوَّقِ
وَإِنْ هَجَوْتُ فَهَجَائِي كَالشَّجَا يَقِفُ فِي الْحَلْقِ وَمِثْلُ الشَّرَقِ^(٢)

وهو يقول سل ابن خلدون عنا ويريد سل تاريخه وما اشتمل عليه من أسماء آبائه وآثارهم وأمجادهم ، ويذكر أنه يفخر بهم ويزداد فخرا بأدبه وحسن بيانه ومنطقه ، وقد زان علمه أدبه ، ولن ترى لأحد شعرا كشعري المنمق ، فإن مدحت فمدحى مثل العسل المصفى ، وإن هجوت فهجائى غصص تعترض فى الحلق ويشرق أو يغص بها المهجؤون . وتوفى ابن الزنان سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م . وحسبنا من الشمقمقية هذه الأشعار الواضحة البينة ، أما ما وراءها من أشعار أخرى فيكثظ بالألفاظ الحوشية ، وبالأسماء والأمثال من جاهلية وإسلامية مما يكثُر القارئ ويحوجه فيها إلى كثير من الشرح والبيان .

(١) ثغر : فم . أشنب : رقيق . مرشف : الفم وما به (٢) الشجا : ما يعترض فى الحلق . الشرق : القصة . من ريق . قرقف : خمر .

الفصل الخامس طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

الغزل من أهم موضوعات الشعر العربي ، وقد نظمته شعراؤهم فى جميع عصورهم وأقاليمهم مصورين فيه عاطفة الحب الإنسانى وما تثير فيهم من المشاعر والخواطر . والشاعر تارة سعيد بحبه فى وصاله ووداعه ، وتارة شقى محروم يتضرع ويستعطف ويتمنى ولو نظرة من بعيد . وقلما لا يتغنى شاعر عربى بالحب ، فالشعراء جميعا يتغنون به حتى الفقهاء ومثلهم العلماء من كل صنف . ولكل وطن عربى مجلداته فى هذه العاطفة الخالدة وللمغرب الأقصى بدوره مجلداته ، إذ نجده على ألسنة كثيرين من الشعراء والأدباء والعلماء معبرين فيه عن لحظاته الحنية من لقاءات صواحبهم ولحظاته المرة من هجرهم وانصرافهم عنهم دون وداع أو ما يشبه الوداع . وأول ما نلتقى به منهم فى عصر المرابطين بالمائة الخامسة للهجرة ابن القابلة السبتي إذ يقول^(١) :

ووجه غزالٍ راقٍ حُسْنًا أديمُهُ يَرَى الصَّبُّ فِيهِ وَجْهَهُ حِينَ يُصِيرُ
تَعَرَّضَ لِي عِنْدَ اللِّقَاءِ بِهِ رَشًا تَكَادُ الْحَمِيَّاءُ مِنْ مَحِيَّاهُ تَقْطُرُ
وَلَمْ يَتَعَرَّضْ كَيْ أَرَاهُ وَإِنَّمَا أَرَادَ يُرِينِي أَنْ وَجْهِي أَصْفَرُ

وهو يقول : بلغ وجه صاحبه من الجمال وشفافيته أن يظن مبصره أنه يرى فيه وجهه ، وهى غزال أو رشا يكاد يحياها يقطر خمرا ينتشى به مبصر وجهها كما ينتشى بشرب الخمر . ويتلطف فيقول إنها لم تتعرض له ليرى ما فى وجهها من بدائع الحسن ، وإنما ليشعر بما حدث له فى قلبه من شدة الخفقان وفى وجهه من شدة الاصفرار حياء منها وانبهارا . ويقول ابن زبياع شاعر هذا العصر^(٢) :

لَهَوَاكِ فِي قَلْبِي كَرِيْقَتِكَ فِي فَمِي غَيْرِي يَقُولُ الْحُبُّ مَرُّ الْمَطْعَمِ
فَأَدِرْ عَلَيَّ بِمَقْلَاتِكَ كَوَسِّهِ حَتَّى يَدْبُ خُمَارُهُ فِي أَعْظَمِي^(٣)

(١) الذخيرة لابن بسام ٣٨١/١/٤ .

(٢) قلائد العقيان ص ٢٦٤ .

(٣) الخمار : الانتشاء بالخمير .

إن التلذذ في هوائك تلذذ لو كان أقتل من زعاف الأرقم^(١)
 يا أيها القمر الذي إنسانه يرمى أناساً للعيون بأسهم
 لم أبد حبك غير أن جواني فاضت به فيض الإناء المفعم
 لا ذنب لي عليم الذي أسرته نظرا ولم أرمز ولم أتكلم
 فتلافني قبل التلاف فإني من حمير وسيأخذونك في دمي

وهو يخاطب صاحبه فيقول لها : غري يقول الحب مر ، أما أنا فأقول حبك في قلبي
 حلو كريقك في فمي ، ويتمنى عليها أن تدير ككوسه بعينها الفاتنتين ، حتى يتشوى بخماره
 الممتع . ويقول لها إن التلذذ أو العذاب في حبها له في نفسه لذة لا تماثلها لذة ، حتى لو كان
 قاتلا مثل سم الأفعوان . وإنها لقمر يرمى إنسان عينها بأسهم تصيب أفئدة الرجال ، ويقول
 لها إنني لم أفسد حبك غير أن جواني اكتظت به حتى فاضت به فيض الإناء المملوء إلى حوافه ،
 ولا ذنب لي كما تعلمين فإني أسرت إليك نظرا لم يره أحد ، ولم أنبئ به أحدا . ويتوسل
 إليها أن تتلافاه فتصله وتلقاه قبل هلاكه . ويقول إنه من حمير ، وإن لم تستجب له وتركه
 يهلك فسيدركون فيها ثار الأسد الضرغام . ويقول القاضي عياض^(٢) :

يا راحلين وبالفؤاد تحملوا أترى لكم قبل الممات قفول
 أما الفؤاد فعندكم أنباؤه ولواعج تتأبه وغليل^(٣)
 أترى لكم علم بمتزح الكرى عن جفن صب لي له موصول
 أودى بعزمة صبره وإيائه طرف أحمر وميسم مصقول^(٤)
 ما ضرركم ، وأضنكم بتحية يحيى بها عند الوداع قتيل
 إن البخيل بلحظة أو لفظة أو عطفة أو وقفة لبخيل

والقاضي عياض يقول إنهم رحلوا بصاحبه ورحل فؤاده معها ، ويتمنى لو عادوا به مماته
 ويقول إن عندهم أنباء فؤاده وما يضطرب فيه من آلام الحب وحرقه ، ويسألهم ألهم علم بالنوم
 الذي نزع عن جفون محب ، ليله موصول بالسهر والسهاد ، ولقد ذهب بصيره وإيائه عين
 ذات سواد جميل وفم يرتسم عليه ابتسام لطيف ، ويقول : ما ضرهم لو نولوه ما طلب
 وما أبخلهم بتحية ترد الحياة إلى قتيل ، ويقول إن من لا تنيل صاحبها لحظة لقاء أو لفظة وداع
 أو عطفة أو وقفة لشديدة البخل على من يكون لها حبا يستأثر بأفئدتهم وقلوبهم . ويتكاثر
 الغزل في عصر الموحدين ويرز فيه أو يشتهر شاعران هما أبو الربيع سليمان الموحدي وأبو حفص

(١) التلذذ هنا : العناء . زعاف الأرقم : سم الثعالب .

(٢) انظر التعريف بالقاضي عياض لابنه محمد ، تحقيق

د . بشرى .

عمر بن عمر السلمى ، وسنخص كلا منهما بترجمة . ومن شعراء العصر ابن عبدون المكناسى المتوفى سنة ٦٥٨ للهجرة ، ومن غزلياته قوله^(١) :

يا جبريتى ومن استجرت بهم	من جَوْر عَزْهُمْ على ذُلِّ
عَوْضْتُمُونى بالوداد قُلِّى	وأبدلتُم الإنصافَ بالمُطْل ^(٢)
ما هكذا فعلُ الكرام بمن	منهم تعودُ أجمل الفعل
علقت حبلَ محبَّتى بكم	بِحَيَاتِكُمْ لا تقطعوا حبلِ
ما كان أتذى ظلَّ عِشْتنا	إذ كان منتظما بكم شملِ
عودوا إلى عادات وصلِّكم	لا تحرمونى لذة الوصل
وإذا أيتم غير جوركم	فالجورُ منكم غاية العدل
إن شئتُ قتلى فيها أنا ذا	لا تحذروا من طالب ذخلِ ^(٣)

وهو يقول إنه يستجير من جور صاحبه وشعورها بالعزة على ذلّه وهوانه فقد أبدلته بالمودة بغضا وبإنصاف اللقاء ونعيمه مطلا ، وليس ذلك بفعل الكرام ومن عودته أجمل الفعل ويذكر أنه علّق محبته بها أو بهم - كما يقول - فلا تقطعوا حبلِ ، وما كان أجمل عِشْتنا حين كنا ننظم معكم فى جماعة واحدة . ويضرع إليها - أو إليهم - أن لا يحرموه لذة الوصل ، وحاشاكم أن تعقبوا الإخصاب والود بالجذب والبغض . وحتى إذا أبوا غير ظلمه فإنه يعده غاية العدل ، وإن أرادوا قتله فليقتلوه غير حذرين فليس وراءه من يطلب ثأره . ونلتقى فى أوائل العصر المربى بالشاعر الفذ مالك بن المرحل المتوفى سنة ٦٩٩ للهجرة ، ومرّ بنا أن الأستاذ هلال ناجى نشر له فى المجلد الثالث من مجلة المورد بغداد رسالتين فى عروض الدوبيت أو الرباعيات ، عُنِى فى أولاهما بوزنه على فَعْلُن متفاعِلن فعولن فعْلن ، وفى ثانيتهما بوزنه الثانى فعْلُن فعْلُن مستفعِلن مستفعِلن ، وأنشد له الأستاذ عبد الله كنون فى عروض الوزن الأول للدوبيت مجزوءًا غزلية يقول فيها^(٤) :

يا عاذلتى إليك عنى	لا تقربُ ساحتى العواذِلْ
مهلا قدمى له حلال	ما أقبلُ فيه قولَ قائلْ
قد نمَّ به شَذَا الغوالى	إذ هبَّ ونمَّت الغلائِلْ ^(٥)
والسحرُ رسول مُفْلَتِيهِ	ما أقرب عهدَه بيايل
والروض يُعير وَجْتِيهِ	ورَدًا كهواى غير حائل
يسبيك برقة الحواشى	عشقا ولطافة الشمايل

(١) الوافى ٣٣٢/١ والنبوغ المغربى ٦٨/٣ .

(٢) النبوغ المغربى ٦٩/٣

(٣) الغوال جمع غالية : الطيب . الغلائل : الثياب .

(٤) قلى : بغضا .

(٥) ذحل : ثار .

وهو يقول لعاذله ابتعدى عني، فساحتى لاتقربها العواذل، وإن دمي لصاحتي حلال ولا أقبل فيه قول قاتل. وإن روائح الغوالي أو الطيب لترافقها وتنم عنها ثيابها ، وإن عينيها لترسلان سحرا كأنه مجلوب توا من بابل بلدة الساحرين هاروت وماروت ، وكأني بالروض يعير وجنتيها وردا بديعا لا يذبل أبدا كحجها ، وإنها لتسبك بلطفها ورقتها ولطف شمالكها ، مما يجعلك تعشقها عشقا متصلا . ويقول عبد المهيمن الحضرمي الوزير المربني المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة^(١) :

كانوا نعيم فؤادي والحياة له	فالآن كل وجود بعدهم عَدَمٌ
بانوا فعاد نهاري كله ظُلُمًا	وكان قُرْبُهُمْ تَمَحَّى به الظُّلُمُ
والعين منى لا ترقا مدامعها	كأنها سحب تهيم وتنسجم
تبكي عهد وصال منهم سلفت	كأنما هن في إنسانها حلُم
لئن ضحكت سرورا بالوصال لقد	بكيت حزنا عليهم والدموع دَم
هم علّمني البكا ما كنت أعرفه	يا ليتهم علّمني كيف أبتم

وهو يفدى بنفسه عهدا جميلا استطاب له العيش فيه وجيرة كان يأبس بوصلهم ، وكانوا نعيم فؤاده وحياته ، ورحلوا فأصبح كل وجود بعدهم كأنه عدم ، وأصبح النهار كله ظلمات بعضها فوق بعض وكان يمحي بقربهم كل ظلمة وكل ظلام ، وإنه ليبيكهم ولا تجف دموعه كأنها سحب تهيم مدرارا ، وعينه تبكي عهدا يبدو في إنسانها وكأنما كان حلما ، ولئن ضحك سرورا بهم قديما لقد أصبح يبيكهم بدموع قانية كأنها دماء مسفوحة ، ويقول إنهم علموه البكا ولم يكن يعرفه ، ويتمنى لو كانوا علموه كيف يتسم إذا نزلت به الحزن والخطوب . ونمضى إلى العصر السعدي وملتقى في كتاب روضة الآس للمقرى بمحمد الوجدى العماد المتوفى سنة ١٠٢٢ للهجرة ، وله من قصيدة غزلية^(٢) :

إن الرشاقة واللطافة والصبا	حاة والخلاوة والملاحة والحوار
صيغت لمن أهوى وأبس سندسا	منها ودياجا عليه قد ظهر
وإذا نظرت لوجهه ولعينه	قلت الجمال من الخدود قد انفجر
عيني وأذني في النعيم بنظرة	وبلفظة منه وقلبي في سقر
هل عطفة أو زورة أو وقفة	أو لفظة تقضى بإدراك الوطر

وهو يجمع لصاحته فنون الحسن من الرشاقة واللطافة والصباحة والخلاوة والملاحة وحوار العين الفاتنة ، وكأنما صيغ لها من كل ذلك سندسا ودياجا ليست ، وإنك لتخال كأنما الجمال اجتمع بكل فتته في وجهها ، وإنه ليخال كأنما عينه حين تنظر إليها وأذنه حين تصغي لها ، كأنما هما في نعيم الفردوس ، بينما قلبه في جحيم من الحب ولوعاته ، ويتمنى عطفة منها إليه

(١) النبوغ ٧٢/٣ والوافي ٣٣٢/١ .

(٢) روضة الآس ص ٧٤ .

أوزورة أو وقفة ، أو حتى لفظة يدرك بها مناه . ويقول أبو سالم العياشي المتوفى سنة ١٠٥١ للهجرة في وداعه الرائع^(١) لزوجته :

ولم أنسها يقظانة الهم في الحشا لمبلة الأشجان وسنانه الطرف
تقول وقد حلّ الرحيل أهكذا تحملى ثقل الفراق على ضعفى
أترك أفرأخاً كزغب القطا وما رحمت بنيك إذ سلوت عن الإلف^(٢)
فقلت لها كفى الملام فأعرضت كخشف النقا تستعرض الدمع بالكف^(٣)
فودّعتهما والقلب منطبق على أساه ودمعى لا يمل من الوكفر^(٤)
عليك سلام لا زيارة بيننا مع البعد إلا أن أزور مع الطيف

وهو يقول إنه ودعها صباحاً وأشجانها تملأ صدرها ، ولا تزال سنة من النوم عالقة بطرفها ، وتقول له وقد أزعج الرحيل : أتركنى أتحمل أثقال الفراق على ضعفى . أترك أبناء صغارا كأولاد القطا لم يطل ريشهم ، فهلا رحمتهم حين سلوتنى ولم ترحل ؟ فقلت لها كفى عن الملام ، وظلت تذرف الدمع . وودعها وقلبه يكتظ بالأسى والحزن ، ودمعه يتقاطر ولا يكف ، وسلم عليها ، وهو يقول فى نفسه لن أزورك مع البعد إلا أن أزورك فى الحلم مع الطيف . ويتكاثر الغزل فى العصر العلوى ، ومن مختاره قول أبى عبد الله الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة^(٥) :

من لى بها تختال فى حليها كروضة تختال فى زهرها
فبشرها أرحب من بشرها ونشرها أطيب من نشرها^(٦)
وخدّها أبهج من وردّها ونورها ألطف من نورها^(٧)
وقدّها أرفع من غصنها ووجهها أبيض من فجرها
العيش والجنّة فى وصلها والموت واليران فى هجرها

وهو محب لصاحبه أشد الحب ، وتراءى له فى حليها تختال كروضة فى زهرها ، ويستمر فى المقارنة ، فبشرها وتهلل وجهها أرحب من بشر الروضة وتهللها ، وعطرها أطيب من عطرها وخدّها يفوق وردّها فيما يبعث فى نفس الناظر إليها من البهجة والسرور . ونورها يفوق زهر الروض لطفنا وحسنا ، وقدّها نخل ممشوق أرفع من غصن الروضة ، ووجهها يفوق فى بياضه بياض فجرها ، وما وصلها إلا الحياة والفردوس وما هجرها إلا الموت والجحيم .

(١) التبوغ المغربى ٨٧/٣ .

(٢) نشرها : شذاها وعطرها .

(٣) خشف النقا : ظبية الرمل .

(٤) الوكفر : تقاطر الدمع .

(٥) التبوغ المغربى ٨٧/٣ .

(٦) زغب القطا : أولاده الصغار قبل أن يطول ريشهم .

(٧) خشف النقا : ظبية الرمل .

(٨) الوكفر : تقاطر الدمع .

وحري بنا أن نتوقف قليلا بإزاء شاعرين غزلين كبيرين من شعراء عصر الموحدين ، هما أبو الربيع الموحدي وعمر السلمي .

أبو الربيع^(١) الموحدي

هو أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن، فهو من أسرة الموحدين الحاكمة، وقد عني أبوه بتربيته، فنشأ أديبا شاعرا ، ولا يُعرفُ تاريخ ميلاده ، والمظنون أنه ولد حوالى منتصف القرن السادس ، وعاش حتى أوائل القرن السابع إذ توفي سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٨م ونرى العلاقة سيئة بينه وبين ابن عمه الخليفة يعقوب في أوائل توليه الحكم (٥٨١ - ٥٩٥ هـ) ومازال يستعطفه حتى عفا عنه وأصبح من كبار رجال دولته ، وأخذ يعقوب يكلفه بكثير من الأعمال المدنية والحربية فأدّاها على خير وجه ، وجعلته هذه الصلة بابن عمه والدولة يعيش في رفاهية من العيش ، مما جعله يكثر من الخمريات كما جعله يعيش لعواطفه الشخصية وخاصة في الحب والغزل ، وهما يستغرقان الشطر الأكبر من ديوانه من مثل قوله :

حَسْبُ الهوى من قتل الحب مَصْرَعُهُ وَحَسْبُهُ مِنْهُ ما تحويه أَضْلَعُهُ
قالوا تعزُّ وقد باتوا فقلت لهم كيف العزاء وَأَذْنِي البين أَوْجَعُهُ
لا عَذَّبَ اللهُ قَلْبًا بالفراق ولا سقاه من صابٍ ما يَتُّ أَجْرَعُهُ
لا تعذلوني فما أَصْغَى لعدلكمُ صَمْتُ عن العذل أَذْنِي ليس تسمعه

وهو يقول يكفى الحب مصرعه وما تحويه منه أضلعه، وهو يحاول كتمان أساه وضناه، وعيثا يستطيع ذلك ويقول الناس له تعز عن صاحبك حين رحلت ، ويجيبهم كيف أتعزى ومواقع البين آخذة بتلايبي، ويدعو الله أن لا يعذب بالبين والفراق قلبا ولا يسقيه ما يتجرعه من المر والعذاب، ويقول لعذاله لا تعذلوني فلست أصغى إلى عدلكم إذ أصاب أذنى صمم فلا تسمعه. ويقول:

كيف التصبرُ والأشواقُ تزدادُ والدارُ تنأى وما للوصل ميعادُ
وكلما قربتُ منى دياركمُ ينأى المزار كأنَّ القرب إبعاد
والقلبُ فى حَرْقٍ والجفنُ فى أرقٍ وللبلابل إصدارٌ وإيراد^(٢)
إنى وإن فاتنى عيْدُ برنعمكمُ حسبي بلقىالك أعراسٌ وأعياد

إنه لا يستطيع صبرا عن رؤية صاحبه ، فالأشواق تزداد ، ودارهم تبتعد ، وليس للوصل ميعاد . ويقول إن ديارهم كلما قربت منه نأت الزيارة ، وكأن القرب تحول نوعا من الإبعاد ، وقلبه فى حرق من الحب ، وجفنه فى أرق والبلابل أو الشجون تقلقه ، ويقول إنه إن فاته العيد فى ديارهم ، فلقاؤها أعراس وأعياد تنتظره . ويقول :

وديوانه منشور .
(٢) اللابل: الشجون. إصدار وإيراد : رواج ورجوع .

(١) انظر فى ترجمة أبى الربيع الموحدي وأشعاره الوافى
ص ١٨٤ - ٢٢٧ ودراسة للدكتور عباس الجراى ،

الشوق يزداد إذ تدنو بك الدارُ
ما باختيارى نأتِ بى الدارُ يا أُملى
فهل على الشوق أعوانٌ وأنصارُ
ما سرتُ ميلا ولا جاوزتُ مرحلةَ
وليس غير دُنُوِّ منك أختارُ
ولا نظرتُ إلى شىءٍ فأعجبني
إلا وفى النفس من تذكاركُم نارُ
مذ فارقتُ وجهك المحبوبَ أبصارُ
الله يعلم أن القلب عندكمُ
وإن تئات به عن إلفه الدارُ
ما ضر طيفُكم لو زارنى بدلا
منكم وطيف حبيب النفس زوارُ
وكيف يطرقنى والنوم فرارُ
الذنبُ للنوم لا للطيف يا سَكْنى

وشوقه يزداد كلما دنت منه دارها وكأنما له أنصار وأعوان يساعدونه ، ويقول إنه ليس باختياره بعد دارها عنه ، إذ يختار دائما دنوها وقربها ، ويقول إنه لم يسر ميلا ولا مرحلة إلا وتشغل ذكراها فى نفسه ، ولم يشغل نظره بشىء بعد رؤية وجهها المحبوب ، ولكنما رحل عنه قلبه معها ، ويعجب أن طيفها لا يزوره بينما طيف الأحية دائما زوار للمحبين ، ويعتذر عنه ، فالذنب للنوم لا للطيف ، لأنه لا ينام إذ يبيت دائما مسهدا لا يفكر فى شىء سواها . ويقول:

يا مزعم البين فى ترحالك الأجلُ
إنى لأعظم أن تمضى وتركنى
وأنت لاهٍ بحبِّ البين مُشتغلُ
فلا تروغ فؤادا أنت ساكنه
والدمع يهيمى ونارُ الوجد تشتعل
لم يدر قومك ما ذا فى ترحلهم
بالين منك فإنى والة خيلُ
سرّوا - بزعمهم - ليلا وما علموا
من الذنوب ولو يدرون ما رحلوا
بأنهم فى فؤادى حيثما نزلوا

وهو يخاطب صاحبه المصممة على الرحيل ، ففى رحيلها موته إذ سترحل بحببة قلبه ، وهو يعظم أن ترحل وتركه لعذابه ، والدمع يهطل ونار الحب والوجد تشتعل ، ويقول لما لا تروغى فؤادى بالين فإنى فى غاية الحزن وأكاد أجن ، ولم يدر قومك ما فى ترحلهم من الذنوب والآثام بسببى ولو عرفوا ذلك ما رحلوا ، وقد ساروا ليلا وما علموا أنهم دائما فى فؤادى أذكرهم وأذكرك ذكرى متصلة . ويقول :

أقول لركبٍ أذلجوا بسُخيرةِ
وأشكو إلها أن أطالت عتايها
قفا ساعة حتى أزورَ ركبها
فإن هى جادت بالوصال وأنعمتُ
وإلا فحسبى أن رأيتُ قبابها
وقتُ بها أشكو وأسكبُ عبرةَ
على غير بينٍ ما عرفتُ انسكابها
فأومتُ برخصٍ من بنانٍ مخضَّبِ
وحطتُ على البدر المنير نفاها
وقالتُ أياكى البين من قد أرادَه
ويشكو النوى من قد أثار غرابها

وهو يضرع إلى ركب صاحبه الذى سار بها سحرا أن يتوقف ساعة ليزور ركبها ويملاً عينه من محاسن وجهها ، ويشكو إليها طول عتابها ، فإن هى نعمت بالوصال فيها وإلا فحسبه أن رأى قبائها وخيامها ، ويقول إنه وقف بها يشكو ويسكب عبراته التى لا يسكبها فى غير بين ، وكأنما عطفت عليه فأومت بينان غصً مخضب وقد وضعت نقابها على وجهها المنير كالبدر فى اكتماله ، وعاتبته قائلة أتبكي من الين وأنت الذى أردته وتشكو النوى والفراق وأنت الذى أثرت غرابه . وواضح أنه يتميز بموسيقى عذبة وقلما يَضُنُّ فى شعره أو فى حبه ، لأنه أمير مترف ، وشعره لذلك ليس فيه تعمق فى وصف دقائق الحب ومعانيه .

عمر^(١) السلمى

هو أبو حفص عمر بن عمر السلمى ، ولد بأغامت سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م ، وعنى به أبوه ، وصحبه معه وهو قاض بفاس فأكبَّ بها على حلقات الفقهاء والأدباء ، وأعدّه إكبابه على الفقه والحديث النبوى ليتولى منصب القضاء فى تلمسان وفاس وإشبيلية . وكان مع إحسانه للفقه والفتاوى الدينية شاعرا مجيدا ، وله مدائح فى يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب ، واشتهر فى البيئتين : المغربية والأندلسية بشعره فى الغزل ، وأخذ عليه بعض المترمّتين ولم يُضغّر لهم ، ويقول مترجموه إنه كان يعنى بمسكنه وملبسه وزينته عناية الشعراء الفنانين من أمثاله ، ومن غزلياته قوله :

أعيذك يا سُلَيْمى من سُلَيْمٍ	قتلت فتاهم وهو الزعيمُ
قتيلُ الحبِّ لا يُودى وعانيه	ه لا يُفدى ولا فيه الخصومُ ^(٢)
ومالى طالبُ بترات قتلى	إذا قتل الغرامُ فلا غريمُ
فؤادى سار غوكٍ عن ضلوعٍ	بها يا ريمُ حبُّك لا يريمُ ^(٣)
ودادك صحَّ فى قلب سقيمٍ	كطرفك صحَّ ناظره السقيمُ
إذا أعرضتِ تسودُّ الأمانى	وإن أقبلتِ تبيضُ الحموم
وما حُبِّى لها إلا عذابٌ	عليه من نضارتها نعيم

وقد اختار لصاحبه اسم سليمان ليجانس بينها وبين اسم قبيلته سليم وفى ذلك تكلف واضح ، ويلقب نفسه بالزعيم فخرا لا يستحب فى الغزل ، ويقول لها إن قتيل الحب لا يؤخذ بثأره ولا يفدى ، وإنه ليس له طالب بثأره إذا قتله الغرام ، وجبها مستقر بين ضلوعه لا يبرحها .

المغربى ٦٢/٣ وما بعدها .

(٢) لا يودى : لا يؤخذ بثأره .

(٣) لا يريم : لا يبرح .

(١) نظر فى ترجمة السلمى وأشعاره أزهار الرياض

٣٦١/٢ وما بعدها والذيل والتكملة لابن عبد الملك فى

٢٢٢/١/٨ والغصون الياض لابن سعيد والوافى بالأدب

العربى فى المغرب الأقصى ١٦٨/١ وما بعدها والنويع

وإنما سماها في البيت الرابع ريمًا ليجانس بين اسمها والفعل في آخر البيت ، ويقول إن قلبه سقيم مثل طرفها ، ويعنى في البيت السادس بالطباق بين أسوداد الأمانى وإبيضاض الهموم ، ويقول إن عذابه في حبها عليه أثارة من نضارتها . وفي رأى أن السلى لم يكن على طبيعته حين نظم هذه المقطوعة ، ولذلك تكلف فيها ألوانا من التكلف . ويقول :

أَغَارَ عَلَى الصَّبِّ مَنْ أَتَبَهُ هُوَ الْحَبُّ مَنْ يُطْفِئُ أَلْهَمَهُ
نَأَى الْقَلْبُ عَنى وَشَوْقى مَعى فَلِلَّهِ أَمْرَى مَا أَعْجَبَهُ
يَحْنُ فَوَادى إِلَى قَاتلى كَذَاكَ الْهَوَى عِنْدَ مَنْ جَرَّه
يَجُودُ لِمُسْخَطِهِ بِالرَّضَا وَيَطْلُبُ رَاحَةً مَنْ أَتَبَهُ
إِذَا شَفَّ قَلْبى غَرَامُ الْهَوَى دَعَا بِالنَّعِيمِ لِمَنْ عَذَّبَهُ

وهو يقول إن شخصا نزل بالمحب أتبته ، وكأنه لا يعرف أن من يريد أن يطفىء الحب بالتأنيب أو باللوم يُشعله ، ويعجب أن قلبه رحل مع صاحبه ولا يزال ما كان يختلج فيه من أشواقه معه ، وإن فواده يحن دائما إلى رؤية صاحبه قاتلته شأن المحبين جميعا . ويجود المحبوب بالرضا لمن أسخطه ، ويطلب الراحة لمن أتبته ، ويقول إن الغرام كلما أضنى قلبه وشفه دعا بالنعيم لمن عذبه . وهى رقة واضحة فى الغزل . ومن قوله فى جمال الأعرابيات بالقياس إلى الحضريات مستلهما المتنبى وإعجابه المعروف بالبدويات :

مَهَا الْقَفْرِ لَا دُمِيَّةُ الْمُرْمَرِ وَفَى الْعُرْبِ لَا فِى بَنى الْأَصْفَرِ^(١)
بِنَفْسِ يِعَافِرُ تِلْكَ الْخِيَامِ وَمَسْرَحُهَا فِى النَّقَا الْأَعْفَرِ^(٢)
مَلَاعِبُ يَصْبُو إِلَيْهَا الْحَكِيمِ وَيُسَلِّبُ فِيهَا فَوَادُ الْجَرَى
وَفِيهَا الظُّبَاءُ بَنَاتُ الْأَسْوَدِ غَيَارَى مَتَى بَغَمَتْ تَزَارُ^(٣)
فَخَيْسُ الْهَزِيرِ كِنَاسُ الْغَزَالِ بِهِ الشَّبْلُ نَاشٍ مَعَ الْجَوْدَرِ^(٤)
يُخَالِسُهَا نَظَرًا تَحْتَهُ غَرَامٌ بِهِ الْحَى لَمْ يَشْعُرْ
وَبِاللَّحْظِ يُقَدِّحُ زَنْدُ الْهَوَى فَطَرَفٌ غَيْرُ وَفَوَادٍ بَرَى

وهو يفضل جميلة القفر البدوية على دمية المرمر الحضرية ، ويكفى أن يسميها دمية فليس فيها حيوية البدوية ولا نضرتها ، ويقول إنه يفدى بنفسه وروحه ظباء تلك الخيام وملاعبها فى الرمل المغبر . ويقول إنها ملاعب تجذب الرجل الحكيم وتسلب فؤاد الجريء الشجاع ، فيها الظباء كريمات الرجال الأسود اللاتى إذا صحن ظننت أنهن يزأرن ، وكأنما بيت هذا

(١) بنو الأصفر : الروم وأمثالهم من الإسيان .
(٢) اليعافير جمع يعفور : الظبي وولد البقرة الوحشية .
(٣) بغمت : صاحت .
(٤) خيس الهزير : أجمة الأسد . الكناس : بيت النقا : الرمل . الأعفر : المشوب بالعفر والتراب .
الغزال . الجودر : ولد البقرة الوحشية .

الغزال أجمه أسود ، به الشبل ناشيء مع بنت عمه التى تشبه ابنة البقرة الوحشية ، وكل منهما يختلس النظر إلى الآخر تعبيرا عن غرام مكنٍ لا يشعر به الحى ، وباللحظ وحده يضطرم الهوى ، وطرف يغرى به وفؤاد لا يزال طاهرا بريئا . وهى لوحة بديعة لفتيات البادية . ومن قوله متغزلا :

هذا فؤادى أقصدته الأسهمُ من ذا يرى تلك الجفونَ ويسلمُ^(١)

يا غرةً حكَمَ الجمالُ لها على شمس الضحى وأصابَ فيما يحكم
يُضحى الخلى إذا رآها عاشقا والعقل توقظه اللحاظُ النُّومُ
وكانَ قامتها ونعمةً لفظها غصنٌ عليه يُبلسُ يترنمُ

فقد أصابت فؤاده الأسهم المصوبة من عيني صاحبتة ، ويقول إن أحدا لا يسلم من تلك السهام إذا نظر إلى جفونها الجميلة ، ويقول إنها غرة شديدة البياض حتى ليحكم الجمال لها على شمس الضحى ، وهو مصيب فى حكمه ، وإن الخلى الذى لم يتعود الحب حين يراها يصبح عاشقا للحاظها الفاترة الجميلة ، ويشطح به الخيال ، فيقول إنه يخيل إليك وقد رأيت قامتها المشوقة تصدح بالغناء أنك ترى غصنا يتغنى فوقه بلبل جميل - ويقول :

همُ نظروا لواحظها فهاموا وتشربُ غَلَّ شاربها المدامُ
يخاف الناسُ مقلتها سواها أيدغرُ قلبَ حاملِ الحسامِ
سما طرُفي إليها وهو بالكِ وتحت الشمس ينسكبُ الغمام
وأذكر قَدَّها فانوحُ وجدا على الأغصان تتدبُ الحمام
وأعقب يئنها فى الصَّدْر غمًا إذا غرِبَ ذُكاءُ أتى الظلام

وهى قطعة بديعة بتصاويرها الرائعة ، فحين نظروا إلى لواحظها سكروا وهاموا كشارب للخمر لم تبق له من عقله شيئا ، والناس لفتنة عينيها يخافون من النظر إليها وطبيعى أن لا تخاف لأن الحسام لا يخيف حامله . وقد نظر إليها طرفه باكيا ، وكأنها الشمس ينسكب تحتها الغمام ، ويقول إنه يذكر قدها المشوق فينوح كما ينوح الحمام على الأغصان ، وإن بينها وبعدها أنشأ فى صدره غما كما ينشأ الظلام حين تغرب الشمس . وهى مقابلات فى غاية الطرافة وتدل على شاعرية خصبة . وقيل وفاته سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٨م نظم أشعارا زاهدة كثيرة .

شعراء الوصف

الوصف قديم فى الشعر العربى يصف فيه الشعراء الطبيعة برياضها وأزهارها وحيواناتها وصحرائها وزروعها حتى إذا تحضروا وصفوا القصور وأدوات الحضارة وملاهيهم المختلفة ،

(١) أقصدته : أصابته .

ولم تقع أعينهم على شيء من أرض أو سماء إلا سجلوه ووصفوه ، يصفون الأنهار والبحار والسفن كما يصفون النجوم والشمس والقمر والسحب والأمطار والطيور . وكما وصفوا السهول والوديان وصفوا الجبال والكثبان والأشجار والغابات . ونجد الوصف على كل لسان منذ عصر المرابطين ، من مثل قول القاضي ابن زبناح في وصف الربيع^(١) :

أُبدت لنا الأيام زهرة طيها وتسربت بتسريها وقشيتها
واهتز عطف الأرض بعد خشوعها وبدت بها النعماء بعد شحوبها
وتطلعت في عنفوان شبابها من بعد ما بلغت عتّى مشيتها
وقفت عليها السحب وقفة راحم فبكت لها بعيونها وقلوبها
فعجبت للأزهار كيف تضاحكت يكاثها وتباشرت بقطوبها
وتسربت حللا تجرّ ذيلها من لذمها فيها وشقّ جيوبها^(٢)

وهو يقول إن الأيام أبدت لنا أروع طيب لديها : طيب الربيع ، وليست أروع حللها وأجدها ، واهتزت جوانب الأرض خصبا بعد جديها ، وتراءت النعماء فتية بعد شحوبها ، وتطلعت لمفاتها في عنفوان شبابها بعد أن كانت ثابتة وبلغت من شيخوخة الجذب عتّى ، فقد وقفت عليها السحب راحمة لها عاطفة وبكت لها بكاء حاراً ، ويقول إنه عجب للأزهار تضحك وتبهج لبكاثها وعبوسها ، وسرعان ما لبست حللا سابغة بما حدث لها من ضرب الأمطار لها وشقّ مداخلها . ولما جاء الموحدون بالقاضي عياض مغلولاً من سبته إلى مراکش ومر بواد يقال له « داي » سمع قمرية تسجع ، فقال^(٣) :

أَقْمَرِيَّةُ الْأَدْوَاهِ بِاللَّهِ طَرَبِي أَحْسَا شَجَنَ بِالنَّوْحِ أَوْ بَغْنَاءِ^(٤)
فَقَدْ أَرَقْنِي مِنْ هَذِلِكُ رَنَّةٌ تَهَيَّجُ مِنْ بَرْحَى وَمِنْ بُرْحَانِي^(٥)
لَعَلَّكَ مِثْلِي يَا حِمَامُ فَإِنِّي غَرِيبٌ بَدَايُ قَدْ بُلِيْتُ بَدَاءِ
فَكَمْ مِنْ فَلَاحٍ بَيْنَ دَايٍ وَسَبْتَةٍ وَخَرَقَ بَعِيدُ الْخَافِقِينَ قَوْلًا^(٦)
يَذْكُرُنِي سَحُّ الْمِيَاهِ بِأَرْضِهَا دُمُوعاً أُرِيقَتْ يَوْمَ بِنْتِ وَرَائِي
وَيَعْجُنِي فِي سَهْلِهَا وَخُزُونِهَا خِمَائِلُ أَشْجَارٍ تَرَفُّ رُؤَا^(٧)
لَعَلَّ الَّذِي كَانَ التَّفَرُّقُ حَكَمَهُ سَيَجْمَعُ مَنَا الشَّمْلَ بَعْدَ تَنَاءِ

وهو يقول لقمرية الأشجار طرّبي أخاهم وشجن بالنوح أو بالغناء فقد أسهرني من غنائك رنة هيجت من شدائدك ، لعلك مثلي غرية تنوحين على قرينك وأولادك ، وكم من فلاح بين

(١) فلائد العقيان ص ٢٥٩ .

(٥) برحى وبرحاني : شدائدك .

(٦) خرق : مفازة . قواء : مقفر .

(٧) ترف : ناضرة . رواء : منظرها جميل .

(٢) لدم : ضرب .

(٣) المتقي لأحمد بن القاضي ٥٤٧/١ .

(٤) الأدواح جمع دوحه : الشجرة العظيمة .

داى وسبته وكم من مفازة متباعدة الجانبين مقفرة ، وإن سحَّ المياه بأرضها ليذكرنى دموع زوجتى وأولادى ورأى يوم رحلت ، وإنى لتعجبني خمائل داي الناضرة ذات المنظر الجميل ، ولعل الله الذى حكم بالتفرق بينى وبين أهلى يجمع الشمل بعد فراق وتبعد بعيد . ويقول أبو الربيع الموحدى فى وصف الربيع^(١) :

حَتَّى الرَّبِيعَ بِمَا وَشَتْ أَزَاهِرُهُ وَنَظَّمْتُ مِنْ أَكَالِيلٍ عَلَى الشَّجَرِ
وَدَبَّجَتْ فَوْقَ مَتْنِ الرُّوضِ مِنْ حُلَلٍ وَنَمَّقَتْهُ بِأَلْوَانٍ مِنَ الزُّهْرِ
مِنْ نَرَجِسٍ سَاحِرِ الْأَحْظَافِ ذِي غُنْجٍ وَمِنْ أَقَاحٍ نَقِيٍّ الثَّغْرِ ذِي أَشْرِ^(٢)
بِمَا تَضَوُّعِ رَوْضِ الزَّهْرِ غَبَّ حَيًّا تَأْكُدُ الشُّكْرَ لِلنَّعْمَى عَلَى الْبَشْرِ
لَا يَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّ الرُّوضَ فَاحٌ لَهُمْ طَوْعًا وَلَكِنَّهُ يُثْنِي عَلَى الْمَطَرِ

وهو يطلب من كل قارئ له أن يحى الربيع بما وشت ونقشت أزاهره وبما نسقت من تيجان الزهر على الشجر وبما زينت الروض من حلل نمقتها بألوان من الزهر : من نرجس مدل ساهر الأحظاظ ومن أقاح ذى حوز نقى الثغر ، وقد وجب الشكر على الناس لهذه النعمة العظيمة مما ينشر روض الزهر عقب الحيا أو المطر من عطر زكى ، ولا يظن الناس أن الروض فاح به لهم ، وإنما فاح به ثناء وشكرًا للمطر . ويقول أبو القاسم الشريف السبتي المشهور بالغرناطى المتوفى سنة ٧٦٠ فى ناعورة^(٣) (ساقية) :

وَذَاتِ سِيرٍ إِذَا حُتَّتْ رَكَائِبُهَا حَنْتَ فِرَاقَتِكَ فِي مَرَأَى وَمُسْتَمَعٍ
كَأَنَّهَا فَلَكْ دَارَتْ كَوَاكِبُهُ عَلَى الرِّيَاضِ بَنُوءٍ غَيْرِ مُنْقَشِعٍ
تَمَائِلُ السُّحْبِ صَوْبًا بَلَّ تَخَالَفُهَا إِذَا اسْتَهْلَّ حَيًّا الْهَتَانَةَ الْمُحْمَعِ^(٤)
هَذِي مِنَ الْمَاءِ تَعْلُو كُلَّ مُنْخَفِضٍ وَتَلَكْ تَنْزِلُ مِنْهُ كُلَّ مُرْتَفَعٍ

يقول إنها إذا أسرع دواليها سمعت صوتا فيه حنان فراقتك فى منظرها وصوتها ، وكأنها فلك دارت كواكبها أو دواليه على الرياض بمطر مستمر لا ينقشع . ويقول إنها تماثل السحب فيما تسقط من مطرها ، ويعود ، فيقول بل تخالفها إذا انهمرت أمطارها ، فالناعورة تسقى كل منخفض بينما السحب تسقى المرتفعات من الجبال والتلال . ويقول فى وصف سفينة تمخر به البحر :

وْغَرِيَّةُ الْإِنْشَاءِ سِرْنَا فَوْقَهَا وَبِالْبَحْرِ يَسْكُنُ تَارَةً وَبِمَوْجٍ
عُجْنَا نَوْمٌ بِهَا مَعَاهِدٌ طَالَمَا كَرُمَتْ فَعَاجُ الْأَنْسُ حَيْثُ تَعُوجُ
وَامْتَدَّ مِنْ شَمْسِ الْأَصِيلِ أَمَامَنَا نَوْرٌ لَهُ مَرَأَى هُنَاكَ بَهِيَجٍ

(٣) انظر فى هذه الآيات وتاليتها الوائى ٤٣٥/٢ .

(٤) الهتانة المحم : السحابة الهاطلة .

(١) الوائى ٢٠٥/١ .

(٢) أشر : حوز . والشعراء يشبهون الثغور بالأقاح .

فكأن ماء البحر ذائب فضة قد سال فيه من النصار خليج
وهو يقول إنها سفينة بديعة الصنع سرنا عليها والبحر تارة يسكن وتارة يموج ، وعرجنا
نوم أماكن طيبة وعرج معها الأنس ، وامتد أمامنا من شمس الأصيل نور بهيج ، وكأن ماء
البحر فضة ذائبة امتدت فوقه شمس الأصيل فاستحال خليجا من النصار أو الذهب . ويقول
عبدالمهيمن الحضرمي المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة في وصف السحر وانبثاق أضواء الفجر^(١) :

وتراءى سحرّ والنسيم عليل	وللنجم طرّف بالصباح كليل
وللفجر نهر خاضه الليل فاعتلت	شوى أدهم الظلماء منه حجول ^(٢)
فمزق ساجي الليل منه شرارة	وخرق ستر الغيم منه نصول
تبسم ثغر الروض عنه ابتسامة	وفاضت عيون للغمام همول ^(٣)
ومالت غصون البان تشوى كأنها	يدار عليها من صباه شمول ^(٤)
وغنت على تلك الغصون حمام	لمن حفيف دونها وهديل ^(٥)
إذا سجمت في لحنها ثم قرقرت	يطيح خفيف دونها وثقيل ^(٦)

وهو يقول إن السحر تراءى ومعه نسيم رقيق وأصاب طرف النجم ببعض الكلال ، وكأنما
الفجر نهر خاضه الليل فاعتلى أطراف حصان الظلماء بياض في قوائمه ، ومزقت منه شرارة
سكون الليل وخرق ستار الغيم منه ما يشبه نصول الرماح ، وتبسم ثغر الروض ، وفاض الغمام
بسيول من المطر ، وانتشت غصون البان وكأنما يدار عليها ككوس من ريح الصبا الجميلة ،
وأخذ الحمام يغنى على الفصون ، ويسمع خفيفه وهو يسقط على الأغصان وترانيمه ، ويقول
إن الحمام إذا ترنمت ورددت صوتها فاق لجمالها الخفيف والثقل مما يلحّه المغنون . وينشد
أحمد بن يحيى الشفشأوى المتوفى أيام المنصور السعدى سنة ١٠٠١ للهجرة في روض^(٧) :

أما ترى الطير بالأدواح ساجعة	أذمت أناملها أوتار عيدان
تحكى مزامير من لأن الحديد له	تشدو بالاجزال فى رصد وزيدان ^(٨)
تنفى عن الصب ما بالقلب من كرب	بل ترك الصب فى يته الهوى عانى
والبان يزقص من ترجيعها طربا	والزهر يفتّر عن أنغار مرجان
والماء منسكب والظل منسحب	وللنسيم هيسوب ينعش الفاتى

وهو يقول إن الطير يترنم فى الأشجار وقد أذمت أناملها الحمراء ما تقف عليه متغنية من

(١) الوافى ٤٤٦/٢ .

(٢) شوى : أطراف ويريد القوائم . حجول : بياض .

(٣) همول : دافقة .

(٤) شمول : خمر .

(٥) هديل : صوت الحمام .

(٦) قرقرت : رددت . يطيح : يسقط .

(٧) النبوغ المغربى ١٣٧/٣ .

(٨) الرصد والزيدان : من ألحان الغناء .

أوتار العيدان تحكى بغنائها مزامير داود الذى ألان له الله الحديد ، وتشدو بأنغام الرصد والزيدان ، وتنحى عن الحب ما بقلبه من كُرب الحب بل تجعله كأنه أسير لحيه يردد صياسته فيه ، والبان يرقص من ترديد صوتها وترنمها طربا ، والزهر يضحك عن ثغور لؤلؤية ، والأمطار تنسكب والظل ينسحب ، ويهب نسيم منعش . ونمضى إلى بواكير العصر العلوى ، ويقول أبو على اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ للهجرة فيما بين الزهر والمطر من علاقة قديمة^(١) :

إن بين الغمام والزهر الغد ضُ لرحما قديمة وإخاء
بان إلف عن ألفه فتوارى فى الثرى ذا وذاك حل السماء
فإذا ما الغمام زارت جنابا آذنت فيه بالحبيب اللقاء
ذكرت عهده القديم فحنّت عند لقيه فاستهلّت بكاء
فرى الزهر بارزا من خبايا هُ يحى الوفود والأصدقاء
راقصا والصبا تهنيء والور ق غوانى القيان تشدو غناء

وهو يقول إن بين الغمام والزهر مودة قديمة وإخاء ، وقد بان كل عن صاحبه فالزهر توارى فى الثرى والغيم تعالى فى السماء ، فإذا ما الغمام زار ناحية آذنت حبيبها فيه باللقاء ويذكر الغمام عهده القديم فيبكي بمطر منهمر ، وترى الزهر بارزا من كل مكان يحى وفود أصدقائه من الأمطار ، وكأنه يرقص وريح الصبا تهنيء ، والحمام قيان الرياض يشدو غناء . ويقول ابن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ للهجرة يصف روضا^(٢) :

مُدَّ للسُّلُوان أَشْرَاكَ النَّظَرِ فى ابتهاج الروض من وجَد المطر
وتلقَّ الأنسَ عن آسِ الرُّبَى وارو طىَّ النُّورَ عن نُشْرِ السَّحَرِ
وارتشف ثغَرَ أقاح باسمَا واصططح بالطلُّ من كأس الزَّهَرِ
والثَّيْمَ وجة المني مستبشرا حيث رام الغصنُ تقبيلَ النَّهَرِ
وجلا الورد خدودا أُشْرِيتْ خمرة العِقيانِ من فرط الخَفَرِ
وحبا الخيرى أنفاسَ الصَّبا نفحاتٍ أنشرت ميثَ الفِكْرِ
وانبرى النسرِينُ يُهدى ذهبا فى صحاف مُترَعاتٍ من درر
نظمت فى جيده أنداهُ عقد دُرٍّ كلما ماسَ انشَرَّ

وهو معجب بروض بديع ، ويقول : مُدَّ فيه جبالا النظر لعلك تجلب لنفسك شيئا من ابتهاج الروض بما سقط عليه من المطر ، وتلقَّ الأنس فيه عن آس الربى البديع ، وتمتع بروائح النور أو الزهر التى نشرها فى السحر ، وارتشف السرور من ثغر الأقاح الباسم .

(١) النبوغ الغربى ١٤١/٣ .

(٢) النبوغ الغربى ١٣٩/٣ .

وليكن صبحك بالطل تنعم برويته في كوس الزهر ، ولتلم وتقبل وجه الأمانى مستبشرا ،
حيث كل شيء من حولك ينعم بالقبْل كما تقبل الأغصان النهر ، وأبدى الورد خدودا
مشربة بحمرة الذهب من فرط الحياء والخفر ، وآثر زهر الخيرى أنفاس الصبا بنفحات
تحى ميت الفكر ، وأخذ زهر النسر ينهدى ذهباً فى صحاف مليحة بالدرر ، ونظمت
الأنداء فى جيد الروض عقد لآلىء كلما تحرك انثر . وحرى بنا أن نتحدث عن وصاف
كبير فى العهد السعدى .

عبد^(١) العزيز الفشتالى

هو أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالى ، أباه من قبيلة فشتالة فى الشمال الغربى
لفاس ، ولذلك نسب إليها ، وقد ولد سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م وتوفى سنة
١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م ، وتلمذ لأئمة عصره من الفقهاء والنحاة واللغويين ، وأقبل على حفظ
الشعر والنثر حتى نضجت ملكته الأدبية ، مما جعله يلتحق بدواوين الدولة السعدية ،
وأعجب به المنصور الذهبى ، فجعله على رأس دواوينه ، وأخلص له أشد الإخلاص ، فعاش
يقدم له مدائحه ، ويؤرخ لدولته المنصورية السعدية ، ووصفه المقرئ فى كتابه : روضة
الآس بقوله : « وزير القلم الأعلى ، الوارد من البلاغة والبراعة المنهل الأحلى ، نشأة الدولة
المنصورية (دولة المنصور الذهبى) وكاتم أسرارها ، ومنزل القوافى من قننها ومستعد
أحرارها ، المقدم فى الفضائل والمحسن » . ويقول أحمد بن القاضى عنه فى كتابه درة
الحجال : « فقيه أديب ، نثر ناظم ، على الهمة ، متين الحرمة ، فصيح القلم ، زكى
الشيم ، ركن البلاغة والبراعة ، وفارس الدواوين والبراعة » . وكما كان رئيساً لدواوين
المنصور كان شاعره الرسمى ، وكما كان شاعراً كاتباً أو أدبياً كان عالماً مؤرخاً لدولة المنصور
وترجم لمعاصريه فى كتابه « مناهل الصفا » وهو أحد المصادر التى نرجع إليها فى العصر .
وله ميلاديات نبوية كثيرة سوى الغزليات والمراثى ، وله أمداح سياسية كثيرة للمنصور ،
وبجانب ذلك له أشعار فى وصف قصر المنصور المسمى بالبديع ومبانيه وقببه وما ازدان به
من التماثيل والنقوش ، مما يدل - بوضوح - على مدى الحضارة المترفة التى اتصف بها
عصر المنصور الذهبى . وفى الإشادة بقصر البديع يقول عنه فى كتابه : « المناهل » : إنه
من الآثار التى لم يخلق مثلها فى البلاد .. وإنه المثل المضروب فى الأرض عظمة وضخامة ،
وجلالة وفخامة ، وتفننا وتألقا ، وفى وصف مبانيه يقول :

والنبوغ الغربى ٤١٢/١ ، ١٢٨/٣ وما بعدها والوفاء
٦٨١/٣ وما بعدها . وراجع ديوانه مع دراسة له بتحقيق
السيدة نجاة المريني .

(١) انظر فى ترجمة الفشتالى وأشعاره روضة الآس ص
١١٢ ودرة الحجال ١٣٠/٢ والمتنقى (انظر الفهرس)
ونشر الثانى ٢٤١/١ وخلاصة الأثر للمحبي ٤٢٥/٢

سَلَبْتُ تَمَائِلَهَا الْحِجَا لَمَّا اغْتَدْتُ تَرَهَوُ بِحَسَنِ طَرَاظِهَا تَذْهِبًا^(١)
 وَلَقَدْ تَشَامَخَ فِي الْعُلُوِّ سِمَاكُهَا فَجَرَى عَلَى الْفَلَكَ الْمَنِيرِ جَنِيًا^(٢)
 وَسَمَا إِلَى الشُّهُبِ الزَّوَاهِرِ فَاغْتَدَى أَلْ إِكْلِيلُ مِنْهَا تَاجُهَا الْمَعْصُوبَا^(٣)
 أَضْنَى الْغَزَالَةَ حُسْنُهُ حَسَدًا لَذَا أَبْدَى عَلَيْهَا لِلْأَصِيلِ شَحُوبَا^(٤)
 وَانْقَضَتْ الزُّهْرُ الْمَنِيرَةُ إِذْ رَأَتْ زَهَرَ الرِّيَاضِ بِهِ يَنُورُ عَجِيَا^(٥)

وهو يقول إن تمائلها (تمائلها والصور المنقوشة في القصر) سلبت العقول بما تزهو به من طرُزها المذهبة ، وقد تمادى في الارتفاع سماكها حتى غدا القصر كأنه مجنوب تابع للفلك العلوى ، وظل في ارتفاعه حتى استقر بين النجوم ، وأصبح كأنه المجموعة النجمية المسماة بالإكليل ، بل غدا كأنه تاجها المعصوب . وناهيك بحسنه ، فقد أضنى الشمس وبدا شحوبها واضحا في وقت الأصيل ، أما النجوم المنيرة فانقضت إذ شاهدت أنوار زهر رياضه تضئء ضياء عجيبا . وله مما كُتب على يهوَ في القصر بمرمر أسود في مرمر أبيض :

لِلَّهِ يَهْوُ عَزُّ مِنْهُ نَظِيرُ لَمَّا زَهَا كَالرُّوضِ وَهُوَ نَظِيرُ
 رُصِفَتْ نَقُوشُ بِنَاهِ رَصَفَ قَلَائِدُ قَدْ نَضَّدَتْهَا فِي النُّحُورِ الْحُورُ^(٦)
 فَكَانَهَا وَالتَّبِيرُ سَالِ خِلَالِهَا وَشَى وَفَضَّةُ تَرْبِهَا كَافُورُ^(٧)
 شَأُو الْقُصُورِ قُصُورُهَا عَنْ وَصْفِهِ سَيَّانَ فِيهِ خَوَرَنَقٌ وَسَدِيرُ
 فَإِذَا أُجْلَتْ اللَّحْظُ فِي جَنَابَاتِهِ يَرْتَدُّ وَهُوَ بِحَسْنِهِ مَحْسُورُ^(٨)
 صَفَّتْ بِضِفَّتَيْهَا تَمَائِلُ فَضَّةٍ مَلِكَ النُّفُوسِ بِحَسْنِهَا تَصَوِيرُ^(٩)
 مَا بَيْنَ آسَادٍ يَهِيحُ زَيْرُهَا وَأَسَاوِدٍ تُسَلَّى لَهْنٌ صَفِيرُ

وهو يقول ما أروع بهوا يعز نظيره لما يجرى فيه من نضرة وجمال ، وقد صُفِّتْ نقوش بنائه تصفيف قلائد سوتها على النحور فائنة أو فائتات ، وكأن هذه النقوش والتبر يسيل خلالها وشى بديع ونقوش على فضة شديدة البياض كزهر الكافور . إن البديع ليسمو على كل القصور حتى على قصرى الخورنق والسدير اللذين كانا بقرب الحيرة في الجاهلية ، وحين تجيل البصر فى جوانبه يرتد حسيرا كليلا لروعة ما تشاهد ، وقد صفت بصفة هذه النقوش صور فضية تخلق الأبواب بجمال تصويرها سوى ما تراه هناك من آساد يخيل إليك أنها حية تزار وجماعات

- (١) تمائلها : تمائلها المنقوشة فى القصر . الحجا :
 العنل .
 (٢) جنيا : محاذيا له .
 (٣) الشهب : النجوم . المعصوب : المعتقد .
 (٤) الغزالة : الشمس .
 (٥) ينور : يضيء .
 (٦) نضدتها : نسقتها .
 (٧) التبر : الذهب .
 (٨) محسور : كليل ضعيف .
 (٩) تماثل : تماثل ونقوش .

من الطير كأنها تصفر صفيرا متصلا . ويتسع في وصف قبة القصر ، وما تشرف عليه من
النهر والأزهار ، ويستهل وصفه بقوله على لسانها :

سموتُ فخرُ البدرُ دونيَ وانحطاً وأصبح قُرصُ الشمس في أذني قُرطا
وصُغتُ من الإكليل تاجاً لمفرقي ونيطت بيَ الجوزاء في عنقي سِمطاً^(١)
ولاحت بأطواقى الثريا كأنها نثيرُ جُمانٍ قد تبعته لقطاً
وعديتُ عن زهرِ النجوم لأنني جعلتُ على كيوانَ رَحلي منحنطاً^(٢)
وأجريتُ من فيض الساحة والندي خليجا على نهر المجرة قد غطى

والقبة تقول إنني سموت وتعاليت في السماء ، فسقط البدر دوني وأصبح قرص الشمس
في أذني قرطا ، وجعلتُ من نجوم الإكليل تاجا لمفرق رأسي ، وتعلقت نجوم الجوزاء في
جدي عقدا ثميناً ، ولاحت في الأعلى الثريا ونجومها وكأنها فئات فضة تعقبته لقطاً ،
وتجاوزتُ النجوم إلى كيوان (زحل) ووضعت عليه رَحلي ، وأجريت من الساحة والندى
خليجا غطى على نهر المجرة في السماء وفاقه . ويستمر في وصف النهر الذي تشرف عليه
القبة :

تَنضُّضُ ما بين الغُروس كأنه وقد رقرقتُ حُصاوهُ حَيَّة رَقطاً^(٣)
حواليه من دَوَجِ الرياض خرائد وغيدٌ تجرُّ من خمائلها مِرطاً^(٤)
إذا أرسلتُ لُذُنَ الفروع وفتحت جَنَى الزهر للاح في ذوائها وَخَطاً^(٥)
يرنحها مَرُّ النسيم إذا سَرَى كما مال نشوانٌ تشربُ إسْفَنطاً^(٦)
يشقُ رياضاً جادها الجودُ والندي سواءٌ لديها الغيثُ أسكبُ أم أبطاً
وسالتُ بِسَلْسَالِ اللجين حياضه بحارا غدا عرضُ البسيط لها شَطاً^(٧)
تطلُّعُ منها وَسَطُ وَسْطاه دميةً هي الشمس لا تخشى كموا ولا غَمطاً^(٨)
حكّتُ وحبابُ الماء في جنباتها سنا البدر حلٌّ من نجوم السما وَسَطاً
وهو يقول إن النهر تجرى مياهه بين الغروس كأنه وقد تبدت حُصاوهُ حَيَّة رَقطاء ،
وحواليه شجر بض ناعم كالخرائد والغيد الحسناوات اللائي يتأنقن في ثيابهن ، ويخيل إليك
إذا تفتح الزهر في أعالي فروعها اللدنة كأنه وخط شيب يجتمع فيه السواد والبياض ، ويميلها
النسيم مترنحة إذا مر بها كما مال مخمور شرب خمرة الإسفنت المعتقة ، وإنه ليشق رياضاً يهطل

(١) نيطت : علقت . سيطا : عقدا .

(٢) كيوان : كوكب زحل .

(٣) تنضض : سال . رقرقت : لمعت . رقطاء : بلونها نقط .

(٤) خمائلها : حللها . مرط : ذيل طويل للثوب .

(٥) ذوائها : نواصيها . وخطا : شيا .

(٦) الإسفنت : خمر معتقة .

(٧) اللجين : الفضة . البسيط : المنبسط من الأرض .

(٨) الغمط : الانقاص .

عليها جود المنصور الذهبي وعطاياه . ولذلك سواء لديها أسرع الغيث الحقيقي في انسكابه أو أبطأ ، وتلك حياضه تسيل بأسراب النضة بحارا تسقى الزروع ، وتزين تلك الحياض دمية جميلة كأنها الشمس لا تخشى كسوفها ولا غمطها (انتقاصاً) ، ويقول إن هذه الدمية وما يتناثر حولها من حجاب الماء كالبلدر ومن حوله النجوم وسط السماء . ويعود إلى وصف القبة منشداً :

إذا غازلتها الشمسُ ألقى شعاعها على جسمها الفضى نهراً بها لُطاً^(١)
توسمتُ فيها من صفاء أديمها نقوشاً كأن المسك ينقطنها نَقْطاً
إذا اتسقت بيضُ القبابِ قلادةً فأتى لها في الحسن دُرَّتُها الوسطى
تكفنى بيض الدُمى فكأنها عذارى نضت عنها القلائد والريطا^(٢)
قدودٌ ولكن زادها الحسن عُرِّيها وأجملَ في تنعيمها النحت والخرطا
نمت صعداً تيجانها فتكسرت قواريرُ أفلاكِ السماء بها ضغطا
فيالك شأواً بالسعادة أهلاً بأكنافه رَحْلُ العلا والهدى خطاً^(٣)

وهو يقول إذا انعكست على القبة أشعة الشمس خلت كأن نهراً من الضياء والنور التصق بها مقابلاً للنهر الذي يجري بجوارها ، وخيل إلى من صفاء بياضها وما عليه من النقوش كأنما نقطتها المسك ، ويقول إذا تحولت القباب البيضاء في أعالي القصور العظيمة قلادة كانت دُرَّتُها الوسطى وقتها الفريدة التي لا تماثلها قبة . ويقول على لسانها إن الدمى البيضاء أحاطت بي عارية ، وكأنها عذارى خلعت عنها القلائد والثياب وكل زينة ، قدود ممشوقة وقد زادها العرى حسناً ، والنحت والخرط نعومة ورشاقة ، وتعال تيجانها صاعدة في السماء حتى حطمت قوارير أفلاكها من النجوم والكواكب ، وما أعظمها قبة شامخة أهلة بالسعادة وقد هبط في أكنافها وجوانبها رَحْلُ العلا والهدى ، ويمضي منشداً :

وكعبة مجدي شادها العز فانبرت تطوف بمغناها أمانى الورى شوطاً
ومسرح غزلان الصريم كناسها حنايا قباب لا الكيب ولا السقطا^(٤)
فلكن به ما طاب لا الأثل والخمطا ووسدن فيه الوشى لا السدر والأرطى
ثراه من المسك الفتيت مدبر إذا ما زجته السحب عاد بها خلطاً
وإن باكرته نسمة سحراً سرى إلى كل أنف عرْفُ غنبره قسْطاً
أقرت له الزهراء والخلد وانتنت أووين كسرى الفرس تغبطه غبطاً

وهو يقول يالك قبة كأنها كعبة رفعها العز في عنان السماء وإن أمانى الناس لتطوف بها

(١) لُطَ بها : التصق .
(٢) الریط : ملاءة .
(٣) الشأور : الحمة العظيمة ويريد بناء القبة الشامخة .
(٤) الصريم : القطيع . كناسها : يتها . السقط : منقطع الرمل .

شوطا وأشواطا رجاء أن تتحقق على يد المنصور ، ويقول يا لها مسرحا أو كناسا أو بيوتا للغزلان من الدمى والتماثيل القائمة فيها . وإنها لتلوك ما طاب لها لا ما تلوكه غزلان البوادي من شجر الأثل والخمط ، وإنها لتوسد الوشى المنق لا شجر البوادي من الصدر والأرطى ، وأما الثرى فإنه من فئات المسك وإن المطر ليختلط به حين يسقط فيصبح خِلْطاً أو أخلاطا من الطيب ، وحين تباكره نسمة سحرا تضوع رائحته ، ويأخذ كل أنف منها قسطا أو حظا ممتعا ، ويقول إن قصر الخلد ببغداد وقصور الزهراء بقرطبة لتعترف بعظمة هذا القصر وأن أووين كسرى لتنبطه . ولعل في كل ما قدمت ما يصور شاعرية الفشتالى وأنه كان يعنى بالجزالة والرصانة فى أسلوبه كما كان يعنى بالصور البيانية .

٣

شعراء الرثاء

الرثاء قديم فى الشعر العربى ، ونجده - منذ الجاهلية - يتخذ صورا ثلاثة هى الندب لبكاء ذوى القربى من الآباء والأبناء والإخوة ، والتأين لذكر فضائل الميت تصورا لخسارة المجتمع فيه ، والعزاء بذكر الموت وأنه سنة من سنن الحياة ، لا مفر لإنسان منه ، ونجد هذه الصور الثلاثة فى شعر المغرب الأقصى بمختلف عصوره . ومن أوائل ما يلقانا من صور الندب بكاء أبى الربيع الموحدى لأخيه ، وفى بعضه يقول^(١) :

أتانى نعى ضاق صدرى بحمله	وصدى - كما قد تعلمان - رحيبُ
فمرّ بقلب لم تدمَلْ قروحهُ	كما مرّ بالجمر الدفين هبوبُ
فحتى متى تبرى الرزايا سهامها	وتقصدى عمدا بها فتصيبُ
وحتى متى ألقى رزايا ممضة	يكاد لإحداها الحديد يذوبُ
ولكن قضاء الله حتم فليس لى	سواه على حمل الخطوب حسيبُ
يقولون لى صبرا ونار تلهفى	لها بين أحناء الضلوع وجيبُ

وهو يقول لصاحبه إن نعى أخيه أناه فضايق به صدره الرحيب ، وقد أثار الجمرة الدفين من أحزانه وكأنه ربح عاصفة ، وأصاب قروحته التى لم تبرأ ، فعادت تأله ، ويقول إلى متى تقصدى الرزايا بسهامها فتصيبى فى الصميم ، وحتى متى توجعنى ، ولو أن إحداها نزلت بحديد صلب لأذايته غير أنه قضاء الله الحتم وينبى للإنسان أن يتقبله راضيا بما قضى به ربه حسيبه ، ويقولون لى صبرا ونار تلهفى على أخى تضطرم وتلذع فى أحناء ضلوعى . ويعزى ميمون الخطاى (ابن خبازة) المتوفى سنة ٦٣٧ للهجرة ابن الجند عظيم إشبيلية فى ابنه ، ويستهل عزاءه بقوله^(٢) :

(١) النبوغ المغربى ٢٧٣/٣ .

(٢) الوافى ١٩١/١ .

أَرْجَةُ الصَّعْقِ يَوْمَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ أَمْ دَكَّةُ الطُّورِ يَوْمَ الصَّعْقِ فِي الطُّورِ
أَمْ هُدَّةُ الْأَرْضِ إِظْهَارًا لِمَا زَجَرَتْ بِهِ الْخَلِيقَةَ مِنْ إِيقَاعٍ مَحْذُورِ
أَمْ الْكَوَاكِبُ فِي آفَاقِهَا انْتَثَرَتْ وَبَاتَتِ الشَّمْسُ فِي طَيٍّ وَتَكْوِيرِ
مَا لِلنَّهَارِ تَعَرَّى مِنْ ثِيَابِ سَنًا وَشَابَةَ اللَّيْلُ فِي أَثْوَابِ دَيَّجُورِ
أَصْبَحَ لِتَسْمَعِ مِنْ أَنْبَاءِهَا نَبَأٌ يَطْشِي مِنَ الْأَنْسِ فِيهَا كُلُّ مَنْشُورِ
وَافَى مَعَ الْعِيدِ لِعَادَتِ مَضَاضَتُهُ فَشَابَ سَلْسَالَهُ الْأَصْفَى بِتَكْدِيرِ^(١)
نَوَّارَةٌ عِنْدَمَا رَاقَتْ بِدَوْحَتِهَا أَهْوَتْ إِلَى التُّرْبِ مِنْ بَيْنِ النَّوَاوِرِ
جَارَ الذَّبُولِ عَلَيْهَا عِنْدَ مَا مَلَأَتْ مَعَاطِسَ الدَّهْرِ مِنْ طِيبٍ وَتَعْطِيرِ

وهو يتصور كأن موت هذا الشاب رجّة الصعق يوم ينفخ في الصور ، فيصعق من في السموات والأرض ويهبون من مراقدهم ليوم القيامة ، أو كأنه دكة الطور حين طلب موسى من ربه رؤيته ، أو كأنما الأرض هُدَّتْ وتناثرت الكواكب وكُوِّرَتِ الشمس ، كما جاء في الذكر الحكيم عن يوم القيامة . وهي مبالغات يتحملها الشعر وحتى النهار تعرّى من ثياب ضيائه وغطاه الليل بظلامه . ويقول لمخاطبه : أرهف سمعك لنبا طوى كل أنس وكل سرور ، نبأ وافى في أواخر رمضان مع العيد ، فكدر كل صاف فيه ، وما النبا ؟ زهرة حينما زهت وتفتحت على شجرتها وراقت الأعين والأنفس سقطت إلى التراب من بين أنحوتها من الزهرات والنواوير ، وجار الذبول عليها فهوت عندما ملأت أنوف الدهر من أريج طيبها وعطره . ويفضى إلى عزاء ابن الجد بأن كل ما على وجه الأرض فانٍ ، فينبغي أن يسلم الأمر لربه ، إذ كل شيء يفنى بتدبير محكم ، وما الكون إلا صحيفة كبرى والناس فيها أحرفه بين محو ومبتور ، فلا تخذعك الليالي ، ويورد عليه أسماء بعض الملوك والأنبياء ، ممن طواهم الدهر ويادوا ، ويقول له في خاتمة قصيدته : سلّم للقضاء تسليم مأجور مثاب على تسليمه . ولابن رشيد المتوفى حول سنة ٧٢٠ للهجرة قصيدة بكى فيها ابنه محمدا بكاء مؤثرا يقول فيه^(٢) :

شبابٌ تَوَى شَابَتْ عَلَيْهِ الْمَفَارِقُ وَغُصْنٌ ذَوَى تَاقَتْ إِلَيْهِ الْحَدَائِقُ^(٣)
عَلَى حَيْنِ رَاقِ النَّاضِرِينَ بُسُوقُهُ رَمْتَهُ سَهَامٌ لِلْعَيُونِ رَوَاشِقُ^(٤)
مُحَمَّدٌ إِنْ الصَّبْرُ فَيْكُ مُصَارِمٌ مُحَمَّدٌ إِنْ الْوَجْدُ فَيْكُ مُصَادِقُ^(٥)

(١) مضاضته : آله .

(٢) الوافى ٣٩١/٢ .

(٣) توى : هلك .

(٤) بسوقه : ارتفاع شأنه .

(٥) مصارم : مقاطع .

وتالله ما لي بعد عيشك لذة ولا راقني مرأى لعيني رائق
فإن ألفت فالشخص للعين مائل وإن أستمع فالصوت للأذن طارق
وإن تفرع الأبواب راحة قارع يطير عندها قلب لذكرك خائف
فيا واحدا قد كان للعين نورها وكل ضياء بعد بُعدك غاسق^(١)

وهو يبكي ابنه ، يقول شباب هلك شابت عليه الرؤوس وغصن ذبل كانت الحدائق النضرة تنوق إليه ، وكان الناظرون قد راقهم شبابه وذكاه ، وكأنما رمتهم سهام للعين سريعة النيل ممن ترميه ويقول له إنني لا أستطيع فيك صبرا ، وإن الحزن فيك لا يفارقني ، ولم أعد أجد في عيش بعدك لذة ولا عاد يروقتي شيء يعجب العين . وإنك لتملأ كل ما حولى ، فإن ألفت أشعر كأن شخصك مائل أمامي ، وإن أستمع أشعر كأنني أستمع صوتك ، وإن يفرع الأبواب أحد أشعر كأنك أنت الذى يفرعها فيخفق قلبى ويطير ، كأنه يريد أن يلقاتك . ويقول إنه كان نور عينه ، فأصبح كل شيء بعده مظلم لا يراه . ويقول أبو بكر بن شبرين السبتي المتوفى سنة ٧٤٧ للهجرة يؤمن العالم الجليل مواطنه ابن هانيء وقد استشهد فى حصار جبل طارق سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م^(٢) :

قد كان ما قال البريد فاصبر فحزنك لا يفيد
أودى ابن هانيء الرضا فاعتادنى للثكل عيد
بحر العلوم وصدرها وعميدها إذ لا عميد
قد كان زينا للوجود دقيه قد جمع الوجود
العلم والتحقيق والوثيق والحسب التليد
أودى شهيدا باذلا مجهوده نعم الشهيد
فلئن بليت فإن ذكرك رك في الدنيا غرض جديد
وتعهدتك من المهيب من رحمة أبدا وجود

وهو يخاطب نفسه قائلا : قد كان حقا ما قال البريد من استشهد ابن هانيء ، فلتصبر ، فالحزن لا يفيد فقد استشهد ابن هانيء الذى كان تمثالا للرضا والقناعة ، فنزل بي من فقدته ما يعتادنى من فقد الإخوان والأحباب من حزن ، ولقد كان للعلوم مجرا لا يسير غوره وإماما أو عميدا لا يماثله عميد ، بل لقد كان زينا للوجود جميعه ، وكأنما جمع فيه الوجود ما شئت من علم وتحقيق وكتابة للوثائق الشرعية مع الحسب القديم الأصيل ، وقد توفى شهيدا باذلا

(٢) النبوغ المغربى ٢٧٧/٣ والوفاء ٤٥٨/٢ .

(١) غاسق : مظلم .

روحه فى جهاد أعداء الدين ، فنعمت الوفاة ونعمت الشهادة ، ولئن بلى جسده فإن ذكره
ستظل تتجدد خالدة . ويدعوه ربه أن يتعهد برحمته وكرمه ، إنه نعم الرحيم الكريم . وفى
النبوغ المغربى للشيوخ القصار فى رثاء أبويه مرثية ، يقول فيها^(١) :

زُرْ والديك وقفْ على قَبْرَيْهِمَا فكأننى بك قد نُقلتَ إليهما
كانا إذا ما أبصرا بك عِلَّةً جَزَعاً لما تشكو وشقَّ عليهما
كانا إذا سمعا أُنينَكَ أسبلاً دَمْعِيهما أسفاً على خَدَيْهِمَا
وتمنياً لو صادفا لك راحةً بجميع ما يحويه مُلكُ يَدَيْهِمَا
بُشْراك إن قَدَمْتَ فعلا صالحا وقضيتَ بعض الحق من حَقِّهِمَا
وقرأتَ من آى الكتاب بقدر ما تستطيعه وبعثتَ ذاك إليهما

وهى مرثية للأبوين فريدة فى العرية ووصية لكل ابن توفى أبواه أن يزور قبريهما فإنه
موشك على اللحاق بهما ، ويقول لكل ابن إنهما كانا عطوفين عليك عطفًا لا حدَّ له ، فكأننا
إذا رأوك مريضاً تشكو جَزَعاً لشكوك جَزَعاً ما مثله جَزَع ، وإذا سمعا أُنينَكَ من علة ذرفا
دموعهما على خَدَيْهِمَا مدرارا ، وتمنيا لو أُتيحت لك راحتك بجميع ما يملكون فى دنياهم .
وبُشْراك بما سينالك من جزاء ربك إن عملت فعلا صالحا وقضيت بعض ما لوالديك من
حقوق ، وأول حق لهما أن تقرأ ما تستطيع من آيات القرآن الكريم وتهديه إلى روحهما ،
ليتقبَّلَهما الله قبولاً حسناً . ويقول ابن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٩ م فى العصر
العلوى يرثى سيدة فاضلة من أهله^(٢) :

سَقَى الرحمنُ قَبْرًا ضَمَّ شَخْصًا تَسْرِيلُ بالمكارم وارْتَدَّاهَا
ونَضَّرَ مَضْجَعًا لِفَتاةٍ صِدْقٍ حَوَى غُرُرَ الفضائل إذ حواها
لقد كانت تحضُّ على المعالى وتندب للمكارم من أباهَا
والبسها المنون حُلَى كسوفٍ فهلَّا فَضْلُها الوافى حَمَاهَا
فكم أحييت مواهبها ككيًّا أحلَّتْه النوائبُ فى حِمَاهَا
وكم ربَّيتْ بِأَتَمِّها يَتِيمًا قلَّتْهُ أُمُّه حتى سَلَاهَا
لئن ماتت فما ماتت حُلَاهَا وإن أودَّتْ فما أودى عُلَاهَا

وابن زاكور يدعو الرحمن لقبر هذه السيدة بل الفتاة الكريمة التى لبست حلل المكارم أن
ينزل عليه غيث الرحمة ، وينضَّرَ مضجعها ويملأه رونقا ، إذ هى فتاة صدق وفضائل عظيمة ،
ولقد كانت تحض كل من حولها على المعالى والأعمال السامية ، وقد طوى الموت شمسها

(١) النبوغ المغربى ٢٨٠/٣ .

(٢) النبوغ المغربى ٢٩٩/٣ .

الساطعة ، ولم يحمها فضلها ولا كرمها مما نزل بها من كسوف ، ولئن ماتت فكم أحييت مواهبها وعطاياها تَعَسًا وأُنْقَذَتْهُ مما يغمره من كآبة وهم ، وكم حَنَّتْ على يتييم ورعته حين نبذته أمه ، وحقا إن ماتت فما مات ما كان يزيناها من أفضال وسمو لا نظير له . وفى زيارة مقبرة يقول الطبيب بن مسعود المرينى المتوفى سنة ١١٤٥ هـ / ١٧٣٣ م^(١) :

أَتَيْتُ الْقُبُورَ أَذَاوَى بِهَا	قَسَاوَةَ قَلْبِي الَّتِي أَجِدُّ
وَقَمْتُ أَسْأَلُ عَنْ أَهْلِهَا	وَهِيَّاتَ لَا خَبْرَ يَوْجِدُ
رَأَيْتُ مَصَارِعَهُمْ عِبرَةً	تُذِيبُ حُشَاشَةَ مَنْ يَشْهَدُ
أَقَامُوا قَلِيلًا وَقَدْ رَحَلُوا	وَغَابُوا وَبِالْعَوْدِ مَا وَعَدُوا
دَعَاهُمْ عَلَى الرَّغْمِ دَاعِي الرَّدَى	فَلَبَّوهُ حِينَ انْقَضَى الْأَمَدُ
وَقَدْ هَدَمَ الْمَوْتُ لَذَاتَهُمْ	وَعَبَّرَ عَيْنُهُمْ الْأَرْغَدُ
وَحَلَّوْا بَطُونَ الثَّرَى تَحْتَهُمْ	تَرَابٌ وَفَوْقَهُمْ جَلَمَدُ

وهو يقول إنه أتى القبور يداوى بها قساوة قلبه ، وأخذ يسأل عن أهلها ، ولا نبأ ولا خبر عنهم ، ويقول إن مصارعهم عبرة لمن يفكر فيهم حتى لتذوب روحه أَسَى ، فقد أقاموا فى دنيائهم ورحلوا عنها وغابوا دون وعد بالرجوع أو الإياب ، وقد دعاهم داعى الهلاك فَلَبَّوهُ حين انقضى الأجل ، وقد أتى الموت على لذاتهم ، وبُدِّلَ عيشهم الرغد الهنىء وحلوا بطون الثرى ، تحتهم تراب وفوقهم صخور ، فحرى بالإنسان أن يعتبر ويتعظ . ولعل مصباح الزرولى المتوفى سنة ١١٥٠ للهجرة فى تأييد الفقيه جسوس الشهيد^(٢) .

حَلٌّ بِالْدِينِ يَا لِقَوْمِي بِلَاءٌ	أُحْجِمْتُ دُونَ وَصْفِهِ الشُّعْرَاءُ
قُتِلَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ الْأَرْضِ ظُلْمًا	فَبِهِ لِلْإِسْلَامِ حَقُّ الْعِزَاءُ
قَتَلُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ كَانَ أَسْتَا	ذَا أَعَزَّتْهُ السَّنَةُ السَّمْحَاءُ
قَتَلُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ كَانَ لِلشَّرِّ	عَ حُسَامًا تَهَابَهُ الْأُمَرَاءُ
قَتَلُوهُ أَنْ كَانَ لِلْحَقِّ قَوًّا	لَا وَمَا إِنْ تَضَلَّ الْأَهْوَاءُ
يَا لَهَا مِنْ مَصِيبَةٍ سَارَ فِي الْأَر	ضِ وَفَوْقَ السَّمَاءِ بِهَا الْأَنْبَاءُ
عَمَّتِ الْمُسْلِمِينَ رُزْءًا فَأَضَحَّتْ	كُلَّ عَيْنٍ مِنْهُمْ غَرَاهَا الْبِكَاءُ

والزرولى يجعل موت الفقيه جسوس بلاء حل بالدين الخفيف ، فقد قتل ظلما أفقه الأرض وأعلمها ، وإن الإسلام ليعزى فيه . ويقول إنهم قتلوه ، إذ رأوه يحمى الشرع والسنة النبوية ، وكان يقول الحق ولا يخشى فيه أحدا . ويقول ما أعظمها مصيبة سارت بها الأنبياء وطارت

(١) التبوغ المغربى ٢٩٨/٣ .

(٢) التبوغ المغربى ٢٨٤/٣ .

كل مطار فى الأرض وفى السماء ، ويقول إنها فاجعة عمت المسلمين وملأت عيونهم بالدموع مدرارا . وتتوقف قليلا لتحدث عن شاعرى الرثاء : ابن شعيب الجزنائى وأبى على اليوسى .

ابن^(١) شعيب الجزنائى

هو أحمد بن محمد بن شعيب الجزنائى ، منشؤه ومرياه فى مدينة تازا ، ووفد على مدينة فاس فعُرف فضله ، والتحق بدواوين أبى سعيد المربنى ثم ابنه أبى الحسن ، وكان بين العلماء الذين رافقوه فى فتحه لتونس ، وبها توفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م ، وكان مثقفا ثقافة واسعة بعلوم الأوائل ، وحذق الطب والفلك والكيمياء والصيدلة ، وفيه يقول ابن مرزوق : « أبو العباس أحمد بن شعيب الفقيه المشارك التعالمى الفاضل الطبيب الأديب النباتى النخبة ، أحد فضلاء وقته ونبلأه زمانه ، طبقة عالية فى قرض الشعر وإمام فى التعاليم (علوم الأوائل) وواحد فى المعرفة بالأشجار والنبات » . وفى الإحاطة أنه كان يحفظ عشرين ألف بيت للمحدثين وأنه تسرّى جارية رومية اسمها صبح من أجمل الجوارى حسنا فأدبها حتى أحسنت العربية ونظمت الشعر وكان شديد الحب لها وتوفيت وكان بعد وفاتها لا يرى إلا فى تأوه دائم ، وله أشعار بديعة فى رثائها ، ومن قوله فيها :

أعلمت ما صنع الفرا	قُ غداة جدَّ بها الرفاق
ووقفت منهم حيث لل	نظرات والدمع اتساق
سبقت مطاياهم فما	أبطأ بنفسك فى السباق
أولى بجسمك أن ير	قُ ودمع عينك أن يُراق
أما الفؤاد فعندهم	دعه ودعوى الاشتياق
واها لسالفة الشبا	ب مضت بأيامى الرفاق
أبقت حرارة لوعة	بين الترائب والتراق

وهو يقول لمخاطبه أعلمت ما صنع فراق « صبح » بى غداة أسرع بى الرفاق ، لقد وقفت منهم أفكر فى صاحبتي وأطيل النظر وعيناي تترقرقان بالدموع ، وعرفت أنها تركننى إلى غير أيا ب فأول بجسمى أن يضنى صبابة بها وأولى لعينى أن تسيل دموعها سبلا لا ينقطع ، أما الفؤاد فعندهم ، ودعه ، وما أشد حسرتى على أيام الشباب السالفة التى ذهبت بما كنت فيه من متاع ولم تبقى لى إلا حرارة لوعة فى صدرى بين الترائب والتراقى لا تبرحنى ، ويكى صبحا فى مرثية أخرى قائلا :

٣٧٥ والوافى ٢/٤٢٤ والتبوغ المغربى ١/٢٣٧ ،
٧٤/٣ ، ٢٧٧/٣ .

(١) انظر فى ترجمة ابن شعيب الإحاطة للسان الدين
بن الخطيب ١/٢٧٢ ونيل الابتهاج للشبكي ص ٦٨
والمسند فى ترجمة أبى الحسن المربنى لابن مرزوق ص

يا صاحبَ القبرِ الذى أعلامه درستَ ولكنْ حبه لم يدرُسِ
ما اليأسُ منك على التصيرِ حاملي أياستنى فكأنتى لم أياسِ
لما ذهبتِ بكل حُسنٍ أصبحتِ نفسي تعانى شجْو كل الأنفسِ
يا صبحُ أيامى ليالٍ كلها لا تنجلي عن صبحكِ المتفسِ

وهو يخاطب صاحبه قائلاً إن ما حول قبرك من معالم درست وأمحت ولم يدرس حبك ولم ينمح فى قلبى ، وإن اليأس منك ومن لقائك لا يحملنى على التصير ، وقد أياستنى من لقائك وكأنتى لم أياس ، ولما ذهبتِ بكل حسن وجمال أصبحت كأنتى أحمل أحزان كل المحبين الذين غادرتهم كل محبوباتهم الحسنات ، ويقول لها إن أيامى كلها بعدك أصبحت كأنها ليل متصل لا يتنفس ولا يشرق فيه صباح . ويخاطب قبرها منشدا :

يا قبرَ صبحٍ حلَّ فيه لك لمهجتى أسنى الأمانى
وغدوت بعد عيائها أشهى البقاع إلى العيانِ
أخشى المنية إنها تقضى مكانك عن مكائى
كم بين مقبورٍ بنفا سَ وقابرٍ بالقيروانِ

وهو يذكر لقبر صبح إنه حلَّ فيه أجمل الأمانى - كانت - لمهجته وروحه ، ولقد أصبحت بعد عيائها أشهى البقاع إلى العيان والمشاهدة ، وإنى لأخشى الموت أن يباعد بين مكائك ومكائى ، ويقول إنها توفيت بفاس وكان فى القيروان مع أبى الحسن المرنى فى رحلته ، ومن رثائه لصاحبه قوله :

يا غائبا فى الضمير ما برحا دانى محلُّ الهوى إذا نرَحا
لم تضر الصبرَ عنك جارحة ولا فؤادى لسلوة جَنَحا
مُستغِيرُ المزنِ فيك أدمعه يظلُّ يكيك كلما سَفَحا
ولا أرى البرق عاد مبتسما بعدك بل زندُ شوقه قدحا
وما تغنى الحمام من طربٍ بل يعلن النوحَ كلما صدحا

وهو يقول لصاحبه إذا غبت ونزحت لا تزالين دائية منى ولا يزال محل هواك قريبا من نفسى ، ومعاذ الله أن تضر الصبر عنك جارحة أو أن يجنح فؤادى إلى سلوان أو عزاء . وإنه ليطلب إلى المزن أن تسيل حتى تفيض أدمعه ويظل يكيك غيظها ، وإنه ليرى البرق فيه كأنه زند شوقه يقدح نارا وشرارا ، ويقول إن الحمام لا يتغنى من طرب أو فرح وإنما ينوح كلما صدح نوحا متصلا . وظل مأتَم صاحبه صبح قائما وهو ينوح فيه وينديها حتى أنفاسه الأخيرة .

أبو علي^(١) اليوسى : الحسن بن مسعود

أهم شعراء الزاوية الدلائية ، ولد سنة ١٠٤٠ هـ/ ١٦٣١ م ، ونشأ نشأة متواضعة ، وشغف بالعلوم الإسلامية واللغوية ، ورحل فى طلبها وتعددت رحلاته إلى مراكش وسوس ودرعة وسجلماصة . وفى نحو العشرين من عمره استقر فى الزاوية الدلائية واختلف إلى حلقات علمائها يتزود منهم ، حتى إذا شهدوا له بنبوغه وتفوقه تصدر للتدريس ، وظل ناعما فيها بالتدريس إلى سنة ١٠٧٨ هـ/ ١٦٦٨ م ، وهى السنة التى استولى فيها السلطان الرشيد العلوى على الزاوية الدلائية بعد هزيمة أهلها أمامه ، وقد أخذ كل ما كان فيها من مال وسلاح وكل ما فى الخزائن من الكتب ، وأمر شيوخها: اليوسى وغيره بالرحيل إلى فاس ، وهدمها ولم يبق منها بقية . وأخذ اليوسى يحاول استعادة مكانته العلمية فى فاس ، وأخذ يناله غير قليل من الشهرة ، وأقبل على دروسه الطلاب وشاعت مؤلفاته . ونزل مراكش بأخرة من حياته وتصدر فيها للتدريس ، وحظى برضا حكام الدولة العلوية وخاصة السلطان إسماعيل . وأدى فريضة الحج وعاد منه ليسلم روحه إلى باريه سنة ١١٠٢ هـ/ ١٦٩١ م . وكان شاعرا بارعا ، وله ديوان شعر مطبوع يشهد له - كما يقول الأستاذ ابن تالوت - بمكانة ممتازة فى قرض الشعر الجزل وفى أسلوبه الأخاذ بسحر بيانه الباهر بطول نفسه . ومن أهم قصائده رائية طويلة رثى بها الزاوية الدلائية ، وهو يستهلها بقوله :

أَكْلَفُ جَفَنَ الْعَيْنِ أَنْ يَنْثُرَ الدَّرَا	فِيأْتِي وَيَعْتَاضُ الْعَقِيقَ بِهَا جَمْرًا ^(١)
وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَكْتُمَ الْوَجْدَ سَاعَةً	فَيَفْشَى وَإِنْ اللَّوْمُ آوَنَةٌ أَغْرَى
وَكَانَتْ عَيُونُ الْحَادِثَاتِ غَوَافِلًا	زَمَانًا وَخَطْبُ الدَّهْرِ كَانَ بِنَا غَرًّا ^(٢)
عَدَتْ غَذْوَةً أَيْدَى الْحَوَادِثِ فَاخْتَلَتْ	خَلَاهَا فَعَادَتْ بَعْدَ نَضْرَتِهَا غَرًّا ^(٣)
وَأَبْدَلْنَ مَانُوسَ الدِّيارِ وَأَهْلَهَا	بُوحَشٍ وَحَوَّلْنَ الْأَهْلِيلَ بِهَا قَفْرًا ^(٤)
فَلَا جَفَنَ إِلَّا وَهُوَ مُخَضَّرٌ عَلَى الْقَدَى	وَلَا عَيْنَ إِلَّا مِنْ نَجِيعِ الشَّجَا حَمْرًا ^(٥)

وهو يقول إنه كلف عينيه أن تنثر لآلىء الدموع على الزاوية الدلائية فأبت إلا أن تنثر دموعا كالعقيق الأحمر بل لكان العقيق استعاض بها جمرا مشتعلا ، ويسألها أن يكتم الوجد والحزن لحظة أو لحظات فيفشيان همه وغمه ، وكان اللوم يغرى على الإفشاء أكثر فأكثر . وكان الأحداث كانت غافلة عنها ، وكان خطب الدهر كان غافلا بدوره ، وإذا أيدى الحوادث تأتى

(١) غرًا : غافلا

(٢) اختلت : قطعت . الخلا : النبات الرطب .

(٣) الأهيل : المأهول بالسكان .

(٤) النجيع : الدم . الشجا : الهم والحزن .

(١) انظر فى ترجمة اليوسى وشعره : عبقريه اليوسى للدكتور عباس الجراي والزاوية الدلائية للدكتور محمد حمى ص ٩٧ وكتاب الشعر الدلائى لعبد الجواد السقاط (انظر الفهرس) والنبرغ المغربى ٢٨٥/٣ والوافى ٧٤٠/٣ .

(٢) العقيق : حجر كريم أحمر .

عليها وعلى ما حولها من الكلاً والنبات فإذا هي أرض جرداء بل لقد أصبحت قفرا ، وأبدلت بأهلها الناعمين وحوشا ، ولا جفرا إلا وهو مليء بالقذى ولا عين إلا وهي من الحزن حمراء كالدم . ويكي ما كان فيها من رياض وغير رياض منشدا :

رياض إذا أبصرتها ونشقتها
فمن لى بواديهما إذا فاح رنده
ومن لى بروضات يفوق ضياؤها
وهل نفحة تكفيني المسك فائحا
وهل وقفة بين الطلول التي قضت
هنالك إخوان الفؤاد وفية
وننأ عجالا عنهم مثلما نأى
بها هامت الأرواح من قبل خلقنا
فلا تذكرن نجدا ولا تذكرن شجرا^(١)
ومن لى بمرعاها إذا أطلع المشرأ^(٢)
على الشمس حسنا كلما ابتهجت زهرا
وهل شربة تكفيني الشهد مستمرا^(٣)
صروف الليالى فى معالمها نذرا
هم للحشا خمر فما يطلب الخمر
أبو صبية عنهم إذا يمم القبرا
ومن بعد ما كنا وإذا نبلغ الحشرا

وهي رياض إذا أبصرتها ونعمت بشذاها الذكي لم تعد تذكر ديار نجد الحبيبة ولا ديار الشجر بجوار حضرموت ، ومن لى بواديهما إذا سطعت رائحة شجر الرند فيه ، ومن لى بمراعيها حين تنبت نباتها الأخضر الجميل ، ومن لى بروضات بهيجة الزهر بها وإن ضياءها ليفوق ضياء الشمس بهاء وحسنا ، وهل نفحة منها كالمسك فائحا وهل شربة فيها كالشهد أستطيع أن أنعم بها ؟ . لقد أصبحت طلولا ، ويتمنى وقفة بطولها حيث كان إخوان ، حديثهم كأنه الخمر فى لذتها ونشوتها ، ولقد بعدنا عنهم سريعا كأب فارق صبيته عجلا قاصدا قبره ، ويقول إن أرواحهم بها هامت قبل خلقهم وبعده ، وسيظلون يهيمون بها إلى يوم الحشر . ويفضى إلى حشود من الحكم يدوها بأن الدهر لا يبقى على أحد ، وكمن عظيم كان يعتلى حصنا شامخا هوى به وكمن ملك أصابه بالأرزاء وقهره وأذله . وقدما دارت صروفه على دارا ملك الفرس وأذل بنى ساسان بعد عز لا يماثله عز ، وجر ذيله على الغساسنة وملوك الحيرة وخلفاء بنى أمية وبنى العباس والمعتد بن عباد المنفى إلى أعماق بمراكش ، فهل يشك أحد فى صولات الدهر ؟ . إنه دائما يصل حتى على المحبين إذ يحيل الوصل بينهما هجرا . ويقول :

فلا تركن للدهر إن نعيمه
ملول فما باقى على عهد خلقة
ولا تأمن أبناء إن تحبوا
متى ما ارتجوا رغبا منك تقربوا
ظلال سحاب يمسح السهل والوعرا
ولا مستديم فيك يسرا ولا عسرا
إليك فمن يشبه أباه فقد برا
إليك وأبدوا خالص الود والبرا^(٤)

(٣) مستمرا : مرثا سائغا .

(٤) رغبا : أمنية .

(١) الشجر : إقليم على المحيط بجناب عمان .

(٢) المشر : النبات الأخضر .

وَأَخْفُوا ذَمِيمًا كَانَ فِيكَ وَأَظْهَرُوا جَمِيلًا وَقَالُوا ذُو مُحَاسِنٍ لَا تُمَرِّى^(١)
وَأَنْ لَمْ يَرْجُوا مِنْكَ خَيْرًا رَأَيْتَهُمْ جَفَاءً وَإِعْرَاضًا يُولُونَكَ الظُّهْرَ
إِذَا مَا رَأَوْا ذَا الْوَفْرِ لَا ذُوًا بِذِيلِهِ وَإِنْ لَمْ يَنَالُوا مِنْ سَحَابِهِ قَطْرًا
وَأَنْ بَصُرُوا بِالْمَلَقِ اهْتَرَأُوا بِهِ وَمَدُّوا إِلَيْهِ طَرَفَهُمْ نَظَرًا شَرًّا^(٢)

وهو ينصح من يقرؤه أن لا يعول على الدهر ويركن إليه . فإن نعيمه كظل سحاب لا يلبث أن يزول ويمحى ، وهو ملول الطبع لا يبقى على شئمة ، ولا يستديم فيك ما يمنحك من يسر ، وحتى العسر أيضا لا يديمه ، فكم من معسر فتح عليه أبواب اليسر . ويقول إن أبناءه من الناس لا يؤمنون حتى لو تحببوا إليك وأظهروا المودة ، فهم جميعا غادرون ، ويذكر أنهم إذا رجوا منك جميلا تقربوا إليك وتظاهروا لك بالود والبر الصافى ، ونفوا عيوبك وأظهروا محامدك وقالوا إن محاسنك لا تجحد ، وإن لم يرجوا منك صنع جميل رأيت منهم جفاء وإعراضا عريضا ، أما الغنى ذو الوفرة فإنهم يلوذون به حتى لو لم يصيبوا منه قطرة من خير ، وأما المملق الفقير فإنهم يهزءون به ويعرضون عنه مغاضين . ويستمر ناصحا قائلا :

وَأَنْ الْغَنَى بِالنَّفْسِ لَا اللَّبْسِ مَجْدُهُ فَمَا شَانَ دُرًّا كَوْنُ أَصْدَافِهِ كُذْرًا
وَأَنْ الْغَنَى مَا أَوْرَثَ الْمَرْءَ فِي الْوَرَى حَامِدًا فِي الدُّنْيَا وَعَلْيَاءَ فِي الْآخِرَى
وَأَنْ تُعَوِّزَ النُّعْمَى فَجُدْ بِبِشَاشَةٍ فَخِيرُ الْقَرَى أَنْ تَبْذُلَ الرَّحْبَ وَالْبِشْرَا
وَمَنْ لِلْهَوَى الْقَى الْقِيَادَ فَقَدْ هَوَى وَلَوْ أَنَّهُ فِي الْمَجْدِ قَدْ وَطِئَ النَّسْرَا^(٣)
وَمَنْ يَصْطَنِعُ عُرْفًا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَلَيْسَ بِلَاقٍ مِنْ جَزَاءٍ وَلَا شُكْرَا
وَمَنْ لَا يُجَنِّبُ قَوْلَهُ دَنْسَ الْخَنَا فَلَا يَمْتَعِضُ يَوْمًا إِذَا سَمِعَ الْهَجْرَا^(٤)
وَمَنْ يَدَّخِرُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَذَكَرَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ يَحْمَدُ السَّعَى وَالذُّخْرَا
وَمَنْ يَغْنُ بِالْمَوْلَى فَلَنْ يَغْدُمَ الْغَنَى إِذَا لَمْ يَجِدْ يَوْمًا لُجَيْنًا وَلَا نَضْرَا^(٥)

وهو يقول إن مجد الشخص بنفسه لا بلبسه وزيه ، ويضرب مثلا بأن الدر أو اللؤلؤ لا تشينه كدورة أصدافه ويذكر أن الغنى الحقيقي للمرء هو الذى يكسبه المحامد فى الدنيا والعلباء فى الآخرة ، وينصح قارئه إن لم يجد ما يبذل لضيوفه من القرى ، فخير منه أن يلقى ضيوفه بالبشر والبشاشة والترحيب وحسن اللقاء ، كما ينصحه أن لا يلقى قياده للحب ويخضع له فإنه يهوى به مهما بلغ من المجد والسؤدد ، ويقول إن من يقدم صنيعا أو جميلا إلى غير أهله فلن يقدموا له جزاء ولا شكورا ، ويذكر أن من لا يخلو كلامه من الألفاظ السيئة الذميمة لا يمتعض

الغاية .

(١) لا تمرى : لا تجحد .

(٤) الهجر : الكلام البذى النعيم .

(٢) النظر الشرر : النظر بمؤخر العين كناية عن الأزراء

(٥) اللجين : الفضة . النضر : يريد الذهب .

والغضب .

(٣) النسر : كوكب . وطىء النسر : كناية عن بلوغ

ولا يضيق صدره بما يسمع من الألفاظ القبيحة . وأعظم ما يدخره الإنسان لنفسه تقوى الله ، إذ يحمد الناس تقواه ويؤجر عليها خير أجر ، ويقول إن الغنى الحقيقي هو الغنى بحمد الله لا الغنى بالفضة والذهب . وإنما سقنا بعض آيات من هذه القصيدة ، وهي تشهد لصاحبها ببراعة فائقة فى الشعر ونظمه .

٤

شعراء الزهد والتصوف

(أ) شعراء الزهد

الزهد أساس كبير فى الدين الحنيف ، وزاهد الأمة الأول الرسول ﷺ ، إذ عاش عيشة تقشف وزهد فى متاع الحياة الدنيا ، وتبعه فى هذه المعيشة كثيرون من الصحابة ، وهم مع ذلك يكسبون ما يعولهم هم وأسراهم ، حتى لا يكونوا عالة وعثا على المجتمع . وأخذ كثيرون من التابعين يؤثرون هذا الزهد وما يتبعه من التقشف . وكان - ولا يزال - مما أضرم جذوته وعظ الوعاظ الكثيرين الذين لم يخل منهم بلد إسلامي ، فهم يندرون ويخوفون من عذاب الجحيم ، ويبشرون الأتقياء والصالحين بأن لهم عند ربهم الفردوس جزاء لرفضهم المتاع الدنيوى وإقبالهم على العبادة والنسك ابتغاء لما عند الله من الثواب والرضوان الأكبر .

والمغرب الأقصى مثله مثل البلاد الإسلامية كثر فيه الزهاد والعباد ، وكان مما عمل على كثرة الزهاد فيه والنسك الجبال الكثيرة التى كانت تتيح لهم العزلة عن الناس للعبادة كما تتيح لهم كثيرا من الثمار التى يقاتون بها ، ويحدثنا الحسن الوزان عن كثيرين منهم ، رآهم منهمكين فى العبادة لربهم على رءوس الجبال كالجبل^(١) الأخضر قرب آزمور ، ورأى فى قلعة أغمات ناسكا ومعه مائة من تلاميذه ، ويقول إنه نزل بضيافته ثمانية أيام . وأيضا مما ساعد على كثرة الزهاد هناك كثرة الملاجئ للعبادة ، تبنيتها لهم الدول المختلفة ، مع كثرة ما كانت تبنى لهم من الزوايا ، ومع كثرة ما كانت تبنى من مؤسسات المدارس مُلحقة بها مباني للشيخ والطلاب وتكفيهم مئوتهم ، فكان كثيرون منهم يتحولون زهاد ونسكا .

وذكرنا فى حديثنا عن الزهد فى فصل المجتمع المغربى أسماء طائفة من الزهاد الأولين قبل عصر المرابطين ، وفيه وبعده . وبهتاتنا الآن أن نعرض لشعرائهم ، وربما كان أهمهم فى عصر المرابطين السلالمجى عبد الله بن عثمان المتوفى - كما فى روض القرطاس - سنة ٥٦٤ للهجرة وهو إمام أهل المغرب فى علوم الاعتقاد ، وأنشد له صاحب الوافى هذه الأبيات^(٢) :

(١) وصف إفريقيا للوزان ص ١٦٩ .

(٢) الوافى ١ / ٣١٥ .

إذا العلمُ لا تَغشَى غرائبه قلبي ولا شاقني منه إلى المنهل العذب
ولا أنا ممن جاوز الدَّرْبَ ناهضاً إليه ، ولا أرضى مقامى من ربي
ولا كان حظي منه إلا حكايةً على الناس أتلوها فحسبى إذن حسبي
ولا تَرْضَ بالخطِّ الخسيسِ سفاهة فمثلك مَنْ قد حلَّ في المنزل الرَّحْبِ
تجافوا عن الدار التي أصبحوا بها على غُرْبَةٍ واستوطنوا حضرة القرب
وإن كان لا ينجيك إلا ركوبها فماذا التجافى عن مجاورة الرُّبِّ

وهو يقول إن العلم الذى يلوكه لطلابه من الفقه وغير الفقه لا يتغلغل فى قلبه ولا يدفعه إلى منهل النسك العذب ، ويقول إبنى بعيد عن درب النساك وإنه لا يرضى مقامه من ربه وما العلم الذى يلقيه الشيوخ على الطلاب إلا روايات عن الأسلاف ، فلا ترض بهذا العلم وحده واطلب العلم - أو بعبارة أدق - النسك الذى يحياه العباد النساك الذين انصرفوا عن الدار الأولى : الدنيا إلى حضرة القرب من الرب . ولعل فى هذه الآيات ما يدل على أن حركة الزهد فى المغرب الأقصى كانت إرهاباً لما سيشيع فيه من الحركة الصوفية . ومن كان يتزع إلى الزهد فى عصر المرابطين القاضى عياض ، وله يقول مبتهلاً إلى ربه (١) :

إليك بَسُوتُ بذنبى فاغفرْ خطايايَ ربي
وَأَمُنْتُ عَلَى بلطفٍ تَجَبَّرَ بِهِ صَدْعُ قلبي
فقد رَكِبْتُ ذُنُوباً سَوَّدَتْ مِنْهُنَّ كَتَبِي
وَجِئْتُ أَطْلُبُ تَوْباً إِذْ ضَاقَ بِالذَّنْبِ رَحْبِي
فَأَقْبَلْتُ بِفَضْلِكَ تَوْبِي واغفرْ بِرُحْمَاكَ ذَنْبِي
وعافنى واعفُ عَنِّي فَأَنْتَ يَا رَبُّ حَسْبِي

وهو يعترف لربه بأنه يرجع إليه مذنباً آملاً فى أن يغفر له خطاياها ، إنه غفار الذنوب ، ويدعو أن يمنَّ عليه بلطفه المعهود حتى يجبر به ما حدث فى قلبه من صدع ، فقد ارتكب ذنوباً كثيرة ، سَوَّدَتْ كَتَبَهُ التى سيتلقاها يوم القيامة . ويقول إنه جاء ضارعاً إلى ربه يطلب منه أن يقبل توبته ، ويغفر ذنبه برحمته ، فهو أرحم الراحمين . ويسأله العافية والعفو عنه ، فإنه ربه قابل التوب وغافر الذنب . ونمضى إلى عصر الموحدين ، ونقر أعند القاضى عمر الفاسى المار ذكره فى الغزيرين (٢) :

أَيُّهَا المغتر بالزَّمنِ فى هَوَاهُ خَالَعَ الرَّسَنِ
حَبُّكَ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا فَتَنَةٌ عَمَّتْكَ بِالْفَتَنِ
ظَلَّتْ وَالْحَالَةَ شَاهِدَةً عَاكِفَا مِنْهَا عَلَى وَثَنِ

(١) التعريف بالقاضى عياض ص ٩٧ .

(٢) الوافى ١ / ١٧٩ .

فَاهْجُرْنَهَا إِنْ زَيَّنَتْهَا زِينَةٌ شَانَتْ وَلَمْ تَزِنْ
خَدَعْنَا إِنَّهَا قَبَحَتْ باطنا فى ظاهرٍ حَسَنٍ
وَلتَقْدُمْ مَا تُسَرُّ بِهِ قبل طول البَثِّ والحَزَنِ
فَكُنْ أَخْرَاكَ مَا يَرَحَتْ وكُنْ دُنْيَاكَ لَمْ تَكُنْ

وهو يخاطب الذى غره الزمن وغرته الأيام ، فأكب - غير مُرْعٍ ولا مزدجر - على اللهو والمجون خالغ الرسن ، والكلمة كناية عن إكبابه عليهما ، ويقول له إن حبك الدنيا ومتاعها وزينتها وكل ما يعجبك فيها فتنة أصابتك بما لا يحصى من فتن الدنيا ، ويذكر له أنه ظل عاكفا على الدنيا عكوف عابد الوثن عليه ، وينصحه أن يهجرها وأن لا تغرّه زينتها ، فهى زينة قبيحة تشين صاحبها ، وقد خدعنا ظاهرها البراق ، وهى فى غاية القبح ، وإن واجبك أن تقدم إلى ربك ما تُسرُّ به فى المستقبل لا ما يحزنك ويملوك هما فى آخرتك ، فتلاف شأنك قبل مبارحتك دنياك إلى الدار الآخرة . ويقول أبو الريح الموحدى المترجم له بين العُزَلين يخاطب نفسه^(١) :

يا نفسُ حَسْبُكَ مَا فَرَطْتَ فَازْدَجِرِي عن الذنوب فإن القَبْرَ مَثْوَاكَ
خَافِي الْإِلَهَ لِمَا قَدَّمْتَ مِنْ زَلَلٍ واعصى هواك فإن الله يَرَاكَ
إِنَّ الْهَوَى قَلَمًا تُجَلِّدِي هَوَادَتَهُ وهو الذى عن سبيل الرشد أقصاكِ
لَشَدُّ مَا تَعْلَمِينَ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا ما كان أخْرَاكِ بِالْأَجْدَى وَأَوَّلَاكِ
إِلَى مَ تَلْهَيْنَ عَنْ قَوْلٍ مَغَالِطَةٍ وتوقنين بأنى غيرُ أَفْئَاكِ^(٢)
أَصْنَعِي إِلَى فَمَا فِى الْأَرْضِ مِنْ أَحَدٍ ألقى إليه صريح النُّصْحِ إِلَاكَ
تَوْبِي إِلَى اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يَقْبَلُهَا واسعى بجهدك فى تحسين عُقْبَاكِ

وهو يقول لنفسه : يكفيك ما فَرَطْتَ من الذنوب ، وينبغى أن تقلعى عنها فإن مَثْوَاكَ الأخير القبر ، وخافى ربك لما قدمت من عثرات ، واعصى هواك فإن الله يراقبك ويعلم ما ارتكبت من الخطيئات ، وإياك وطاعة هواك لما يقدم لك من متاع ، فإنه هو الذى أضلك وأبعدك عن طريق الرشاد ، وما أعظم الفرق بين الضلال والهدى ، وما أحرأك أن تتمسكى بالهدى ، وحتى متى لا تسمعين لنصيحى وأنى لا أكذبك ، إنه جدير بك أن تصغى إلى وإلى نصيحى ، فإنك أقرب شئ إلى وليس فى الأرض من أسدى إليه النصيح سواك ، فتوبى إلى الله توبة حقة حتى يقبلها منك ، واعملى بجهدك على أن تحسنى عُقْبَاكَ وترضى ربك . ومن كبار الرهاد عمر بن محمد القيسى المراكشى الفاسى الأصل المتوفى سنة ٦٢٦ للهجرة وكان أديبا

(٢) أفاك : كذاب .

(١) الوافى ١ / ٢٤٩ .

بارع الكتابة طيب النفس نفاعا بجاهه وذات يده ، وكان شاعرا مجيدا ، وجمع دفنرا فيما نظم
فى التهجد وقيام الليل أجاد فيه الاختيار ، ومن نظمه فيه قوله^(١) :

ذهب الظلامُ وأنت جذعُ راقدُ وأتى الصباحُ وأنت صخرُ جامدُ
وخلتْ على الإظلام منك مناسكُ وخلتْ على الإصباح منك مساجدُ
وأولوا التهجد ليلهم ما منهمُ لله إلا رакعُ أو ساجدُ
وهجعتْ - يا مغرورُ - ليلك كله وعليك من عين الإله شواهدُ
فانظرْ لنفسك قبلَ حين مماتها إن المماتَ على البريئة وافدُ
وتذكرْ السمرَ البعيدَ وطوله من غير زادٍ والمجالُ فدافدُ^(٢)
واذكرْ نُشورك بعد موتك فجاةً وصحائفُ الأعمال منك تشاهدُ^(٣)

وهو يُهيب بالغافل عن نسك التهجد أن يقوم شطرا من الليل مصليا لربه مسبحا له ذاكرا ،
ويقول له إنك تنام طوال الليل كنجدع راقد ممدود حتى الصباح ، وكأنك صخر جامد لا حس
ولا حركة ، وتلك المناسك : مناسك التهجد خالية منك مساء ، وتلك المساجد خالية منك
صباحا ، وأصحاب التهجد يُخيون ليلهم بالركوع والسجود لربهم بينما أنت هاجع فى فراشك
أيها المغرور المذموم ، وإنه لحرى بك أن تنظر لنفسك وتعهدها بالتقوى قبل مماتك ، إذ كل
من عليها فاني ، وتذكر سفرك البعيد إلى يوم القيامة ورحلتك فيه دون زاد ، فى مجال مقفر :
واذكر بعثك بعد موتك وعرض صحائف أعمالك على ربك العلى القدير . وكان يعاصره وتوفى
بعده بعام واحد عام ٦٢٧ للهجرة ابن الزيات يوسف بن يحيى التادلى صاحب أول كتاب
تحدث عن زهاد المغرب الأقصى ومتصوفه وهو كتاب « التشوف لمعرفة أهل التصوف » وقد
اتسع فى تصويره لأهل التصوف ، إذ جعل كتابه - كما يقول فى مقدمته « يشتمل على أضراب
من أفاضل العلماء والفقهاء والعباد والزهاد والورعين وغير ذلك من ضروب أهل الفضل »
مما جعل تراجم الكتاب تتسع لتشمل الزهاد والمتصوفة وأهل الصلاح من العلماء والفقهاء ،
وبذلك نفهم كثرة التراجم فيه ، إذ بلغوا كما يقول مائتين وسبعة وسبعين شخصا ، ويقول إنه
سيخصه بمراكش وأعمالها ، غير أنه حين مضى فيه رأى أن يضم فيه كثيرين من بلدان المغرب
المختلفة . والكتاب مهم لأنه يعطى صورة واضحة عن أوائل زهاد المغرب ومتصوفه حتى
نهاية القرن السادس الهجرى مثل من سميناهم فى حديثنا عن الزهد فى المجتمع المغربى ، مثل
أبى الحسن بن حرزهم وأبى يعزى بن نور بن ميمون ، ويذكر بعض أشعارهم كهذه الأبيات
التي ذكرها لابن تاخميمست المتوفى سنة ٦٠٨ للهجرة .

(١) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى (٢) فدافد جمع فدافد : الغفلة .

(٣) نشورك : بعثك .

ولما ركبتم البحر نحوكم قاصدا ولم أر غير الله مالا ولا أهلا
دعوتكم بالإخلاص والموج طامح بصدق وداد لم يكن قبل معتلا
أيا منقذ الغرقى ويا ملهم التقى ويا صمدا يبقى إذا أذهب الكلأ
لوجهك ذل البر والبحر خاضع وحق لهذا الخلق أن يألف الذلا

وهو يتهلل لربه ذاكرًا أنه حين ركب البحر أسلم نفسه له ولم يعد يذكر أهلا ولا مالا
سواه ، وحين حاج البحر وهاجت أمواجه دعا ربه مخلصا صادق الوداد أن ينجيه ضارعا إليه
قائلا : يا منقذ الغرقى ليس سواك ينجى يا ملهم المتقين تقواهم ، ويا مقصودا يبقى بعد أن
يفنى كل من على الأرض ، لوجهك يا ذا الجلال ذلت الأرض وخضع البحر ، وحق للناس
أن يتذللوا لك تذلا ما بعده تذلل فأنت المنجى والمنقذ ومغيث المستغيثين .

ونلتقى في أواخر القرن السابع بعبد الحق بن إسماعيل وكتابه عن صلحاء منطقة الريف
المخاضية للبحر المتوسط شمال المغرب الأقصى ، وكأن كتابه عنهم يكمل كتاب التشوف لمعرفة
أهل التصوف الذى عني - فى الأعم الأغلب - بمنطقة مراكش كما أسلفنا ، وقد جعله فى
ثلاثة أقسام قسم عن المقامات الصوفية ، وقسم عن الخضر عليه السلام ، وقسم عرف فيه
بصلحاء الريف ، وهم عنده ستة وأربعون ترجم لهم ، وأتبع كل شيخ بأبيات يصف فيها زهده
أو تصوفه ، ومن قوله فى ترجمة سعيد المسطاسى يصف زهده وزهد أمثاله^(١) :

زهدوا يريدون النجاة وأصبحوا وطعامهم فى الأرض نبت يابس
مالوا عن الشهوات فى الدنيا فما لهم سوى التوفيق شئ حابس
فجئتهم من كل سهو سالم ولسانهم عن كل عيب نابس

فهم قد زهدوا فى الدنيا ومتاعها يريدون النجاة فى الآخرة من عذاب النار ، وطعامهم
مما تنبت الأرض من النباتات ، لا يفكرون فى لحوم ولا فى طعام مطبوخ ، فحسبهم ما يجدونه
على وجه الأرض من النبات ، وقد رفضوا الشهوات جميعا فى دنياهم ، ولا شئ يحبسهم
سوى عبادة ربهم ، وأذهانهم بريئة من كل سهو ولسانهم لا ينسب عيب . وبجانب هذه المقطوعة
من نظم عبد الحق بن إسماعيل مقطوعات تبدو فيها الروح الصوفية سنعود إليها فى حديثنا عن
التصوف ويلقانا أبو العباس الشريف السبتي المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة وقوله فى ثقته بربه^(٢) :

وثقت بالله ربى وحسبى الله حسبى
والله كافٍ وواقى دافع كل خطبى
ولست أخشى إذا ما وثقت بالله ربى
بلغت فيها مرادى مهنأ مع صحبى

وهو يقول إنه وثق بالله ربه ، وحسبه هذه الثقة فليس فوقها ولا بعدها ثقة والله كافيني وحاميني وواقيني ودافع عني كل خطب وكل بلاء أتعرض له ، ولذا لا أخشى أحدا ولا أخشى شيئا ، فقد وثقت بالله ثقة لا حد لها ، ثقة بلغت فيها كل مرادى وكل ما أؤمله في حياتي ، مما يحق لي أن أعتد بها مع صحبي الذين يثقون في ربهم . وثلثتني بئني عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن بجيش المتوفى سنة ٩٢٠ للهجرة ، وله في معارضة قصيدة ابن النحوى المذكور فى تونس^(١) :

اشتدنى أزممة تنفجى	قد أبدل ضيقك بالفرج
مهما اشتدت بك نازلة	فاصبر فعمسى التفريج يجى
مولاك ارغب فإجابته	للمضطرين على درج
وألح عليه بمسألة	فهو الجواد فسل ورج
أخلص فيما تدعوه وقل	يسر عسرى وأزل حرجى
لا حيلة لى لا قوة لى	إلا بك يا محي المهج

وهو مؤمل فى رآيه ولا يئأس أبدا ، ولذلك يقول أيتها الأزمة المارة بى اشتدى ومهما اشتدت فلا بد من الفرج وانحسارك عنى ، ويتجه إلى قارته ، فمهما اشتد بك خطب أو حادثة فادحة فلتصبر فعمسى الفرج يأتيك سريعا . واقصد مولاك بالسؤال أن يلفظ بك فإجابته للمضطرين قرية المنال ، ولتدعه وتلح عليه فى الدعاء ، إذ هو الكريم الذى لا حد لكرمه ، فسئل وكرر السؤال ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه ، وأخلص فى دعائك والزلقى إليه ، وقل رب يسر عسرى وأزل ما أنا فيه من حرج وضيق واكشف غمتى ، إنه لا حيلة لى ولا قدرة إلا بك يا محي المهج والأرواح ومنيث المضطرين المكروبين . ويقول أحمد دادوش مناجيا ربه^(٢) :

تستر العيب تغفر الذنب تعطى	تمنع العبد ، كل حكمك عدل
تجبر الكسر تبدل العسر يسرا	تكشف الضر كل ذلك بذل
لم تزل محسنا غنيا كريما	أنت هو الخالق المعز المذل
فقراء وأغنياء على البسا	ب وقوف لهم خضوع وذل

وهو يذكر لله صفاته الربانية ، فهو يسر العيب ويغفر الذنب ويعطى من غير حساب ويمنع لا راد له ، وكل أفعاله عدل مطلق ، إنه يجبر الكسر الذى لا يمكن جبره ، ويدل العسر يسرا ويكشف الضر ، وكل ذلك كرم ليس وراءه كرم ، وسبحانك ما أعظم شأنك لم

(٢) الوافى ٨٣٥/٣ .

(١) الوافى ٦٠٥/٢ .

تزل محسنا لعبادك غنيا جوادا ، فأنت الخالق المعز المذل ، وقد عم امتنانك وعمت عطايك كل الخلق ، وها هم فقراء وأغنياء يقفون ببابك خاضعين . ولأحمد بن عبد العزيز الهلالي في العصر العلوي المتوفى سنة ١١٧٥ هـ / ١٧٦١ م هذا الدعاء^(١) :

لك الحمدُ كلُّ الحمد يا راحمَ الضَّعْفِ ويا دائمَ الإحسان والرفق واللطفِ
لك الحمد ثم الشكرُ دونِ نهايةٍ على نعمٍ جَلَّتْ عن العَدِّ والوصفِ
إليك مَدَدْنَا الكفَّ كيما تُمِدَّنَا بما نرتجى يا مالك البسط والكفِّ
فعاكِ ودافعٍ وراحمٍ ياربُّ واكفينا بحفظك ما نخشى فقيرُك لا يكفى
وأبقي علينا السُّرَّ في كلِّ حالةٍ بفضلك في الدنيا والآخرة بلا كَشْفِ
وأعظم وأعزَّز - يا عزيز - جنابنا وحُطْنَا من الخذلان والضيم والخسفِ
وزدنا من الخَيْرَات فوق مَرَامنا . بفضلك - يامولَّى - تعالَى عن الكيفِ

وهو يضرع إلى ربه قائلا لك الحمد يا راحم الضعفاء ويا دائم الإحسان وما يطوى فيه من الرفق واللفظ ، لك الحمد والشكر الذي لا نهاية له على نعم أسبغتها على ، وهى تجلُّ عن أن تعدَّ أو توصف ، وإليك مددنا الكف داعين كى تعطينا ما نأمل يا مالك الإعطاء والمنع فامنحنا العافية وادفع عنا كل بلاء واحمنا منه يارب واحفظنا من كل ما نخشى وأدم علينا الستر فى الدنيا والآخرة ، وأعظم وأعزَّز حمانا وحطنا برعايتك من الخذلان والضيم والخسف وزدنا من طيبات الرزق فوق ما نريد بفضلك يا مولانا يا من تعاليت عن كل كيف وكل شبه بالمخلوقات . وأشعار الزهاد فى المغرب الأقصى طوال عصوره لا تكاد تحصى .

(ب) شعراء التصوف

التصوف - فى حقيقته - مبالغة فى الزهد والنسك وعبادة الله ، ولذلك يعدُّ كل ما ذكرناه من شعر الزهد مقدمة للتصوف ، فالتصوف مَنْ بالغ فى زهده وأخذ بركنين أساسيين من أركان التصوف وهما التوكل على الله والثقة فيه توكلًا وثقة لا حد لهما حتى ليهمل أمر معاشه وكسب قوته . ومن قديم أو بعبارة أدق منذ القرن الرابع أخذت تشيع فيه طريقتان : طريقة فلسفية يتعمق الصوفى بها فى الحب الإلهى حتى ليفنى فيه شاعرا بضرب من الاتحاد مع سيد المخلوقات على نحو ما هو معروف عن الحلاج فى القرن الرابع الهجرى ثم من تابعوه أمثال ابن عربى . ومن حين إلى حين يلقانا بعض هؤلاء الصوفية المتفلسفين على نحو ما أوضحنا ذلك فى الجزء الخاص بالأندلس ، وكان كثيرون من أصحاب هذا المنزع الأندلسيين ينزلون فى المغرب ، وهو ما هيا لظهور أمثال أبى مدين . غير أن هؤلاء فى رأى كانوا شذوذا على الطريقة السنية

(١) البوغ المغربى ٣٠٨/٣ .

التي اعتنقها صوفية المغرب الأقصى ، إذ شاعت فيه منذ القرن السابع الهجري الطريقة السنية الصوفية المعروفة لأبي الحسن الشاذلي . ونحن نجد مقدمات هذا التصوف السني القائم على محبة الله دون فناء فيها مع التوكل والثقة فيه المفرطين على السنة كثيرين من الشعراء . ولعل ذلك ما جعل ابن الزيات يتوسّع في كتابه « التشوف لمعرفة أهل التصوف » فيسلك فيه صلحاء المغرب وزهاده من العلماء والفقهاء الورعين ناظما لهم بين من ساهم أهل التصوف . وكانت كثرة الوعظ في المساجد لأيام الجمع وغير أيام الجمع من أهم العوامل - كما أسلفنا - في ازدهار الزهد ونزعة التصوف السني في المغرب ، ولذلك كثر في كتب التراجم نعت كثيرين بأنهم صوفية ونضرب مثلاً للوعاظ بابن الحجام محمد بن أحمد اللخمي المكناسي وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشي : « كان فاضلاً صالحاً زاهداً ذاهطاً من الأدب وقرض الشعر مال إلى طريقة الوعظ والتذكير فرأس فيه أهل عصره بحسن الصوت وغزارة الحفظ وإتقان الإيراد والصدق والإخلاص في وصاياه وتذكيره ، فنفخ الله به خلقاً كثيراً في بلاد شتى .. وله كتاب حفيظ في الوعظ سماه حجة الحفاظين ومحجة الواعظين في مجلدين ضخمين ، وله يصف نفسه ومحبته لربه التي تعد أس التصوف وجوهه^(١) :

غريبُ الوصفِ ذو علمٍ غريبٍ عليلُ القلبِ من حبِّ الحبيبِ
إذا ما الليلُ أظلم قام يبكي ويشكو ما يُكنُّ من الوجيبِ
يقطعُ ليله فكرياً وذكرًا وينطق فيه بالعجب العجيبِ
به من حبِّ سيِّده غرامٌ يجلُّ عن التطبُّب والطبيبِ
ومن يك هكذا عبداً محباً يطيب ترابه من غير طبيب^(٢)

وهو يقول إن وصفه وعلمه في حبه لربه غريب ، ويشكو في حبه من علة قلبه كما يشكو المحبون ، ويقول إنه يظل طوال الليل قائماً يبكي ويشكو من شدة حبه ولحيه ، وإنه لا يزال طوال ليله يفكر ويذكر ربه ، ويقول إن غرامه بربه لا ينفع فيه تطبيب ولا طبيب ، كما يقول إن من يحب ربه هذا الحب المفرط يطيب مكانه في حياته وفي قبره من غير طبيب . ووعظ بإشبيلية في الأندلس ، ويذكر بعض مستمعيه هناك أنه كان من استحكام تأثيره في الناس وانفعال القلوب لتذكيره بمقام تكلُّ العبارة عن وصفه ، ويقول : شاهدته في إشبيلية ، وقد ندبَ الناس إلى افتكاك أسارى لدى النصاري ، فتسارع الناس إلى بذل ما حضروهم ، وخلع كثيرون بعض ما كان عليهم من الثياب ، فعهدي بها قد تراكمت أمام منبره حتى كادت تحجبه عن الأبصار ، سوى ما وُعد به من الحاضرين ، وتجمّع من أثمان تلك الثياب مال جسيم .

ولو قال ، « تطب أثوابه » أو ما هو على رزقه لنفادى

هذا الخطأ .

(١) الذيل والتكملة ٢٦٧/١/٨ وما بعدها .

(٢) لاحظ ابن عبد الملك أن فعل الشرط في البيت

« يك » معجزوما وجوابه « بطيب » مرفوعاً

ويعقوب المنصور الموحدي المتوفى سنة ٥٩٥ للهجرة هو الذي جلبه إلى أهل حضرته مراکش ليستمعوا إلى وعظه ، وظل هو وخلفاؤه يوالونه بعطاياهم الجزيلة ، ولم يكن يدخر منها شيئا إذ كان ينفقها على الفقراء والمحتاجين وفي تجهيز الفقيرات إلى أزواجهن حتى وفاته بمراكش سنة ٦١٤ للهجرة . وإنما استطردت في الحديث عنه لأوضح سيرة واعظ زاهد بل صوفي مبكر من صوفية المغرب الأقصى ومدى إخلاصه في وعظه وزهده وتصوفه . وكان الوعاظ من حوله كثيرين في كل بلد مغربي . وملتقى في أواخر عصر الموحدين بصوفي كبير هو ابن الحلي وسنخسه بترجمة مفردة . ومربنا في الزهد حديث عن عبد الحق بن إسماعيل في العصر المريني وكتابه - المارّ ذكره - عن صلحاء الريف الشمالي وترجمته فيه لسته وأربعين من صلحائهم ويصفهم بأنهم أولياء وكأنه يعدهم جميعا من المتصوفة ، وعادة يتبع الترجمة بأبيات من إنشائه وقد استشهدنا في الزهد بمثال منها ، وكثرتها تعمها الروح الصوفية على نحو ما يبدو من المقطوعات التي اقتبسها منه الأستاذ محمد بن تاويت في كتابه الوافي^(١) ، من ذلك قوله من قصيدة في ترجمة أبي القاسم بن الصيان الفاسي :

الأنسُ بالله العظيم وذكرُهُ مما يزيد أولى التقى إيمانا
من كان نورُ الحق أَيْده غَدَا ولهانَ من شغفٍ به هَيْمانا
سرُّ الحقيقة لا يفوز بنبيله غير امرئٍ مستنزل كتمانا
لا يحرز الفضل المين سوى الذي ملك العلمَ مطهراً جثمانا

وهو يقول إن الأنس بالله والخلو به وتسبيحه وذكره مما يزيد المتقين إيمانا بربهم ، ويصف الصوفي الذي يؤيده نور الحق جلّ جلاله فإنه يصبح به شغوفا ولهان هائما ، غير أن ذلك إنما يفوز به وبسر الحقيقة فيه مَنْ يكتمه مخافة أن يعلن حبه لربه للناس ، وما شأنهم ؟ فيضيع منه ما حباه به . ويقول إنه لا يحرز هذا الفضل الصوفي إلا العالم الطاهر النقي الورع . وينعت المتصوفة ويعرف بهم في قوله بترجمة محمد اليستني البطيوي :

علمُ اليقين أناهم ما أمَلُوا فَدَرُوا به عينَ اليقين وَحَقَّهُ
سُلبوا فغابوا عن وجود نفوسهم فوجودهم محوٌ يلازم مَحَقَّهُ
لم يعرفوا هَجْراً ولا وَصْلاً ولا معنىً يبينُ قربه أو سُحَقَهُ
وكأنما أسرارهم بقلوبهم درُ مصونٌ لا يفارق حَقَّهُ

ويقول إن الصوفية هم الصفوة التي منحها الله علم اليقين ، فعرفته حق المعرفة ، ويذكر أنهم سُلبوا الشعور بالمحسوسات من حولهم ، فغابوا حتى عن الشعور بوجودهم ، وكأنما

وجودهم انمحي اتمحاء تاما ، فلم يعودوا يشعرون بشيء سوى ربهم الذى استغرقهم وفنوا فى جلاله ، وهم بذلك محبون حباً من نوع خاص حبا إلهيا ، لا هجر فيه ولا وصل ولا شيء سوى النعيم بالفناء فى الذات العلية ، وهم لا يذيعون أسرار هذا الفناء ولا ذلك الحب إذ يكتمونها فى حِقاَق صدورهم وقلوبهم . ويصفهم مرة أخرى فى ترجمة إبراهيم بن صالح من وجوه الزمة منشدا :

أهل الحقيقة إن نظرت وجدتهم متسرلين بكلِّ فَضْلٍ باهرٍ
قهروا نفوسهم ففازوا بالمتى من جود ربِّ ذى جلالٍ قاهرٍ
وتجوهروا بلطائف فتكللت تيجانهم بيزرجيد وجواهرٍ

فهم أهل الحقيقة الربانية إن تأملتهم وعرفتهم حق المعرفة وجدتهم مزدانين بحل من كل فضل باهر ، وقد استطاعوا أن يقهروا نفوسهم ويردعوها عن كل متاع دنيوى ففازوا بأمانيتهم من عطايا رب جواد ذى جلال وإكرام لا حد له ، وكأنما بثَّ فيهم ما جعلهم يستحيلون جواهر متألقة ، بل كأنما نظم على تيجانهم الصوفية الإلهية روائع الزبرجد والدرر النفيسة . وينعت أحدهم بحسن توكله على ربه ، وهو مبدأ أساسى فى التصوف قائلا :

حسنُ التوكُّل فى القفار أناله حالاً بها قد سرَّه ما ناله
جعل الآلة له سبيلا فى الفلا سببا فحقق فى الخلاص مثاله

فهو قد أحسن التوكل على ربه ، فزرقه فى القفر بما سدَّ رمقه وسرَّه فى حياته الإلهية ، وحقق له الخلاص من الدنيا وترهاتها . ويدور الزمن دورات وملتقى بابن جابر محمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٢٧ للهجرة وكان له نزوع نحو الزهد والتصوف ، ومن قوله^(١) :

نظرت إلى الوجود بعين قلبى فلم أر فيه غير الله وخذته
فَفَقْتُ بالله وارجُ الله واعملُ للقاء الله تأمَّن كلَّ شِئْده

وقد يظن من البيت الأول أنه ممن يؤمنون بالخلول وأن الذات الإلهية تحلَّ فى كل مظاهر الوجود ، لذلك لا يرى فيه سواه ، ويطلب إلى مخاطبه أن يكون دائما واثقا فى الله لا يرجو ولا يأمل فى أحد سواه ، ويعمل لآخرته حتى يأمن عذابه ويدخل جناته ، وله فى التوكل على الله حق التوكل :

على قَدَرِ نِيَّةِ أَهْلِ التَوَكُّلِ لى يعطيهم الله منه المعونة
فإن صحَّحَ العبدُ إيقانه كفاه المهيمنُ همَّ المئونة

وهو يقول : بمقدار توكل العبد على ربه يمنحه العون والرعاية ، وإن صحح يقينه وأخلص

(١) انظر فى هذه المقطوعة وتاليها كتاب المتقى لابن القاضى ٤٠٥/١ .

فى توكله عليه كفاه هم العيش ، إذ هو المهيمن على كل عيش وكل شىء . ويقول عمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة^(١) .

النجأ إلى الله فى أمرٍ تحاولُه وإبرأ إلى الله من حَوْلٍ ومن حِيلٍ
وكلَّ إلى الله كلَّ الأمرِ واغْنِ به عَمَّن سواه فإنَّ اللهَ خَيْرٌ وَلَى
وهو يدعو قارئه إلى اللجوء لله فى كل أمر يحاوله ويرأ إليه من كل قوة وكل حيلة ، ويتكل عليه اتكالا صادقا مخلصا فى كل أمر ، وليكتف به عمن سواه ، فإنه خير المعينين على تحقيق الآمال ، وهو فى ذلك يصدر عن مبدأ التوكل الصوفى . ونرى محمد بن عبد السلام بن ناصر الرحالة يصدر عن مبدأ الثقة فى الله الصوفى بمقطوعة فى أحد عشر بيتا ختمها جميعا بلفظ الجلالة ، وفيها يقول^(٢) :

لله فى الخلق ما اختارت مشيئته	ما الخير إلا الذى يختاره الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرة	ما لأمري حيلة فيما قضى الله
تجرى الأمور بأسباب لها علل	تجرى الأمور على ما قدر الله
إذا ابتليت فتق بالله وارض به	إن الذى يكشف البلوى هو الله
إن الأمور إذا ضاقت لها فرج	كم من أمور شداي فرج الله
الله لى عُدَّة فى كل نائبة	أقول فى كل حال حسبي الله

فهو يسلم أمره لربه مؤمنا بأن الخير ما اختارته المشيئة الإلهية له ، ويقول إنه ينبغي الاستسلام لقضاء الله ، فليس لشخص حيلة فيما قضى الله وقدره على عبده ، ويذكر أن الأمور تجري بأسباب ولها علل قد تغيب معرفتها عن الإنسان فيما قدر له ، وينصح المرء إذا نزل به بلاء أن يثق فى الله ويرضى به ، فإنه هو الذى يكشف غمة البلوى عنه ، ولا يئس أبدا فإن الأمور مهما ضاقت ومهما اشتدت لا بد أن يزيحها من لدن الله فرج ، ويقول إنه يتخذ الله عدة له فى كل نائبة وكل كارثة معلنا دائما فى صدق وإخلاص أن الله حسبه . ونقف قليلا لتحدث عن صوفى مبكر فى عصر الموحدين هو ابن المحلى .

ابن المحلى^(٣)

هو محمد بن حسن بن عمر الفهرى ، من أهل سبتة ، كان أبوه قوَّالاً يغنى فى المحافل والأسواق - والمتلبس بذلك يعرف فى المغرب بالمحلى - وقد ولد له محمد سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م ونشأ نشأة أدبية وعلمية ممتازة أصبح بها من كبار أساتذة سبتة ، وكان أدبيا بليغا ناظما ونائرا ، فقيها عاقدا للشروط نحويا ماهرا برع فى الأدب ودرسه للطلاب عمره مع الفقه ومسائل

(٣) راجع فى ترجمة ابن المحلى وشعره الصوفى كتاب صلة الصلة لابن الزبير ، كتاب الذيل والتكملة ٢٨٩/١/٨ والوافى ٣٤٩/١ .

(١) الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية للدكتور محمد الأخضر ص ٣١٠ .
(٢) انظر د . محمد الأخضر ص ٣٧١ .

الشرعية ، وكان حسن القيام على تفسير القرآن مذكرا ، وعقد له حلقات مدة فانتفع به خلق كثير ، وكان واعظا ولوعظه تأثير كبير في سامعيه . وظل يعظ الناس طويلا بمسجد مقبرة زقلو في سبته ، وولى القضاء بها سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٧م وظل يليه محمود السيرة مشهورا بالعدل إلى نهاية عمره سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٣ م . وكان شاعرا ، وتعمقته النزعة الصوفية ، وله فيها غير قصيدة ، من ذلك قوله في إحدى قصائده :

[هل يرحب العشق قلبا أنت مطلبه
وكيف يرجو وصلا من تبعده
يا مَنْ أُنَاجِيهِ والأشواقُ توهمني
كم طيبة لك بالألطفات توجد لها
ومنة الجود تُذنيه فتؤنس
منأى أنت وحسبي أن تكون مني
كُنْ كيف شئت فما لي عنك منصرف
أو يُذهب الشوقُ روحا أنت مذهبه
أو كيف يخشى بعدا من تقرّبه
نيل الوصال كأن الشوق يوجهه
عند اللقاء وفنائى فيك أطيبه
وخشية الرد تقصيه فتحجبه
يا واهبا رغباتي قبل أرغبه
فالعبد ليس سوى مولاه مطلبه

وهو يقول إن حبه للذات العلية لن يرح فؤاده لأنه مطلب قلبه وأمنيته . ولن يذهب الشوق روحا ، الله مذهبه وعقيدته . فحبه لربه لن يفارقه أبدا ، ويتجه إليه مخاطبا كيف يرجو الوصل من تبعده ، بل كيف يخشى البعد من تقرّبه . ويقول إنه يناجيه ، وتوهمه أشواقه أنه سينيله الوصل كأن مجرد الشوق يوجهه ، ويعترف بأنه ينثر عليه كثيرا من الأشياء الطيبة ، ويقول إن أطيب ما تفضل به ربه عليه فناؤه فيه ، فهو يفنى بحبه في الذات الإلهية ، ودائما تقرّبه من ربه منحة الجود ، فيشعر بأنس لا حد له ، وفي الوقت نفسه يخشى الرد وأن يقصيه فيحجبه عنه ، ويقول إن ربه مناه وحسبه أن يكون أمنيته أو مطلبه . ويذكر أن الله دائما يحقق له رغبته حتى قبل أن يفكر فيها ، ويقول سواء قبله أو رفضه فليس له منصرف عنه ، إذ هو عبده الذي يطلب القرب من مولاه دائما أبدا . ويقول في قصيدة أخرى :

فؤادى منقاد إليكم مدلل
وهل من سبيل أن أطير إليكم
وأوحشتم فالكل في الأذن نائح
خرست عن الشكوى إليكم مهابة
ويا عجبا أنى أسير وأنسى
إذا هز أرباب السماع تواجد
وها أنا عند الباب منوا أو اطرءوا
ومالى - إذا لج العذول - جماع
وقد حص بي ريش وقص جناح^(١)
لدى وأفاق الوجود فساح
والسن حالى بالغرام فصاح
أناشدكم أن لا يتباح سراح
فحظي منه زفرة وصياح
فما لي عنه - كيف كان - براح

(١) حص : خلق وتنف .

وهو يقول إن فؤاده منقاد إلى ربه منذل لحبه ، وليس له - إذا لجَّ العذول اللائم - جماح عنه ولا انفكاك منه ، بل إنه ليرضى أن يطير طيرانا إلى الذات العلية غير أن ريشه حصّ وجناحه قُصّ ، يكتفى بذلك عن أنه مقصر فى نسكه ، ويقول إنه طال نأى الله عنه وينوح ويسمع نواح الكون وصياحه من كل جانب مشاركة له فى وجده وما يجد فى غرامه بربه . ويذكر أنه خرس عن الشكوى لمحبه مهابة وحياء ، وهو يذوب حبا وغراما ، ويعجب أنه أسير ، ويناشد ربه أن لا يسرّحه ولا يرد إليه حرّيته ، بل يظل فى أسرهِ . ويذكر أنه حين يهز أرياب السماع للشعر الصوفى تواجد ، فإنه يظل من بينهم يرسل الزفرات والضحكات هائما بحب ربه ، ويقول إننى سأظل واقفا بعتبة الباب سواء من الله عليه بالقبول أو حرمة وطرده ، ولن يرحها أبدا . ومن قوله فى إحدى قصائده :

غرامى دَعَانِي وَالْعَذُولُ نَهَانِي	فَوَجَدْتُ وَعَذَلْتُ كَيْفَ يَجْتَمَعَانِ
أَمَا عَلِمَا أَنِّي عَلَى الشَّحْطِ وَالنَّوَى	مَقِيمٌ وَأَنْتَى وَالْهَوَى أَخْوَانِ
يَقُولَانِ لِي : مَنْ ذَا دَعَاكَ لِمَا نَرَى ؟	فَقُلْتُ دَعَانِي حُبُّهُ فَدَعَانِي
أَعْلَلْ نَفْسِي بِالسَّلْوِ تَعْلَلًا	وَتِلْكَ أَمَانٍ مَا بِهِنَّ أَمَانِي
إِذَا خَفَقَ الْبَرْقُ الْيَمَانِي بِأَفْقِكُمْ	أَقْبَلُ ذَاكَ الْخَفَقَ بِالْخَفَقَانِ
رَعَى اللَّهُ جِيرَانَ الْعَذِيبِ وَأَهْلَهُ	وَإِنْ أَتْرَعُونِي مِنْ هَوَى وَهَوَانِ
لَنْ حُجِّبُوا عَنْ نَاضِرِي فَكُنْتُهُمْ	لَقَلْبِي يَرَاهُمْ فِيهِ رَأَى عِيَانِ

وهو يقول إن غرامه بحب الذات العلية يدعوه للاستغراق فيه ، بينما يلومنى عذول ، والعذول والوجد أو الهيام لا يجتمعان ، ويقول إنه ملازم للحب فى التأى والبعد ، وإنه والهوى أخوان فكيف يظن أحد أنهما سيفترقان ، ويقول له صاحبه : ما الذى دعاك لما نرى ؟ فأجابهم دعانى حبه ودعانى أو اتركاني ، ويذكر أنه يعلل نفسه أحيانا بالسلو ، ولكن أتى له . ويتحدث كشاعر عذرى فيقول إننى إذا خفق البرق اليماني بأفقكم خفق قلبي معه ، ويدعو لجيران العذيب فى نجد وأهله أن يرعاهم الله وإن ملأوه من شراب الهوى والهوان ما ملأوه ، ويقول إنهم إن غابوا عن ناظرى فإن قلبي يراهم متجسدين فيه رأى عيان . ويستمر منشدا :

أُرْوَى بِسَلْعِ الْعَذِيبِ وَحَاجِرِ	وَتِلْكَ مَغَانٍ مَا لَهَا مَعَانِي
وَأَذْكُرُ سَكَانَ الْعَذِيبِ تَسْتَرًا	وَمَا ذَكَرُ سَكَانِ الْعَذِيبِ بَشَانِي
وَلَكِنْ قَلْبِي مِنْ هُوَ الْحَبُّ كُلُّهُ	وَمَنْ ذَكَرَهُ فِي خَاطِرِي وَلِسَانِي
حَبِيبٌ إِذَا لَاحِظْتُ لَمْ أَرْ غَيْرَهُ	عَلَى أَنَّهُ إِذَا لَا أَرَاهُ يَرَانِي
وَمَنْ فَضَلَهُ وَجَدَى بِهِ وَتَوَلَّيْتِي	وَمَنْ جَوَدَهُ مَا أَشْتَكِي وَأَعَانِي
وَطَرْتُ عَلَى حَبِّي لَهُ وَكَأَنَّمَا	بَرَانِي لِمَعْنَى الْحَبِّ حِينَ بَرَانِي

وهو يقول إن مثله مثل شعراء الصوفية يذكر أماكن المحبوبات التي يذكرها أصحاب الغزل العذري ، وهي في واقع الأمر منازل وأماكن ليس لها معنى عند الصوفية إلا معنى التواجد والشوق للمحسوب ، ويقول إنه إنما يذكر سكان العذيب تسترا وتواجدا وليس ذكرهم من شأنه ، وإنما هو إعلان لحبه وهيامه بربه ، وإنه ليحل هواه في قلبه حتى ليصبح هو الحب كله ، وإنه ليذكره دائما في خاطره وعلى لسانه ، وإنه لحبيب لا أرى غيره في الوجود إذا نظرت من حولى ، ومع أنى لا أراه يرانى ، ومن فضله على هيامى به وتولهى ، ومن كرمه ما أشتكى منه فى حبه وأعانى . ويشعر فى هيامه كأنما يطير إلى ربه طيرانا ، وكأنه براه أو خلقه ربه لحبه ، وهو حب صوفى سنى وليس فيه أى أثر للنزعة الفلسفية عند المتصوفة .

٥

شعراء المدائح النبوية

يشغف المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بسيرة رسول الله ﷺ ، ومنذ أرسل وبُعث وهو مهوى أفتدتهم ، يمدحونه ويتغنون بمحبته ومناقبه ومعجزاته، ويتوسلون به إلى ربهم ويتشفعون مؤمنين بأنه المثل الكامل فى الورع والنسك والعمل بتعاليم رسالته. وإذا كان قد تغنى بمدحيه أفراد فى حياته، فإن الأقاليم الإسلامية تغنت به وبسيرته وبشماله فى كل بلد وكل عصر. والمغرب الأقصى مثله مثل الأقاليم العربية جميعا أكثر من التغنى بمدحيه ورسالته منذ عصر المرابطين الذى أخذ فيه الشعر المغربى يزدهر ويتكاثر ويشترك فيه كثيرون، على نحو ما يلقانا فى أرجوزة تشتمل على نحو سبعة آلاف بيت لمحمد بن عيسى بن المناصف القرطبى الأصل المتوفى بمراكش سنة ٦٢٠ . ومن أوائل من نجده شغوبا بالسيرة النبوية الكريمة وبفضائل رسول الله القاضى عياض وكتابه «النشفا» فى السيرة النبوية العطرة مشهور. وله فى زيارة الرسول ﷺ (١):

قَفْ بِالرَّكَّابِ فَهَذَا الرَّبُّعُ وَالِدَارُ	لَا حَتَّ عَلَيْنَا مِنَ الْأَحْبَابِ أَنْوَارُ
بُشْرَاكَ بِشْرَاكَ قَدْ لَاحَتْ قِبَائِهِمْ	فَانْزِلْ فَقَدْ نَلَتْ مَا تَهْوَى وَتَخْتَارُ
هَذَا النَّبِيُّ الْحِجَازِيُّ الَّذِى شَهِدَتْ	لَهُ بِتَقْدِيمِهِ رُسُلٌ وَأَخْبَارُ
هَذَا الشَّافِعُ الَّذِى تُرْجَى شَفَاعَتُهُ	لِلْمُذْنِبِينَ إِذَا مَا اسْوَدَّتْ النَّارُ
بَادِرْ وَسَلِّمْ عَلَى أَنْوَارِ رَوْضَتِهِ	قَبْلَ الْمَمَاتِ وَلَا تَشْغَلْكَ أَعْدَارُ
يَا خَيْرَةَ الرُّسُلِ يَا أَعْلَى الْوَرَى شَرْفًا	قَدْ أَثْقَلْتَنِي آثَامٌ وَأَوْزَارُ
فَكُنْ شَفِيعِي لِمَا قَدِمْتُ مِنْ زَلَلٍ	وَمِنْ خَطَايَا فَإِنَّ الرُّبَّ غَفَّارُ

وهو يستوقف الركب أو القافلة فقد وصلوا إلى دار المصطفى ﷺ ولاحت أنوار من قبله

عليهم ، ويقول لنفسه بشارك فقد لاحت قباب الضريح النبوى ومسجده ، وينبغى أن أنزل من فوق بعيرى ، فقد نلت ما أهوى وأوثر ، فهذا النبى الحجازى الذى تهفو إليه القلوب والذى بشرت به الرسل وأخبار الكعب السماوية ، وهو الشفيع للمذنبين من أمته حين تتأجج نار الجحيم وتقول هل من مزيد . ويقول لكل مسلم : بادر وسلم على أنوار روضته التى قال فيها النبى ﷺ : ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة ، وينبغى أن يزورها ويكتحل بأنوارها قبل مماته ، ولا تشغله عن الزيارة القدسية أعذار . ويتجه بالخطاب إلى الرسول : يا خيرة الرسل وصفوتهم وأسمى الورى شرفا أثقلتني آثام وأوزار كثيرة ، فكن شفيعي لما قدمت من عثرات وخطيئات عند ربى ، وإنه للغفار العظيم . ومن توسلات القاضى عياض الطريفة قوله متوسلا بالرسول الكريم^(١) :

إليك مددت الكف أستمطر الفضلا	وأستكشف البلوى وأستعطف الطولا
دعوتك مضطرا فعجل إجابتي	بتفريج كرب طالما واصل الحولا
وأنت ملاذى يا مرادى وسيدى	فساغ مسيئا قد جنى الجدد والحولا
نداء من الأعماق يا فائق النوى	ويا سامع النجوى ويا من هو الأعلى
يتيم من الطاعات عفوك يرتجى	فه الفقر والإفلاس والفقد والذلا
بجاه رسول الله فارحم تضرعى	ونفس همومى كلها الفرع والأصلا
لجأت إلى باب الكريم لفاقتى	فليس لنا مغنى سواه ولا مؤلى
وصل على قطب الوجود محمد	صلاة تعم الرسل والصحب والأهلا

وهو يتوسل ضارعا إلى الرسول الكريم قائلا : إليك مددت كفى أستمطر وأستنزل الفضل طالبا كشف ما نزل بى من البلوى مستعظفا التفضل الكريم ، ويقول قد دعوتك مضطرا فأجب دعائى عاجلا بتفريج كرب طالما شقيت به وبلغ بى هولا ما مثله هول ، وأنت يا سيدى رسول الله ملاذى وملجئى ومقصدى ، فسامعنى : سامع مسيئا طالما تجنئ فى جده وهزله . ويستغيث بربه قائلا : إنه نداء من أعماق الأعماق فى نفسى يا فائق الحب عن النبات والنوى عن النخيل وسامع النجوى الخفية يا ربى الأعلى إبنى يتيم من الطاعات ، والذنوب تثقل ظهري ، فارحم تضرعى تجاه رسول الله ، وفرج همومى جميعا الفرع منها والأصل وقد لجأت إلى بابك أيها الكريم لفاقتى وإنك وحدك المغنى وليس لنا مولى سواك . ربي صل على قطب الوجود ومداره وسيده صلاة تعم الرسل وصحبه وآله .

ونمضى إلى عصر الموحدين وتلتقى بميمون بن علي الصنهاجى القاسى المشهور باسم ميمون بن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر الشهير بابن خبازة ، ملازمته إياه وله مدحة نبوية طويلة . وسترجم له عما قليل . وندخل فى عصر المرينيين ويلقانا فى أوائله مالك بن المرحل ومدايح النبوية وسنخصه بترجمة ، وتلتقى بأبى العباس العزفى المتوفى سنة ٦٣٣ من أهل سبتة الذى أنشأ فى بلدته - وبالتالى فى المغرب الأقصى - الاحتفال بالمولد النبوى وكان قد سبقه إلى ذلك أبو سعيد كوكبورى صاحب مدينة إربل . وأكبر الظن أن الذى ألهمهما ذلك احتفال المسيحيين بميلاد عيسى فى الحروب الصليبية بالمشرق واحتفال المسيحيين به فى الأندلس . واستنّ أبو العباس العزفى أن ينشد الشعراء فيه مدائحهم النبوية وتسمى الميلاديات ، وكان لمالك بن المرحل غير ميلادية أنشدها فى احتفال أبى العباس العزفى . وتعنى الدولة المرينية - طوال القرن الثامن - بهذا الاحتفال ، إذ يقول الحسن الوزان فى كتابه : وصف إفريقيا : « كان من عادة الحاكم فى أزهى أيام الدولة المرينية أن يحتفل بالمولد النبوى فيدعو إلى قصره العلماء وأهل الأدب فى مدينته : فاس ، وكان الشعراء المجلّون يُلقون فى هذه المناسبة قصائدهم بحضور الحاكم ، وكان المنشدون يقفون فوق مصطبة عالية . وفى نهاية الحفل استنادا إلى حكم أشخاص من ذوى الخبرة كان الملك المرينى يمنح لأكثر الشعراء نبوغا وتفوقا مائة دينار وحصانا وجارية وكسوة ، ويعطى كل شاعر من الشعراء الآخرين خمسين دينارا فينصرف الجميع وقد حصل كل منهم على جائزته أو مكافأته » . ويقول الوزان تمتة لذلك إنه كان ينادى فى أيامه أوائل القرن العاشر الهجرى على الشاعر الذى ترى لجنة التحكيم أنه الأفضل شعرا بأنه أمير الشعراء لذلك العام^(١) . ولا ريب فى أن هذا الصنيع كان يحدث تنافسا حميدا بين شعراء فاس عاصمة المرينيين . ويشير الأستاذ ابن تاويت إلى مدحة نبوية للرحالة العبدري فى أواخر القرن السابع الهجرى وميلادية لمحمد بن يحيى العزفى أنشدها فى احتفال لأبى سالم المرينى ، ويذكر لعبد الرحمن المكودى المتوفى سنة ٨٠٧ للهجرة مقصورة ويأخذ فى تحليلها . وفى المقصورات قديم بداه ابن دريد بمقصورة فى مدح أمير سامانى ملأها باللفظ الغريب واختار لها وزن الرجز . ونظم حازم القرطاجنى مقصورة فى مدح أبى زكريا الحفصى .. غير أن المكودى أول مغربى نظم مقصورة من الرجز فى مدح المصطفى وضمنها طائفة من الألفاظ الغريبة ، ووصف فى مطالعها الرحلة إلى الحجاز وألمّ بذكرىات شبابه فى موطنه وضمنها كثيرا من الحكم ومن الحديث عن غزوات الرسول وعن مصير بعض الدول الإسلامية والدول التى أدال الله منها للإسلام مثل دولتى الأكاسرة والقيصرة وعرج على بعض الدول العربية البائدة القديمة ، ومن قوله فى مدح الرسول ﷺ :

(١) وصف إفريقيا (طبع السعودية) ص ٢٦٣ .

وليس دُخْرِي غير مدح أحمدٍ سيّد أهل الأرض طُرّاً والسّما
وأصبح الدين القويم قِيَمًا سما على الأديان طُرّاً وعلا
وكم له من آيةٍ يَبِينُ ومعجزاتٍ مثل إشراق الضحى

ويغلب على المتصورة السرد مما يفقدها فى كثير من جوانبها الجمال الشعرى . وكما مُدح
الرسول فى العصر المربنى بالمدائح الشعرية مُدح بالموشحات ، ومن أطرفها موشحة ابن سعيد
المكناسى المذكورة فى الحديث عن الموشحات ص ٣٨٣ .

وتعنى الدولة السعدية باحتفالات المولد النبوى وخاصة حاكمها المنصور الذهبى ، وتكثر
فيها المدائح النبوية المسماة بالميلاديات ، وعادة يستطرد الشاعر فيها إلى مدح الحاكم ، ويقول
المقرى فى كتابه : « روضة الآس » : « ما قيل فى الموالد النبوية التى احتفل لها هذا الخليفة
المنصور لا يمكن حصره » ثم يذكر أنه كانت تصنع شموع أعظم من الأسطوانات يطاف بها
فى فاس ، حتى إذا وصلوا إلى قصر الخليفة أدخلوها فى ساحة كبيرة متخذين لها آلات عظيمة
من النحاس المحكم الصنعة فتوضع فوقها وترى صاعدة فى السماء كالمنارة ، وبحشر الناس إلى
ذلك ، ويُذعَى المنشدون للأشعار وتشر عليهم الفضة ، ويأمر لكل شخص منهم بكسوة وجوائز
قد تبلغ الآلاف^(١) . ويضيف عبد العزيز الفشتالى فى كتابه مناهل الصفا إضافات كثيرة فى
هذا الاحتفال الذى كان أشبه بعيد ضخيم يمتد طوال الليل ، وكان المنصور يبدأ الاحتفال
الرسمى به بعد صلاة الفجر وقد اصطفت جذوع الشموع أمام قبة قصره منافسة للنخيل والمآذن
فى الضخامة مختلفة الألوان من بيض لؤلؤية وحمر أرجوانية وخضر سندسية ، ويفصّ السراشق
المصبوب للناس بالشرفاء والقضاة والفقهاء والكتاب والشعراء والقراء وبعد فراغ الواعظ من
فضائل الرسول ﷺ وسرد معجزاته يقدم أهل الذكر والإنشاد ، ثم تتعالى الأصوات بمدائح
الرسول المسماة بالمولديات أو الميلاديات نسبة إلى مولده أو ميلاده الشريف ، ثم يتبعهم أهل
الذكر بالريق من كلام الشيخ الصوفى الأندلسى أبى الحسن الششتري ، ثم يُنشد الشعر .
والتبع فى الإنشاد أن يقف بإزاء الشاعر مسمع ينيه الشاعر عنه فى إنشاد قصيدته ، ويعود
الشاعر إلى مكانه . ويذكر الفشتالى الوليمة المهيأة للعيد ، ويقول بعد أيامها توزع صلات
الشعراء وعليها توقيعات الخليفة المنصور . ويسوق عبد العزيز الفشتالى بعض ما كان ينشد فى
هذا العيد لعهد هذا الخليفة^(٢) . وبكتاب روضة الآس للمقرى نحو عشرين ميلادية لشعراء
مختلفين أنشدت فى هذا العيد أيام المنصور منها خمس لعبد العزيز الفشتالى مئاعره وكتابه ،

ص ٢٢١ وما بعدها .

(١) روضة الآس ص ١٣ .
(٢) انظر مناهل الصفا تحقيق الأستاذ كتون

وأهم ميلادياته نونية ، يستهلها باستيقاف ركب متجه إلى الأرض الطيبة : أرض الحجاز ، ويتمنى زورة للرسول الكريم تشفى جفونه القريحة بنظرة يغمرها النور النبوى ويحمى ربوع مكة والمدينة القدسية التى تلت بها الملائكة أفانين ذكر وقرآن ، ثم يقول^(١) :

مَحْمُودٌ خَيْرُ الْعَالَمِينَ بِأَسْرَهَا وَسِيدُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجَانِ
وَمَنْ بَشَّرَتْ بَيْعَتَهُ قَبْلَ كَوْنِهِ نَوَامِيسُ كَهَّانٍ وَأَنْبَارُ رُهْبَانِ
وَإِنْ كَتَبَ اللَّهُ أَعْظَمُ آيَةٍ بِهَا افْتَضَحَ الْمَيَّانُ وَابْتَأَسَ الشَّانِي^(٢)
نَبِيُّ الْهُدَى مَنْ أَطْلَعَ الْحَقَّ أَنْجَمًا مَحَا نَوْرَهَا أَسْدَافَ إِنْكَ وَبَهْتَانِ^(٣)
لِعَزَّتِهِ ذُلُّ الْأَكَاْسَةِ الْأَلَى هُمْ سَلَبُوا تِيجَانَهُمْ آلُ سَاسَانِ
وَأَحْرَزَ لِلدِّينِ الْخَنِيفِيُّ بِالْظُّبَا تَرَاثَ الْمُلُوكِ الصَّيْدُ مِنْ عَهْدِ يُونَانَ^(٤)

وهو يقول محمد خير العالمين وسيد أهل الأرض من الإنس والجن ، إنه صفوة خلق الله ومن بشرت بأنه مبعوث شرائع الكهان وأنبار الرهبان ، فقد كان العالم ينتظره لينقذه مما يعانيه من هوان وظلم وضلال . فأرسله الله رحمة وهداية للعالمين ، ولإنس والجن يحمل فى يده وصدره معجزته الكبرى : القرآن الكريم الذى لا تماثله معجزة سابقة ولا لاحقة ، وبها افتضح الكذابين المفترون والحاقدون الشائتون . نبي الهدى الهادى الذى أطلع الله به نور الحق ليمحو به كل كذب وبهتان . ولعزته ذل الأكاسرة السَّاسانيون وألقوا عن يد وهم صاغرون ، وتملك الدين الخفيف بالظبا والسيوف تراث سادة الملوك القياصرة من عهد يونان والزمن القديم . وللتاساوتى المتوفى سنة ١١٢٧ للهجرة مدحة نبوية فى أربعمائة بيت ، يجعل مقدماتها لمدح موطنه وتاريخ الإسلام وبعض دوله ، ويخص المدح النبوى بثلاثمائة بيت من ذلك قوله^(٥) :

أَيُّخَاطِبُ الْعَبْدُ الَّذِي لَعِبْتُ بِهِ شَهَوَاتُهُ صَدَّرَ الصُّدُورِ الْأَوْحِدِ
نَكُنْ تَحَقُّقٌ بِالْأَدْلَةِ عِنْدَنَا لَا شَخْصَ أَحْلَمَ فِي الْوَرَى مِنْ أَحْمَدِ
أَنْتَ الْمُؤْمَلُ فِي الشَّدَائِدِ كُلِّهَا أَنْتَ الْجَوَادُ الْغِيثُ لِلْمُسْتَرْفِدِ
أَنْتَ الَّذِي مِنْ أُمِّ بَيْتِكَ رَاغِبًا وَلَوْ اقْتَضَى أَمْرًا عَظِيمًا يَسْعَدِ
أَنْتَ الَّذِي سَعَدَتْ بِكَ الْأَشْيَاءُ قَا طَبَّةٌ وَمَنْ يَقْصِدُ سَعِيدًا يَسْعَدِ

وهو يعجب - لكثرة ذنوبه - من جراته على مخاطبة أعظم مخلوق بشرى ، ويعود إلى نفسه فيقول إنه تحقق لديه بالأدلة أن رسول الله أحلم من على وجه الأرض ، ولذلك قصده وهو يعلم أنه حلیم كريم آملا فى ذرة من حلمه وكرمه ، ويتجه له بالخطاب قائلا : إنك

(١) شعر عبد العزيز الفشتالى بتحقيق نجاته المربى (٣) إنك : كذب .

ص ٤٢٠ وما بعدها . (٤) الصيد : ذوى السلطان .

(٥) الميَّان : الكاذب . الشانئ : المبغض . (٥) الوافى ٧٧٢/٣ .

المؤمل المرجو في الشدائد والكوارث كلها ، وإنك الغيث المدرار الذي يجزل العطاء لمستترده وطالب البر منه . ويقول له إن من قصد بيتك تنيله ما طلب مهما كان جسيما ، وأنت مصدر السعادة البشرية فليس غريبا أن من يقصدك يسعد في الدنيا والآخرة . وتتكاثر المدائح النبوية والتوسلات بالرسول ﷺ في العصر العلوي . ومن أجمل التوسلات توصل أنشد الأستاذ ابن تاويت للشاعر محمد البوعصامي ، وفيه يقول^(١) :

سُحِّي بدمع كالعقيق مَحَاجِرِي	شوقا لطيفةً والعقيق وحاجِرِي ^(٢)
تلك المعاهد حين أظهر دينه	ربُّ البرية بالرسول الطاهر
سرُّ الوجود محمد خير الوري	والمنتقى من كل أصل طاهر
من قد تجلّت طيبة الزهرا به	وزهت ففاقت كل روض زاهر
وسمت على الفردوس حقاً واكتست	حلل السنّا من شأنه المتواتر
وتواضعت لمعالم الهادي بها الـ	آفاق كالفلك المحيط الدائر

وهو يقول لعينيه اذرفا دما أحمر كالعقيق شوقا لطيفة ومنازلها مثل العقيق وحاجر التي كانت قائمة حين بعثه الله برسالة الكبرى ، وإنه لسر الوجود خير الوري المختار من كل أصل شريف طاهر ، وقد تجلّت به طيبة : المدينة وسبقت جميع المدن ، وزهت حتى فاقت كل روض ناضر ، وحق لها ، بل لقد سمت على الفردوس ، واكتست حلل الشرف بفضائله المتواترة ، وتواضعت لها الآفاق كالفلك المحيط بقطب الدائرة . وحرى بنا أن نتوقف قليلا لترجم ميمون بن خبازة ومالك بن المرحل .

ميمون^(٣) بن خبازة

هو ميمون بن علي الصنهاجي الفاسي الساكن بأخرة في مراکش ، ويسمى ابن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر المشهور بابن خبازة لملازمته إياه . من شعراء عصر الموحدين ، ويقول ابن عبد الملك المراكشي في كتابه « الذيل والتكملة » : كان أدبيا شاعرا مقلقا من أكبر أعاجيب الدهر في سرعة البديهة ، ناظما أو ناثرا ، مع الإجادة التي لا يجارى فيها والتفنن في أساليب الكلام معربه وهزله .. ذا مشاركة حسنة في علم الكلام وأصول الفقه ، وتنسك وتصوف وقتنا ، ووعظ .. وعارض ابن الجوزي في بعض فصوله فأجاد . وعبر إلى الأندلس وظل في رعاية والي إشبيلية أبي العلاء بن المنصور زمنا ، وله فيه مدائح كثيرة وله في غيره مدائح مختلفة

والتكملة ٣٨٨/٢/٨ وما بعدها وأزهار الرياض ٣٧٨/٢
ونغمة القادم ١٥٤ ودرة المجال رقم ٣٧٢ والنويع
المغربى ١٨٠/١ ، ٢٠٢/٣ ، والوفى ٣٢٢/١ .

(١) الوافى ٨٢٣/٣ .
(٢) طيبة : المدينة . العقيق : موضع في المدينة .
والحاجر : منزل في طريق مكة .
(٣) انظر في ترجمة ابن خبازة وشعره كتاب الذيل

وكان يأتي في مدائحه بما لم يسمع قبله ولا يُطمع في لحاقه ، سرعة ارتجال وحسن افتنان وبراعة إنشاء ، وتولى حاسبة السوق في مراکش لعهد الخليفة المأمون الموحدى ووقف معه في ثورته على دعوة ابن تومرت كما أسلفنا وله يهجو ابن تومرت :

وجد النبوة حُلَّةً مطويةً لا يستطيع الخلقُ نَسْجَ مثالها
فأسرَّ حَسَنًا في ارتغاءٍ يتغنى بمحاله نَسْجًا على مِنوالها

وأسرَّ حَسَنًا في ارتغاء مثل يضرب للشخص يظهر أنه يشرب الرغوة ، وهو ينال من اللبن . وتوفي ابن خبازة في أوائل سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م ، وله مدحة نبوية رائعة دوت شهرتها في عصره وبعد عصره ، يقول في مطلعها :

حقيقٌ علينا أن نجيبَ المعاليا لنفنى في مدح الحبيب المعاليا
ونجمعُ أشنات الأعارضي حِسبةً ونحشدُ في ذات الإله القوافيا^(١)
ونقتادُ للأشعار كلَّ كتيبة لنصر الهدى والدين تُردى الأعاديا^(٢)
لنطلع من أمداح أحمد أنجمًا تلوح فتجلو من سنأه الدياجيا
سهوت بمدح الخلق دهرًا فهذه سجودى لجبرى كلُّ ما قلتُ ساهيا
رسولُ براه الله من صفو نوره وألبسه بُردًا من النور ضافيا^(٣)
وما زال ذاك النور من عهد آدم ينيرُ به الله العصور الخواليا

وهو يقول إنه ينبغي أن أستجيب للمعالي فأفنى في مدح الرسول الكريم سيد الوجود المعاني وأجمع أشنات الأشعار احتسابا لله وأحشد القوافي إخلاصا له ، وأتاد كتائب الشعر لنصرة الدين وتدمير أعاديه ، ولنبدى من أمداحه نجوما تجلو من نوره الدياجي المظلمة . ويعتذر عن تمضية عمره في مدح الحكام والأمراء ساهيا عن مدح الرسول الكريم ، وهو يقدم تلك المدحة بأخرة من حياته جبرا لما سها عنه قديما . ويقول إنه رسول عظيم خلقه الله من صفو نوره وألبسه من النور حلة سابعة ، وظل هذا النور الحمدي الباهر ينير العصور الخوالى . وتطلُّ من الأبيات التالية فكرة الحقيقة المحمدية التي تغنى بها الخلاج والمتصوفة بعده ، وهى حقيقة تؤذن بأن الرسول أقدم فى خلقه المعنوى أو الروحى من خلق الأنبياء . ويقول ميمون فى قصيدته : بفضلله تاب الله على آدم وأنقذ نوحا وخلصه من الموج العاتى وحمى إبراهيم الخليل من النار حين ألقاه أعداؤه فيها ، ومن أجله اقتدى إسماعيل الذبيح . وحين وضع أمه له حفت به الأملاك وأعول إبليس اللعين وتنبئت به الأحبار والكهان وتداعى إيوان كسرى . ثم يمضى فى الحديث عن سيرته منذ كان فى المهد ، وحملة السيدة حليلة لترضعه ويذكر

(٣) ضافيا : غامرا .

(١) حسة : احتسابا لله .

(٢) تردى : تهلك .

ما رُويَ من شق جبريل وميكائيل لصدره وإيداعهما فيه النور الهادي ، ويتحدث عن رحلته إلى الشام ولقائه لبحيرا الراهب ونسطور راهب بُصْرَى الذى بشره ببعثته ، وما كان من تحنُّه فى حراء واختيار الله له كى يبلغ رسالته ، ويذكر إسرائه ومعرجه إلى السموات ومناجاته لربه . ويأخذ فى سرد معجزاته منذ بدء هجرته ونسج العنكبوت لبيوته على غار حراء حتى لا تظن قريش أن به الرسول وصاحبه الصديق ، ويستطرد إلى بعض ما تذكره كتب السيرة النبوية من الآيات والمعجزات ، ويعرض فى نهاية مدحته معجزة الرسول الكبرى : القرآن الكريم ، منشدا :

وَأَيَّاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الْعَدُوِّ كَثْرَةً	فَمَا تَبْلُغُ الْأَقْوَالُ مِنْهَا تَنَاهِيَا
وَأَعْظَمُهَا الْوَحْيُ الَّذِي خَصَّهُ بِهِ	فَبَلَّغَ عَنْهُ أَمْرًا فِيهِ نَاهِيَا
تَحْدَى بِهِ أَهْلَ الْبَيَانِ بِأَسْرِهِمْ	فَكُلُّهُمْ أَلْفَاهُ بِالْعَجْزِ وَانِيَا
وَجَاءَ بِهِ وَحْيًا صَرِيحًا يَزِيدُهُ	مَرُورَ اللَّيَالِي جِدَّةً وَتَعَالِيَا
تَضْمَنَ أَحْكَامَ الْوُجُودِ بِأَسْرَهَا	وَحُكْمَ الْقَضَاءِ مُثَبَّتًا فِيهِ نَافِيَا
وَأَخْبَرَ عَمَّا كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ	يُرَى مَاضِيًا أَوْ مَا يُرَى بَعْدَ آتِيَا
وَمَا كَتَبَتْ يُمْنَاهُ قَطُّ صَحِيفَةً	وَلَا رِئَاءَ يَوْمًا لِلصَّحَائِفِ تَالِيَا ^(١)
عَلَيْهِ سَلَامٌ اللَّهُ لَا زَالَ رَائِحًا	عَلَيْهِ مَدَى الْأَيَّامِ حَقًّا وَغَادِيَا

وهو يقول إن معجزات الرسول ﷺ أكثر من أن تُعدَّ وتحصى ، وإن الأقوال مهما تكاثرت لا تستطيع أن تحيط بها ، وأعظمها القرآن المعجزة الكبرى التى ليس لها مثال سابق ولا مثال لاحق وإنه ليحمل أوامر الله ونواهيه وقد تحدى الرسول به أهل البيان من العرب فكلهم أعلن عجزه عن الإتيان بما يمثله ، بلاغة تأخذ بالألباب . وقد تضمن أحكام الوجود جميعها ، وشمل حكم القضاء نفيا وإثباتا ، وأخبر الله فيه عن الأحداث الماضية والمستقبلية . وكل هذا البيان المعجز حمله الرسول ، وهو لم يخطِّ صحيفة يمينه ، ولا شوهد يوما تاليا للصحف أو الصحائف ، إنه النبى الأمى العظيم ، سلام الله عليه سلاما دائما من أمته ومحبيه .

مالك^(٢) بن المرحّل

سَبْتِيُّ النَشَاةَ والمربى ولد سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م وتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م ، وقال ابن عبد الملك المراكشى فى الجزء الأول من الذيل والتكملة إنه مالقى ، ولعله يريد أنه ولد

والجدوة لابن القاضى ٣٢٧/١ ونفع الطيب (انظر الفهرس) والنبوغ المغربى لكون ٢٢٥/١ والجزء الثالث فى مواضع مختلفة والوفى ٣٣٨/١ وما بعدها .

(١) رِئَاءَ : رُئِيَ .
(٢) انظر فى مالك بن المرحّل وحياته وأشعاره الجزء الأول من الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى والصلة لابن الزبير والإحاطة لابن الخطيب ٣٠٣/٣

بمألقة . وكان مثقفا ثقافة واسعة بمختلف العلوم مما جعله ينظم غزوات السيرة النبوية وفصيح ثعلب ، وله نظم فى الفرائض والقراءات وغير ذلك ، ومدح أمراء الأندلس والمغرب الأقصى واشتغل فى بلدته سبعة مدة بالتوثيق وولى القضاء لبني مرين مرات فى غرناطة وغيرها ، ومُدَّ له فى حياته إذ توفى سنة ٦٩٩ للهجرة ، ويقول ابن عبد الملك : « إنه كان مكثرا من النظم مجيدا سريع البديهة مستغرق الفكرة فى قرضه ، لا يفتر عنه حيناً من ليل أو نهار ، شاهدت ذلك معه ، ويقول إنه لا يقدر على صرفه عن خاطره وإخلاء باله من الخوض فيه ، واشتهر نظمه وذاع شعره ، فكلفت به ألسنة الخاصة والعامة وصار رأس مال المسمعين (المنشدين) والمغنين وهيجراً (ملازم) الصادرين والواردين ووسيلة المكذّبين (السائلين) وطرارز أوراد المؤذنين » . وذكر له ابن عبد الملك فى الجزء الأول من كتابه « الذيل والتكملة » قصيدتين فى مثال النعل النبوى . وله فى مديح الرسول ﷺ غير قصيدة ، وتتخذ أنماطا ثلاثة : النمط المعروف فى القصائد العربية ، ونمط يسمى العشرى لأن وحداته تتألف من عشرة أبيات ، ونمط ثالث يسمى العشرينى لأن وحداته تتألف من عشرين بيتا ، والأبيات فى النمطين الأخيرين تنتهى بقافية واحدة وتبتدىء بحرف القافية . ومن أهم مدائحه النبوية : « الوسيلة الكبرى المرجو نفعها فى الدنيا والأخرى » وقد رتبها على حروف المعجم ، ولكل حرف عشرون بيتا ، وهى بذلك مكونة من عشرينيات ، ويقول فى العشرينية الهمزية الأولى :

إلى المصطفى أهديتُ غُرَّ ثنائى	فيا طيبَ إهدائى وحُسْنَ هِدائى ^(١)
أضفتُ إلى ميلاده غزواته	وما عَن لى من آيةٍ وأيائى ^(٢)
أردتُ رضا ربى بها فهو أرتجى	وربى كريمٌ لا يُضيع رجائى
إمامُ هُدًى صلى النبؤن خلفه	وصلّى عليه أهلُ كلِّ سماء
أضاءت به الدنيا فمن وجهه سرى	إلى الشمس والأقمار كل ضياء
أتانا بقرآن كريم مفصل	جلا صدأ الأذهان أىّ جلاء
أترجون فى يوم القيامة غيره	إذا قيل هل للناس من شفعاء
إليه يشير ابنُ البَتُولِ إذا رأى	ضجيجَ السورى فى حيرة وعناء ^(٣)

وهو يقول أهديت إلى النبى الذى اصطفاه الله أجمل ثناء فيا طيبه ويا طيب هداى وطريقتى ، وقد أضفت إلى ميلاده غزواته وما عرض لى وأهمته من معجزاته ، وأردت بذلك رضا ربى راجيا أن يتقبل منى هذه المدحة لرسوله ، وهو كريم لا يخيب رجاء راج من عباده . ويقول إن الرسول إمام هداية كبرى للبشرية وقد صلى الأنبياء خلفه ليلة الإسراء ،

(٣) البتول : السيدة مريم أم عيسى الرسول .

(١) هدائى : هداى وطريقتى .
(٢) أيائى : جمع آية أى معجزة .

والملائكة في كل سماء يرددون الصلاة عليه مشيراً إلى الآية الكريمة : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ويقول إن الدنيا أضاءت بنوره ، ومنه نور الشمس والقمر وكل نور ، والبيت يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية المعروفة ، وهي أن كل نور في الكون يستمد من نوره ، وكل وجود يستمد من وجوده ، إذ هو سابق في خلقه المعنوي أو الروحي لكل وجود وكل نور . ويذكر معجزته الكبرى التي جاء بها معجزة القرآن الكريم وما يحمل من أروع صور البيان والبلاغة التي تجلو - بحق - صدأ الأذهان ، ويذكر يوم القيامة وموقف الناس فيه وقد طال بهم انتظار الحساب ، وكلما سألوا رسولا أن يشفع لهم عند الله في بدء الحساب اعتذر ، واعتذر معهم المسيح ابن مريم البتول مع إشارته لهم أن يسألوا الرسول الشفاعة عند ربهم ، ويتقبل الله شفاعته . ويقول في عشرية همزية :

أمالى إلى قبر النبي مبلغ	ثناء فقد أفنى الزمان ذمائي ^(١)
أمانى كانت لي زيارة قبره	وأرضى روض يانع وسمائي
إمام جميع المسلمين محمد	وأكرم مبعوث من الكرماء
أمان الورى مما يخافون حبه	فيا حب شعشع أدمعى بدمائي
أماه الأسى عيني وسعر أضلعي	فخذ بيدي يا راحم الرحماء ^(٢)

وهو يقول : أمالى من مبلغ ثنائى إلى الرسول ، وقد فنى عمرى حتى الذماء الأخير ، وقد كان من أمانى فى شبلى أن تكحل عيناى بزيارة القبر الذكى ، إنه إمام المسلمين وهاديهم إلى رضوان الله وجناته ، وأكرم رسول بعثه الله للخلق رحمة بهم ، وإن حبه لأمان للمسلمين من كل ما يخافون ، فيا أيها الحب المقدس امزج أدمعى بدمائى شوقا إليه وشغفا به ، فقد ملأ الحزن عيني بالدموع واتقدت نيران الحب النبوى فى أضلعي ، فخذ بيدي وأعني يا أرحم الرحماء . ومالك - مثل ابن خبازة - فى الذروة من شعراء عصره .

أضلى : أرقدها نارا .

(١) الذماء : قوة القلب وبقية الروح .

(٢) أماه الأسى عيني : ملأها دموعا كالسيل . سر

الفصل السادس

النشر وكتابه

١

الخطب والمواظظ

طبيعى أن تكثّر الخطب والمواظظ فى المغرب الأقصى كثرتها فى بلدان العالم الإسلامى جميعا ، إذ كانت تكرر فى كل مسجد أسبوعيا فى صلاة الجمعة وبالمثل فى صلاة العيدين ، وربما كانت كثرة تكرارها هى السبب فى أنه لم يتجرّد أحد من القدماء لتدوينها تدوينا عاما ، ومع ذلك فقد أثرت بعض خطب قالها بعض الحكام أو بعض كبار الوعاظ . ومن أوائل ما نلتقى به منها خطبة إدريس الثانى فى دولة الأدارسة سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م حين فرغ من بناء مدينة فاس وحضر صلاة الجمعة فقد صعد المنبر وخطب الناس الخطبة الأولى قائلا^(١) :

« اللهم إنك تعلم أنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سُمعة ولا مكابرة ، وإنما أردت أن تُعبد فيها ، ويُتلى كتابك ، وتقام حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد ﷺ ما بقيت الدنيا . اللهم وفق سكّانها وقطّانها للخير وأعنهم عليه ، واكفهم مئونة أعدائهم ، وأدرّ عليهم الرزق ، وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق ، إنك على كل شىء قدير . »

وهذه الخطبة الماثورة عن إدريس الثانى إنما هى قطعة من خطبته ، وفيها يعلن أنه لم يبن فاسا مباهاة ولا ابتغاءا لشهرة ، إنما بناها ابتغاء لوجه الله وثوابه حتى يعبد فيها ويتلى كتابه وتقام حدوده وسنة رسوله الكريم ، وتحققت سريعا نيّته ، فقد أقامها مدينتين متقابلتين : مدينة القرويين من أهل المغرب ومدينة الأندلسيين الذين لجئوا إليه زمن الحكم الرضى فى الأندلس وثورة الفقهاء عليه ونفيه لطائفة كبيرة منهم ، فنزلت كثرتهم المدينة الغربية ولم يلبث أن شيّد فى مدينة القرويين الجامع المشهور باسمها : جامع القرويين وأصبح أقدم جامع فى إفريقيا للدراسات الدينية إذ بُنى الجامع الأزهر بعده بنحو مائة عام . وازدهرت فى جامع فاس هذه الدراسات حتى العصر الحديث . ودعا إدريس لسكان فاس دعوات كريمة . أن يوفق الله أهلها للخير ويمدّهم بعونه ويكفهم مئونة أعدائهم ، ويوفّر الرزق لهم ويقيهم الفتنة والشقاق .

(١) النبوغ المغربى ٣٣/٢ .

وكان حكمه حكما عادلا رشيدا . وهدم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ما كان بين مدينتي فاس من أسوار وجعلهما مدينة واحدة ، وأقام على النهر الفاصل بينهما جسورا يمكن الانتقال من إحداها إلى الأخرى بسهولة .

ومرّ بنا في نشأة دولة المرابطين أن أصلهم من قبيلة صنهاجة التي كانت تشغل الصحراء جنوبى المغرب وبعض بقاع إفريقيا المدارية السوداء حتى السنغال ، وكانوا يعيشون معيشة بدوية واتخذوا اللثام على وجوههم شعاراً لهم ، ولذلك يسمون الملتّمين ، ولم يكونوا يعرفون تعاليم الإسلام معرفة قديمة ، فجلب لهم رئيسهم يحيى بن إبراهيم الكدالى - كما مرّ بنا - الشيخ عبد الله بن ياسين ليفقههم بدقة على تعاليم الإسلام وسرعان ما أصبح زعيمهم الدينى بجانب يحيى الكدالى الزعيم الحربى ، ودفعهم الشيخ ابن ياسين جنوبا لنشر الإسلام وشمالا لجمع كلمة المسلمين فى تلك الأراضى النائية . واستولت صنهاجة بزعامته الدينية على إقليمى سجلماسة والسوس ، ودفعها شمالا على المحيط لقتال برغواطة وكانت قد ظلت - منذ الأيام الأولى لدولة الأدارسة - خارجة على الإسلام ، وتبأ فيها متنبئون وآمنوا بهم ، واتجهت إليهم جيوش صنهاجة .. وتوفى يحيى الكدالى فخلفه فى القيادة الحربية لصنهاجة أخوه أبو بكر واستطاع استئصال شأفة البرغواطيين سنة ٥٥٣ غير أن عبد الله بن ياسين طعن طعنة قاتلة فى إحدى المعارك سنة ٥٥١ فخطب فى صنهاجة وهو مشرف على الموت ، ومما قال فى خطبته ، وكان قد سماهم المرابطين أى للجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه^(١) :

« يا معشر المرابطين ! إنكم فى بلاد أعدائكم ، وإني ميّت فى يومى هذا لا محالة ، فإياكم أن تجبنوا أو تفشلوا فتذهب ربحكم ، وكونوا ألفّة وأعوانا على الحق وإخوانا فى ذات الله تعالى . وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة فإن الله يؤتئ ملكه من يشاء ويستخلف فى أرضه من أحبّ من عباده . ولقد ذهب عنكم فانظروا من تقدّمونه منكم يقوم بأمركم : يفود جيوشكم ويغزو عدوكم ويقسم بينكم فيحكم ، ويأخذ زكاتكم وأعشاركم » .

وهو يناديهم باسم المرابطين حتا على جهاد برغواطة المارقة ، ويقول لهم إنكم تواجهون أعداءكم فاحذروا أن تجبنوا فى حربهم ، فيقضوا عليكم القضاء المبرم ، وينصحهم أن يتعاونوا على نصرة الحق وأن يكونوا إخوانا فى ذات الله ينشرون دينه الحنيف ، كما ينصحهم أن يتعدوا عن هذا المرض الخبيث : مرض التحاسد على طلب الرياسة ، فإنه لم يهلك الدول العربية مرض مثله ، ويقول إن الله يؤتئ ملكه من يشاء فلا داعى للتحاسد والتباغض . ويقول : لقد انتهيت وذهب عنكم فاختراروا لكم زعيما عادلا ذا بأس وقوة يفود جيوشكم ويغزو عدوكم ويقسم

(١) النبوغ المغربى ٣٤/٢ .

قسمة عادلة ما تغنمون من عدوكم وتؤدون إليه زكاتكم . وهكذا ظل الشيخ عبد الله بن ياسين ينصح للمرابطين حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

ومر بنا أن محمد بن تومرت المصمودى مؤسس دعوة الموحدين قد اقترض لنفسه من دعوة الشيعة الإمامية التي تعرّف على مبادئها أثناء مقامه بالعراق ثلاثة مبادئ هي أنه إمام ومهدى ومعصوم ، واقترض من مبادئ المعتزلة التي تعرف عليها هناك مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومبدأ التوحيد ، وهو عند المعتزلة يعنى نفى التشبيه بالمخلوقات عن الذات العلية نفياً باتاً معارضين بذلك أهل السنة الذين يرون عدم تأويل الآيات القرآنية التي يفهم منها التشبيه مع الإيمان بترك ذلك لله جلّ شأنه . ومن خطية لابن تومرت قوله^(١) :

« إن الله - سبحانه وله الحمد - منّ عليكم أيها الطائفة بتأييده ، وخصّكم من بين أهل العصر بحقيقة توحيده ، وقبض لكم من ألفاكم ضلّالاً لا تهتدون ، وعمياً لا تبصرون ، لا تعرفون معروفاً ولا تنكرون منكراً ، قد فشت فيكم البدع ، واستهوتكم الأباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل ، وترهات ، أنزه لسانى عن النطق بها ، وأربأ بلفظى عن ذكرها ، فهذاكم الله بعد الضلالة ، وبصرّكم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزّكم بعد الذلّة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين ، وسيورثكم أرضهم وديارهم . ذلك بما كسبته أيديكم وأضمرت قلوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد » .

وابن تومرت فى هذه القطعة من خطبته يشير إلى مبدئين تعتنقهما جماعته هما المبدآن الاعتزاليان اللذان أشرنا إليهما : مبدأ التوحيد ، ويقول إن الله خصّهم من بين أهل العصر بحقيقة توحيده ، ويقصد - كما قلنا آنفاً - أنه منزّه عن التشبيه بالمخلوقات ، ويقول إن الله خصّهم بذلك من بين أهل العصر ويريد المرابطين وفقهاءهم من أهل السنة الذين لا يتأولون آيات التشبيه المذكور فى القرآن الكريم من مثل (يد الله فوق أيديهم) ويقولون علم ذلك عند الله بينما يتأول المعتزلة اليد بمعنى القدرة . والمبدأ الاعتزالى الثانى الذى أشار إليه ابن تومرت هو ما يزعمه دائماً من أن خصوم جماعته من المرابطين لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، أما أتباعه الموحدون فهم - فى رأيه دائماً - يأمرّون بالمعروف وينكرون المنكر ، ولا يلبث أن يسميهم - لعدم أخذهم بهذين المبدئين - مارقين عن الدين خارجين عليه ، ينبغى حربهم ومحو سلطانهم ، ويعبّد أصحابه بأنهم سيزيلون هذا السلطان ويرثون أرضهم وديارهم .

وكان الموحدون يدعون للأخذ فى الفقه بمذهب داود الظاهرى القائل بإلغاء الإجماع

(١) النبوغ الغربى ٣٦/٢ .

والقياس أو الاجتهاد العقل في الأحكام الفقهية والاكتفاء بالكتاب أى القرآن والسنة أى الحديث النبوى . وأخذ بهذا المذهب فى كبة ابن حزم الفقيه الأندلسى وأخذ به الموحدون كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وانتصر للموحدين كثيرون من الشعراء والكتاب والفقهاء والخطباء . وللقاضى أبى حفص عمر السلمى خطبة يتنصر فيها للمذهب الظاهرى ضد المذاهب الأخرى ، وفيها يقول^(١) :

« إياكم والقدماء وما أحدثوا فإنهم عن عقولهم حدثوا ، أتوا من الافتراء بكل أعجوبة ، وقلوبهم عن الأسرار محجوبة . الأنبياء ونورهم - لا الأغبياء وغرورهم - عنهم يتلقى ، وبهم يُدرك السؤل : (عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) الدين عند الله الإسلام ، والعلم كتاب الله وسنة محمد ﷺ ، ما ضرَّ مَنْ وقف عندهما ما جهل بعدهما . »

وظن بعض من قرأ فى هذه الخطبة كلمة القدماء أنه يريد الفلاسفة وهو إنما يريد الأسلاف من الفقهاء الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة ، فهو يدعو دعوة الموحدين من إهمال فقههم وفتاويهم جميعاً ، والرجوع إلى الكتاب والسنة كما يقول الموحدون وأهل الظاهر فى عصره ، وهو لا يخفى ذلك بل يعلنه إعلاناً ، إذ يقول « العلم كتاب الله وسنة محمد ﷺ » ويقول فى موعظة له^(٢) : « لا علم إلا علم الكتاب والسنة ، هما أفضل العطايا والمنة . »

ونلتقى بالمنصور المرنى يعقوب بن عبد الحق ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م - ٦٨٥ هـ / ١٢٨٧ م وكان بطلاً مغواراً وكأنما نذر نفسه لحرب نصارى الإسيان مساعدة للمسلمين وبنى الأحمر فى إقليم غرناطة . وكان لا يزال يعد العدة من الخيل والسلاح ويعبر الزقاق مع جنوده الأشداء لغزو حصون النصارى بإسبانيا ومدنهم ، وكان ما يأخذه منهم يعطيه لبنى الأحمر ، أمراء غرناطة فهو لا يحاربهم طلباً لمغنم ، وإنما لما عند الله من ثواب المجاهدين فى سبيل دينه ونصرته . وأول سنة عبر فيها الزقاق بجنوده سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م وعاد إلى عبوره بجيش كثيف سنة ٦٧٧ وأبلى فى الحرب حينئذ بلاء عظيماً ، وبالمثل فى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م واستولى على بعض حصونهم وتركها لبنى الأحمر ، وفى سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م عبر الزقاق لجهاد النصارى وهزم نونيو جونزالث دى لارا جنوبى قرطبة هزيمة ساحقة . وفى أوترته أدركته المنية بالجزيرة الخضراء ، وله من خطبة بحث فيها جيشه على الجهاد^(٣) :

« يا معشر المسلمين وعصابة المجاهدين : إن هذا يوم عظيم ، ومشهد جسيم ، ألا إن الجنة قد فتحت لكم أبوابها ، فخذوا فى طلائها ، فإن الله (اشترى من المؤمنين أنفسهم

(١) النبوغ المغربى ٣٧/٢ .

(٢) النبوغ المغربى ٣٨/٢ .

(٣) أزهار الرياض للمقرئ ٣٥٩/٢ .

وأموالهم بأن لهم الجنة) فشمروا عن ساعد الجد، معاشر المسلمين، في جهاد المشركين. فمن مات منكم مات شريداً، ومن عاش عاش غانماً مأجوراً حميداً ﴿صَبِرُوا﴾ وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴿﴾.

وهي كلمة فصلت من قلب مجاهد صادق أبلى في سبيل دينه ونصرته بلاء عظيمًا، ويشير جيشه بأن الجنة قد فتحت أبوابها لاستقبال الشهداء المبرورين، كما وعد الله عباده المجاهدين المؤمنين، ويدعوهم إلى الجهاد بكل ما يملكون من قوة، فإن من قُتل منهم شهيدًا فاز برضوان ربه، ومن عاش غنم من العدو غنمًا كبيرًا، وأثابه الله ثوابًا عظيمًا. ويذكرهم بآية كريمة تدعو إلى الصبر في الحرب والمراطة للعدو حتى النصر العظيم.

ومما أثر من خطب يوم الجمعة ومواعظها لأبي عبد الله محمد الرهوني الفقيه المالكي الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ/١٨١٥ م وكان قد اشتغل بالخطابة الدينية والموعظة، وله مجموعة في خطب الجمعة، ومن خطبة له في التذكير والترغيب^(١):

«أيها الناس: حصّص^(٢) لكم الحق فتبصّروا، وتبين لكم الرشد من الغي فالزموا الطاعة وتذكروا، وحملتم على سلوك الطريق المستقيم فاستقدموا ولا تتأخّروا، وحذّرتكم من العدول عنه فخافوا الله واحذروا، وأسبغت عليكم النعم ظاهرة وباطنة فاعرفوا حقّها واشكروا، واعلموا أن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا، وإياكم والتقصير في العمل فلن تَسْعُدُوا مع التقصير أو تُعْذَرُوا، وكونوا من قوم أشرقت لهم أنوار الهداية فأبصروا، وتليت عليهم آيات الله فتدبّروا، ولا تكونوا ممن استعبدتهم الدنيا فشرّبوا من كنوس حبّها حتى سَكِرُوا، وقطعوا أعمارهم في اتباع شهواتها فخابوا وخسروا، وأنهبوا سبيل الذين استعدوا لمواطن القيامة كأنهم شاهدوا أهوالها وحضروا، ورأوا عذاب النار فكفّوا أنفسهم عن السوء وانزعجوا، وسمعوا ما أعدّ الله لأولائه في الجنة فاجتهدوا بالطاعة وبادروا».

وواضح أن الرهوني يحسن رصف السجع في خطبه، ويحاول أن يستم جرسها بما التزم في نهاية عباراتها من حرف الراء المضمومة، فهو يريد أن يخلب الأسماع بحسن بيانه وإحكام التقابل في نهايات الأسجاع، وليس ذلك فحسب، فهو يعنى بلغته فيختار لها ألفاظا رصينة جزلة تحسن وقعها في آذان المستمعين. وهو بجانب عنايته باختيار ألفاظه وانتخابها يوفر فيها ألوانا من الطباق المستحسن مثل: «بين لكم الرشد من الغي» وقوله: «فاستقدموا ولا تتأخّروا» وقوله: «وأسبغت عليكم النعم ظاهرة وباطنة». ولا ريب في أن الرهوني كان خطيبا فذا

(٢) حصص الحق: ظهر.

(١) التبوغ الغربي ٤١/٢.

وكان يؤثر بخطابته ووعظه في سامعيه تأثيرا بعيدا ، وهو خطيب مغربي من خطباء كثيرين كاندهم نفس هذه الروعة في الخطابة والوعظ .

٢

الرسائل الديوانية

أخذت الرسائل الديوانية تزدهر في المغرب الأقصى منذ عهد يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين واستدعائه أبا بكر بن القصيرة رئيس ديوان المعتمد بن عباد وتكليفه برياسة ديوانه في مراكش عاصمته ، وكان آية في البيان والبلاغة ، فأرسل في الديوان المراكشي تقاليد الكتابة الديوانية الأندلسية ، وظل رئيسا لهذا الديوان حتى وفاة يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ للهجرة ، وظلت له رياسته في عهد ابنه على حتى وفاته سنة ٥٠٨ للهجرة . واحتفظت الذخيرة لابن بسلام برسالتين^(١) له كتبهما على لسان يوسف بن تاشفين ، أولاهما موجهة إلى صاحب قلعة بنى حماد في الجزائر ، والثانية موجهة إلى ابن حمد بن محمد بن علي حين ولي القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م ، وله يقول فيها :

« استهدى الله يهديك ، واستعن بالله يُعينك في صدرك وورذك^(٢) وتول القضاء الذي ولاه الله بجِدٍّ وحزم ، وجلدٍ وعزم ، وأمض القضاء على ما أمضاه الله تعالى في كتابه وسنة نبيه ، ولا تُبالِ برغم راعم ، ولا تشفق من ملامة لائم ، وأس^(٣) بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع قوى في حيفك ، ولا يأس ضعيف من عدلك . ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه ، وانصح لله تعالى ورسوله عليه السلام ولنا ولجماعة المسلمين . وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يُسلموا لك في كل حق تُمضيه ، ولا يعترضوا عليك في قضاء تُقضيه . ونحن أولا وكلهم آخرا مذ صرت قاضيا سامعون منك غير معترضين عليك في حق . والعمال والرعية كافة سواء في الحق » .

وواضح أن ابن القصيرة تأثر في رسالته إلى القاضي ابن حمد بن رسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري حين يدعو إلى المساواة بين الناس في وجهه وعدله ومجلسه حتى لا يطمع قوى في حيفه ولا يأس ضعيف من عدله ، وحين يقول له : « لا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه » . ومن الطريف في الرسالة أن يوسف بن تاشفين يجعل القاضي فوقه وفوق الجنود والولاة المرابطين

(١) الذخيرة ، القسم الثاني ص ٢٥٧ وما بعدها . (٢) أس : سؤ .

(٢) صدرك : ما تصدر عنه . وردك : ما ترد إليه .

وفوق الرعية ، فليس لأحد من كل هؤلاء الحق فى أى اعتراض على القاضى فى حكم من الأحكام ، فمنذ صار ابن حمدى قاضى الجماعة فى قرطبة أصبحوا جميعا خاضعين له . وهو جانب مشرق فى القضاء الإسلامى ، نجده فى كل بلد وكل دولة ، إذ كانت مكانة القاضى فوق مكانة الحاكم مهما بلغ من النفوذ والسلطان . وعنى الدكتور محمود مكى فى المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية بتحقيق مجموعة من رسائل كتاب الديوان المرباطى فى عهد على بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) بينها تسع رسائل لابن القصيرة من الرسالة الخامسة فى المجموعة إلى الرسالة الثالثة عشرة . والرسالة السابعة فى المجموعة أشبه بمنشور وجهه على بن يوسف إلى أهل الأندلس بطاعة الوالى وأن لا يخالفوا عليه أو يعصوه فى أمر ، إذ يقول فيها^(١) :

« إن الوالى النائبُ عنا فى تدبيركم وإقامة أموركم ، وسياسة صغيركم وكبيركم ، وقد فوضنا إليه ذلك وأفردناه بالنظر فى دقه وجمله ، وقله^(٢) وكثره ، وما فعل من ذلك كله فنحن فعلناه ، وما قال فيه فكأننا نحن قلناه ، ولا نوقف ما أمضاه ، ولا نُمضى ما وقعه وأباه ، ولا نرى فى أحد منكم إلا ما يراه ، ولا نتولاه كائن ما كان إلا أن يتولاه ، ولا نرُضى من أحواله ما لا يرضاه : بلساننا يتكلم ، وعمّا فى جناننا يترجم ، وعلى ما يوافقنا يُسدى ويُلجم^(٣) » .

وهذا التفويض للوالى فى الأحكام من حسن السياسة ، فالحاكم الكبير - مثل على بن يوسف - يتضامن مع ولاته فى كل ما يفعلونه ويقولونه ، حتى تنتظم أمور الرعية ، ولا يتخذ الشذاذ الفرصة للخلاف مع الوالى مما قد يؤدى إلى الثورة . غير أنه كان ينبغى أن ينصح الولاة - مع ذلك - بالعدل مع الرعية ونصفه المظلوم والضعيف ، وأن يفتحوا أبوابهم للرعية حتى يسمعوها شكوى كل مظلوم أو متظلم . ويقول عبد الواحد المراكشى فى حديثه عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إنه اجتمع له ولابنه على من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار^(٤) ، وفى حديثه عن أمير المسلمين على بن يوسف يقول : « لم يزل من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك كأتى القاسم بن الجند المعروف بالأحذب أحد رجال البلاغة وأبى بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة وأبى عبد الله بن أبى الخصال وأخيه أبى مروان وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون فى جماعة يكثر ذكرهم ، وكان من أنبهم عنده وأكبرهم مكانة لديه أبو عبد الله محمد بن أبى الخصال ، وحق له ذلك إذ هو أحد من انتهى إليه علم

(١) المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (٢) يُسدى ويلجم : ينسج .
(٣) للمعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٢٧ .
(٤) بمديرية .

(٢) الدق والقل : القليل . الجل : الكثير .

الآداب ، وله مع ذلك فى علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى^(١) ، وله ديوان رسائل يدور بأيدى أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه ونصبوه إماما يقتفونه . وبمعهد المخطوطات بالقاهرة التابع للجامعة العربية نسخة من هذا الديوان ، وله أربع رسائل ديوانية فى مقال د . محمود مكى فى المجلدين السابع والثامن من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية بعنوان : « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » ونذكر قطعة من إحدى هذه الرسائل كتبها سنة ٥٠٧ للهجرة على لسان على بن يوسف بن تاشفين ، وهى موجهة إلى أهل الأندلس لحثهم على جهاد النصارى الإسبان وتعريفهم بأنه عزّم على خوض معركة حامية الوطيس معهم ، وفى أولها يقول :

« كتابنا - أعزكم الله بتقواه ، وكنتفكم بظل ذراه ، ووفر حظوظكم من حسناه - من حضرة مراکش - حرسها الله - يوم الاثنين من منتصف شوال من سنة سبع وخمسمائة بين يديّ حركتنا يمين الله فاتحتها وعقبها . وقد قرعنا الظنايب^(٢) ، وأشرعنا الأنابيب^(٣) ، وضمّرنا اليعاسيب^(٤) ، واستنفرتنا البعيد والقريب ، مستشعرين إخلاص نية ، وصدق حمية ، فى نصر دين الإسلام ، ومنع جاتبه أن يضم ، أو يناله من عدوه احتضام^(٥) . ونحن - وإن كنا قد بالغنا فى الاحتشاد والاستعداد ، واستنهضنا من الأجناد ، ما يُرى على الحصر والتعداد ، فإننا نعتقد اعتقاد يقين بقول رب العالمين ، فى كتابه المين : ﴿ قُلْ مَا يَعْجُزُ بَكُمْ رَبِّى لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ ﴾ : إن استنفار الدعاء ، واستفتاح أبواب السماء ، بخالص الشاء ، من أنفع الأشياء ، وأنجح الدعاء ، فيما أعزل^(٦) من الأدواء .

ولعل فيما سبق من قيام كبار الكتاب فى الأندلس على الكتابة فى ديوان المرابطين بمراكش عشرات السنين ما يدل على أنهم وضعوا تقاليد الكتابة فى هذا الديوان وأرسوها فيه وظلت راسخة بعد عهدهم فى عهد الموحدين ومن جاء بعدهم ، ويتوقف القلقشندى فى كتابه : « صبح الأعشى » لذكر التقاليد المتبعة فى الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين ، ولا ريب فى أنها موروثه عن العهد السابق لهم عهد المرابطين ، ويقول القلقشندى إنها كانت تتخذ أحد أسلوبيين^(٧) : إما أن تفتتح بلفظ من فلان إلى فلان ، وكان الرسم فيها أن يقال : « من أمير المؤمنين فلان » ويُدعى له بما يليق به ، ثم يؤتى بالسلام ، ثم يؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبى ﷺ والترضية عن الصحابة ثم عن إمامهم المهدى ، ثم يؤتى على المقصود ، ويختتم

(١) المعجب ص ٢٣٧ .

(٢) قرع الظنايب كناية عن الإسراع إلى الحرب .

(٣) أشرعنا الأنابيب : سدنا الرماح .

(٤) ضمّرنا اليعاسيب : ذلنا الخيل للحرب .

(٥) احتضام : ظلم .

(٦) أعزل : أعجز . الأدواء : الأمراض .

(٧) صبح الأعشى ٤٤٣/٦ .

بالسلام . والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب إليه » . ويمثل القلقشندى لهذا الأسلوب برسالة عن عبد المؤمن بقلم أبي جعفر بن عطية إلى محمد بن سعد المشهور باسم ابن مردنيش ، وسنعود إليها عما قليل . والأسلوب الثاني في المكتوبة لعهد الموحدين - كما يقول القلقشندى - أن تفتح المكتوبة بلفظ أما بعد ، والأمر فيه على نحو ما تقدم في الأسلوب قبله بعد البعدية . ويمثل لهذا الأسلوب الثاني برسالة عن المستنصر بالله (٦٠٩ - ٦٢٠هـ) إلى بعض نوابه ، ومثلها رسالة عن يوسف ابن عبد المؤمن بقلم أبي الحسن بن عياض ، وسنعرض لها عما قليل .

ويذكر عبد الواحد المراكشي في كتابه : « المعجب » كتاب الإنشاء لعبد المؤمن المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين ، وهم : أبو جعفر أحمد بن عطية ، وسنخصصه بترجمة ، وكتب له بعده - كما يقول - أبو القاسم عبد الرحمن القالمى من أهل مدينة بجاية من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكتب له معه أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة^(١) . وكتاب الإنشاء في عهد ابنه يوسف - كما يقول المراكشي - هم أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش كاتب أبيه وأبو القاسم المعروف بالقالمى كاتب أبيه أيضا وأبو الفضل جعفر بن أحمد المعروف بابن محشرة ، من أهل مدينة بجاية كان يخدم أبا القاسم القالمى إلى أن مات فكُتب مكانه^(٢) . وواضح أن ابن محشرة والقالمى من بجاية ، ولذلك ترجمنا لهما في الجزء الخاص بالجزائر . وكتاب ابنه يعقوب - كما يقول المراكشي - أبو الفضل جعفر بن محشرة ، وكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش من أهل بُرشانة من أعمال مدينة المرية ، ولم يزل كاتباً له ولابنه محمد (الناصر) ولابن ابنه يوسف^(٣) (المستنصر) إلى أن توفي سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢٠ م . وهؤلاء هم كتاب الدولة المهمين حتى العقد الثالث من القرن السابع قبل نشوب الخلاف والفتن والحروب بين أبناء أسرة عبد المؤمن وقبل خروج الأندلس من طاعتهم .

ونشر المستشرق يروفتصال مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية ، وهو مملوء بالتصحيف ويحتاج إلى تحقيق ويشتمل على سبع وثلاثين رسالة ، منها ست عشرة لأبي جعفر أحمد بن عطية على لسان عبد المؤمن ، وسنفرد له ترجمة ، ومنها ثلاث لأخيه أبي عقيل عن عبد المؤمن ، ولم يذكره المراكشي بين كتابه ، وثلاث أخرى لأبي الحسن بن عياش أولها عن عبد المؤمن والاثنتان الأخريان عن ابنه يوسف ، ورسالة لأبي الحكم بن المرخي عن عبد المؤمن ولم يذكره المراكشي أيضا بين كتاب عبد المؤمن ، وثمان رسائل لابن محشرة عن يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب ، وثلاث رسائل لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن

(٣) المعجب ص ٣٣٨ .

(١) المعجب للمراكشي ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) المعجب للمراكشي ص ٣١٦ وما بعدها .

عياش من أهل بُرْشانة كما أسلفنا : رسالة عن يعقوب واثنان عن ابنه الناصر ، ويقول ابن الأبار في ترجمته له بكتابة التكملة إن السلطان (يعقوب) بالمغرب استكتبه في سنة ٥٨٦ فنال دنیا عريضة^(١) إذ كان صاحب القلم الأعلى - كما يقول ابن الخطيب في الإحاطة - على عهد المنصور وابنه الناصر وتضيف أيضا على عهد المستنصر حتى سنة ٦١٨ كما مرُّ بنا ، ويقول ابن الخطيب إنه كان لا يكلم أحدا من الناس إلا بكلام معرب . ويقول المراكشي في المعجب : جرى الكتاب بعده على أسلوبه ، وسلخوا مسلكه لما رأوا من استحسان خلفاء الموحدين لطريقته^(٢) : وفي رأينا أنهم اتبعوا طريقته في الكتابة هو وكبار الكتاب الأندلسيين المذكورين منذ عصر المرابطون كما قلنا آنفا . وذكرنا أن أبا الحسن بن عياش له في مجموع الرسائل الموحدية ثلاث إحداها على لسان عبد المؤمن وهي تتبع الأسلوب الثاني الذي ذكره القلقشندي مبتدئة بالبعدية على هذا النحو^(٣) :

« أما بعد حمد الله الذي عمَّ بنوالة ، وخصَّ أهل ولايته بقبوله وإقباله ، والصلاة على محمد عبده ورسوله ، وعلى صحبه الأكرمين وآله ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بإتمام أمر الله وإكمالِه ، المؤيد بالآيات العصمية ، والبيّنات الحكيمة ، في كافّة أقواله وأعماله ، فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم أعمالا زاكية نامية ، وآمالا في بلوغ مرضاته مساعفة مؤاتية - من حضرة مراکش - حرسها الله - وكوافل العصمة لهذا الأمر العزيز تضرب بقدرها الأعلى^(٤) ، وتوجب على [أهل]^(٥) الاتصال حظوة الامتثال^(٦) لأهل كلمة الله العليا ، وتجمع لهم [وعدا^(٧)] حتما مقضيا ، ووعدا [حتما^(٨)] مأثريا بين خير الآخرة وخير الدنيا . وبشوت هذه القاعدة تستوثق^(٩) أحوال هذا الأمر الكريم على مقتضى الأقدار المساعدة ، وتستنُّ اطرادا واتساقا على طريقة واحدة . »

وفي جميع الرسائل في هذه المجموعة الموحدية نجد الصلاة على ابن تومرت والإشادة به وأنه الإمام المهدي المعصوم مستعيرة هذه الألقاب كما مرُّ بنا من الشيعة الإمامية ، ويضيف أبو الحسن عبد الملك (بن عياش) أنه قام بإتمام أمر الله وإكمالِه) يشير بذلك إلى المبدئين المتممين لدعوته : مبدأ الأمر المعروف والنهي عن المنكر ومبدأ التوحيد بمعنى تنزيه الله عن التشبيه بالمخلوقات . ويجعل أبو الحسن كوافل العصمة شاملة لعهد عبد المؤمن ، ويسميه مع شيوخ الموحدين أهل كلمة الله العليا ، وكلمته - في رأيه - إنما هي دعوة الموحدين بمبادئها التي ذكرناها . والرسالة

- (١) التكملة لابن الأبار (طبع مدريد) رقم ٩٥٢ .
 (٢) المعجب ص ٣٣٩ .
 (٣) مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) ص ٩٣ .
 (٤) القدح الأعلى : الحظ الأوفر ، وأصله أهم قداح الميسر .
 (٥) زيادة للسياق .
 (٦) في الأصل : الاحتصال .
 (٧) زيادة بدلالة السياق .
 (٨) في الأصل : تستوثق .

موجهة من عبد المؤمن إلى طلبة (دعاة) بعض مدن الأندلس يخبرهم بوصول رسالتهم في غزواتهم للروم ويحرضهم على حربهم واستئصال شأنتهم وجذورهم . ولأبي الحسن عبد الملك بن عياش رسالة^(١) عن يوسف بن عبد المؤمن إلى محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش الناصر في شرقي الأندلس يدعوه سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٤ م إلى الدخول في طاعة الموحدين ، وهي في فاتحتها تتبع الأسلوب الأول الذي ذكره القلقشندي ، وتستهل بهذه الصورة :

« من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين - أيده الله بنصره ، وأمدّه بمعونته - إلى أمير شرق الأندلس أبي عبد الله محمد بن سعد - أمدّه الله بتوفيقه ، وأعزّه بطاعته وتقواه - سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلّي على سيدنا محمد نبيّه ورسوله ، والحمد لله الذي أقام لأمره الذي هو سفينة النجاة ، وعصمة الحيا والممات ، دعاة يأخذون بالحجز عن النار ، ويقيمون لمن ضلّ السبيل ، وعدم الدليل ، من معالم الهداية إلى صراطه الواضح ، ومنهجه اللائح ، أهدى علم وأرفع منار ، ويتقدمون في إبلاغ حجته ، وإيضاح محجّته^(٢) ، يبالغ الإنذار والإعذار ، ويصرفون بما أودعوا من سرّه المكنون ، لبثه في الظهور والبطون ، والسهول والحزون ، وجوه العناية الآخذة بمجامع الأقطار ، الموجهة بالإعراض عن الأعراض إلى ما يقضى بهذه الخليقة ، من ركوب هذه الطريقة ، إلى سعادة هذه الدار ، وسعادة تلك الدار (الآخرة) وصلى الله على محمد عبده ورسوله مشكاة الأضواء والأنوار ، ولباب الاجتماع والاختيار ، المحبّ^(٣) بمعدن بيته الأشرف ، ونسبه الأشهر الأعرف ، سِرُّ هذا النبا السيار وارث ذلك المقام الذي هبّت تباشيره بأسماع ذوى الإصاحبة^(٤) لمواقع الاستبشار ، ورضى الله عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بأمر الله على أوفى الاعتقاد بتأييد الله وأتم الاستظهار ، الماضي قُدُمًا في التصميم وإنفاذ العزم^(٥) على أمر طلّقي وأبعد مضمار ، المعان فيما دعا إليه ، ونبّه عليه ، بالعصمة التي لا تضره معها إياة أباة^(٦) ولا كفر كفار . وعن خليفته وصاحبه الإمام أمير المؤمنين ، ممثلي أمره العزيز على ما له^(٧) من المراسم المحفوظة والآثار ، ومقيم على حدوده المكلّوة الملحوظة دون ونية ولا إقصار ، والناصر له بكل معنى تتوجّه إليه داعية الاستبصار . »

وهو يحمد الله في فاتحة الرسالة لإسناده الأمر إلى يوسف بن عبد المؤمن وشيوخ الموحدين ، ويسميهم دعاة ، ويقول إنهم يحجزون بدعوتهم الناس عن النار ويقيمون لهم أهدى علم وأرفع

(١) تنظر مجموع رسائل موحدية ص ١٤١ ومابعدها . (٥) في الأصل : العريم .

(٢) في الأصل : نجته . (٦) في الأصل : آباء .

(٣) في الأصل : المخبوء . (٧) في الأصل : ماله .

(٤) في الأصل : الإضاحه .

منار حتى لا يضلوا الطريق السوي المستقيم عن الهداية الراشدة الصحيحة ، وسرها المكنون ، لنشرها في السهول والخرزون وكل مكان حتى يسعد الناس في الدنيا والآخرة ، ويشيد بالرسول الكريم ثم يدعو لابن تومرت الله ليرضى عنه ، ويسميه إمام المعصوم المهدي المعلوم . والرسائل الموحدية جميعا تذكره في فاتحتها وتضفي عليه هذه الصفات التي أضفاها على نفسه مقترضا لها من بيئة الشيعة الإمامية ، ويقول إنه قام بدعوته ونشرها في الناس بتأييد الله ، وإن عبد المؤمن خليفته سار على هده وما وضع للدعوة من المبادئ والمراسم المحفوظة . ونراه يقول في وصف ابن تومرت في الرسالة : « إن رسول الله ﷺ بشر بعلامات المهدي وأخبر عن أماراته الشاهدة له الدالة عليه من الاسم والنسب والزمان والمكان والفعل » وكان ابن تومرت لفق له نسباً - كما يقول المؤرخون - يصله بالرسول ﷺ ويقول أيضا عنه : « القائم في آخر الزمان بعد شمول الضلالة وتلد (تلث) الحيرة وتموج الفتنة وارتفاع العلم وفشور الظلم . فظهر لما خصه الله به من الهداية ، وعلمه من الحكمة ، وأحلّه مقام العصمة ونوّله^(١) من معقل الإمامة ، وخرق له من العادات ، وأجرى على يديه من الآيات ، ما صدق ما نطقت به الآثار ، وتضمنته الأخبار ، واحتوت عليه الصحف وتداولته النقلة ، مما أعطى القلوب العارفة الطمأنينة » . ويشيد بدعوته وأنها ستظل قائمة إلى قيام الساعة ، كما يشيد بيوسف خليفة أبيه عبد المؤمن الناصر لدعوة ابن تومرت والحامل العباد على طريقته المنصور المظفر دائما .

وتظل الرسائل الموحدية تبيد وتعيد في فواتحها بالإشادة بابن تومرت وأنه الإمام المهدي المعصوم إلى أن تولى المأمون إدريس الخلافة سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م ، فأعلن إلغاء هذه الألقاب لابن تومرت وأزال اسمه من السكة وخطبة الجمعة ، وأذاع في الدولة رسالة بذلك من إنشائه ، يقول فيها^(٢) :

« من عبد الله إدريس أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين إلى الطلبة (دعاة الموحدين) والأعيان والكافة ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم^(٣) الله شكر نعمه الجسام ، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الأيام الوسام^(٤) ، وإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم عملا منقادا ، وسعدا وقادا - وللحق لسان ساطع وحكم قاطع ، وقضاء لا يُرد ، وباب لا يُسد ، وظلال على الآفاق ، تمحو النفاق ، والذي نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وتعلموا أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق ، وأن لا مهدي إلا عيسى بن مريم (يقصد أنه تكلم في المهدي) الناطق بالصدق ، وتلك بدعة قد أزلناها .. كما أزلنا لفظ العصمة عن لا تثبت له عصمة ، وأسقطنا عنه وصفه ورسمه .. وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة ،

(٣) أوزعهم : ألهمهم .

(٤) الوسام : الحسان .

(١) في الأصل : نواه .

(٢) النبوغ المغربي ١١١/٢ .

فما الظن بمن لا يدري بأى يد يأخذ كتابه ، أف لهم قد ضلوا وأضلوا ، وسقطوا فى ذلك وزلوا ، اللهم اشهد أننا تبرأنا منهم تبرأ أهل الجنة من أهل النار .

غير أن عهد المأمون سرعان ما انقضى وعاد الخلفاء وشيوخ الموحدين إلى أن ابن تومرت هو الإمام المهدي المعصوم ، وظلت دعوته حية إلى أن قضت عليها الدولة المرينية . ويقول القلقشندي بعد عرضه لأسلوبى الرسائل المستخدمين أيام الموحدين : « ثم طرأ بعد ذلك الإكثار من الألقاب لخلقائهم فى المكاتبات الصادرة عنهم والمبالغة فى مدحهم وإطرائهم^(١) » وفات القلقشندي أن يذكر أيضا الإكثار من ألقاب المرسل إليه إذا كان حاكما كبيرا ، ويوضح ذلك فى عصر الدولة المرينية رسالة للسلطان أبى الحسن المرينى كتبها إلى السلطان المصرى الناصر محمد بن قلاوون خادم الحرمين حينذاك فى شأن ركب الحجاج المغاربة ومصحف خطه بيده ووقفه على الحرم النبوى الشريف ، والرسالة تستهل على هذه الصورة^(٢) :

« من عبد الله على أمير المسلمين ناصر الدين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرّين ، مالك العدوتين (المغرب والأندلس) ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرّين ، وسلطان العدوتين أبى سعيد بن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرّين وسلطان العدوتين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأيد مقامه ، وفسح - لفتح معاقل الكفر ، وكسر جحافل الصُفّر - أيامه . إلى السلطان الجليل الكبير الشهير العادل الفاضل الكامل الكافل الملك الناصر المجاهد الم رابط المؤيد المنصور الأسعد الأصعد الأرقى الأوفى الأمجد الأنجد الأفخم الأضحّم الأرحد ناصر الدين عاضد كلمة المسلمين ، محى العدل فى العالمين ، فاتح الأمصار ، حائز ملك الأقطار ، مفيد الأوطار ، مبيد الكفار ، هازم جيوش الأرمن والفرنج والكرج والتار .

ويستمر طويلا فى إضفاء مثل هذه الألقاب عليه مع ما يطوى فيها من مبالغات ، ويذكر أن أباه قلاوون العظيم ويكيل له هو الآخر الألقاب . ويدعو له ويسلم عليه قائلا : « أبقى الله ملكه موصول الصولة والاعتدار ، محمى الحوزة حاميا للديار ، حميد المآثر الماثورة والآثار ، عزيز الأولياء فى كل موطن والأنصار ، سلام كريم ، زاك عميم ، تُشرق إشراق النهار صفحاته ، وتبقى عن شذا الروض المعطار نفحاته ، يَخْصُ إخاءكم العلى ، ورحمة الله وبركاته » . وتمضى الرسالة بعد ذلك مسجوعة من أولها إلى نهايتها ، والسجع فى الرسائل بالمغرب قديم منذ عصر الموحدين .

ويظل فن الرسائل مزدهرا فى عصر السعديين ، ويجمع الأستاذ عبد الله كنون طائفة كبيرة

(٢) النبوغ الغربى ١١٥/٢ .

(١) صبح الأعشى ٤٤٦/٦ .

منها وينشرها باسم رسائل سعية ، ومنها رسالة بقلم عبد العزيز الفشتالى صاحب القلم الأعلى ورئيس ديوان الإنشاء فى عهد المنصور الذهبى وهى موجهة على لسانه إلى « سكية » أمير كاغو عاصمة السودان الغربى الذى تولى الحكم هناك سنة ٩٩٦ هـ / ١٥٨٨ م قبل غزو المنصور لبلاده واستيلائه عليها وخلعه سنة ٩٩٩ للهجرة ، وفيها يقول^(١) :

« إلى كبير كاغو وأميرها ، ومالك زمام أمورها وتديرها ، والمرجوع إليه - عند خاصتها وجمهورها ، الأمير الأجل ، الأئيل^(٢) الأحفل - الأمر - سكية ، وصل الله كرامته ، وجعل التقى سمته وعلامته ، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، أما بعد حمد الله مسهل المرام ، وميسر أسباب الكمال والتمام ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد شفيح الأنام ، المبعوث بالحنيفية السمحاء إلى الخاص والعام ، والرضا عن آله الأئمة الأعلام ، وخلفاء الإسلام ، وعن أصحابه الذائين عن كلمته بالسنان والحسام ، ومواصلة الدعاء لهذا الجنب الكريم (جناب المنصور الذهبى) بالعز السامى المقام ، والنصر المنشور الرايات والأعلام ، فإننا كتبناه إليكم من حضرة فاس المحروسة بالله ، وعناية الله وارفة الظلال ، ونواسم النصر والإقبال دائمة المحبوب بالبر والاصل ، والله المنة » .

ويذكر الفشتالى بعد ذلك الغرض من رسالته ، وهو أن معدن الملح فى بتغازى (بين تمبوكتو ودرعة فى جنوبى المغرب الأقصى من إيالة المنصور الذهبى وفى حكم إمامته وأنه يختص ببيت مال المسلمين ، ولذلك رأى المنصور أن يضع عليه خراجا يرفع المسلمين ويضر أعداء الله الكافرين ، ويذكر له أنه جعل الخراج مثقالا على كل جمل من سائر الإبل التى تحمل هذا المعدن ، ويقول له إن ما سنحصل عليه من الأموال سيصرف فى سبيل الغزو والجهاد وفى أرزاق العساكر الأجناد ، التى جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد ، واعتدناها لحياطة البلاد والعباد . ثم يقول محبا له فى الرضا عن دفع بتغازى لهذا الخراج : إن هؤلاء الجنود الذين سيأخذون أرزاقهم أو بعبارة أخرى روايتهم من هذا الخراج هم « جنود الله التى لولاها - وما حجزت بينكم وبين طواغيت الشرك سيوفها القاصمة ، وضربت فى وجه الكفر دونكم بأسوارها العاصمة ، وخضدت من شوكة الشرك باستئصال حماته وأنصاره ، ومنازلته على الدوام فى عقر داره - لفاض عليكم طوفانه السائل ، وسال على أرضكم منه شؤوب^(٣) » . وكتب عنكم عنان الكفر حتى نتم فى كفالتها آمين ، وفى جياطلتها وادعين ومطمئين . ويطلب إلى سكية الإسعاف والإسعاد وأن لا يسعى فيما يطل هذه الفريضة من الخراج التى تعود بالنفع على الإسلام وتؤيد حزب الله فى مواصلته لقتال عبدة الأصنام .

(١) راجع الرسالة فى كتاب رسائل سعية لكتون (٢) الأئيل : الأصل .

(٣) الشؤوب : الدفعة من المطر .

والرسالة مسجوعة فى لغة رصينة امتاز بها الفشتال - فى شعره كما مرّ بنا - وفى رسائله ونثره .

وتظل فى العصر العلوى الرسالة الديوانية محبّرة يسجع فيها الكتاب ويتأنقون صورا مختلفة من التألق . ويشير من كتبوا عن التاريخ الأدبى لأيام العلويين إلى رسائل دينية كتبها السلاطين العلويون ، وقلموا استشهدوا بشيء منها ، وينوهون برسالة كتبها محمد بن إدريس العمراوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٧ م بلسان السلطان العلوى عبد الرحمن بن هشام إلى ابنه الأمير محمد بشأن الحملة التأديبية الموجهة إلى قبيلة زمرور وفيها يقول^(١) :

« كنا أردنا الإبقاء على قبيلة زمرور رحمة وإشفاقا ، وحملهم على الاستقامة بالإرهاب بالشدّة فى بعض الأمور هداية وإرفاقا ، فلم يرد الله بهم خيرا لفساد نيّتهم ، وخبث طويّتهم ، واتكالمهم على حوّلهم وقوتهم ، وما رأوا منا ليّنا وسدادا ، إلا ازدادوا شدّة وفسادا ، ولا أظهرنا لهم عظة وإرشادا ، إلا أظهروا تطاولا وعنادا ، وما أخرنا الفئة المنصورة عن الركوب إليهم إبقاء وإلغا ، إلا ظنوا ذلك عجزا وضعفا ، قد طمّس الإعجاب منهم بصرا وسمعا ، ولم يروا أن الله قد أهلك قبلهم من القرون من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا » .

٣

الرسائل الشخصية

طبيعى أن تكثّر الرسائل الشخصية فى المغرب الأقصى منذ القرن السادس الهجرى لاكتظاظه بالكتب منذ ذلك الحين ، ومن طريف ما نلتقى به فى القرن السادس رسالة للقاضى أبى موسى بن عمران المتوفى سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م كتب بها إلى ابن له بفاس فى طلب العلم ، وهى تمضى على هذه الصورة^(٢) :

« إلى ولدى .. هداة الله وصاته ، وجملّه بالعلم والتّقوى وزانه . كتبته إليكم عن اشتياق كثير ، وبمشيئة الله - تعالى - تيسّر الأمور ، ويتكاتف السرور ، وإذا وجدتمكم - على ما أحبه من أدوات الحفظ والأداء ، ولزام آداب العتلاء - جازيتكم بما يُرضيكم ، وبما يزيد على أقصى تمنّيكم ، وقد أجمعت الأئمة على أن الراحة لا تُنال بالراحة ، وأن العلم ، لا يُنال براحة الجسم ، فادرس تزوّس ، واحفظ تحفظ ، واقرأ ترقّ . ومهما ركنّت إلى الدّعة كنت فى

(١) الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية (٢) التبوغ المغربى ١٦٥/٢ .

للدكتور الأخضر ص ٤١٢ .

أهل الضَّعة . وما رأيت الناس مجتمعين على حَمْدِهِ فاجتلبه ، وما رأيتهم مجتمعين على ذَمِّهِ فاجتنبه ، والأعدل الأقسط ، أن تسلك السبيل الأوسط :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففى صالح الأعمال نفسك فاجعل »

والرسالة من والد فقيه قاض يأمل لابنه مستقبلا علميا يرفعه بين العلماء ، وهو يدعو له أن يتجمل بالعلم والتقوى ويزدان بهما ، فهما الزينة الحقيقية للإنسان ، ويقول له إنه سيكون له مكافأة ترضيه ، إذا وجده على ما يتمناه له من حسن الحفظ والأداء اللغوي للكلام ، ويذكر له أن ما يتمناه الشاب في المستقبل من الراحة والطمأنينة لا ينال براحة الجسم والكسل ، ويقول له : ادرس وتعمق في الدرس حتى يأتي يوم تروى فيه أقرانك واحفظ المتون والعلوم تحفظ ، وأكسب على القراءة يرق فكرك وترق بين الناس ، أما إذا ركنت إلى الكسل والدعة كنت من أهل الضَّعة والانهطاط والخسة . وإذا رأيت الناس يجمعون على مدح شيء وحده فاجتلبه واكسبه ، وإذا رأيتهم يجمعون على ذم شيء فاجتنبه وابتعد عنه . ويقول له إنه ينبغي لك دائما أن تتخذ لنفسك في الحياة السبيل الأوسط ، حتى لا يتلومك أحد على الإفراط والمبالغة في شيء ولا على التفریط والتقصير في شيء ، فخير الأمور الوسط . ويذكر له أن كل شخص يضع نفسه في المنزلة التي يختارها لنفسه ، وينبغي أن تضع نفسك دائما في خدمة الأعمال الطيبة الصالحة . ويرسل أبو القاسم الحسنى الشريف في العهد المرنى قصيدة مع رسالة في شبابه إلى ابن هانيء السبتي الذي مر بنا أنه توفي شهيدا في جبل طارق سنة ٧٣٧ هـ / ١٧٣٧ م ويرد عليه ابن هانيء برسالة طويلة جاء فيها^(١) :

« هذا - بُني - واصل الله لي ولك علوَّ المقدار ، وأجرى - وفق أو - فوق إرادتك وإرادتي لك جاريات الأقدار ، ما سنح به الذهن الكليل ، واللسان الفليل ، في مراجعة قصيدتك الغراء ، الجالبة السراء ، الآخذة بمجامع القلوب ، الموفية بجوامع المطلوب ، الحسنة المهيبة^(٢) والأسلوب ، المتحلية بالخلى السنية ، العريقة المنتسب في العُلا الحسنية .. وإنك واحد حلبة البيان ، والسابق في ذلك الميدان يوم الرهان ، فكان لك القَدَم ، وأقرُّ لك مع التأخر السابق الأقدم ، فوَحَقَّ فصاحة ألفاظ أجدها حين أوردتها ، وأسلتها حين أرسلتها ، وزنتها حين وزنتها ، وبراعة معانٍ سلكتها حين ملكتها ، وأصلتها^(٣) حين فصلتها ، ونظام جعلته بجسد البيان قلبا ولمعصمه قلبا^(٤) ، وهضرتَ حداثته غلبا^(٥) ، واركتبت رويته صعبا .. بُني ! كيف رأيت للبيان هذا الطَّوع ، والخروج فيه من نوع إلى نوع ، أين صفوان بن إدریس ، ومحلّ

(١) النبوغ المغربي ١٥١/٢ .

(٢) المهيبة : الطريق البين .

(٣) أصلت : أبرز .

(٤) القلب : السوار يكون نظما واحدا .

(٥) هصر : جذب وأمال . غلبا : كثيرة الأشجار .

دعواه بين رحلة وتعريس^(١) ، كم بين ثغاء بقر الفلاة وزئير ليث الفريس^(٢) ، كما أتى أعلم قطعاً وأقطع علماً ، وأحكم قضاء وأقضى حكماً ، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائعة ، وفريدتك الحالية الفائقة ، المعارضة بها قصيدته ، المتسخة بها فريدته لذهب عرضاً وطولاً ، ثم اعتقد لك اليد الطولى ، وأقرّ فارتفع النزاع ، وذهبت له تلك الغايات والأطماع ، ونسى كلمته اللؤلؤية ، ورجع عن دعواه الأدبية ، واستغفر ربّه من الألهية .

ويدو أن أبا القاسم الحسنى الشريف نظم قصيدته معارضة لقصيدة بديعة لصفوان بن إدريس الذى شهد له أقرانه ومعاصروه الأندلسيون بالبراعة الشعرية الفائقة ، وسماوا قصيدته القصيدة اللؤلؤية ، ولعله أرسل بها مع قصيدته المعارضة إلى ابن هانئ السبتي ليشهد له بتفوقه . وهو يستهل رسالته لأبى القاسم بأن قصيدته تأخذ بمجامع القلوب ، ويشيد ببلاغته وأنه واحد حلبة البيان ، والسابق يوم الرهان ، إذ هو الأرسخ قدماً مما يجعل صفوان بن إدريس السابق الأقدم يشهد له بروعة بلاغته . وينوه ابن هانئ بفصاحة ألفاظه وبراعة معانيه ، ويقول أين بيان صفوان بن إدريس من بيانك ، ويبالغ فى ذلك قائلاً إن بيانه كثغاء أو صياح بقر الفلاة بينما بيانك كزئير الأسد وهو ينهش فريسته . وزعم له أن صفوان لو استمع إلى قصيدته البارعة وفريدته التى عارضه بها لنسخت قصيدته كما تنسخ الريح آثار الديار ولأقرّ لك بالبراعة الشعرية وأن قصيدتك تفوق قصيدته اللؤلؤية ، واستغفر ربّه من دعواه .

وكان ابن الخطيب أديب غرناطة المشهور فى القرن الثامن الهجرى يكتب أدباء المغرب الأتقى المشهورين ويساجلهم بالشعر تارة ، وبالرسائل تارة أخرى ، ومن أرسل إليهم إحدى رسائله ليساجله أبو جعفر الجنان المكناسى محاولاً أن يحرك قريحته الأدبية ، فرد عليه برسالة استهلها بثلاثة أبيات مشيدا فيها ببيانه ، وفيها يقول منوهاً برسالته إليه^(٣) :

« جلوت على من بنات فكرك عقائل نواهد ، وأقمت بها على معارفك الجمّة دلائل وشواهد ، واقتنصت بشوارد بديهتك من المعالى أوايد شوارد ، وفجرت من بلاغتك وبراعتك حياضاً عذبة الموارد ، ثم كلفتنى من إجراء ظالمى فى ميدان ضليعها^(٤) ، مقابلة الشمس النيرة بالسراج عند طلوعها ، فأخلدت^(٥) إخلاد مهيض الجناح ، وفررت فراراً الأعزل عن شاكى^(٦) السلاح ، وعلمت أننى إن أخذت نفسى بالمقابلة ، وأدليت ذلّو قريحتى للمساجلة ، كنت كمن كلّف الأيام رجوع أمسها ، أو طلب من علته السماء محاولة لمسها .. ثم إن أمرك - يا سيدى -

(١) تعريس : إقامة .

(٢) الفريس : الضليع : الأقرج .

(٣) أخلد : سكن وفكر .

(٤) شاكى السلاح : كامل السلاح .

(٥) الفريس : ما يفترس من الحيوانات .

(٦) النبوغ الغربى ١٥٥/٢ .

لا يُحَلَّ وثيقُ مُبرمه ، ولا يُحَلُّ نَسْخُ محكمه ، فامتثلت امتثال من لم يجد في نفسه حرجا من قضائك ، ورجوت حُسْنَ تجاوزك وإغضائك ، أبقاك الله قطبا لفلک المكارم والمآثر ، وفَصًّا لخاتم المحامد والمفاخر .

وهو يشيد ببيان ابن الخطيب في رسالته ، ومعروف أنه أحد بلغاء الأندلس بل العرب قاطبة ، وأبو جعفر يحكم اختيار ألفاظه وسجعاته ، ويضيف إلى ذلك تشبيهات واستعارات بارعة ، من ذلك تشبيهه في جذبه له لمساجلته بمن يحاول أن يجرى فرسا ظالما أعرج مع فرس ضليع قوى متين أو بمن يحاول مقابلة الشمس المنيرة عند طلوعها بسراج لا يكاد ضوءه في نورها يبين ، وسكن محمًا كأنه مهبط الجناح ، بل لقد جمع نفسه وقرر الفرار من المساجلة فرار الأعزل من حامل السلاح وشاهره ، ويخال نفسه إن أدلى دلو قريحته عازما على المساجلة كان كمن يكلف الأيام أن ترد أمسها عليه ، بل كمن يطلب من شخص لمس السماء يديه . ثم يعود إلى نفسه فيرى أن ليس من حقه أن ينقض أمرا لابن الخطيب أو ينسخ حكما له ، فامتثل راجيا منه تجاوزه وإغضائه عن ضعفه في البيان ، ويدعو الله أن يبقى ابن الخطيب قطبا للمحامد والمآثر وفَصًّا نفيسا لخاتم المكارم والمفاخر . وكان ابن الخطيب في عصره يُعَدُّ زعيم الأدب والأدباء ، وأهدى إليه أبو القاسم الشريف الحسنی ديوانا له سماه جهد المقل ، ومعه الرسالة التالية^(١) :

« الحمد لله الكبير المتعال المسئول أن يعصمنا من خطئ القول وزلل الأعمال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأرسال . هذه أوراق ضمنتها جملة من بنات فكري ، وقطعا مما يجيش به بعض الأحيان صدرى ، ولو حزمت لأضربت عن كتبها كل الإضراب ، ولزمت في دفتها وإخفائها دين الأعراب ، ولكني آثرت على المحو الإثبات ، وتمثلت بقولهم : « إن أحسن ما أوتيته العرب الأبيات . وإذا هي عُرِضَتْ على ذلك المجد ، وسألها كيف نجت من الواد ، فقد آويتها من حرمكم إلى ظل ظليل ، وأحللتها من فنائكم إلى معرسٍ ومَقِيلٍ^(٢) ، وأهديتها علما بأن كرمكم بالإغضاء عن عيوبها كفيل ، فاغتنم قليل الهدية منى إن جهد المقل غير قليل ، فحسبها شرفا أن تبوأَتْ في جنبك كنفا ودارا ، وكفاحا فخرا ومجدا أن عقدت بينها وبين فكرك عقدا وجوارا » .

وهو يقول إن أوراق الديوان تضمنت طائفة من بنات فكره ، ولو أخذ نفسه بالحزم لا تمتنع عن كتابتها كل الامتناع ، بل لمحاها محو ، غير أنه عاد قاتر على المحو الإثبات وتمثل بقولهم إن أحسن ما أوتيته العرب أبيات يقدمها الشاعر بين يديه . ثم يذكر أنها إن عُرِضَتْ

النهار .

(١) النبوغ المغربي ١٧٦/٢ .

(٢) معرس : ميت . مقيل : مكان في القيلولة بنصف

عليه ، وسألها كيف نجت من الواد عرف أنها آوت من حرمة إلى ظل ظليل ، وحلت من فناء داره وساحتها إلى خير معرّس ومقيل ، ويقول إن كرمه سيجعله يغضى عن عيوبها ، وحسبها شرفاً أنها نزلت من جنبه داراً ، وكفأها مجد وفخراً أن انعقد بينها وبين فكرك جوار حميد وعقد وثيق . ولابن شبرين المتوفى سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٧ م رسالة فكهة كتب بها إلى أبي الحكم بن مسعود الشاهد بالمواريث ، ويفتحها بقوله^(١) :

« أطال الله بقاء أخى وسيدى لأهل الفرائض يحسن الاحتياال فى مُداراتهم ، وللمنتقلين إلى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط فى أمواتهم ، ودامت أقلامه مُشرعة^(٢) لصرم^(٣) الأجل المنسأ^(٤) ، معدة لتحليل هذا الصنف المنشأ ، من الصلصال والحما ، فمن مئت يُنسل وآخر يُقبر ، ومن أجل يُطوى وكفن يُنشر .. وكلما خربت ساحة ، نشأت فى الحانوت راحة ، وكلما قامت فى شُعب^(٥) مناحة ، اتسعت للرزق مساحة » .

وتمضى الرسالة فى مثل هذه الفكاهة وشاهد المواريث يسأل عن العقار والأملك ، ويقول عن المتوفى إنه ذكر فى الأسماء الخمسة مع ذو فقيل ذو مال ، وأرجل أعوانه تدب إلى الأسفاط ديبب الصقر إلى الحجل^(٦) ، وحضر الموروث والمكسوب ، ووزن بالأرطال ، وكيل بالأفداح ، والشاهد يصيح فتعلو صيحته ، والمشرِف يشرف فتسقط سُبُخته ، وتقسم التركة ويحضر الورثة . وكل ذلك فى أسلوب فكه بديع .

وتظل الرسائل الشخصية فى العهدين السعدى والعلوى تكتب بهذا الأسلوب المسجع البديع ، والكتاب يتبارون فى انتخاب ألفاظهم وصياغاتهم انتخاباً يروق ويروع .

٤

المقامات والرحلات

(أ) المقامات

المقامات جمع مقامة ، وهى من أهم فنون النثر العربى ، ابتكرها بديع الزمان الهمذانى فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، عارضاً أفاصيص على لسان أديب سيار ممن كانوا يسمون فى

(٤) النسأ : المؤجل .

(٥) شعب : طريق .

(٦) الحجل : جمع حجلة : طائر فى حجم الحمام .

(١) النبوغ المغربى ١٧٧/٢ .

(٢) مشرعة : منصوبة .

(٣) صرم : قطع .

عصره بالساسانيين الذين كانوا يحترفون الكُذبة أو الشحاذة الأدبية في الحصول على أموال الناس بفصاحتهم وحيلهم في أسلوب قصصى يشيع فيه الحوار ، واتخذ بديع الزمان لمقاماته أدبيا متسولا كبيرا ، هو أبو الفتح الإسكندري ورواية يروى أقاصيصه وحيله يسمى عيسى بن هشام ، وشاعت مقاماته في العالم العربي . وأوفى بهذا الفن على الغاية الحريرى التى تداولت مقاماته المغرب والبلدان العربية . وكان كثير من العلماء والأدباء يعقدون لإملائها وشرحها للطلاب مجالس متعاقبة ، وحاولت كل بلدة أن تُدلى بدلوها فى هذا الفن ، غير أن كثيرين من البلدان العربية رأوا أن يعدلوا بها عن صورتها الأصلية إلى موضوعات أدبية فيها قصص وحوار . وأول ما يلقانا من ذلك فى المغرب الأقصى مقامة لعبد المهيمن الحضرمى الوزير وصاحب القلم الأعلى فى عهد أبى سعيد المرنى ثم فى عهد ابنه أبى الحسن المتوفى سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩ م ، وقد سماها « مقامة الافتخار بين العشر الجوار » وهن بيضاء وسمراء ، وطويلة وقصيرة ، وسمينة ونحيفة ، وعربية بدوية وحضرية ، وعموز وصيبة . وكل واحدة منهن تناظر نقيضتها فى حسنها . وقد لقيهن - كما يقول فى مفتتح مقامته بوادى الجوهر فى إحدى المدن ، وأجرى على ألسنتهن هذه المناظرة الطريفة . وكانت أول جارية تكلمت وطلبت المناظرة جارية يفوق ضياء وجهها ضياء الشمس فقد وقفت بين الصفوف وتقدمت وقالت^(١) :

« الحمد لله الذى جعل البياض طراز كل جمال ، وشرف أهله بالحياء والكمال ، وأعطاهم عزة لا تبعد ، وصير السمر لهم عيب ، ألا وإن على قلبى جمرة ، من معاتبتك يا ذات السمر ، أعنذك يا سمراء ما عندى ، وليس قدك كقدى ، ولا خدك كخدى ، جبينى ذو ابتهاج ، وذوائبى^(٢) كقطع الزجاج^(٣) ، ورشح عرقى كمسك أذفر ، يرشح من تحت البرد والمغفر ، وثغرى أقحوان^(٤) ، وديباج وجهى أرجوان^(٥) ، وإن أسبلت^(٦) شعرى المضفور ، فظلام ليل على بياض كافور ، ثم أنشدت :

قُلْ للذى أُرزى بأهل البياض ما أنت إلا باطلُ الاعتراضِ
فورْدُ خدَى أبدا زاهرٌ فى كل فصلٍ فوق خدَى رياضِ
يا حاسدى مُت كمدًا إنما تُجنّى المُنَى من الخدود الغضاضِ^(٧)

وتقدّمت السمرء ، وحطت اللثام ، عن وجهه شهيّ الالتئام^(٨) ، وأبلغت فى السلام ، وأفصحت فى الكلام ، وقالت :

- (١) النبوغ المغربى ١٩٥/٢ والوافى ٤٤٩/٢ .
(٢) ذوائبى : صفائرى .
(٣) الزجاج : عقار أسود يصنع منه المداد .
(٤) يشبه الشعراء الثغر بالأقحوان ، وكأن تلك الزهرة تشبهه .
(٥) أرجوان : شجر له زهر شديد الحمرة .
(٦) أسبلت : أسدلت .
(٧) الغضاض : الناضرة .
(٨) لالتئام : يريد القلب .

الحمد لله الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم وجعله أفضل الحيوان ، وفرق بين الصور والألسنة والألوان ، وزين الأبيض بشعر كالغسق^(١) ، وبأسوداد الحاجبين وسواد الحَدَق . وأجل ما يقف له العاشقون إجلالا ، ويرتلون فيه الأشعار ارتجالا : مِسْكَةُ الخال ، وعقرب الدلال . ثم التفتت إلى البيضاء وقالت : يا أشبه شيء بجين الروم .. ما زال طعامك قليل الملح ، وجفنتك كثير الرُّشَح ، ولبنك أذى ، وعسلى أتا غِذا ، ولونى لون الخمر ، وطعمى طعم التمر ، ثم أتشدت :

الحمد لله ليس الثبر كالورق قد أحسن الله فى خلقى وفى خلقى^(٢)
فالجسم منى نضار صيغ منظره بمسكة ففدا طيبا لمتشيق
يا من يعيرنا باللون إن لكم جهلا يقود إلى الطغيان والحُمق
كم أسمى قلبه كافورة وله من السعادة نجم لاح فى الأفق

فلما فرغت من كلامها ، وما أبدعته من حسن نظامها تبرعت بنقابها ، وسلّمت على الصفيّين ، وقبّلت أسارى الكفّين .

وواضح أن عبد المهيمن الحضرمى أجرى على لسان الجارية البيضاء النعوت التى تزينها فى الخلق والأخلاق مثل الحياء والكمال ، وتوسع فى وصف جمالها بذكر جمال القَدِّ والخذِّ والجبين والصفائر المغرقة فى السواد ، وذكر أن ثغرها أقحوان ووجهها أرجوان ، وأشاد بوردها وأنه يحيل حدودها رياضاً ناضرة . ويُظَنُّ كأنها ضيقت طرق الكلام على صاحبها السمرء . غير أن عبد المهيمن ما يلبث أن يفتح لها الأبواب على مصاريعها ، لتجد مجموعة من الأدلة البينة والبراهين الواضحة على روعة السواد وجماله بشهادة قولهم : شعر كنتسق الليل وإعجابهم بسواد الحاجبين وحقد العينين ، وبدليل إشادة الشعراء بالخال المشبه للمسك ، والشعر المتدلى إلى الخدود كأنه العقرب ، وتقول صاحبها إن اللبن الأبيض المشبه لك كثير ، أما العسل الأسمى المشبه لى فكثير الغذاء ، وتقفر عليها بأن لونها لون الخمر التى طالما تغنى بها الشعراء ، ثم أتشدتها شعرا يرفع الثبر أو الذهب الذى يشبه لونها على الورق أو الفضة البيضاء التى تشبه لون صاحبها ، فجسمها هى نضار ، وصيغ - كالمسك - سوادا وعطرا ، وتقول لها ما أكثر السُّمر الذين تشبه قلوبهم ما يتخذ من شجر الكافور من مادة بيضاء بلورية ، بينما نجمه نجم سعيد كل السعادة . وتليهما جارتان طويلة كاملة وقصيرة ، وما تقوله الطويلة للقصيرة : « يا زريعة يأجوج ومأجوج ، إن الحلى على القصار كالدر فى نحر القرد ، وتقول لها القصيرة : « يا شقيقة الزرافة ، يا ناقة العشير (الزوج) وقصبة النشير (جبل الغسيل) .

(١) الغسق : ظلمة الليل .

(٢) الورق : الفضة .

وبلى ذلك مشهد السمينة والنحيفة أو بعبارة أدق مناظرتهما ، وتقول السمينة لصاحبتها إنك منقوضة اللحم إذ حرّم عليك كما حرّم على بنى إسرائيل الشحم ، وتقول لها النحيفة إن قلبها بالعلف هائم ، كما تفعل البهائم . ونقرأ مناظرة العربية البدوية والجارية الحضرية ومما تقوله الجارية العربية : نحن ربّات القلوب ، ومتتهى غاية كل مطلوب ، جمالتنا أبدع جمال ، ولساننا أفصح لسان . ومما تقوله الحضرية : إن رُغيان الجمال لا يفتخرون بحسن ولا جمال .

إلا إنما الحسنُ حسنُ الحضَرِ علينا ومنا وفيما ظهرُ

وتناظرت العجوز والصبية ، وكانت العجوز مخضوبة البنان ، وليس لها أسنان ، وبدأت كلامها بقولها : « الحمد لله راحم الشيب ، وسائر العيب » ومما قالته الصبية للعجوز : « أما رأيت شعري الفاحم ، وثغرى الباسم ، وغصنى الناعم » . وقالت لها العجوز : « بورك فيك من صبية ، وفى ألفاظك الزكية » . واستدار الجوارى حول العجوز ، فقالت لمن : « سأقول بينكن مقالة إنصاف ، يقتضيها الحق وجميل الأوصاف » وقالت لكل منهن كلمة أرضتها ، وبذلك ارتفع بينهن العتاب واللوم . وإذا كان عبد المهيمن الحضرمى لم يحاول أن يحاكى بديع الزمان ولا الحريرى فى مقاماتهما فإن مقامته تُعدّ طرفة أدبية بديعة .

ونلتقى فى العصر السعدى بمحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٩ هـ / ١٥٩١ م ، وله مقامة نقدية عرض فيها طائفة من أدباء زمنه ، وعادة يسأل أين الأديب فلان ؟ ويجيب بسطور مسجوعة منوها بأدبه ، وقد يكون السؤال عن مفتٍ أو فقيه ويجيب ، ونذكر لذلك مثلاً إذ يقول^(١) :

« قلت : وأين الكاتب الأديب أبو العباس الغرديس ، فقال : الدر النفيس .. ووارث المجد الذى له التهويم^(٢) والتعريس ، فعلٌ سوّده غير مقيس ، فهو والسيادة سليمان وبلقيس ، وإنه اليوم بفاس دار قراره ، ومشرق أنواره ، ومنبت رنّده وعراره^(٣) ، فلا تسئل عن النبيه والنباهة . والفضل هناك الحب الوضّاح ، والمجد الصّراح ، والأدب المزرى بالراح ، ممزوجا بالماء القراح ، ينظم وينثر ، وعلى كل ما يشاء الخاطر عنده يعثر » .

وعلى هذا النمط نعت دائما مسجوعة تضاف للشخص تنويها به وثناء عليه ، وهى بذلك لا تعد مقامة إنما هى مقال عن بعض أدباء عصره وعلمائه . وأسلوب عبد المهيمن الحضرمى السابق فى مقامته القائم على المناظرة والمفاخرة شاع بين الكتاب المصريين فى زمن المماليك وشاع معه المفاخرة والمناظرة بين الأزهار فى ضروب من السفسطة والمغالطة وقلب المحاسن

(١) انظر فى هذه المقامة كتاب الوافى بالأدب العربى التعريس : الإقامة .

فى المغرب الأقصى ٦٩٩/٣ . (٣) الرند والعرار : من أزهار البوادي .

(٢) التهويم : النوم الخفيف ولعله يريد الارتحال .

مساوى لغرض الإفحام والغلبة . ويمكن أن نعد من هذا النوع مقامة محمد بن أحمد المكلاتي التي كتبها في أواخر العصر السعدي تحية لمحمد بن أبي بكر صاحب الزاوية الدلائية ، وسماها : « المقامة ^(١) الزهرية في مدح المكارم البكرية » ويجعلها على لسان شخص يسمى « بَسَام » يقول إنهم نزلوا روضا بهيا وأمطرتهم السماء مطرا باتوا فيه ، واستيقظ في السحر بين الضياء والغيش ، وخال كأن وجوه الروض تسيل دما ، وتوهجهم من بقايا الشفق أسفر عنه ضوء الصباح ، وناداه أنا أخو الرياض الشقيق كم كسوته جمالا . يقصد أن ما يراه ويظنه دما إنما هو زهر شقائق النعمان . ويأخذ في الافتخار بحسنة ، ويجاذبه الفخر زهر النمام فعود البان الذي طالما وصف الشعراء بقده قدود محبوباتهم الحسان ، والترجس يقول لغصن البان مفاخرها وواصفها نفسه :

« أما راقك الياقوت الأصفر ، وسط الدر الأبيض ، على الزمرد الأخضر .. شموا الترجس ، ولو يوما في السنة ، فأنا غذاء الروح ، لمن يغدو عنى ويروح ، لطيف المزاج ، أصلح للعلاج ، وأزيل من الدماغ مضرة دخان السراج ، وأخيف على العشاق ، يوم التلاق ، وينشد قول بعض الشعراء :

وإذا قضيت لنا بعين مراقب يارب فلتك من عيون الترجس
يعترض زهر البنفسج نائرا مفاخرها ، وقائلا له : لا يسلم لك فخر إلا على الورد فما لأمرك عليه من رد ، وينشد قول ابن الرومي في تفضيل الترجس على الورد :

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلاً توردها عليه شاهد
لترجس الفضل المبين وإن أبي أب وحاد عن الحقيقة جاحد
وما يلبث أن يدخل الورد في المعركة للرد على ابن الرومي ومن فضلوا عليه الترجس ، يقول المكلاتي :

وتدخل البنفسج « فأقبل الورد في جنوده ، ناشرا لراياته وينوده ، محمرا الوجنات ، منكرا على البنفسج ما جاء به من الترهات :

ولقد رأيت الورد يلطم خده ويقول وهو على البنفسج يحق
لا تقربوه وإن تضوع نشره من بينكم فهو العدو الأزرق ^(٢)

وكيف يفخر الترجس من بين الرياحين ، على نخبة الملوك والسلطين :
إن كنت تنكر ما ذكرنا بعدما وضحت عليه دلائل وشواهد
فانظر إلى المصفر لونا منها فافهم فما يصفر إلا الحاسد

(١) انظر في هذه المقامة النبوغ المغربي ٢٠٨/٢ . (٢) تضوع نشره : فاحت رائحته .

ألم تسمع ما قيل ، مما سيلقى عليك القول الثقيل :

من فضّل الترجسَ فهو الذى يرضى بحكم الورد إذ يَرأسُ
أما ترى الورد غدا قاعداً وقام فى خدمته الترجسُ

أنا مشرف الربيع . ومظهر ما له من البديع ، أتعيشُ الأرواح ، وأنا عروس الأفراح ، نوافح ذكية^(١) ، وروائح شذية^(٢) ، أبديتُ ألوانا لأهل الأدب ، يقضون لها بالعجب ، فمنى الأبيض والأسود الحالك ، ومنى وراء ذلك : أصفر فاقع ، وما نصفه قان^(٣) ونصفه ناصع ، وبالحند منى شجر يُخرج وردا عليه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فأنا للرياحين ملك ملوكها ، ووسط عقودها وسلوكها :

فمن ذا يضاهينى بوصف فضيلةٍ وفضلٍ على كل الرياحين ظاهرُ
زمانى على الأزمان بى متشرفٌ وفخرى لمن يبنى التفاخر قاهرُ

وفخر الورد بديع ، وقد أنشد فيه المكالاتى مأثر من الأشعار التى تنثى على الورد وتفضله على الترجس بل على جميع الأزهار . وتثر الفخر بل تثر المقامة جميعها بديع إذ كان يعرف المكالاتى كيف ينتخب ألفاظه وكيف يقابل بين سجعاته بألفاظ مألوفة ليس فيها غريب ولا شاذ نادر . وكانت تستمع إلى هذا الحوار حمامة مطوّقة ، فأقبلت على الأزهار مفاخرة بدورها ، تقول :

« فناحت بشجنها ، وتكلمت على فنّيتها ، وقالت : كلُّ يحاول جهده ، ويقول بما عنده ، إلى لا لكم الفخار ، وأنتم لنا أعشاش وأوكار ، وفروعكم لخطبائنا منابر ، ولقياننا ستائر ، ليس رءوسكم لأقدامنا خاضعة ، ولنا كلما نزلنا ساجدة وراكعة ، وإنا على ما زعتم بنا من الجوى^(٤) وتباريج ، آخذون فى ذكر الله وتسيحه ، شغلنا بذلك فى الأسفار ، والعشى والإبكار ... ونشأت غمامة تصافح أهدابها الأرض ، وتسد الآفاق على الطول والعرض ، يحدوها الرعد ، ويستنجز منها الوعد (وينشد) :

وكان صوت الرعد خلف سحابةٍ حادٍ إذا وّت الركائبُ صاحا
أخفى مسالكها الظلامُ فأوقدت من برقها كي تهتدى مصباحا
جادت على التلعات فاكست الرُّبى حللا أقام لها الربيعُ وشاحا^(٥)

فنثرت بالأرض جواهر تغار منها البحور ، وتردان بها من أجياد الأزهار اللبّات والنحور ،

(٤) الجوى : الوجد .

(٥) التلعات جمع تلة : ما ارتفع من الأرض .

الوشاح : شريط عريض مرصع بالجواهر .

(١) ذكية : ساطعة .

(٢) شذية : عطرة نسبة إلى الشذى .

(٣) قان : شديد الاحمرار .

واختفت بعدما تجلّت ، وألقت على البطاح ما فيها وتخلّت ، ثم قالت : يا ذوات الأطواق ، البائحات بالأسواق ، المفتخرات على الأدواح ، بالغدو والرواح ، بكاؤكن كذب ، ونوحكن لعب .. ما الفضل إلا لمن أحميا الأرض بعد أن كاد زرعها يهيج فر اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج) فقلائدها مدبجة ، ورءوس أشجارها متوجة ، ولولاي لم يكن لكن مرعى ، ولا مسرح فى الأرض ولا مسعى .. وطلعت الغزالة ، وهى فى مشيها مختالة . وقالت : أعمال كسراب ، وعارض منجاب ، إذا طلعت عليه الشمس ذاب ، ألم تعلموا أنى يوح^(١) ، أغدو فى مصالح العالم وأروح ، ولولاي ما جرت الأنهار ، ولا تفتقت الأزهار . ويقول الراوى : إن جامع هذه الفضائل وإمامها عالم المسلمين .. محمد بن أبى بكر صاحب الدلاء الكريم الجواد ، ويقول بعد التنويه بفضائله إنه وقع التسليم بمناقبه ومناقب أبيه البكرية ، فطاف بالروض طواف الوداع عازما على أن يخدم جنابه بهذه الفكاهة .

وإنما أكثرت الاقتباس من هذه المقامة لأدل بوضوح على روعة ما جليه فيها المكلاى من أشعار وإبداعه فى نشرها المسجوع سجعاً يكتظ بالعدوية مع ما به فيه من ألفاظ قرآنية بديعة من مثل آية آل عمران : ﴿واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار﴾ وآية سورة الانشقاق فى وصف الأرض : ﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾ وآية سورة الحج : ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج﴾ .

ونمضى إلى عصر الدولة العلوية وعهد سلطانها إسماعيل وما كان فيه من نهضة أدبية واشتهر بين الأدياء حينئذ محمد بن الطيب العلمى المتوفى سنة ١١٣٤ للهجرة وسنفرد له ترجمة بين كبار الكتاب ، وكان يعاصره محمد المسناوى الدلائى المتوفى بعده بعامين سنة ١١٣٦ هـ/ ١٧٢٤ م وله مقامة سماها المقامة الفكرية يكي فيها زاوية الدلاء حين هاجمها وخرّبها السلطان إسماعيل العلوى ، وهو يطيل الحديث عن متنزهاتها ورياضها وأنهارها التى كانت تملأ بطاحها وتلاها ، ويشعر بخزن عميق حين يراها تحولت أطلالا عافية ، يقول^(٢) :

« منازلها خاوية ، والذئاب فى أرجائها عاوية ، وليس بها إلا الغريان واليوم ، والحمام تنوح فى أطلالها وتحوم ، فخرجت منها ودموعى نهر غزير ، بقلب كسير » .

ونلتقى أخيرا بمحمد بن إدريس وزير السلطان عبد الرحمن العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ/ ١٨٤٧ م وله مقامة يصف فيها حملة لتأديب إحدى القبائل ، ويصور مسيرتها بين الزروع والرياض ، وينسب الحديث فيها إلى نصر بن كرامة ، وفيها يقول^(٣) :

(١) يوح : اسم للشمس .
(٢) انظر الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية
(٣) انظر المقامة فى النبوغ المغربى ٢٤٣/٢ .
للدكتور محمد الأخضر ص ١٩٩ .

« مطارف السندس بالآفاق قد نَشِرتْ ، وجيوش النور (الزهر) حُشِدت ألوانها
وحُشِرت :

والأرض تُجَلَى عروساً فى ملابسها وشَتَّ حُلَاها يَدُ الأنواء بالزَّهر^(١)
والنسيم قد عَطَّر بنشره الأندية ، وغازل الأغصان فنازعها المطارف والأردية ، وجرَّ ذيل
دلاله فى الآكام والأودية :

والريح تَلَطُّمُ فيه أُرْدافَ الرُّبى مرحاً وتلثمُ أوجَةَ الأزهارِ
ومنايرُ الأغصان قد قامت بها خطباءُ مفصَّحة من الأطيهار

.. والناظر الأديب المتأمل ، ينشد قول المجنَّس الممثل .

إن هذا الربيع شىء عَجِيبٌ تضحك الأرض من بكاء السماء
ذهبَ حيثما ذهبنا ودرَّ حيث دُرْنَا وفَضَّة فى الفضاءِ

والجيش المنصور بحر متلاطم الأمواج ، يسير فيملاً الفضاء ويُنصُّ الفجاج ، ويقيم فيكون
هالة على بدر سعودٍ وشرف ، وسورَ حفظٍ لا يُعرَف له طرف ، قد رُصَّت صفوفه ، وتعدَّدت
ألوفه ، وتنوعت أجناسه وصفوفه .

والألفاظ والأسجاع والأبيات مختارة ، بحيث تغمرها السلاسة ورونق العذوبة ، مع حسن
البيان ، مما يكسب العبارات بهاء . وبدون ريب تدل مقامات ابن إدريس والمكلاطي والحضرمي -
كما دلت الرسائل والخطب السابقة - على نهضة النثر فى المغرب الأقصى .

(ب) الرحلات

أعدت فريضة الحج وزيارة القبر النبوي - من قديم - لمسيرة القوافل سنويا من المغرب
الأقصى إلى مكة والمدينة ، مما جعل كثيرين هناك يشغفون بتلك الرحلة والكتابة عنها ، وأيضاً
فإن مراكز الثقافة تعددت ، فكان كثير من شباب المغاربة يودون لو تزودوا من هذه المراكز
بما يأملون فيها من لقاء شيوخها بتنوع ثقافتهم ، وكانوا يشعرون أن من واجبه التحدث
عن هذه المراكز ومن التقوا بهم من شيوخها واستمعوا إليه وإلى ما دار أحيانا فى بعض المجالس
من حوار علمي أو أسئلة علمية . وبهذين الدافعين أخذ كثير يرحلون فى هذه القوافل عبر
البلاد المغربية ومصر والشام من أهل المغرب الأقصى ، وعنى بعضهم بوصف رحلته ووصف
البلدان التى نزلها وحلقات الشيوخ الذين استمع إليهم .

(١) الأنواء : الأمطار .

رحلة^(١) ابن رُشيد

من أقدم الرحلات المغربية وأهمها رحلة ابن رشيد محمد بن عمر الفهري ، وحدثنا عنها وعن مؤلفها الأستاذ محمد بن تاريت في الجزء الثاني من كتابه « الوافي » ونقل عن ابن خلدون أنه كبير مشيخة المغرب وسيد أهله كما نقل عن أبي البركات البليقي أنه من أهل المعرفة يعلم القراءات السبع وصناعة العربية وعلم البيان والآداب والعروض والقوافي مشاركاً في غير ذلك من الفنون أدبياً خطيباً بليغاً ، ينظم الشعر على تكلفه ويجوّد النثر ، ولد سنة ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٩ م وتوفي حوالى سنة ٧٢١ هـ/ ١٣٢٢ م بدأ رحلته في الخامسة والعشرين من عمره ، سنة ٦٨٣ وسجل فيها كل ما شاهده من البلدان والشيخوخ ومجالسهم وأخذ عنهم ، وسمّاها : « ملء العيّبة (الحقيبة) فيما جُمع بطول الغيبة ، في الوجهة الوجهة إلى الحرمين : مكة والمدينة » . وتعد مرجعاً مهماً لعلماء مصر والبلدان المغربية في أواخر القرن السابع الهجري ، إذ امتدت رحلته أربع سنوات ، وهى فى خمس مجلدات ولا تزال مخطوطة وربما كان طولها هو الذى منع حتى الآن من طبعها ، وأسلوبه فيها - كما يقول الأستاذ ابن تاريت - مرسل إلا فى وصفه لبعض الشخصيات العلمية أو لبقعة طيبة فإنه يصوغها سجعاً خالصاً كقوله عن حازم القرطاجنى :

« حبر البلغاء ، وبحر الأدباء ، ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائقة ، لا نعلم أحداً ممن لقيناهم جمع ، من علم اللسان ما جمع ، ولا أحكم من معاقل البيان ما أحكم من متقول ومبتدع ، وأما البلاغة فهو بحرهما العذب ، والمنفرد بحمل رايتهما أميراً فى الشرق والغرب ، وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها ، فهو حمّاد^(٢) راويتها وحّمّال أوقارها^(٣) .

ويخص مصر بالجزء الثالث من رحلته ، ونسوق منه وصفه لمجلس لعالم مصر فى العربية لزمته : بهاء الدين بن النحاس الحلبي الأصل تلميذ ابن مالك وأستاذ أبي حيان ، يقول :

إنه « حضر درساً له ، فسأله ابن النحاس بعد تدخله فى مسألة نحوية : من أين قدومك ، قال ابن رشيد : قلت : من المغرب . قال : من الإسكندرية ؟ قلت : من أبعد ؟ قال : من تونس ؟ قلت : من أبعد ، قال : إذن من جُؤاً (من داخل) المغرب ؟ قلت : نعم ، فقال من أى بلاده ؟ قلت : من « سبتة » فكان أول ما فاتحنى به أن قال : أيعيش سيدنا أبو الحسين بن أبى الربيع قلت : نعم ، فقال : ذاك شيخنا ، إفادة بوصول كتابه اليتيم إلى ، يريد شرحه

(١) انظرها فى الوافي ٣٨٥/٢ وما بعدها . وتوسع

المقرى فى الحديث عنه وعن رحلته وشماله وشيوخه

(٢) حماد هو حماد رارية الكوفة المشهور .

(٣) أوقار جمع وقر : حمل .

غرباً وشرقاً وتأليفه ويقول إنه كان ظاهرياً ثم يعلق على

ذلك بأن المعروف أنه كان مالِكياً ويذكر عنايته بالحديث

لكتاب الإيضاح للفارسي .. ثم قال لي : أقرأت عليه ، قلت نعم قرأت : الجُمْل (للزجاجي) والإيضاح والكتاب (لسيبويه) فلما ذكرت الكتاب قال : فاعبر (أى الحلقة يريد انتقاله إلى جواره) وتلكأت في هذا العبور واستحييتُ منه ، ولكنه أصرَّ على أن أعبر إليه ، وعبرت ، فأقعدني إلى جانبه ، فجلست مُغضياً (منكشاً) حياء منه ، فقال : اجلس متسعا ، فجلست وتمادى في الإقراء ، فاخترت الكلام - أثناء إقباله على من بين يديه من التلاميذ للإلقاء عليهم - مع الذى كان عن يميني اختلاسا ، وسألته من الشيخ ؟ فقال : بهاء الدين بن النحاس ، والتفت الشيخ إذ رأيته وثبت بين يديه ، فقال : لم ؟ ارجع إلى موضعك ، فقلت : يا مولانا لم يعرف المملوك مَنْ أنت ؟ ولو علم ما جلس هذا المجلس (أى بجوارك) وما تكلم ، فعزم على فى الغود إلى مجلسي ، فعدت ، وأشار بالاطمئنان فاطمأنت .

ولوصف ابن رشيد لهذا المجلس دلالات ، فقد كان شابا فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وابن النحاس شيخ كبير ، بل عَلم النحاة فى عصره ، وحين عرف فيه بعض الفضل العلمى فى العلم الذى يلقيه : علم العربية ، طلب إليه أن يعبر الحلقة ويجلس بجواره رغم صغر سنه . وكان علماء القاهرة والإسكندرية دائما يكرمون من يفد على مجالسهم من المغرب الأقصى شبانا أو شيوخا ، وكانوا يتعلمون لهم ، ويطلبون منهم إجازات فى قراءة بعض مؤلفاتهم . ومن يرجع إلى ما كان يقرأ هناك من هذه المؤلفات سيجد كثرة غامرة من كتابات العلماء المصريين ومؤلفاتهم تقرأ هناك وقد تشرح مرارا ، ومن يتردد اسمه هناك فى الفقه المالكي والأصول ابن الحاجب وابن دقيق العيد والشيخ خليل والقرافى وغيرهم من جلة العلماء المصريين فى كل علم وفن . وبالمثل كانت مصر تتداول بعض المتون والمؤلفات المغربية . وهذا بهاء الدين بن النحاس يقرأ لمعاصره ابن أبى الربيع عبيد الله بن أحمد العالم النحوى الكبير الذى هاجر من إشبيلية حين استولى عليها الإسبان سنة ٦٤٦ للهجرة إلى سبتة وأقرأ بها العربية طوال حياته إلى أن توفى سنة ٦٨٨ للهجرة . ونرى ابن النحاس وقد قرأ له شرحه على كتاب الإيضاح لأبى على الفارسي يتلطف فى السؤال عنه فيقول : « أيعيش سيدنا » ثم يعود فيقول لابن رشيد : ذلك شيخنا ، وقد جعله شيخه ، لا لأنه تتلمذ عليه مثل ابن رشيد ، ولكن لأنه قرأ له شرحه للإيضاح ، وفى ذلك ما يدل على مقدار إجلال أسلافنا من العلماء لمن يقرءون لهم بعض مؤلفاتهم فيعتونهم بأنهم شيوخهم ، وإن لم يلقوهم ، ولا حضروا لهم درسا فى مجالسهم العلمية . ويذكر الأستاذ ابن تاروت لابن رشيد نادرة حدثت له فى مدينة رابغ بالحجاز ، يقول :

« غريبة عنت لنا فى رابغ ، بل أغنت فى معنى قوله تعالى وأنت : ﴿يا أيها الذين آمنوا ليولنكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ وذلك أنه

صحبنى فى الطريق من المدينة ، على ساكنها الصلاة والسلام ، إلى البيت الحرام ، أحد الشيوخ من شرفاء المدينة ، فلما وافينا رابع ، رأيت عجباً من تخلل الوحوش والغزال والأرانب ، بين الجمال والرحال ، بحيث ينالها الناس بأيديهم ، والناس ينادون : حرام ، حرام ، والجوارح قد سلسلت .. فقال لى ذلك الشيخ تأمل تر عجباً ! هكذا جرت عادتنا فى هذا الطريق ، إذا مررنا به وغن محرمون نجد به من الوحش ما ترى ، فإذا عُدنا محلين لم نجد شيئاً . فلما عدنا كان كما قال ، فبان لى من معنى الآية ما لم يكن عندى بالمشاهدة .

وينثر ابن رشيد فى رحلته ، بعض أبيات له ، تدل على أنه كان ينظم الشعر ، وهو شعر متوسط ، أما نثره سواء سجع أو استرسل طليقاً من السجع نثر جيد . والرحلة تكتظ بمعارف كثيرة عن الحركة العلمية فى البلدان العربية وشيوخها لزمه .

(ب) رحلة^(١) العبدري

هو أبو عبد الله بن محمد العبدري ، أصله من منطقة حاحة إحدى مناطق إقليم مراكش ، وهى منطقة وعرة تمتلئ - كما يقول الحسن الوزان - بالجبال العالية الصخرية وبالغابات والأودية المائية الصغيرة . ويبدو أنه نشأ فى حاحة وأكمل تعلمه على شيوخ مراكش ، وكان أديباً يحسن نظم الشعر وصوغ النثر ، ولم يلتزم السجع دائماً فى رحلته ، وقد بدأها - كما يظن - فى العقد الثالث من حياته سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٩٠ م وقد استغرقت منه عامين طويلين ، وبدأها من حاحة موليا وجهه نحو شمالى الجزائر حتى مدينة مليانة ، ومرّ منها بالمدن فى الشمال حتى تونس ، ومنها إلى طرابلس فالقصر المصرى بادئا منه بالإسكندرية وأعجبته فأقام بها فترة ، ثم تركها إلى القاهرة وحمل عليها ، كما حمل على طرابلس من قبل ، واتجه منها إلى العقبة فإقليم الحجاز حيث أدّى فريضة الحج ، وزار قبر الرسول العطر ، وعلده من طريق فلسطين إلى مصر فالبلدان الإفريقية حتى بلدته ، وزاره أحيانا فى وصفه للبلدان يبالغ فى الثناء تارة ، وتارة ثانية يبالغ فى الذم والقدح ، وقد أضفى ثناءه على مدينة مليانة فى الجزائر ، وفيها يقول :

« مدينة مجموعة مختصرة ، وليست بذلك عن أمهات المدن مقصورة ، أشرفت من كتب على وادى (نهر) شلف ، واستشرفت نسيم طرفها من شرف ، فى روضة جمّة الأزهار والطرف . فرعت (امتدت) فى سفح جبل حمى جِماها أن يرام ، وشُرعت فى أصل نهر يشفى المقيم من الهيام ، شاق منظرا ، وراق مخبرا ، وشفى الظمأ موردا ومصدرا ، يشتهى الناظر إليه وهو ريان الشروع ، ويقول : لورُشْ به - لأفاق - المصروع ، وكأن حصاءه

(١) انظر فى رحلة العبدري كتاب الوافى ٣٩٣/٢ وقد فى الرباط .

نشر الرحلة وحققها الأستاذ محمد القاسم وهى مطبوعة

جُمان والماء من فوقه دموع » . ومليانة من المدن التى بناها الرومان قديما ، وهى على قمة جبل ، وبينها وبين شرشال على البحر المتوسط أربعون ميلا ، والجبل المشيدة عليه ملء بالينابيع ومغطى بأشجار الجوز » . ويقول الحسن الوزان إن بيوتها متقنة وبداخلها فستقيات جميلة ، وسكانها فى زمنه من الصناع والحاقة والخراطين ، وتشتهر بصنع أوان لطيفة من الخشب ، وكثيرون من أهلها يزرعون الأرض . وإذا كانت القاهرة لم تعجب العبدى فإن الإسكندرية أعجبه وفيها يقول :

« مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الإشراف واللامع والطلاقة ، وطلاوة النظر وحلاوة المذاقة ، كلٌ عنها ظُفر الزمان ونابه ، وفُلٌّ منها جيش الجِدْثان وأحزابه ، فلم تبد عليها للزمان ضراعة ، ولا وكست لها فى معاملاته سلعة ولا بضاعة ، ولا وقفت له موقف ذل يوما ولا ساعة ، بل ثبتت لحزبه ثبوت البطل ، وصارت كيده حتى اضمحلَّ سحره وبطل ، فلم تصنع أذنا إلى ما يوعد به من الخنا والخطل ، فهى واقفة وقوف الأطواد سامية بطرف غير كليل وجيد غير مناد^(١) ، آخذة من الكفر وأهله بالمخنق^(٢) ، حتى أبدلتهم من الصافى المروِّق الكدر المرتق^(٣) ، فسامروا الأسف مسامرة الندى للمخلق^(٤) ، ودجا عليهم ليل هم ادلمُّ بعد نهار سرور تألق ، واضطرم عليهم الأسى واحتدم ، فحالفوا الندم .. مدينة فسيحة الميدان ، صحيحة الأركان ، مليحة البنيان ، تُسفر عن مُحَيَّا جميل المنظر ، وترنو بطرف ساج^(٥) أحور ، تبسم عن ثغر كالأقحوان إذا نور ، كأنه لم يغب عنها شخص الإسكندر^(٦) ، بما ساس فيها من عجائب مبانها ودبر ، ناهيك بمدينة كلها عجب ، قد ستر حسنها حسن غيرها وحجب ، ووفى فيها الإتقان حقه كما وجب ، وقد أغنى عن تسطير وصفها ما سطره الأعلام ، وصرت^(٧) به على المهرق الأفلام » .

وكان العبدى يتخفف أحيانا من السجع ويرسل الكلام إرسالاً ، ويمثل الأستاذ ابن تاروت لذلك بقوله فى عمود السوارى بالإسكندرية :

« هو حجر واحد مستدير عال جدا ، على قدر الصومعة (المأذنة) المرتفعة ، وهو يبدو من بعيد بارزا فى غابة النخيل مرتفعا عنها ، وقد أُقيم على حجارة منحوتة مرتفعة ، على قدر الدكاكين العظام ، علوها أزيد من قائتين ، ولا يعلم كيف أُقيم عليها ، ولا كيف ثبت هنالك مع الرياح والعواصف ، وهو مما لا يمكن تحريكه البتة ، فضلا عن إقامته هنالك » .

- (١) غير مناد : مستقيم .
(٢) المخنق : موضع الحيل فى العنق للخنق .
(٣) المرتق : المزداد الكدر .
(٤) كبريم جاهلى مدحه الأعشى بأن الكرم بيت معه .
(٥) ساج : ساكن .
(٦) الإسكندر هو الإسكند المقدونى مؤسس الإسكندرية .
(٧) صرَّت : صوتت . المهرق : الصحيفة يكتب فيها .

ولعله لم يظلم بلدا كما ظلم طرابلس ، فقد ذمها ذما بالغ فيه : ذم موقعها وبيئتها وذم أهلها ، وربما كان ذمه لطرابلس وغيرها مثل القاهرة يرجع إلى أنه لم يكن يخالط ذرى المروءة فيهما ومن يحمله على المدح لا على القدح ، أو كان يتعرف على أشخاص مذمومين فذم - دون ريث وتأن - البلد التي تأوى أمثالهم ، وقد نالت تونس منه الحظ الأوفر في الثناء ، ومن قوله على لسانها :

أنا الغادة الحسناء فاق جمالها فقلت يميناً لا خطبتُ على زوج
إذا الغانيات ارتذنَ وصفَ بعولته فما بى ولا فخر - إلى الزوج - من حوج
وفى لمكدودي الحجيح استراحة فهم يردوني الدهر فوجاً على فوج
وانسى - إلى البيت العتيق - كسليم به يرتقى من فى الحضيض إلى الأوج

رحلة^(١) العياشى

هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى المولود سنة ١٠٣٧/١٦٢٨ م ، كان أبوه من شيوخ الزاوية الناصرية ، وعنى به فحفظه القرآن الكريم وثقفه بما يعرف من العلوم الدينية واللغوية ، وأرسل به إلى مدينة فاس ليتزود من حلقات علمائها ، وأخذ ييرع فى بعض العلوم ، وألف فى كثير من المسائل النحوية والفقهية وفى الحديث النبوى وفى التصوف ، وكان شاعراً وله مدائح نبوية كثيرة ، توفى سنة ١٠٩٠ هـ/١٦٧٩ م واشتهر برحلته إلى أداء فريضة الحج ، وهى رحلة موسوعية يعطينا فيها معلومات كثيرة عن البلدان التى نزل فيها والحركات العلمية بها ، ومن قوله فى حديثه عن إقامته بالمدينة المنورة :

« كانت مدة إقامتنا بالمدينة سبعة أشهر ونصف لأننا دخلناها - كما تقدم - فى الليلة الثانية من محرم ، وكان خروجنا منها إلى مكة فى السابع عشر من شعبان ، وكنا نسكن أولاً فى محل نزولنا بجوار مشهد سيدنا إسماعيل ، كما تقدم ، وكان أفسح الأمكنة وأوسعها وأبعدها عن زحام الناس ، به أخلية للوضوء ، وبيران - كما تقدم - وكان قيم المشهد أحد أصحابنا المغاربة المجاورين ، وهو الذى أنزلنا به ، وكان يتولى إصابحه وكسه وإغلاق أبوابه ، ويقبض ما يؤتى به من الصدقة إليه ، ولأه ذلك مفتى المالكية بالمدينة صاحبنا الخطيب أحمد وأخوه الخطيب عبد الرحمن لأن ولاية المشهد لهما . فإذا اجتمع من الصدقات ما له بال دفع لهما حصة منه ، وانتفع بالباقي ، كما هو شأن سائر المشاهد بالمدينة وبغيرها . »

وهكذا يجرى الأسلوب مرسلًا حراً طليقاً فى أكثر جوانب الرحلة ، وكأنما أخذ العياشى

(١) انظر فى رحلة العياشى الوافى ٧٦٣/٣ والحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ٩٠ . الدكتور محمد حجي وألقى بها فهارس مهمة . وطبعت الرحلة قديماً بفاس ، وعنى بطبعها وتحقيقها

فى القرن الحادى عشر ىردّ على ما كتبه العبدى عن طرابلس فى القرن السابع وذمه لها وقده فيها فقد زارها فى رحلته سنة ١٠٥٩ هـ/١٦٥٠ م ويصفها قائلا :

« كان دخولنا لمدينة طرابلس قرب الظهر يوم الأربعاء سابع عشر رجب الفرد ، وهى مدينة مساحتها صغيرة ، وخيراتها كثيرة . ونكايتها للعدو شهيرة ، ومآثرها جليلة ، ومعايها قليلة ، أتيقة البناء ، فسيحة الفناء ، عالية الأسوار ، متناسبة الأدوار ، واسعة طرقها ، سهل طرقها ، إلى ما جُمع لأهلها من زكاء الأوصاف ، وجميل الإنصاف ، وسماحة على المعتاد زائدة ، وعلى المتعافين بأنواع الميرة عائدة ، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغوا إلا سلاما ، ولو لمن استحقّ ملاما ، سيما مع الحجاج الواردين ، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين ، فإنهم يبالغون فى إكرامهم ، ولا يألون جهدا فى إفضالهم عليهم . وهذه المدينة بابان : باب إلى البر ، وباب إلى البحر ، لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها ، والحصن الذى فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية البر بينه وبين البحر . ولأمر هذه المدينة نكاية فى العدو - دمرهم الله - وله مراكب قلّ نظيرها معدة للجهاد فى البحر ، قلما تسافر وترجع بغير غنيمة . وقلما أسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة ، لا من سفن الجهاد ، فجزاهم الله خيرا ، وأعانهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين » .

رحلة^(١) ابن ناصر

هو أحمد بن محمد بن ناصر رئيس الطريقة الناصرية بتمكروت (قرية بوادى درعة جنوبى مراكش) وقد ولد بها لأبيه شيخ الطريقة سنة ١٠٥٧ هـ/١٦٤٧ م وعنى بتربيته وتثقيفه ، واختلف إلى حلقات العلماء بفاس ، وحج مرارا وكانت آخر حجة له سنة ١١٢١ هـ/١٧٠٩ م وبعد هذه الحجة كتب رحلته ، وفيها سجل كثيرا عن الحركات العلمية فى البلدان العربية ، ولذلك ، تعد مصدرا مهما للتعرف على النشاط العلمى بها وشيوخها حينذاك . ومن قوله فى وصف موجة للحرارة عاناها مع رفاقه فى أحد شعاب الحجاز :

« نزلنا غربى الأكرة بين العشاءين ، وفى هذه المسافة لما توجهنا عام تسعة (١١٠٩ هـ) هبّت على الناس ريح السموم ، من نضيج اليحموم ، واشتد الحر وتوالى الكرب على الناس ، وضاعت الحيل والإيناس ، واشتد العطش على الرجال والجمال ، يشرب كل ، ولا يُغنى شربه ، بل يتزايد بتناول الماء كربه ، لا يبين القدح والماء عن فيه إلا وتزايدت حرارة العطش له . فبركت الإبل وفرّت لظلال الأشجار ، وتدخل رأسها فى أدنى ظل يبدو لها وإذا بركت لا تكاد

(١) انظر فى رحلة ابن ناصر والنص المقتبس منها كتاب

الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص١٧٢

وما بعدها .

تقوم ولو قُطعت إربا إربا . واشتدت الحال وبلغت القلوب الحناجر ، وكلحت الوجوه ، واغبرت الغرر وتغيرت ، واسودَّ أبيضها وتنكرت ، فترى الرجل لا باس به (سليما) فإذا به يُخشَى عليه القوت ، فإذا أُوتى بالماء سبقه إليه الموت . وهلك من الناس كثيرون ومن الإبل أكثر ، وترك الناس بضائعهم وأحمالهم مشحونة بأزوادهم وما به قوامهم ، فتاهت في الفلوات ، وذهبوا بأنفسهم في طلب النجاة . يومٌ يذكر بالموقف والعرض ، (في يوم القيامة) وضاعت الدنيا على سعتها في الطول والعرض ، يود الإنسان لو يجد السبيل إلى باطن الأرض ، الناس فيه حيارى ، وتراهم سكارى وما هم بسكارى . مات من المغاربة زهاء الستين بالعطش من نساء وصبيان ورجال وولدان » .

وهذا اليوم الشديد الحرارة لم يحدث له في حجته الأخيرة إنما حدث له في حجته الثالثة سنة ١١٠٩ ورحلته بذلك تتضمن أهم المشاهد التي رآها أو صادفها في رحلاته المختلفة إلى الحج . والرحلة بأسلوب مرسل غير أنه يسجع فيها أحيانا على نحو سجعه في مشهد هذا اليوم الحار وهي طرفة من طرف الرحلات المغربية . وتوفى سنة ١١٢٩هـ/١٧١٧م .

رحلة^(١) الوزير الغساني

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب الملقب بالوزير الغساني وزير السلطان إسماعيل العلوى المتوفى سنة ١١١٩ هـ/١٧٠٨ م وقد أرسله السلطان في سفارة إلى ملك إسبانيا للتفاوض في افتداء الأسرى المسلمين ومحاولة استرجاع الكتب العربية الباقية عندهم في المساجد الأندلسية القديمة ، ولما عاد إلى وطنه في المغرب الأقصى كتب رحلة وصف فيها إسبانيا سماها : « رحلة الوزير في افتكاك الأسير » وكان دقيق الملاحظة ، فحملت رحلته ملاحظات مهمة عن إسبانيا في الفترة التي زارها فيها ، وهي مكتوبة بأسلوب مرسل طليق لا أثر للصنعة فيه ، ومن قوله في استقبال الملك الإسباني له :

« حين قربنا من باب القصر لقينا وكيل الميوردوم .. فسلمَّ ورحَّب ودخل بنا الدار .. فجعلنا نمرَّ بجماعات من الأعيان والأكابر ، فيسلمون ويقف كلُّ عند حدِّه ، إلى أن دخلنا قبة كبيرة يبأها كاتب الديوان الكبير ، وهو رجل كبير السن بلغ منه الكبر إلى أن انحنى فلقينا أحسن الملاقاة .. ودخل بناقبة أخرى لما باب ، وفي هذه القبة وجدنا الطاغية واقفا على قدميه ، وقد جعل في عنقه سلسلة من ذهب ، وتلك هي عوائد ملوك العجم ، إذ هي عندهم بمثابة

(١) انظر في هذه الرحلة الحياة الأدبية في المغرب على

عهد الدولة العلوية ص ١٥٦ وما بعدها . وهي مطبوعة

التاج ، وعن يمينه طبله من ذهب مرصعه أعدّها - وصنعها - أيام مقامنا يعد وصولنا ، ليجعل عليها البراءة السلطانية إجلالا وتعظيما لمرسلها أعزه الله تعالى .

رحلة^(١) محمد بن عثمان المكناسي

ولد محمد بن عثمان بمكناس في أواسط القرن الثاني عشر الهجري وتوفي سنة ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٩ م وكان أدبيا ، فعينه السلطان محمد بن عبد الله العلوي كاتبا في دواوينه ، ثم اختاره حاكما لتطوان ، ثم عينه وزيرا ، وله رحلات متعددة ، طبعت جامعة الرباط منها رحلته إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا بدعوة من حكومة الجزائر سنة ١١٩٣ هـ/ ١٧٧٩ م لافتكاك الأسرى الجزائريين ورد حريتهم إليهم ، وقد سماها : « الإكسير في فكك الأسير » ونشرتها أخيرا جامعة محمد الخامس بالرباط ، وكان أدبيا شاعرا وكاتبا ومن قوله في وصف مَدرَيد :

« هذه المدينة كبيرة غاية في الكبر وضخامة البناء حاضرة الخواضر ببلاد إسبانيا ، بنيت على روبة ببابها وادي (نهر) مانسنارس زادها حسنا وبهاء ، وبهجة وسناء ، وقد غرسوا على جانب الوادي الذي من ناحية المدينة أشجارا كثيرة مثل النشم وما أشبهه في غاية العلو بصفوف معتدلة يتفيئون ظلّالها عشية وقت خروجهم ، يترددون على حاشية الوادي المذكور على أكداشهم (دوابهم) ومن لم يكن عنده كدش يخرج على رجليه . ولما دخلنا المدينة المذكورة وجدنا بها من الخلّاث أضعاف من تلقّنا بخارجها ، فسرنا في سكك متسعة وديار مرتفعة ، فجلّ ديارها لها ست طبقات وخمس طبقات ، لكل دار شراجيب مفتحة للأزقة ، مغلفة بالزجاج عليها شبايك الحديد ، وأسواقها عامرة ، مشحونة بأهل الحرف والصنائع ، والتجارة والبضائع ، وجلّ باعتهما من النساء » . وحسبنا ما تقدم عن الرحلات الحجازية والأوربية .

كبار الكتاب

(أ) القاضي عياض^(٢)

هو أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي علامة عصره ، استقرّ أجداده قديما في مدينة بسطة من أعمال غرناطة ، وانتقلوا إلى فاس أيام الأدارسة ، وبارحوها إلى مدينة سبتة بعد دخول بني عبيد الفاطميين المغرب في القرن الرابع الهجري ، وكان أول من نزلها من أجداد

(طبع الرباط) وكتاب أزهار الرياض في أخبار عياض للمقرئ (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، والنبوغ المغربي ١١/٢ وفي مواضع متعددة والوفائي ٥٢/١ .

(١) انظر الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية ص ٣٣٤ وما بعدها .

(٢) انظر في سيرة عياض وأعماله كتاب ابنه محمد : التعريف بالقاضي عياض تحقيق الدكتور محمد بن شريفة

القاضي عياض جده عمرو ، وكان موسرا ، فاشترى بها أرضا وهي المعروفة باسم المنارة وبنى بها مسجدا وديارا وقفها على المسجد ، ووقف بقيتها مقبرة للدفن ، وولد له ابنه عياض ، وولد لعياض ابنه موسى وولد لموسى ابنه عياض سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ونشأ طالبا للعلم حريصا عليه مجتهدا فيه - كما يقول ابنه - معظما عند شيوخه لما لاحظوا من ذكائه وإكبابه على الدرس إلى أن برع في زمانه ، وتفوق على أقرانه ، وكان من حفاظ القرآن الكريم ، لا يترك تلاوته والقيام على معانيه وإعراجه وشواهد وأحكامه كما يقول ابنه ، وكان - كما يقول - من أئمة زمنه في الحديث وفقهه وغريبه ومشكله ومختلفه حاذقا بتخريجه ، كما كان فقيها حافظا لمسائل مدونة سحنون ومختصر ابن أبي زيد القيرواني ، وكان نحويا ريانا من الأدب شاعرا مجيدا من أكتب أهل زمانه خطيبا مفوها ، مقداما على الأمراء في استقضاء حوائج الرعية عندهم ، محببا في قلوب العامة والخاصة . ويضيف ابنه أنه أخذ عن أشياخ بلده ، ثم رحل إلى قرطبة بالأندلس سنة ٥٠٧ للهجرة ، وأخذ عن شيوخها ، وخرج إلى مرسية في أوائل سنة ٥٠٨ ولزم الحافظ الحسين بن محمد الصديقي فترة ، وأجازته جماعة كثيرة من أعلام^(١) الأندلس وتونس ومصر والحجاز . وولى القضاء في بلدته سبتة سنة ٥١٥ للهجرة ونقل إلى غرناطة قاضيا بها سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م وصُرف عنها سنة ٥٣٢ وعاد إلى قضاء سبتة سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م . وفي بدء دولة الموحدين غزا عبد المؤمن سبتة فرد جيشه أهل سبتة ومعهم القاضي عياض ، ولما قُتل تاشفين وقضى الموحدون على دولة المرابطين وفتحوا مدينتي فاس وتلمسان بايع أهل سبتة عبد المؤمن ، ولقيه القاضي عياض في مدينة سلا وهو يستعد لفتح مراكش فأجزل صلته ، ولما انتفضت الأندلس على عبد المؤمن بسبب ثورة محمد ابن هود ثارت سبتة - برأى القاضي عياض كما قيل - وحاربها عبد المؤمن وعادت إلى الطاعة ، واستدعى عبد المؤمن القاضي عياضا ، فأخذ من سبتة إلى مراكش مغلولا سنة ٥٤٢ للهجرة حتى إذا اجتمع بعبد المؤمن في مراكش واستعطفه ببعض منظومه ومنشوره عفا عنه على أبر وجهه وأكمله ، وأمره بلزوم مجلسه ، كما يقول ابنه ، ومنزلته عنده تزداد كل يوم سموا ورفعة إلى أن توفي بمراكش سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م . وكتب ابنه محمد فضلا عن مؤلفاته وأهمها : كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ ودوت شهرة هذا الكتاب في العالم الإسلامي إلى اليوم ، وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك في خمسة أسفار ، وكتاب إكمال المعلم على صحيح مسلم ، وهو زيادة في الشرح على شرح المعلم بفوائد مسلم للإمام المالكي الصقلي محمد المازري دفين المنستير بتونس إلى غير ذلك من كتب نفيسة من أهمها كتاب له في النقد والبلاغة سماه « بغية الرائد » كتب عنه الأستاذ محمد بن تاويت فضلا في ترجمته

متعددة .

(١) راجع في هؤلاء الشيوخ كتاب ابنه السابق ص ١١٩ وما بعدها والجزء الثاني من أزهار الرياض في مواضع

بالجزء الأول من كتابه الوافي بالأدب في المغرب الأقصى وهو يعرض فيه بعض صور النقد والمحسنات البيعية من مثل الجناس والطباق والترصيع . وكان له كتاب خطب ومواعظ دينية ، وهو مفقود ، وفي أزهار الرياض عن ابن خاتمة أن هذا الكتاب يشتمل على خمسين خطبة من خطب الجمععات ، وروى له ابنه في التعريف به خطبتين ، يقول في إحداها حاضاً على التقوى :

« أيها السامع قد أيقظك صرْفُ (١) القدر من سِنة (٢) الهوى وسكراته ، ووعظك كتاب الله بزواجه وعظاته ، فتأمل حدوده وتدبر محكم آياته ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً ﴾ (٣) أين الذين عَنَوْا على الله وتعظموا ، واستطالوا (٤) على عباده وتحكموا ، وظنوا أن لن يُقَدَّرَ عليهم حتى اصطَلِمُوا (٥) ، وتلك القرى أهلكتهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴿ غَرَّهُمُ الْأُمَلُ وَكَوَادِبُ الظُّنُونِ ، وَذَهَبُوا عَنْ طَوَارِقِ الْغَيْرِ ﴾ (٦) ورَبِّبَ الْمَنُونِ ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ - حتى إذا رَأَوْا مَا يُوْعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مِنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلِّ عُدَدًا ﴾ فهذبوا - رحمكم الله - سرائركم بتقوى الله وأخلصوا واشكروا نعمته ﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ واحذروا نقمته ولا تَعْصُوا واعتبروا بوعيده ﴿ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا ، فَسَتَعْلَمُونَ مِنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ وانهضوا لطاعته هذه المهم العاجزة ، وارْكضوا في ميدان التقوى تحوزوا قصب خَصْلِهِ (٧) الفائزة ، وادخروا ما يخلصكم يوم المحاسبة والمناجزة ، وانتظروا قوله : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ذلك يوم تذهل فيه الأبواب وترجف القلوب رجفاً ، وتبدل الأرض وتنسف الجبال ينسفاً ولا يقبل الله فيه من الظالمين عدلاً ولا حرفاً وحشير المجرمون يومئذ زُرْقاً ﴿ وَعُزِّرُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ فرادى ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّ لَنَا نَجْعَلُ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ إن أحسن الهدى هدى محمدٍ نبينا وأصحابه ، وأفضل الذكر ذكر الله وتلاوة كتابه ، جعلنا الله وإياكم ممن اهتدى بهديه ، وتأدب بأدابه ومن الذين قالوا : ﴿ سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ اللهم انفعنا بالكتاب والحكمة ، وارحمنا بالهداية والعصمة وأوزعنا (٨) شكر ما أوليت من نعمة ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .

والعظة رائعة بما فيها من دعوة للتقوى وتحذير من وعيد الله ونقمته ، ومن غرور بالأمانى

(٥) اصطلموا : استأصلوا .

(٦) الغير : الأحداث .

(٧) خصله : فضله .

(٨) أوزعنا : ألهمنا .

(١) صرف : أحداث .

(٢) سنة : غفلة .

(٣) ملتحداً : ملجأ .

(٤) استطالوا : تطاولوا واعتدوا .

والظنون الكاذبة والذهول عن يوم القيامة مع ما فى ذلك من كفران بنعمة الله ونعمه لا تحصى .
وتتخلل العظة أو الخطبة الآيات القرآنية مؤكدة معانى عظته . ولغة العظة لغة جزلة مصقولة
تشيع فيها مع الآيات ألفاظ قرآنية كثيرة . ويأسى من يقرأ هذه الخطبة وأختها الموجودتين فى
كتاب التعريف بالقاضى عياض لضياح كتاب خطبه . والخطبة مسجوعة وكان يؤثر السجع
فى خطبه وأيضاً فى رسائله على نحو ما نرى فيما أثبتته وسجلته منها ابنه محمد ، من ذلك رسالة
يعاتب فيها صديقين له :

« ليت شعرى أَعْتَبُ أم أُعْتَبُ ، وأعترف بالذنب أم أُنْذِبُ ، لا جرم لو علمت لنفسى
جرماً لجعلتُ عليها بَرْدَ الشراب حراماً ، ولسلبتها لذيق المنام غراماً^(١) ، حتى يَفْقَى إليها
من وجدَّ عليها^(٢) ، ويرضى عنها المتظلم منها ، بعلائكما ما هذا الجفاء ؟ وأين ما تدعيانه
من الوفاء ؟ أحين جدتُ بنا الحال وشدَّتْ للنوى الرِّحال ، ودعا بنا داعى الزَّماع ،
ومَجَلَّتْ^(٣) عين ويدِّ للوداع ، اتخذتماني ظهيراً ، وصرت عندكما نسيّاً منسياً ، لا أعلم
لكما علما ، ولا ألقاكم إلا حُلماً ، كأن شَمَلْنَا لم يزل مُتَصَدِّعاً ، وكأننا لطول افتراق لم
نَبْتَ ليلةً معا ، ماذا يُرِيب الغريب فى إغباب^(٤) الأحباب أمجالسة السلطان أو مؤانسة
الأوطان ، أتبي المجد من ذلك وأبيت ، ولنا يا نَيْتُ بالعلاء بيت ، أم صدودٌ وملالٌ يتافيه
ذلك الجلال ، أم قلة احتمال ، لما تشاهدانه من غلظ تلك الخلال ، وقيتما ! من الذى
يُعْطَى الكمال ؟ أم تَمَّ ذَنْبٌ يوجب الصدود ، ويؤدى بوْدُ الودود ، أسمعاه ، لأرجع إلى
المتاب ، عن العتاب ، وأبادر بنفسى عوضَ الكتاب ، فأغذِر ولا أعذل^(٥) وأنصف من
نفسى وأعدل والسلام . »

ونسيج الرسالة نسيج جيد من الألفاظ والأسجاع مع ما يزينها من الجناسات والاستعارات
والكنايات ، مما يدل - بوضوح - على أن القاضى عياضاً كان يجبر أعماله الأدبية من رسائل
وغير رسائل . والرسالة تحمل بجانب ذلك حساً مرهفاً ، لا بما يورد فيها من سجع قصير
يطير عن الأفواه بخفة ، بل بما يصور من حسه الدقيق ، بمثل تعقيبه على ما يظن صاحبه به
من غلظ الخلال بقوله وقيتما ، ويستمر هذا الحس الدقيق فى بناء الكلم ببقية الرسالة ، وبدون
ريب كان القاضى عياض أديبا كبيرا . ومن طريف ما نقرأ له فى مقدمة كتاب الشفاء تحميده
لربه وتمجيده لرسوله إذ يقول :

« الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى ، المختص بالملك الأعز الأحمى^(٦) ، الذى ليس دونه منتهى

(١) غراما : عذابا وفى الأصل : عزا . (٤) الإغباب : البعد فى الزيارة .

(٢) وجد عليها : غضب منها . (٥) أعذل : ألوم .

(٣) الزماع : المضى فى الأمر . مجلت : كلت كناية . (٦) الأحمى : الأمتع .

عن الشيخوخة وفى الأصل : خجلت .

ولا وراءه مَرَمَى ، الظاهر لا تخيلاً ولا وهماً ، الباطن تقدُّساً لا عُذْماً وَسِعَ كل شَيْءٍ رَحْمَةً وعِلْماً وأَسْبَغَ على أُوليائه نِعْماً عُمًّا^(١) ، وَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ عَرَبِيًّا وَعُجْماً ، وَأَزْكَاهُمْ مَحْتَدًا وَمَتْنَى ، وَأَرْجَحَهُمْ عَقْلاً وَحِلْماً ، وَأَوْفَرَهُمْ عِلْماً وَفَهْماً ، وَأَقْوَاهُمْ يَقِينًا وَعِزْماً ، وَأَشَدَّهُمْ بِهِمْ رَأْفَةً وَرُحْمَى ، زَكَّاهُ رُوحاً وَجَسْماً ، وَحَاشَاهُ عِيَا وَوَصْماً ، وَأَنَاهُ حِكْمَةً وَحُكْماً ، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمِّيًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا^(٢) ، وَأَذَانًا صُمًّا ، فَأَمَّنَ بِهِ وَعَزَّرَهُ وَنَصَرَهُ مِنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ فِي مَغْنَمِ السَّعَادَةِ قِسْماً ، وَكَذَّبَ بِهِ وَصَدَفَ^(٣) عَنْ آيَاتِهِ مَنْ كَبَّ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاءَ حَتْمًا ، ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ صَلَاةُ تَنْمُو وَتُثْمَى ، وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

والتحميد والتمجيد في لغة عذبة سلسلة ، سواء في الألفاظ أو في الأسجاع القصار مع ما يزينها من الألفاظ والآيات القرآنية ، وقد افتتح بهما كما أسلفنا كتابه الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ .

(ب) أبو جعفر^(٤) أحمد بن عطية

أول كتاب المغرب الأقصى النابيهين في ديوان على بن يوسف بن تاشفين وابنه تاشفين ، ويقال إنه ولد سنة ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م وكأنه كتب في هذا الديوان قبل العشرين من عمره ، وفيه تعرف على تقاليد الكتابة الديوانية التي أرساها في الديوان المغربي كتاب الأندلس أبو بكر بن القصيرة وابن أبي الخصال وعبد المجيد بن عبدون وأضرابهم ، ولما قضى الموحدون على دولة المرابطين فرَّ وغير هيئته ، وكان محسناً لرمى السهام ، فانتظم في الجيش الموحدى الذى خرج إلى مدينة سوس في الجنوب لقتال تاجر هناك ، وانتصر الجيش الموحدى وقتل التاجر وانهزم أنصاره ، فطلب القائد أبو حفص عمر إيتي كاتباً يحسن عرض المعركة ليخبر بها رئيس الدولة عبد المؤمن ومن معه من الموحدين ، فدلَّ على أبي جعفر ، وكتب له رسالة طويلة أعجبت عبد المؤمن ، فاستدعاه ، واستكتبه وزاده الوزارة إلى الكتابة ، لما رأى عنده من شجاعة قلبه وحصافة رأيه ، كما يقول المراكشى . ولم يزل وزيره إلى أن أغضبه فقتله ، وفي كتاب المعجب أن سبب قتله أنه كان قد تزوج بنت أبي بكر بن يوسف بن تاشفين ، وكان أخوها يحيى فارساً وأبلى بلاء شديداً في مقاومة الموحدين ، وانقاد لهم حين تمَّ نصرهم وانضوى تحت لوائهم ،

والإحاطة لابن الخطيب ١٣٢/١ - ١٣٩ والنويع

المغربى ١٦٦/٢ والوافى ٢٥١/١ - وانظر في رسائله

مجموع رسائل موحدة من إنشاء كتاب الدولة المؤتمنة

(طبع الرباط) .

(١) نعماً عما نعمة كثيرة .

(٢) غلغا : جمع أغلف : كأن على القلب غلغا .

(٣) صدف : أعرض .

(٤) انظر في ترجمة أبي جعفر أحمد بن عطية كتاب

المعجب لعبد الواحد المراكشى ص ٢٦٦ - ٢٦٩

فجعل عبد المؤمن قائدا على من دخل في عقيدة الموحدين من لتونة قومه ، ولم يزل مكرماً عند عبد المؤمن إلى أن بلغته عنه أفعال وأقوال أحقته عليه . وتحدث عبد المؤمن بذلك في مجلسه فخشي أبو جعفر أحمد بن عطية على صهره يحيى من قتل عبد المؤمن به ، فقال لزوجته قولى لأخيك يتحفظ ، وإذا دنا غدا فليظهر المرض ، وإذا استطاع الفرار واللاحاق بجزيرة ميورقة فليفل (وكان صاحبه : أرجا على الموحدين) . وتمارض يحيى وزاره بعض أصحابه فأسرَّ إليه ما بلغه عن صهره أبي جعفر ، فنقل الرجل ذلك إلى شخص من أبناء عبد المؤمن ، فأمر بالقبض على أبي جعفر وأخيه أبي عقيل الكاتب ولم يلبث أن أمر بقتلهما سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م ، واعتقل يحيى وظل في سجنه إلى أن مات ، ولم تأخذ عبد المؤمن في أبي جعفر وصاحبيه رافة ولا شفقة ولا رحمة .

وأبو جعفر أحمد بن عطية يُعدّ في الذروة من كتّاب عبد المؤمن ، ويشهد لذلك أن « مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية » يشتمل على سبع وثلاثين رسالة ، له فيها سبع عشرة رسالة ، ولو أنه ظل حتى نهاية عبد المؤمن لتكاثرت رسائله في تلك المجموعة ، ومن رسائله خمس موجهة إلى طلبة سبتة من دعاة الموحدين بها ، وهو دائماً يبلغ أهلها في تلك الرسائل انتصارات عبد المؤمن تلوياً لها بعد أن قامت بثورتها سنة ٥٤٣ هـ أن تلتزم بطاعة عبد المؤمن وعقيدة الموحدين وإلا أنزل بها عقاباً أليماً . وتبدأ هذه المجموعة للرسائل برسالة بقلم أبي جعفر بن عطية موجهة على لسان عبد المؤمن إلى طلبة سبتة كى يبلغوها أهلها ، وفاحتها على هذه الصورة :

« من أمير المؤمنين - أيده الله بنصره وأمدّه بمعونته - إلى الطلبة (الدعاة) الذين بسبتة وجميع من فيها من الموحدين خاصة وعامة - وفقهم الله وسدّدهم - سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فالحمد لله مولى الرغائب ، ومُسْنَى^(١) الآمال والمطالب ، وقابل توبة التائب ، نحمده بما يتعين من حمده الواجب ، ونصلّي على محمد نبيّه العاقب^(٢) ، وعلى آله وصحبه أولى المفاخر السنية والمناقب . ونصل [بذلك] الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، المحرز شرف المبادئ والعواقب ، المجلى بنوره الثاقب حُجُب الظلام الواقب^(٣) .. وقد وصلنا بحمد الله إلى مراكش على أتم أحوال الظفر واليمن ، وعدنا إليها تحت ظل السلامة التامة والأمن ، بعد كمال الغزوة المباركة وتمامها ، وإطفاء نار الفتنة ببرّد الهدنة وسلامها ، وإصاق أنوف الكفرة المرتدين برغامها وقطع دابر القوم المجرمين .. وإن النعمة - وفقكم الله - بهذه الفتوح العظيمة العامة شاملة على من أخذ بهذا الأمر العزيز (يريد دعوة الموحدين) ودان ، وتزى بحلته البهية

(٣) الواقب : الشامل .

(١) مسنى : ميسر .

(٢) العاقب : خاتم الرسل .

فازدان ، فهى الفتوح التى ظهر بها من آيات المهديّ - رضى الله عنه - العجب العُجاب ، وفاض فيها من بركاته الفيض المنساب ، ودرّت بها الأرزاق وانتشر الأمن وكرم المآب ، وكان أمرها مخصوصا بالمرتدين الخاسرين ، فمحقهم وطيسها الشديد الغلاب ، وليس لله على ذلك إلا الحمد والشكر والمتاب . ويقول عبد المؤمن فى الرسالة لأهل سبته : حافظوا على القرآن والتوحيد .

وواضح أن عبدالمؤمن ينعت الخارجين عليه بأنهم كفرة مرتدون ، إذ ارتدوا عن دعوة الموحدين ، وكأنما أصبحت هى الإسلام ، فمن ارتد عنها ارتد عن الدين الحنيف . والرسالة فى أوائلها تدعو بالرضا عن الإمام المعصوم المهديّ ابن تومرت الذى أخرج بدعوته الناس من الظلمات . وما تلبث الرسالة أن تذكر أن هذا الفتح وغيره من الفتوح إنما هو من بركاته .

وفى الرسالة الرابعة المكتوبة بقلم ابن عطية والموجهة إلى يحيى بن غانية صاحب جزر منورقة الرافض لدعوة الموحدين قطعة يصوّر عبد المؤمن له فيها ابن تومرت داعية الموحدين بهذه الصورة التالية :

« هذا الأمر (يريد دعوة الموحدين) - وفقكم الله - هو أمر المهديّ - رضى الله عنه - حقٌّ فتأمل ، ومع معاملة الجلاء فلا ظنّ ولا تخيل . والمهديّ - رضى الله عنه - قد بشرّ به النبى - صلى الله عليه وسلم - فى غير ما حديث ، وظهرت علاماته وآياته فى قديم من أمره وحديث ، ودلّ على اسمه وزمانه وفعله ومكانه بأدلة رفعت الإشكال والتعسف ، فأتى - رضى الله عنه - كما نعت النبى عليه السلام - ووصف ، وقال - صلى الله عليه وسلم - فيه وفى طائفته العزيزة ما قد ظهر ظهور الإضاءة والإذاعة ، وقضى بوجوب الائتمار والانتظام والطاعة ، وأخبر فى جملة ما أخبر به عنهم أنهم يقاتلون على الحق إلى قيام الساعة .. وقد تبين الصبح لذى عينين ، وجَدع الحق أنفَ الكذب والميّن ، وتجلت^(١) الهداية ضد الضلال والرّين^(٢) » .

وعبد المؤمن فى هذه الرسالة ينعت ابن تومرت بما كان ينعت به عنده وعند دعاة الموحدين من تبشير النبى به ووصفه ، وما أوجب للمهديّ من اتباع دعوته ، ومن لم يتبعها حُكم عليه بالكفر والارتداد عن الدين الحنيف ، ويقول إنهم مأمورون بالقتال عليها إلى قيام الساعة . ورسائل ابن عطية فى « مجموع رسائل موحدية » مكتوبة بلغة مروّقة صافية مع السهولة والسلاسة وقصر الأسجاع فى جوابات كثيرة من الرسائل ، مع تضمينها صورا من الاستعارات ومن المحسنات البلاغية . واحتفظ له ابن القطان فى كتابه نظم الجمان برسالة كتبها على لسان عبد المؤمن من تينملل حين زار قبر المهديّ فيها لشهر ربيع الأول سنة ٦٤٥ وهى أشبه

(٢) الرين : النفس .

(١) فى الأصل : جلت .

بدستور لحكم أمراء الولايات المختلفة وأنه ينبغي أن يقوم على العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد أرسلت نسخ منها إلى جميع الولاة . وحين زجَّ به عبد المؤمن في السجن أرسل إليه يستعطفه برسالة مشهورة استهلها بأبيات يسترحمه فيها وتلتها الرسالة على هذه الصورة^(١) :

« تالله لو أحاطت بي كل خطيئة ، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة ، حتى سخرت بمن في الوجود ، وأنفت لآدم من السجود ، وقلت إن الله لم يوح ، في الفلك إلى نوح ، وأبرمت لاحطاب نار الخليل حبلا ، وبريت لقدار ثمود نبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين ، وأوقدت مع هامان على الطين ، وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ، وافترت على العذراء البتول فخذفتها ، وكبت صحيفة القطيعة بدار الندوة ، وظاهرت الأحزاب بالقصوى من الندوة ، وأبغضت كل قرشي ، وأحببت لأجل وحشي كل حبشي ، وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة خليفة ، وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة ، واعتلقت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة ، وقلت تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر ، وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر ، وغادرت الوجه من الهامة خضيا ، وناولت من قرع سن الحسين قضيا ، ثم كنت بخفرة المعصوم لاثدا ، وبقر المهدي - رضى الله عنه عائدا ، لقد آن لمقاتلي أن تسمع ، وأن تغفر لي هذه الخطيئات أجمع ، مع أني مقترف ، وبالذنب معترف :

وعفوا أمير المؤمنين فمن لنا برؤ قلوب هدها الخفقان

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله وبركاته .

وهو يقول لعبد المؤمن لو أني سخرت بكل من في الوجود من خلق الله ، واستنكفت لإبليس من سجوده لآدم وأنكرت أن الله أوحى إلى نوح في فلكه ما أوحى ، وأبرمت حبلا للمحتطين لنار إبراهيم الخليل ، وبريت لقدار ثمود عاقر الناقة نبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين التي أثبتها الله لتظله ، وأوقدت مع هامان لفرعون على الطين ليبنى له صرحا حتى يرى ربه كما زعم ، ولو أني السامري الذي قبض على شيء من دين موسى ثم كفر به ونبذه ودفع بنى إسرائيل لعبادة العجل في غيبة موسى ، وكذبت على السيدة مريم العذراء البتول فخذفتها ، وكبت صحيفة المقاطعة بين قريش وبين الرسول وصحبه قبل هجرته ، وظاهرت الأحزاب وعاورتهن في حصار المدينة ، وأبغضت كل قرشي وأحببت لأجل وحشي

(١) انظر في هذه الرسالة كتاب روض القرطاس لابن أبي زرع (طبع الرباط) ص ١٩٦ وكتاب النبوغ المغربي للأستاذ كنون ١٦٦/٢ وراجع ترجمة ابن عطية في الإحاطة .

الحبشي قاتل حمزة بن عبد المطلب في غزوة أحد كل حبشي ، وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة أبي بكر وخلافته ، ولو أنني شحذت شفرة خنجر غلام المغيرة بن شعبه طاعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أو لو أنه تعلق بشعبه في حصار عثمان من شعب الدار وقلت تقاتلوا على الدرهم والدينار وسفكوا الدماء وتركت الوجه الكريم لعل بن أبي طالب خضيا بالدماء ، وناولت يزيد بن معاوية قضيبا ليقرع السن - كما قيل - في ثغر الحسين . لو أنه صنع شيئا من ذلك ثم لاذ بمحفرة ابن تومرت وقبره لقد أن أن تسمع لقولي وتغفر لي خطيئاتي وتعفو عني . ولم يلن له قلب عبد المؤمن بل ازداد قسوة وأمر بقتله . ولا يقلل من روعة هذه الرسالة أنه استوحاها من الرسالة الجديدة لابن زيدون ، والحق أنه كان كاتباً بارعاً وأن رسائله تعد في الذروة من النثر المغربي في مختلف عصوره .

(ج) ابن^(١) بطوطة

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المشهور باسم ابن بطوطة ، وُلد في طنجة سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م لأسرة كانت تشغل بالفقه والدراسات الدينية وكانت في بسطة وسعة من العيش ، واهتم أبوه - وكان فقيهاً - بتربيته فحفظ القرآن ، ودفعه لدراسة الفقه المالكي واستوعب ما عند شيوخه في نحو العشرين من عمره ، وطمحت نفسه لقضاء فريضة الحج ، فخرج من بلده في الثانية والعشرين من سنه مع رفقة ، واتجه معها شرقاً إلى الجزائر ونزلاً سنهياً الشمالية ، وتنقل بين رفاق حتى تونس وفيها رأى الالتحاق بقافلة من قوافل الحجاج ، وعرض فيه فقهه فأقاموه قاضياً بينهم ، ونزلت القافلة الإسكندرية فطاف بمشاهدها وزار علماءها وعبّادها وتعرّف على ناسك زاهد يسمى « الشيخ خليفة » وقال له : إني أراك تحب السياحة والجولان في البلاد فأجابه : نعم . فقال له : « لا بد لك - إن شاء الله - من زيارة أخي فريد الدين بالهند وأخي ركن الدين زكريا بالسند وأخي برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام » فعجب ابن بطوطة من قوله وكأنما تنبأ له أنه سيصبح رحالة كبيراً يطوف بلدان العالم الإسلامي حتى أقصاها وأنه سيمد رحلاته إلى الهند والصين . وترك الإسكندرية ميمماً وجهه نحو القاهرة ولم يذهب إليها مباشرة إذ طاف قبلها ببعض البلاد في الوجه البحري مثل دمنهور وفوة بالقرب من رشيد ودمياط والحلة الكبرى . وفي فوة تعرف على شيخ صالح يسمى أبا عبد الله المرشدي ، وأكرمه وبات على سطح زاويته ، فرأى في منامه حلماً عجيباً : أنه على جناح طائر عظيم ، يطير به في سمّت القبة يتيان ثم

وابن بطوطة ورحلاته : تحقيق ودراسة وتحليل للدكتور حسين مؤنس (طبع دار المعارف بالقاهرة) .

(١) انظر في ابن بطوطة ورحلته النبوغ المغربي ٢٢٢/١
ورحلة ابن بطوطة للدكتور شاكر خصباك (طبع بغداد)

يشرق ثم يذهب في ناحية الجنوب ثم يعد في طيرانه إلى ناحية الشرق وينزل في أرض مظلمة حضراء ويتركه بها . ويقص حلمه على الشيخ ويطلب إليه تأويله ، فقال له : سوف تحج وتزور النبي ﷺ وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتظل بها مدة طويلة .

وكان هذا التفسير لحلم ابن بطوطة وما حمله له الشيخ خليفة من السلام إلى إخوة له في الهند والسند والصين إرهابا ليصبح رحالة بل ليصبح أعظم رحالة عرفه العرب في تاريخهم الوسيط . ونزل القاهرة والفسطاط ، ثم أخذ طريقه إلى الحج عن طريق الصعيد وعيذاب على البحر الأحمر وفيها رأى الطريق البحرى إلى جدة معطلاً لخروج قبائل البجة على سلطان مصر محمد الناصر بن قلاوون ، فعاد إلى الفسطاط ، واتجه إلى صحراء سيناء وتجول في بلاد الشام من بيت المقدس ومعان إلى حلب ، وخرج من الشام مع ركب من الحجاج إلى المدينة المنورة فمكة ، واتجه بعد أداء فريضة الحج إلى العراق وغربى إيران ونزل في النجف وواسط والبصرة وشيراز في إيران وبغداد وبلدان الموصل . وحج حجته الثانية وأقام بمكة سنة ، ورأى أن يزور اليمن وطاف ببعض بلدانها وعبر البحر إلى أفريقيا الشرقية وزار الصومال وزيلع ومقدشو ، وعاد إلى الجزيرة العربية مارا بشواطئها الجنوبية وظفار وعمان ودخل الخليج العربى وبعض بلدانه . وحج حجته الثالثة واتجه بعدها إلى مصر ، ولم يلبث أن رحل إلى آسيا الصغرى حيث بلدان السلاجقة وأمراء الدولة العثمانية الأوائل ، وأبحر إلى شبه جزيرة القرم وكانت تابعة لسلطان مغول القفجاق محمد أوزبك وتجول في بلاده وفي بلاد القوقاز والبلغار ، ورغب في أن يدخل بلاد الظلمة (روسيا) وعدل عن ذلك . وأنس به السلطان محمد أوزبك ويعدّه من أعظم ملوك الدنيا ، وأرسله في ركب مع زوجته بنت ملك الروم لزيارة أبيها في القسطنطينية فتعرف على بلدان الدولة البيزنطية . ويرحل إلى خوارزم ، ويدخل سمرقند ، ويتجول في بلدان خراسان مثل بلخ وبخارى وبلاد أفغانستان مثل هراة ، ويدخل إلى الهند في سنة ١٣٣٣/١٧٣٤م ويكرمه سلطان السند أو البنجاب محمد شاه ويوليّه قضاء دهلي ويقيم بها ثمانى سنوات . وأرسله السلطان في وفد بهدية إلى ملك الصين ، وأبحر إلى قاليقوت إحدى ثغور الهند في الغرب ، وهبت عاصفة أغرقت المركب وأسرتة والهدية ، ولم يرجع إلى السلطان ، ورحل إلى جزائر ذبية المهل (الملديف) جنوبى الهند ، وتولّى القضاء بها عاما وبعض عام ، وتركها إلى الصين عن طريق جزيرة سيلان والبنغال ، ويركب البحر وينزل سومطرة وجاوة ، ثم يتجه إلى الصين ويتجول في بلدانها ، ويعود إلى سومطرة ويمر بإيران والعراق والشام ومصر ، ويحمر من عيذاب لقضاء العمرة . ويصمم على العودة إلى موطنه ، ويصل إلى تونس ويركب منها البحر إلى الجزائر ويمر بسرديانة وتلمسان ، ويصل إلى فاس سنة ٧٥٠ ويرحب به سلطانها أبو عنان ويلحقه بحاشيته . ولا يلبث أن يزور الأندلس ويتجول في بلدان إمارة بنى

الأحمر بغرناطة ، ويعود منها عازما على زيارة السودان الغربى ، ويدخل الصحراء إليه سنة ٧٥٣ ويتجول فى بلدان مالى ويصل إلى تمبكتو على النيجر ، ويعود فى أواخر سنة ٧٥٤ إلى المغرب . وكان السلطان أبو عنان معجبا أشد الإعجاب بما يقصه عن رحلاته فأمر كاتبه ابن جزى أن يساعده فى كتابة رحلته التى سماها : « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . ونجد ابن جزى يقول فى آخرها : « انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبى عبد الله محمد بن بطوطة » وكان فراغه من هذا التلخيص فى شهر صفر سنة ٧٥٧ هـ/ فبراير ١٣٥٦ م . ويبدو أن ابن بطوطة كان قد قيد رحلته فى أسفار كثيرة وأن ابن جزى لخصها مما جعل بعض الباحثين يظن أنها من تحريره . وابن جزى نفسه يعترف بأن كل ماله إنما هو تلخيص واختصار لجوانب من تفاصيلها الكثيرة ، ولذلك نذهب إلى أنها مكتوبة فى جملتها بأسلوب ابن بطوطة نفسه ، ونعده لذلك من كبار كتاب المغرب الأقصى . وهو لا يدخل بلدة إلا وصف سورها إن كان لها سور مثل الإسكندرية ودورها ومطاعم أهلها وملابسهم وأسواقها ومدارسها وعلماءها ونسآكها وحكامها وعادات سكانها وتجاراتها وزروعها وعملتها وكل ما يتصل بها ، وكيف لابن جزى بوصف ذلك وهو لم يشاهد شيئا منه . وكانت فيه نزعة دينية قوية فأطال الحديث عن الزوايا والنسآك والأولياء وأصحاب الكرامات ، ونكتطف بعض ما جاء فى رحلته الضخمة ، فمن ذلك قوله عن مصر :

« أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة (ذات المزارع والرياض الجميلة) المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رَحْل الضعيف والقادر ، بها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضع ونبه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، وتموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة أماكنها ومكانها ، وشبابها يجذ على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يرح عن منزل السعد » . والسجع قليل فى الرحلة ، إذ لا يعدو المقدمة وكلمات قليلة تقال فى وصف بعض البلدان ، والأسلوب العام أسلوب مرسل طليق اختاره ليكون دقيقا وواضحا فى وصف مشاهداته .

ويقول عن أهل مصر إنهم « ذوو طرب وسرور ولهو » أما المدارس فلا يحيط أحد بها لكثرتها ، ويشيد بمارستان قلاوون وأن الواصف يعجز عن بيان محاسنه إذ أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ، ويقول إن مجباه (ما يجبى إليه وينفق عليه) ألف دينار كل يوم . ويقول إن الزوايا الخاصة بالزهاد والمتصوفة تكثر فى مصر كثرة مفرطة . وينزل آسيا الصغرى ويتجول فى بلداتها ويصف مشاهدتها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ويتحدث عن حكامها من السلاجقة والعثمانيين ، ويعجب فيها بنظام للفتوة يقوم به فتان على حسن الضيافة وإيواء

الغريب . ووجدتهم فى كل بلدة يتخذون لهم رئيسا كما يتخذون مقرًا يتعاونون فيه على البر بالضيف وإكرامه ، وكان هذا النظام للفتوة هناك يسمى « الأخيَّة » ويصفه قائلا :

ذكرُ الأخيَّةَ الفتيان : واحد الأخيَّةَ أخى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه ، وهم بجميع البلاد التركانية الرومية ، فى كل بلد ومدينة وقرية ، ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدي الظلمة . والأخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم ، وتلك هى الفتوة . ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسُّرُج وما يحتاج إليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معاشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية ، فإن ورد فى ذلك اليوم مسافرٌ على البلد أنزلوه عندهم . وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وإن لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم ، فأكلوا وغنَّوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو (صباحا) وأتوا بعد العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم ، ويسمَّون الفتيان ، ويسمى مقدمهم - كما ذكرنا - الأخي . ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا منهم ، ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان (فى غربى إيران) إلا أن هؤلاء أحبُّ فى الوارد والصادر ، وأعظم إكراما وشفقة . وفى اليوم الثانى من يوم وصولنا .. أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحموى (رفيق لابن بطوطة) وتكلم معه باللسان التركى ، ولم أكن يومئذ أفهمه (إذ تعلَّم فيما بعد) وكان عليه أثواب خَلْفَة ، وعلى رأسه قلنسوة بُد (صوف) فقال لى الشيخ أتعلَّم ما يقول الرجل فقلت : لا أعلم ما قال ، فقال لى : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك فجببت منه وقلت له : نعم . فلما انصرف قلت للشيخ : هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ولا نريد أن نكلفه ، فضحك الشيخ ، وقال لى هذا أحد شيوخ الفتيان الأخيَّة ، وهو من الخرازين (إسكافى) وفيه كرم نفس وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدَّموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار ينفقونه بالليل . فلما صليت المغرب عاد إلينا ذلك الرجل وذهبنا معه إلى زاويته ، فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثُرَيَّات الزجاج العراقى ، وفى المجلس خمسة من البياسيس ، والبيسوس شبه المنارة من النحاس ، وله أرجل ثلاث ، وفى وسطه أبواب للفتيلة ، ويُمَلَأ من الشَّحْم المذاب ، وإلى جانبه آتية نحاس ملأى بالشحم وفيها مقراض لإصلاح الفتيل ، وأحدهم موكل بها ، ويسمى عندهم الجراغجى . وقد اصطفى فى المجلس جماعة من الشبان ، لباسهم الأقبية وفى أرجلهم الأختاف (جمع خف) وكل واحد منهم متحزم ، وعلى وسطه سكين فى طول ذراعين ، وعلى رءوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى

طول ذراع وعرض إصبعين ، فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخاني (ضرب من الحرير) وسواه حسنة المنظر ، وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا في الغناء والرقص فرأنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحتهم وكرم أنفسهم ، وانصرفنا عنهم آخر الليل .

وبهذا الأسلوب المرسل في حبكة السرد ودقة الوصف تتميز كتابة ابن بطوطة في رحلته ، ويقول إنه كان بعد ضيافته في هذه الزاوية كلما نزل من بلاد الأناضول سأل عن الأخيَّة ، وأحيانا كانوا لا ينتظرون حتى يسأل عنهم ، بل يسرعون إليه ، وتتعارك جماعاتهم عليه . ويذكر صناعاتهم وحاكم كل بلدة ومن حوله من الفقهاء والعلماء وما منحه من الهدايا والصلوات ، ودائما - كعادته في كل بلدة نزلها - يذكر حكايات النسك ومن فيها من أصحاب الكرامات المسمون بالأولياء . ويتنقل إلى شبه جزيرة القرم وبلدان مغول القفجاق وسلطانها : محمد أوزبك وذهابه لزيارته في عاصمته « السرا » شمالي بحر خوارزم وكان معسكرا بجيشه قريبا منها ، وركب إليه مع حاكم شبه جزيرة القرم عربة تجرها الجياد « وعلى العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق ، وهي خفيفة الحمل وتكسى بالبد (الصوف) أو الملف (الجوخ) ، وفيها طيفان مشبكة ويرى الذي بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب ، وينام ، ويأكل ، ويقرأ ، ويكتب وهو في حال سيره » .

ووصل إلى معسكر السلطان وقال إنه يشبه مدينة عظيمة تسير بأهلها ، ففيه المساجد والأسواق والمطابخ ، وكل ذلك تحمله وتجره العربات . ودخل على السلطان محمد أوزبك فأكرمه . ويعدده من أعظم ملوك الدنيا ، ويصف مجلسه الذي كان يتخذ في كل يوم جمعة بعد الصلاة يقول : « إنه يجلس في قبة تسمى قبة الذهب ، مزينة بديعة ، وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفي وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورءوسها مرصعة بالجواهر ، ويقعد السلطان على السرير ، وعلى يمينه زوجتان وكذلك على يساره ، وكلما جاءت إحداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير ، وهذا كله على أمين الناس دون احتجاب » . ويفيض في الحديث عن كل زوجة وجواريها ، ومما ليكها وما أهدينه . ويعرف السلطان رغبته في زيارة بلدان البلغار فيرسل معه من يهديه الطريق ، وحاول أن يدخل في إقليمي ويسوا ويورا (روسيا) في شمال البلغار حتى المحيط المتجمد الشمالي ويسميها أرض الظلمة . ويعدل عن ذلك لعظم المثونة . ومن طريف ما قاله عنها مما سمعه من الناس : أن السفر إليها لا يكون إلا في عجالات صغار تجرُّها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت فيها قدم آدمي ولا حافر الدابة ، والكلاب

لها الأظفار فتثبت أقدامها في الجليد » . ويصف العجلات التي تجرها الكلاب ومسيرتها . فحتى ما يسمعه عن بعض الأقاليم يعرف كيف يقصّه بدقائمه . وتزور إحدى زوجات محمد أوزبك أباهما ملك القسطنطينية فيرسله في رفقتها يتجول في بلدان تلك الدولة ، ويعود إلى حاضرة السلطان ، وينوبه بفتية يسمى نعمان الدين الخوارزمي كان السلطان يزوره كل يوم جمعة فلا يقوم إليه ويقعد السلطان بين يديه ويتواضع إليه والشيخ يترفع عليه حتى إذا حضره المساكين والفقراء تواضع لهم وكلمهم بالطف كلام .

ويطوف ابن بطوطة ببلدان سلاطين المغول في التركستان ويمر ببلدان خراسان وأفغانستان إلى الهند ، وعيناه الواسعتان ترصد وتسجل كل ما بها من أنهار وغروس وأشجار وجوب وفواكه . ويعرض سكانها بعاداتهم وحكامها وضيافتهم له . ويعجب لحرق الهندوس لموتاهم بالنار وتحريق النساء مع أزواجهن حين يموتون وتقربهم إلى إلههم بالغرق في نهر الكنج المقدس ، ولا يكتفى برواية ذلك بل يعرض في تفصيل مشاهد من ذلك عرضا بديعا . ويحتفي به الأمراء والقضاة والفقهاء في بلاد الهند حتى يصل إلى دلهي (دلهي) ويصف سورها ومزاراتها وجامعها ويذكر أن به ثلاث عشرة قبة وأربعة من الصحنون ، وفي صحنه الشمالي صومعة (مئذنة) لا نظير لها في بلاد الإسلام ورأسها من الرخام الخالص وتفاحاتها (رؤوس أعمدتها) من الذهب الخالص وسلمها واسع بحيث تصعد فيه القبلة . ويتحدث عن علماء دلهي ونسآكها وتاريخها منذ فتحها المسلمون وسلاطينها حتى سلطانها الأخير لأيامه محمد شاه ، كما يتحدث عن هذا السلطان وقصره ومجلسه وكثرة ما بخزائنه من الحلى والذهب ، ويقول إن سريره أو عرشه من الذهب الخالص وأن قوائمه مرصعة بالجواهر ، وأن طوله ثلاثة وعشرون شبرا ، وعرضه نصف ذلك ، وبطيل وصفه . ويخلع عليه الخلع السنّة وينعم عليه بوظيفة القضاء في عاصمته ، ويظل يتولاها ثمانى سنوات كما مرّ بنا . ويتحدث عن انتشار السحر في الهند ويذكر ما رآه من عجائب فيها . وينزل جزائر ذبية المهل (المديف) ويفصل القول عن سكانها وملابسهم وعاداتهم في الزواج وغير الزواج . ويتجه إلى الصين وينزل سومطرة أو بلاد الجاوة ويصف بعض أشجارها مثل اللبان والكافور والعود الهندي والقرنفل ، وفيها جميعا يقول :

« شجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك وأغصانها كأغصان الخرشف (الخرشوف) وأوراقها صغار رقاق ، واللبان صمغية تكون في أغصانها . وأما شجرة الكافور فهي قصب كقصب بلادنا ، إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ ، ويكون الكافور في داخل الأنابيب . وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط إلا أن قشره رقيق ، وأوراقه كأوراق البلوط سواء ولا ثمر له . وأما أشجار القرنفل فهي ضخمة ، والمجلوب منها إلى بلادنا هو العيدان ، والذي يسميه أهل بلادنا نور القرنفل فهو الذي يسقط من زهره وهو شبيه بزهرة النارج ، وثمر القرنفل هو المعروف في بلادنا بجوز الطيب ، رأيت ذلك كله وشاهدته » .

وينزل الصين ويقول : فى كل مدينة منها حى للمسلمين ينفردون فيه بسكانهم ومساجدهم ، ويقول إن لكل شخص من أهل الصين عكازاً يعتمد عليه فى المشى ، ويذكر أن الحرير عندهم كثير جداً وأنهم لا يتبايعون بالدينار والدرهم إنما يبيعهم وشراؤهم بورق كل قطعة منه بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان (وهم بذلك أول من تعامل بأوراق نقدية) ويتنوع بيراعتهم فى التصوير ويطيل الحديث فى ذلك ، وقال إنهم يتخذون بيوتا لذوى العاهات . ويقص ما شاهده من عجائب هناك . ويعود من الصين إلى موطنه بعد أن أدّى فريضة الحج ، ويرحل رحلته الثانية إلى الأندلس ثم رحلته الثالثة إلى السودان الغربى على المحيط الأطلسى .

والرحلة تصور العالم الإسلامى فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى أروع تصوير لا بقلم كاتب كبير فحسب بل بريشة فنان بارع وقد اهتم بها المستشرقون فنشروها مع ترجمتها للغاتهم كما نشروا منها قطعاً أو أقساماً مع ترجمتها والتعليق عليها .

(د) محمد^(١) بن على الفشتالى

من قبيلة فشتالة التى كانت تنزل فى الشمال الغربى لمدينة فاس ، وهى قبيلة صنهاجية وقد ولد بها سنة ٩٥٦ هـ/ ١٥٤٩ م وتركها مبكراً للترود من حلقات العلماء فى فاس ، وتفتحت موهبته الأدبية سريعاً ، فكان شاعراً كاتباً وعمل فى دواوين الدولة السعدية ، وعرف المنصور الذهبى فضله ، فما زال يرقى به حتى أسند إليه رئاسة القلم بديوانه ، واستعان فيها ببلديّه ومواطنه عبد العزيز الفشتالى ، وهو يثنى عليه كثيراً فى كتابه : « مناهل الصفا » وكان المنصور الذهبى يأنس إليه ، ففسح له فى مجالسه الأدبية والعلمية وشارك فيما كان بها من مساجلات ، وكان ما يزال ينظم فيه مدائح بديعة فى مقدمتها مولدياته التى كان يلقيها فى احتفال المنصور بالمولد النبوى الشريف ، وفيه يقول أحمد بن القاضى فى كتابه : درة الحجال : « وزير القلم الأعلى الأديب البليغ الشهير الذكر بالمغرب ، وهو علم فى الفضيلة والسراوة^(٢) ومكارم الأخلاق وكرم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحزمة ، على الهمة ، كاتب بليغ أديب شاعر ، حسن الخط ، فصيح اللسان ، مؤثر لأهل العلم والأدب » . ويذكره فى كتابه المنتقى مراراً بمثل قوله : « وزير القلم الأعلى ، وحائز القدح^(٣) ، المعلى ، الكاتب الأعظم ، والخضّم المفخّم ، الناظم النائر ، وحائز قصبات السبق فى الدفاتر » . وكلفه المنصور الذهبى بسفارة إلى الخليفة العثمانى مراد بن السلطان سليم فأداها على خير وجه ، وتعرف فى أثناء ذلك على الخفاجى

(٢) السراوة : الشرف .

(٣) القدح المعلى : أكثر أقداح القمار نصيباً ويكنى به المكاة الرفيعة .

(١) انظر فى ترجمة محمد بن على الفشتالى كتاب درة الحجال ١٩٠/٢ والمنتقى ٣٢٩/١ وريحانة الألبا للخفاجى ص ١٤٨ - ١٦١ والنبوغ المغربى ٢٧٥/١ لكون وكتابه رسائل سعدية والوافى ٦٩٢/٣ .

صاحب كتاب الريحانة وانعقدت بينهما صداقة مما جعل الخفاجي - وقد أعجب به - يترجم له في كتابه ، وفيه يقول : « وزير مولاي أحمد (المنصور) أديب فاس ، وريحانة فضلائها الأكياس^(١) » ، تقدم فيها متقلدا قلادة إنشائها ، فائقا برسائله على سائر أدبائها .. وله ماء شعر تشربه أفواه الأسماك ، ورياض منشور تغرّد حمامه بمطرب الأسجاع . ويحتفظ كتاب « رسائل سعدية » بكثير من رسائله إلى البلدان المغربية وباشوات الدولة العثمانية ووزرائها والجيش الجزائري . ويقول الأستاذ كون في تقديمه لتلك الرسائل إن لمحمد بن علي الفشتالي منها ١٨ فصلا ومكتوبا ، من ذلك رسالة إلى أهل فاس أهل الحضرة السعدية يخبرهم فيها بفتوح السودان سنة ٦٩٨ للهجرة قائلًا^(٢) :

« أما بعد حمد الله الواسع الجود والعطاء ، المصرف الأقدار على حكم السرعة من إرادته والإبطاء ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي سنّ تجهيز البعوث لتدوين الأقطار ، بتوالى تكاثف القبائل والقطار^(٣) ، والرضا عن آله وصحبه الذين اقتنوا من ذلك أوضح سبيل ، واغتموا نشر نسيمه البليل ، والدعاء لهذا الأمر الكريم (الفتح) بما يزيد عزّا وظهورا ، ويجعله في عين الوجود نورا ، فإنّا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية ، ومجمع المفاخر القرية والقصية : حمراء مرأكش ، حرسها الله . هذا وأنا ننهي إليكم - عزفكم الله عوارف آلائه الجسم ، وأطلع عليكم أوجه البشائر واضحة القسام - بأنه لما انصبّ عزمنا الميمّن في سالف التاريخ ، وتأتى هيمنا العلية لتدوين بلاد السودان بأنمّ وجوه التدوين ، وجّهنا من عساكرنا الكثيفة ، ذات الأنفس الأبية المنيفة^(٤) ، جملة يتكفل معها الإسعاد ، بكمال المراد ، ونبذة نُشرت عليها من ألوتينا الظافرة كلّ فتحاء^(٥) قاهرة ، أطارها اليمّن كلّ مطار ، ولجج بها الإقبال لجج القفار ، تخوض الأ^(٦) تراكم أمواجه ، وتفتح بابا طالما طلسم رتاجه^(٧) ، فافتحم العساكر أحياء وجللا^(٨) وارتنى من المهابة وبعد الصيت برودا وحللا ، حتى أدخل ريقه^(٩) طاعة هذه الإيالة^(١٠) من الشعوب الصحراوية ، والقبائل الوبرية من أعاريب الكراع^(١١) ، التي لم ترتض بولايته ولا طاعته ، جموعا كثيرة ينتهى التعداد بهم على حكم ما أدّوه من الزكاة الشرعية لسته وأربعين ألف خيمة . وهذه الجملة بالنسبة إلى ما وراءها من القبائل العربية الوحشية بعض من كلّ ، وجزء من جلّ . وانتهى الغوص والإبعاد ، بما وجّهناه من الأجناد ،

(١) الأكياس ، جمع كيس : الحضيف .

(٢) رسائل سعدية ص ١٩٢ .

(٣) القطار : قوافل الإبل على نسق منتظم .

(٤) المنيفة : التمامية .

(٥) فتحاء : عقاب .

(٦) آلا : سرايا .

(٧) الرتاج : الباب العظيم .

(٨) الحلال جمع حلة : مجتمع البيوت والناس .

(٩) ريقه : حبل .

(١٠) الإيالة : إقليم من أرض الدولة .

(١١) الكراع : عدة الجيش من الخيل والسلاح .

بعد مَقَرَّةٍ من ثمانين مرحلةً في المفاوز الصعبة المجاز إلى بلاد السودان ، والأحشاء التي جَنَّا^(١) طاعتها لهذه الإيالة - إن شاء الله - دان ، فتناهضت أجناسهم للدفاع ، بحكم التأليف والاجتماع ، بما يتيف^(٢) على أربعين ألف مقاتل ما بين حشود الأعراب وأخلاط الأتباع ، وجيوش السودان ، فانتفخ هِرْهُم لِيَصُولَ ، وانتفض بُوْمُهُم يشير للعقبان بالنزول ، فما كان إلا اجتماع الفريقين ، وتدافع الجانبيين . والغرض أن أنصار هذه المثابة وحُماتها قد مَسَّهُم النَّصَبُ بأوجه التأثير ، وأفنى جُلَّ خيلهم مواصلة المسير ، حتى إنهم لم يتوفَّر من أعدادهم حين الالتحام ، مع الأشقياء أبناء حام ، سوى سبعمائة رام ، وقُرْبَ عشرين فارسا ، وكان كلهم بالمكافحة والمنازلة ممارسا ، فهبَّ عليهم من رياح النصر كل صَبَا ، واتخذوا الشهامة والجِلَاد سبيلا ومذهباً ، فخفقت الألوية العلوية بالنصر والظَّفَر ، وانْبَتَّ^(٣) - بحمد الله - سَيْلُ انتظامهم وانتشر ، وأتى الحَيْنُ والأسْرُ على جموعهم في الحَيْنِ ﴿ فَقَطَعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وإنما ذكرنا هذه الرسالة يتامها لنذل على أسلوب محمد بن علي الفشتالي المسجن ، وأنه كان يمتلك ناصية اللغة بما يؤلف من الألفاظ المصقولة الرصينة ، كما كان يعنى أحيانا بالجناس والاستعارات الملائمة كاستعارة العقبان لجنود جيشه ، وعبر عن سلوكهم الصحراء الجنوبية بأنهم « فتحوا باباً طالما طُلِسَ رتاجه ، فاقنحم العسكر أحياء وحِلَلا ، وارتدى من المهابة ويُعد الصَّيْتُ برودا وحُلَلا » . ويقول عن أهل السودان الغربي في محاولتهم منازلة جند المنصور : « انتفخ هِرْهُم وانتفض بُوْمُهُم يشير للعقبان (جنود المنصور) بالنزول » . ولعل في هذه الاستعارات وما يماثلها في الرسالة ما يدل على أن الفشتالي كان يمتلك ذهنا خصبا . ومن رسائله رسالة بلسان المنصور يعزى فيها رئيس وزراء الدولة العثمانية سنان باشا في وفاة السلطان مراد خان ، وهي تستهل على هذه الصورة :

« الوزارة العظمى التي تُجَالُ بأنظارها المسددة قِداح التدابير الجلائل ، والمنزلة التي لها وفور الاختصاص من أثره^(٤) الإيالة العثمانية بأوضح الدلائل ، والمكانة التي ضَعُضَتْ عروش عظماء المشركين وطأطأت رؤوس رؤساء الكفار ، والقطب الذي عليه في دولة بني عثمان أعظم المدار ، الوزير الأجل ، الأعظم ، الأفخم ، الكبير ، الخطير ، الأشمخ ، الأرسخ ، الأطول ، الأكمل ، المتبَر ، المشتهر ، الحظي ، السَّري^(٥) ، الأقرب ، الأنجب ، الأثير ، الشهير ، الأخص ، الأخلص ، الأسعد ، الأصعد ، الأرقى ، الأنقى ، الأظهر ، الأطهر ، المثيل ، الحفيل^(٦) ، سنان باشا أبقي الله حوزته^(٧) محروسة ، وربوعه بالمسرات مأنوسة ... هذا

(١) جنا : ثمر .

(٢) يتيف : يزيد .

(٣) انبت : انقطع .

(٤) أثر : خلاء .

(٥) السري : الشريف .

(٦) المثيل : الفاضل . الحفيل : الخفي به .

(٧) حوزته : دياره .

وقد طنَّ بهذه الأقطار ، نبأً فظيع التذكار ، فَنَّتْ الأكباد ، وأذكى^(١) - على التناثي - لواعج
 القواد . حَظَّبْ جَل ، ورزءٌ قَلْ ظُباً^(٢) الصَّفاح والأسل ، ذلكم ما نزل به القضا ، وانتهى
 فيه الأمد وانقضى ، وهو انتقال السلطان الجليل الضخم ذى البَسْطة فى السلطان ، والملك
 الموطَّد بتمهيد الأركان : الخاقان^(٣) الأعظم ، والشاهق الأعصم ، السلطان مراد بن السلاطين
 الكبار .. وليس بمستنكر كونه - رحمه الله - لأهل التوحيد يدا ، ولهم المسلمين مددا ..
 وإنا لله وإنا إليه راجعون من مواراة الخفر منه بدرا طالعا ، وإغمارها سيفاً كان فى حماية الدين
 قاطعا ... واللجأ فيه إلى الصبر الجميل ، والضراعة إلى الله فى الجزاء الجزيل ، علماً أن لابقاء
 لمخلوق مع تهىء رواحل الليالى والأيام .

وهذه الرسالة بدورها تصور مهارة محمد بن على الفشتالى فى صوغ السجع ، وقد نعت
 سنان باشا فى أوائلها بنعوت متوالية جعلها جميعها مسجوعة ، فكل نعت يقترب بأخيه ، فى
 سجعات متعاقبة تكثر فيها الجناسات كما تكثر الاستعارات . ومضى فى الرسالة بعدما اقتبسناه
 منها يهين سنان باشا بتولى السلطان محمد بن السلطان مراد كرسى السلطنة العظمى بعد أبيه ،
 فقد آسى^(٤) الدهر به . وبين رسائله رسالة على لسان المنصور إلى بدر الدين القرافى شيخ
 المالكية فى مصر ، وكان كثيرون من طلاب الفقه المالكى وشيوخه فى المغرب يزورون القاهرة
 للاستماع إلى محاضراته ويحملون عنه مؤلفاته ، ومن قول الفشتالى فى نعوته التى جعلها مقدمة
 لرسالته إنه « العمدة الراسخة البناء فليس إلا فى باب نعم اشتغاله ، والفذ الذى ما جرى التنازع
 فى الفهوم الدقيقة من أعراف النقدة الشوامخ ، إلا جاءت آيات غَوْصه وتحصيله لشبه الجموع
 نواسخ » وقد تصنع لإدخال بعض مصطلحات نحوية فى هذه السجعات هى : باب نعم
 والاشتغال والتنازع والنواسخ . وثلثى فى الرسالة بطرائف استعاراته ، ويذكر عن
 المنصور إقامته للرسوم الشرعية ، والشعائر المرعية ، وجميل الالتفات للمتفقه فى الدين والحملة
 الرواية فى حفظ سنة سيد المرسلين . وحقا نهض المنصور بالمغرب الأقصى نهضة علمية
 وأدبية كبرى ، مما جعل حلقات العلماء تزخر بالدروس والطلاب . وتنتهى الرسالة بقول
 المنصور :

« وهؤلاء خدام جنابنا العلى واردون على تلکم الديار برسم جلب ما لعلکم تستفرون فيه
 الوُسع من الكتب لخزائننا العلمية الحافلة .. وأما التشوق لموضوعکم (لشرحکم) على مختصر
 خليل فشئ لا يكيف ، ومعهود لا يحتاج أن يعرف ، وبودنا أن يكون من خزائننا الحافلة
 بحيث المراجعة والمعاهدة ، والحضور والمشاهدة . »

(١) أذكى : أوقد .

(٢) الخاقان : لقب سلاطين الترك .

(٣) آسى : عزى رواسى .

(٤) ظبا الصفاح والأسل : حد الرماح والسيوف .

والمصور فى هذه الخاتمة لرسالته يقول للقرافى شيخ المالكية فى مصر أنه مرسل له ببعثة علمية ليتتقى لها كتباً نفيسة ، مما ينبغى أن لا تخلو منها مكتبات فاس ، ويسأله أن يرسل إليه بمؤلفه أو بشرحه على مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى ، وكانت له شهرة مدوية فى البلاد المغربية . ولعل فى كل ما سبق ما يدل - بوضوح - على أن محمد بن على الفشتالى كان كاتباً بارعاً ، وكانت وفاته سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٣ م .

(هـ) محمد^(١) بن الطيب العلمى

من الكتاب الشعراء فى أوائل عصر الدولة العلوية ، لا يعرف تاريخ مولده ، ولكن يعرف تاريخ وفاته إذ توجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج ، وفى الطريق صعدت روحه إلى بارئها فى القاهرة سنة ١١٣٤ هـ / ١٧٢١ م وهو تلميذ الشاعر ابن زاكور وحامل لواء الأدب المغربى بعده لا فى فاس مسقط رأسه وحدها بل فى المغرب الأقصى جميعه . ومثل لداته التحق بكتاتيب فاس لحفظ القرآن الكريم ، ثم أكبَّ على حلقات العلماء فى جامع القرويين ، وتفتحت موهبته الأدبية مبكراً ، فنظم الشعر ، وأنشأ قصائد مدح للسلطان إسماعيل ، وطارت شهرته لا لما كان ينظم من أشعار فحسب ، فقد كان يجيد نظم المسمطات والموشحات كما كان يجيد التأليف الأدبى على نحو ما يتضح فى كتابه « الأنيس المطرب فىمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب » وقد عرض فيه اثنى عشر أديباً من معاصريه ، لعل أشهرهم أستاذه ابن زاكور ، وفيه يقول :

« وحيد البلاغة ، وفريد الصياغة ، الذى أرسخ فى أرض النصاحة أقدامه ، وأكثر وثوبه على حل المشكلات وإقدامه ، فصرف فى الإنشاء ، وعطف إنشاءه على الأخبار وأخباره على الإنشاء ، وقرع^(٢) الرجال ، فى ميادين الارتجال » . وله بجانب هذا الكتاب الطريف رسائل شخصية يزينها بسجعاته وما يختار لها من أشعار وبجناساته واستعاراته إذ كان أديب عصره غير منازع ولا مزاحم ، وإحدى هذه الرسائل موجهة إلى صديقه محمد بن العربى الشرقى ، وفيها يقول :

« بعد ما تستحقه تلك السيادة ، الممنوحة بالحسنى وزيادة ، من السلام الذى طابت نفحاته ، وطالت غدواته وروحاته .. فإنه لما طال أمد الفراق ، وبلغت الروح التراقي وظن أنه الحين وقيل : مَنْ راقٍ ، فكرت فىمن يفك من يد الأشواق أسرى ، ويجبر بين الأصحاء كسرى فقلت :

وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالليل لم يسر

(١) انظر فى ترجمة ابن الطيب العلمى ورسائله ومقاماته
النويع المغربى ٣٢٤/١ و ٢٢١/٢ والوافى ٧٨٩/٣
(٢) قرع الرجال : فاز عليهم .
والدكتور الأخضر ١٧٧ .

فما عثرت بعد معاناة البين ، ومعاناة الدهر المفرق بين المحبين ، إلا على بعض درر من كلامك ، استخرجت من بحور مددك بمداد أقلامك ، كنت ادخرتها عن القوم ، لئلا يلهو هذا اليوم :

تفقدتها بعد السرور بكونها وفي الليلة الظلماء يُفتقدُ البدر
فما زالت تذكّرني أيام الوصال ، وتقطع من غرائب البين وتخرسه إن صاح أوصال :
ذكرت بها بعد التفرق ما مضى زمان النقا والشيء بالشيء يُذكرُ
إلى أن استولت على يد الضياع ، وأعقبت لي ذلك الأمن بالارتياح ، فأصبحت من فراقك
ملتاعا بلوعتين ، واحترقت بجمرتين ، والتدغت من جحر مرتين :
وكنت كذى رجلين رجل مريضة ورجل رمادا الدهر يوما فشلت
غير أن الآمال كانت تشوّفني^(١) ، والليالي لكبابك تشوّفتني ، فكنت أصدق فيك الأوهام ،
وأعدّ حديثها من الإلهام :

صدقتُ وهمي في الحديث ولم أقل خبر رواه الوهم وهو ضعيفُ
وهو في مطلع رسالته يقتبس من سورة يونس : (الحسنی وزیادة) كما يقتبس من سورة
القيامة : ﴿ إذا بلغت التراقي وقيل : من راق ﴾ ، ويتأثر بالحديث النبوي : « لا يلدغ المؤمن
من جحر مرتين » ويتمثل بأبيات تتضح فيها راحة ذوقه وبصره بالشعر العربي ودقة اختياره ،
ولغة الرسالة وأساليها تكثظ بالسلاسة والعذوبة ، مع ما يشيع فيها من الجناسات والطباقات
والاستعارات . وكل ذلك يرفع من نثره وبلاغته فيه . ومن آثاره النثرية مقامة بديعة سماها
« مقامة الحجام » رواها عن بعض الطرفاء وأنا أوجزها في السطور التالية :

استهلّها بأنّه جلس يوما مع جماعة من الأحباب .. يتذكرون ما مرّ في أيام الشباب ،
وكان بينهم شاب حسن الصورة إلا أنّ شعر شاربه طال ، واسترسل غاية الاسترسال ، فسأله
عن سبب طول شاربه ، فقال لهم : أنا أخيركم بخبر عجيب ، فقد صلّيت يوما صلاة الاستخارة ،
فوجدتني مائلا إلى التجارة ، فقصدت مدينة سنجار ، وفتحت بها حاتونا بسوق التجار ، لبيع
القماش ، والاستعانة به على المعاش ، وزيّنت الدكان ، وكسوته الستائر على أربعة أركان .
فحاول يوما دخول الحمام ، فوجد في طريقه جماعة من النسوة بينهن فتاة جميلة ، فتبعته
حتى دخلت دارا أنيقة ، ورأى أمام الدار خياطا يخطط الثياب في دكان . ويذكر الشاب أنّه
احتال على عقد صلة بينه وبين الخياط ، ونجح في عقدها ، فأنبأه أن أباه خطيب البلد ، وهو
كثير المال وليس له من أولاد سواها وخطبها كثيرون ، وردّهم ولم يسمح لها بالزواج ، وتلطف

(١) تشوّفتني : تجعلني أتطلع وأطمح .

له الشاب حتى أنس به ، فدلّه على عجوز مشهورة فى تزويج الفتيات ، ولقيته العجوز ، فوعدها بمال وتحف كثيرة إن هى نجحت فى وساطتها . وغابت عنه فترة وعادت إليه بعد شهر ، فأياسته منها ، فقال لها إني لا أريد منها سوى قُبْلَتَيْن ، وأعطاهما من الذهب ما أرضاها ، فعادت إلى الوساطة عند أم الفتاة ، وأتعتها بقاء الشاب المقيم لابنتها ، واتفقا على أن يزورها فى صلاة إحدى الجمع وأبوها مشغول عنها فى المسجد . وفى يوم الجمعة المضروب دخل عند حجّام ليستتم حسن مظهره ، فوجد الحجّام شاربه طويلا فقصّ أطرافه ، وبدلا من أن يعطى الشاب الحجّام درهما أعطاه لارتبائه دينارا ، فطار صوابه ، وخرج وراءه ، ولازمه ولاصقه طامعا فى دنائره حتى إذا دخل دار الفتاة ولول الحجّام وصاح ولم يزل يصرخ ويستغيث ، ويقول ألا منجد ألا منجد ألا مغيث والعجوز راجفة والبنت واجفة^(١) ومثلها الأم ، واجتمع الناس والحجّام يصيح : يا سيده ، يا مولاه ، وخرج الناس من صلاة الجمعة وتجمع الناس عند الدار ، ووصل الخبر إلى خطيب البلد فحضر ، وسأل الحجّام ما الخبر ؟ فقال له إن سيدى دخل إلى هذه الدار ومعه كيس فيه ألف دينار فطمعوا فيه فأدخلوه وقتلوه . ووجد الشاب فى الدار بئرا فرمى نفسه فيها ليختبئ عن عيون الناس ، ودخل الخطيب الدار ومعه الحجّام يبحثان عن الشاب ، وعرف الحجّام مخبئه فى البئر ، فسأل الخطيب أبو الفتاة الشاب عن سبب دخوله الدار ، فأجابه بمؤمّا عليه : دخلت لكى أسرق ، فحُمِل إلى الوالى على أقبح حال وأسوأ شان ، وأمر بسجنه ، وبقي فى الحبس سنة . وكان المساجين يعرضون كل عام على السلطان فى شهر رمضان لينظر فى أمرهم ، وعُرض عليه الشاب فسأله عن الأمر الذى حُبِس من أجله ، فقال له ، إنها قضية أذكرها بين يديك لتحكم فيها ، وذكر له حكايته على وجهها الصحيح ، فأمر برد ماله كما أمر الخطيب أن يزوجه من ابنته ، ودفع له الصداق . وسلم الحجّام للشاب فصلبه على باب داره . ثم قال : وأنا من هذا الحين لا أقص شاربى أبدا .

وقارن الأستاذ محمد بن تاويت بين عناصر هذه المقامة لابن الطيب العلمى وبعض عناصر المقامة السنجارية للحريرى ، ولاحظ كثيرا من التشابه بين عناصر المقامتين حتى فى بعض العبارات والصيغ ، ونجد ابن الطيب العلمى يذكر عن بطلها أنه قصد مدينة سنجار بقصد التجارة ، وهى المدينة التى عقد عليها الحريرى مقامته السنجارية . ومقامة العلمى لا تدور على الشحاذا الأدبية مثل مقامة الحريرى . وقد أخلاها - كما ذكر الأستاذ ابن تاويت - من الألفاظ الغريبة الكثيرة التى استظهرها الحريرى فى مقامته ، وأجرى فيها روح الفكاهة مع السلاسة والعدوبة على نحو ما يبدو فى القطعة التالية المقتطفة من أوائلها :

(١) واجفة : مضطربة .

« اتفق لى فى بعض الأيام ضرورةً إلى دخول الحمام ، فوجدت فى طريقى جماعة من النسوان ، بينهن فتاة كأنها قضيب البان ، فلمحت من تحت الإزار معصمها وقد سطع صفاؤه ، وأبصرت من تحت النقاب جسمها وقد لمع ضياؤه ، فوقفت وقد جرى من الجفون الدم ، وعجزت عن نقل القدم ، ثم تبعتها من بعيد ، ولاحظتها إلى أين تريد ، فدخلت دارا يدل إتقان بابها ، على سعادة أربابها ، ونظرت فإذا بالقرب من ذلك المكان ، خياط يخطط فى دكان ، وعنده من الصناعات والأعوان ، ذوو أذقان ومُردان^(١) ، صِنوان^(٢) وغير صنوان ، فقلت فى نفسى : من هذا الخياط أستفهم ، عما على أبهم . فرجعت إلى دكانى ، ثانياً عنائى ، وأحضرت عِدَّةً من التفاصيل ، وجئت بها إلى حانوت الخياط بقصد التفصيل ، فجالسته وحاورته وآنسته ، وفصلت ذلك القماش ، وعجلت له من الأجرة ما يحصل به الانتعاش ، ففرح بمحضورى ، واعتنى بأمورى ، ووجدت عنده معرفة بالأدب ، وشكا إلى من ضيق الحال والسَّغْب^(٣) ، وأنشدنى لنفسه من شعره المستعذب :

أنا الخياطُ لى رزقٌ ولكن أرى حالى من الإفلاس عِبرَه
ذراعى فيه من فقرى مِقْصُ ورزقى خارجٌ من عَيْنِ لُبرَه

فاستحسن نظمها ، وحملت همَّه وسألته عن صنَّاع دكانه ، وديار جيرانه ، فمازال يشير إلى كل دار ويشرح حالها ، ويعرِّفنى تفصيلها وإجمالها ، حتى أفضى الحديث إلى الدار التى أختارها ، وقصدى أن تتضح لى أخبارها ، فقال : هى دار خطيب البلد ، وهو رجل كثير المال قليل الولد ، مشهور بالتوفرة الزائدة ، ولا له من الأولاد إلا ابنة واحدة ، وهى روحه التى بين جنبيه ، والسواد الذى فيه نور عينيه ، وقد منعها الأزواج ولم يسمح لها بالزواج .
والمقامة تجرى بهذه الروح الفكهة التى ترسم الابتسامة على الشفاه ، وهى سجع خالص ، سجع قصير يحدث ضرورياً من التلاؤم الصوتى بين العبارات ويحسن جرسها ووقعها فى الأسماع ، حتى لتنساب انسياب الجدول الرقراق المتدفق بالماء العذب القراح .

(١) مردان : جمع أمرد : شاب .

(٢) صنوان : شقيقان أو منمائلان .

(٣) السَّغْب : الجوع .